المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

**نموذج رقم (٨)**

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

| الاسم رباعي | ابتسام بنت محمد صالح كشميري | كلية | الشريعة والدراسات الإسلامية |
|---|---|---|---|
| قسم | الدراسات العليا التاريخية والحضارية | التخصص | تاريخ حديث |
| الأطروحة مقدمة لنيل درجة | الدكتوراة | | |

عنوان الأطروحة : مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد . .

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٠ / ٨ / ١٤٢٣هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة :

| المقرر | المناقش الخارجي | المناقش الداخلي |
|---|---|---|
| الاسم: أ.د. يوسف بن علي الثقفي | الاسم: أ.د . أحمد حسين العقبي | الاسم: د.عمر بن سالم بابكور |
| التوقيع : | التوقيع : | التوقيع : |

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ . د . يوسف بن علي الثقفي

Makkah Al Mukarramah P. O. Box : 3517
Tel : 5280707
Tel : 5270000

مكة المكرمة ص . ب : ٣٥١٧
هاتف مباشر : ٥٢٨٠٧٠٧
سنترال : ٥٢٧٠٠٠٠

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية







# مكة المكرمة

## من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

## ( ٩٢٣ - ١٠٠٠ هـ ) / (١٥١٧ - ١٥٩١م)

## دراسة سياسية - حضارية

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

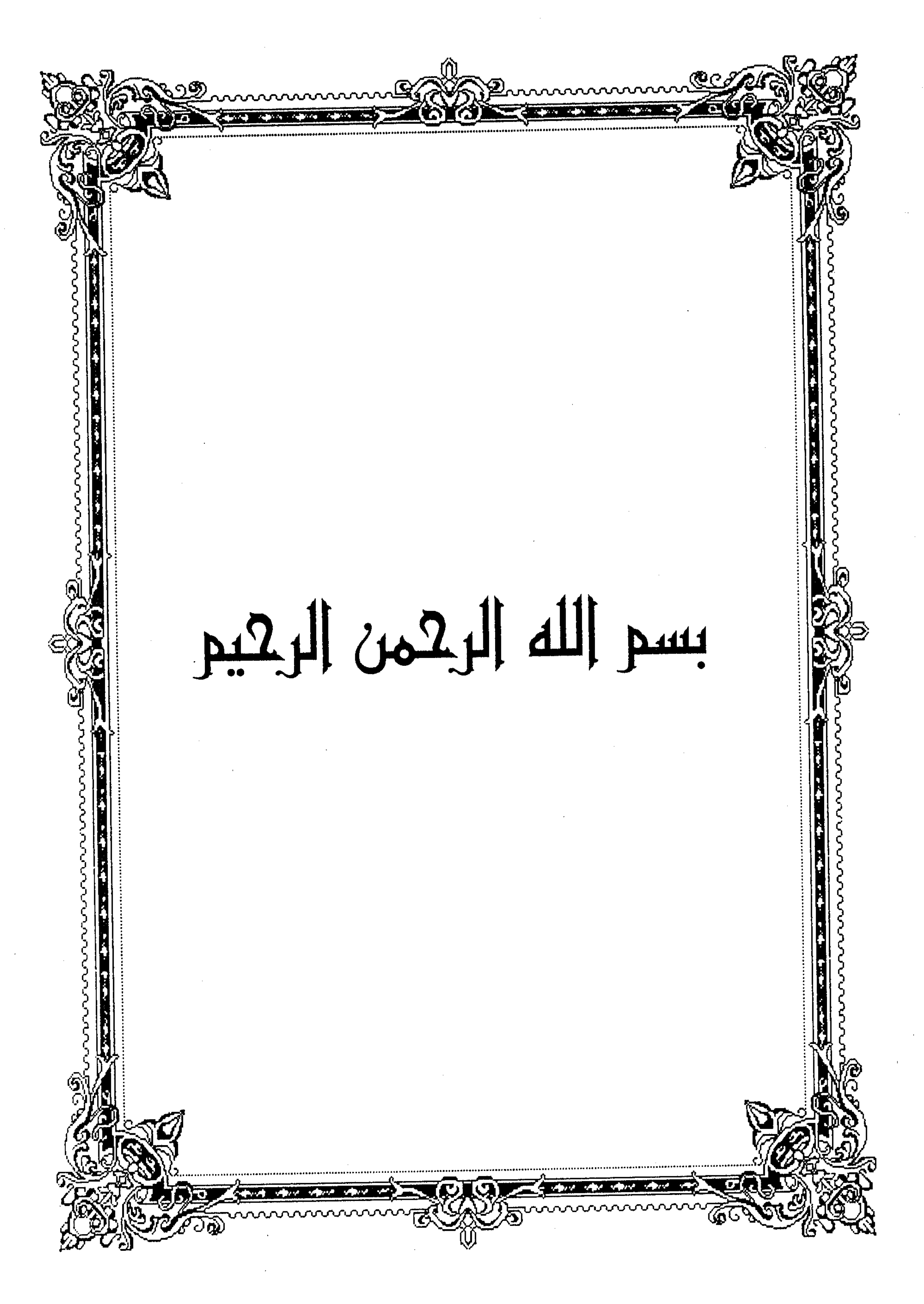
إعداد الطالبة

إبتسام بنت محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري

إشراف

الأستاذ الدكتور يوسف بن علي بن رابع الثقفي

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

## المستخلص


تبرز رسالة « مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ( ٩٢٣ - ١٠٠٠ هـ / ١٥١٧-١٥٩١م ) دراسة سياسية - حضارية » علاقة مكة المكرمة مع العثمانيين وغيرهم في هذه الفترة من تاريخها وبالتغيرات التي أدخلها العثمانيون على الجوانب الإدارية والحضارية الأخرى في مكة وأثر ذلك على تقوية النفوذ العثماني فيها وذلك خلال الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية في قمة عصرها الذهبي .

وقد أوضحت الدراسة أن علاقة العثمانيين وغيرهم من القوى السياسية بمكة كانت تخضع دائمًا لتأثير عاملين مهمين شكلا التاريخ المكي وهما المكانة الدينية لهذه المدينة المقدسة وطبيعتها الجغرافية .

فسياسيًا يبدو دور العامل الديني جليًا على السياسة العليا الإقليمية والعالمية للدولة العثمانية قبل وبعد انضمام مكة إليها مما جعل مكة تلعب دورًا سياسيًا كوسيط بين العثمانيين والقوى الموالية لهم .

وأما إداريًا فقد أبقى العثمانيون على قاعدة توازن القوى الحاكمة لكنهم زادوا الأطراف المتنافسة فيها بما أدخلوه من أنظمة إدارية ومنها الأنظمة القضائية والمالية مثلاً. وخضعت النواحي الحضارية الأخرى للاعتبارين السابقين حيث عني العثمانيون بالنشاط العلمي والعمراني والاقتصادي وبالخدمات المقدمة للحجاج .

ولقد حرصت الدولة العثمانية على القيام بمهام واجباتها في مكة المكرمة تحقيقًا لهدف كانت تسعى إليه وهو زعامة العالم الإسلامي وذلك من خلال حماية المقدسات وتيسير السبل إليها والبر بأهلها حيث عرفت مكة فترة من أطول فترات ازدهارها مع قرب نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كما كفلت الخدمات الحضارية التي قدمتها الدولة العثمانية للمنطقة في فترة البحث من إدارية وغيرها حضورًا عثمانيًا قويًا عوض عن نقص الحضور العسكري المباشر مما ينفي فكرة سطحية الحكم العثماني التي كانت تنسب إليه بل إن زيادة التغلغل السلمي العثماني في المدن المقدسة ومحاولة حصر نفوذ الأشراف في البوادي كان سببًا في توتر العلاقات بين الطرفين إلى نهاية حكم الدولة العثمانية .



| الطالبة | المشرف | عميد الكلية |
| --- | --- | --- |
| إبتسام كشميري | أ.د. يوسف بن علي الثقفي | د. عابد بن محمد السفياني |

# إهـــداء

إلى أحب بلاد الله إلى الله تعالى ،

وإلى رسوله عليه السلام ،

إلى مكة المكرمة .

جعل الله لي بك قرارا

ورزقني فيك رزقا حلالا

ابتسام

# شكر وتقدير

﴿ ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ . « النمل : ١٩ » .

وبعد ؛ يسرّني أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان لجامعة أم القرى ، الصرح العلمي الذي آويت إليه ونهلت من علمه ، والشكر موصول إلى عمادة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية متمثلة في عميدها أ. د. محمد علي العقلا المعروف بحرصه ورعايته لطلاب وطالبات الكلية في جميع مراحلهم الدراسية .

كما أشكر منسوبي قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية لما قدموه من دعم ومساعدة خلال فترة الدراسة .

وأقدم خالص الشكر والعرفان للمشرف على هذه الرسالة سعادة أ. د. يوسف بن علي الثقفي لما أفادني به من غزير علمه وما خصصه لي من ثمين وقته ولما أبداه من حسن توجيه وإرشاد وتفهم وتعاون طوال فترة إشرافه على عملي، وإلى المشرف السابق على هذه الرسالة أ.د عبد الجواد صابر إسماعيل .

كما أتقدم بالشكر لمركز أبحاث الحج التابع لجامعة أم القرى ولإدارة الأوقاف في مكة المكرمة لما تفضل به القائمون عليها من مدي بوثائق أثرت جوانب عديدة من البحث .

والشكر إلى كل من مد لي يد العون وفي مقدمتهم :

- المرحوم الشيخ حمد الجاسر لما أمدني به من مخطوطات وكتب قبل وفاته غفر الله له .
- الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان .
- الأستاذ الدكتور حسن محمد أحمد باجودة الأستاذ بكلية اللغة العربية والناظر الحالي على وقف أبي نمي .
- الدكتور نجاتي أقطاش .
- عضوات هيئة التدريس في قسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة وأخص منهن الدكتورة نورة بادياب .
- وإلى أهلي ومعارفي ممن ساندني ووقف إلى جانبي ومنهم إخوتي وزوجي واللواء/م عبد القادر كمال واللواء/م يوسف محمد فاضل ، والشيخ أحمد شافعي والأستاذة خديجة سنان قيانجلو مديرة مدرسة ذات النطاقين لتحفيظ القرآن الكريم بمكة ، والأستاذة سامية سعد زوجة الإعلامي الأستاذ علي داود لما تحملتاه من عناء إيصال قسم من الوثائق والمخطوطات من استنبول والقاهرة .

وفي الختام أتوجّه بعظيم الشكر وأوفره إلى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة على قبولهما مناقشة هذا البحث ، وما سيبذلانه في سبيل تقويمه ، راجيةً أن أكون أهلاً للإفادة من توجيهاتهما .

فلكل من ذكرت ولمن فاتني ذكره ممن أعانني بأي شكل من الأشكال أقدم خالص شكري وتقديري وامتناني . والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. أسأل الله أن يكونوا جميعًا من الساعين في خدمة العباد الآمنين يوم المعاد .

الباحثة

# المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه . أما بعد :

فإن هذه الرسالة تعنى بتاريخ مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي من النواحي السياسية والإدارية والحضارية .

فلقد أظهرت دور مكة السياسي في العالم الإسلامي قبل وبعد انتقال السلطة فيها إلى الدولة العثمانية . كما تتبعت التطور الذي أدخله العثمانيون على أنظمة الحكم وأثر ذلك على تقوية نفوذهم في المنطقة وعلى علاقتهم بإمارة الأشراف . وقدمت وصفًا للحالة الحضارية ، متناولة الأوضاع العلمية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية ، وعرّفت بما استجد على أنظمة قوافل الحج . مختتمة بعرض النتائج التي تحققت سلبًا وإيجابًا .

وأما أبرز أهداف الدراسة فهو التعريف بعلاقة مكة بالعثمانيين في وقت كانوا يتبوؤن فيه قمة عصرهم الذهبي ومدى تأثير مكانتها الدينية على السياسة العليا الاقليمية والعالمية للدولة العثمانية من جهة ، وتأثر هذه المدينة المقدسة بالنفوذ العثماني وتغلغله فيها إداريًا وحضاريًا من جهة أخرى مما ينفي فكرة سطحية الحكم العثماني التي كانت تنسب إليه . كما يوضح ما رسمه البحث من صورة متكاملة بقدر الإمكان للخدمات التي قدمها العثمانيون للمنطقة وما أظهره من شمولها وضخامتها أن ما حدث من تراجع في هذه الجهود فيما بعد إنما كان مرده ما لحق بالدولة من قصور مالي وضعف عم كل أجهزتها لا لطبيعة أنظمتها التي وصفتها الدراسات غير المتعمقة أو الاستشراقية بأنها أنظمة لا تعدو ما يقدمه الراعي للسائمة من حماية وحراسة .

وتنقسم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة .

وقد حوى **التمهيد** شرحًا للأوضاع العامة في مكة في نهاية حكم المماليك وما ترتب على ذلك من تصاعد النفوذ العثماني فيها .

وتطرق **الفصل الأول** إلى بيان دور مكة السياسي من حيث أثره على تطور العلاقات بين المماليك والعثمانيين الذي انتهى بدخولها تحت الحكم العثماني وجري بعد ذلك تتبع التعديلات والتطويرات المتوالية التي أدخلها العثمانيون على أنظمة الحكم في مكة والإشارة إلى ما يلاحظ من شمولها ومدى الاعتماد عليها في تقوية النفوذ العثماني وتثبيته في المنطقة .

أما **الفصل الثاني** فقد تم فيه تحديد دور مكة في العلاقات الدولية تحت مظلة العثمانيين وبعد توليهم زعامة العالم الإسلامي وبروزهم كقوة عالمية كبرى .

وحملت **الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس** دراسة للأحوال الحضارية في مكة في النواحي العلمية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية على التوالي وقد بدا فيها اهتمام العثمانيين برعاية العلم والعلماء وبإقامة المشروعات الانشائية الضخمة كمشروع تجديد عمارة بناء المسجد الحرام ومشروعات إيصال المياه إلى مكة وجهود تجاوز الأزمات الاقتصادية وما تطلبه ذلك من مساعدات عينية ومالية أسهمت في تخفيف حدة معاناة أهل الحرمين. كما اتضح من الدراسة الأثر الاجتماعي الذي تركه تغير بناء التركيبة السكانية تبعًا للتحولات التي شهدها العالم الإسلامي في تلك الفترة مع بيان طبيعة العلاقات التي ربطت بين مختلف طبقات السكان .

وقدم **الفصل السابع** تعريفًا بعناية العثمانيين بقوافل الحج القادمة إلى مكة ومن ذلك إعادة الإشراف الحكومي على سير قافلة الحج اليمني وما طرأ من تحسينات على إدارة وتنظيم سير قافلتي الحج الشامي والمصري وموقف العثمانيين من طريق الحج العراقي المباشر إلى مكة .

جـ

وأبرزت **الخاتمة** ملخصًا للموضوعات المدروسة مستخلصًا لأهم النتائج التي اتضحت بعد عرضها .

ولقد أدى تعدد الجوانب التي غطاها البحث واختلافها من سياسية وحضارية في فترة شهدت تغيرات وإضافات كثيرة في كل جانب إلى ضرورة الاستعانة بما يغطي كل ناحية على حدة من المصادر الوثائقية والمخطوطة وغيرها مما لا تخفى صعوبته وتكلفة الحصول عليه كما تطلب العمل فيها جهدًا مضاعفًا .

**وأخيرًا** ، هذا ما وسعه الجهد والطاقة وما سنحت به الظروف . والله أسأل التوفيق والسداد ، وهو من وراء القصد .

الطالبة

ابتسام كشميري

# التمهيد

## نُبذة تاريخية عن مكة المكرمة قُبيل فترة البحث

أ - مكة في عهد السلطان الغوري .

ب - علاقات مكة بالعثمانيين قبل سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

ظل تاريخ مكة يتأثر دائمًا بعاملين رئيسين هما : مكانتها الدينية[١] ، وطبيعتها الجغرافية[٢] ؛ حيث كفلت لها مكانتها الدينية نوعًا من مكانة في جزيرة العرب[٣] ، ثم اتسع دورها السياسي بظهور الإسلام ؛ لأن الدين الإسلامي فرض على الدولة الإسلامية واجبات أهمها : حماية المقدسات والبر بأهلها ، وإقامة شعائر الدين ، وخاصة الحج الركن الخامس للإسلام[٤] .

وبعد انقسام المسلمين سياسيًا ، نشأ تنافس بين أطراف عديدة ؛ حول السيطرة على مكة . بدأ بين العلويين[٥] الذين كانوا يرون أحقيتهم بالخلافة الإسلامية ، وبالدول المسلمة المتعاقبة[٦] . ثم زاد مع الدول المتزامنة بين بعضها البعض ، لأن كُلاً منها كانت ترى أنها الأكفأ لوراثة شرف القيام بواجبات زعامة المسلمين[٧] .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، وأحمد الشريف : دور الحجاز ، ص ٧ ، ٨ .

(٣) وسع الإسلام دور مكة السياسي زيادة على ما كان لها من مركز أدبي على العرب الذين كانوا لا ينقادون إلا لها في الجاهلية . علي الندوي : السيرة النبوية ، ص ٥٤ ، وأحمد الشريف : دور الحجاز في السياسة العامة ، ص ١٨ ، ٢٣ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٣٥ .

(٥) العلويون : هم نسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد اختصت سلالة ابنيه الحسن والحسين ابني فاطمة الزهراء ، رضي الله عنها ، بلقب الأشراف والسادة . جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٣٣ .

(٦) تعاقب على حكم مكة بعد الخلفاء الراشدين: الأمويون ثم العباسيون . وبعد الانقسام السياسي للمسلمين نافس العباسيين في مكة الأخيضريون ثم الفاطميون وهم من العلويين ، وانتقلت بعد ذلك المنافسة للسنيين من السلاجقة ، ثم للأيوبيين وينافسهم الرسوليون في اليمن ، ثم المماليك والمغول في العراق ، ثم التركمان ، فالعثمانيين ، صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج ١ ، ص ٦٥ . والسليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٧ .

(٧) قال الظاهر بيبرس المملوكي مخاطبًا الحفصي سلطان تونس حين أراد أشراف مكة الدعاء له بالخلافة ما يلي : « مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين » ، وخاطب بيبرس أيضًا سلطان الرسوليين في =

وقد استغل الحسنيون من العلويين هذا الموقف الدولي الذي استجد، وأسسوا إمارة لهم مقرها مكة ، سمحت لها الدول التي مدت نفوذها إلى الحجاز بعد ذلك بالحكم كعصبية محلية ، تتمتع باستقلال ذاتي ، كان عند بدء تأسيس الإمارة تامًا[١] .

ثم تحددت العلاقة بين القوتين الحاكمتين في مكة ، وفقًا لما فرضه عليها العامل الثاني وهو الطبيعة الجغرافية لإقليم الحجاز الذي تنتمي إليه مكة ؛ لأن تميز موقعها بالحصانة حماها من الغارات الخارجية المتكررة ، بينما أدى توسط موقعها بين الشرق والغرب إلى جعلها محطة على طرق التجارة العالمية فكفل لها موردًا للرزق ، وربطها بالتيارات الحضارية العالمية . غير أن طبيعتها الصحراوية التي عُرفت بقلة مواردها، وصعوبة المواصلات فيها[٢]،أعجزت إمارة الأشراف عن حماية استقلالها الذي كانت تحرص عليه أشد الحرص .

كما صعب على القوى الخارجية فرض سلطة مركزية قوية على المنطقة ، فاعتمدت في الإبقاء على نفوذها على اتباع سياسة الترغيب ، بالإخلاص في أداء دورها في خدمة شعائر الدين ، وباستقطاب الحجازيين حولها بمختلف أوجه البر والعناية[٣] .

---

== اليمن بقوله : « سطرتها من مكة ، والملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده ، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين ، فإن كنت ملكًا فَالْقَ التتار » السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ٢٢ ، وأحمد : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٦١ ، ٣٧٠ .

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧.

(٢) رجب : الحجاز ، ص ٦٠ ، ٦٢ ، والندوي : السيرة النبوية، ص ٥٤ ، وأحمد الشريف : دور الحجاز ، ص١٤ .

(٣) وقد عللت كثرة اهتمام الحكومات الخارجية بالإعانات بأنها كانت تهدف إلى استقطاب الحجازيين وشغلهم عن الحياة السياسية . السباعي : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ١٢٢ ، والسليمان : العلاقات الحجازية ، ص ١٧١ . وسيناقش النشاط الخيري في مكة في الفصول القادمة

ولجأت من ناحية أخرى إلى ترهيب القوى المحلية ، عن طريق اتباع سياسة التوازن فيما بينها ، وهي السياسة التي تيسر تطبيقها بسبب الطبيعة القبلية للسكان(١) . فكان ذلك عاملاً آخر أسهم في زيادة التردي الاقتصادي، وجعل إمارة الأشراف في حاجة إلى المساعدات الخارجية دائمًا(٢) .

وهكذا ، دامت الثنائية في حكم إمارة مكة ، من منتصف القرن الرابع حتى نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري/ منتصف القرن العاشر حتى مطلع القرن العشرين الميلادي(٣) .

وهي فترة طويلة ، طبع خلالها التاريخ السياسي المكي بطابع الصراع والعنف الذي أدى إلى فقدان الأمن والاستقرار في أغلب الأحيان .

أما الجوانب الحضارية الأخرى فقد فرض على تطورها طابع خاص فالرابطة الدينية بمكة للمسلمين ، في كل مكان ، كانت تدفعها للتحسن والازدهار. بينما تكبحها ظروف البيئة والاضطراب السياسي ، وتجعلها في حالة غير مستقرة ، إن لم تكن متردية في بعض الجوانب أحيانًا .

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز ، ص ٩ .

(٢) الخفاجي : موقف مصر ، ص ٢٣ ، ٣٠ .

(٣) انتهت ثنائية الحكم في مكة بقيام الشريف حسين بن علي بالثورة على العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦م . أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٢٧٦ ، و طلاس : الثورة العربية الكبرى ، ص ١٧٧ .

## أ - مكة المكرمة في عهد السلطان الغوري :

انتقلت زعامة العالم الإسلامي إلى المماليك بعد أن مدوا نفوذهم إلى مكة خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[1] . فعملوا جاهدين على القيام بما يتطلبه دورهم تجاهها من واجب البر والرعاية[2] . لكن الاضطرابات السياسية ظلت سائدة فيها للسببين اللذين شرحناهما فيما سبق . فلم تنعم مكة خلال الحكم المملوكي إلا بفترات من الهدوء النسبي ، تطول حينًا وتقصر أحيانًا أخرى[3]. وفي مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بدأ دور من أدوار الاضطرابات في مكة ، زادت حدته على المألوف مع بداية حكم السلطان قانصوه الغوري[4] ، كردة فعل للتغيرات السياسية والإدارية والاقتصادية ، التي أدخلت على أنظمة الحكم في الحجاز على مدى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١، ص ٥٧٩ - ٥٨٢ ، وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧١، والفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٠٢ .

(٢) السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٦١ - ١٢٨، والقحطاني : أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٣١ - ٤٧ ، وعبد التواب : قايتباي ، ص٢٠٥ - ٢٠٨ ، وسليم : الأشرف قانصوه الغوري ، ص ٩٥ .

(٣) كان لا يمر عقد من الزمان بدون فتنة في مكة ، أو المدينة أو فيهما معًا ، خلال العهد المملوكي ، ومن الفترات التي شهدت هدوءًا نسبيًا فترة حكم الشريف محمد بن بركات ( ٨٥٩ - ٩٠٣ هـ / ١٤٥٤- ١٤٩٧م ) السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ٣١ . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٥ - ٩٨ ، وغاية المرام ، ج ٣ ، ص ٥٠٦-٦٣٣ .

(٤) الغوري : هو الأشرف أبو النصر الغوري ، نسبة إلى طبقة الغور . وهو السلطان السادس والأربعون من سلاطين المماليك . جركسي الجنس . من مماليك السلطان قايتباي . ولي عدة مناصب ، منها : كاشف الوجه القبلي ، ونيابة ملطية ، ثم الدوادارية . ولي السلطنة بعد مقتل العادل طومان باي سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م . أدار دولته باقتدار على الرغم من قسوة الظروف . أخذت عليه سياسته المالية، لجوره على الناس فيها ، قتله العثمانيون في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م . =

فمن **الناحية السياسية** ، لم يستطع المماليك فرض سلطة مركزية مباشرة على الحجاز ؛ بسبب ظروف البيئة ، فقووا نفوذهم في المنطقة ، بالاعتماد على سياسة التوازن بين القوى المحلية بأن أبقوا لإمارة الأشراف في مكة استقلالها الذاتي ، الذي كانت تنعم به منذ تأسيسها حوالي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨ م [١] . وفعَّلوا دور مراكز قوى أخرى في الحجاز إلى جانبها . ففي إمارة مكة نفسها فصلت السلطة القضائية عن سيطرة الإمارة، ورُبطت بالدولة، حيث كان القضاة يعينون من قبل السلطان ، وأسندت إلى قاضي القضاة الشافعي -المذهب الرسمي لدولة المماليك- نظر الحَرَم والحسبة وإدارة الأوقاف وغيرها من المهام المالية مما أعطى لمنصبه أهمية سياسية[٢] .

كما لم يكن لأشراف المدينة وينبع ارتباط رسمي بإمارة مكة ، فكانوا يُعينون من قبل السلطان أيضًا ، ولهم الحق في الرجوع إليه مباشرة ، وفي تلقي المساعدات منه ، بغرض خدمة الحرم النبوي، وحماية الحجاج، وتسهيل سفرهم . فنمت قوتهما ، واستطاع كل منهما استقطاب فئات من الحجازيين من باقي أسر الأشراف[٣] ، والقبائل العربية الأخرى، والقادة[٤]. ومن أشهرهم: العمرة والحميضات[٤] الذين كانوا يرجحون كفة قوة على أخرى ، في حالة

---

= ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢ - ٤ ، و رزق : الأشرف قانصوه الغوري ، ص ٣٠-١٩٤.

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١٨ ، وعمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ ، والفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٥٨٤ .

(٣) من الأشراف ذوي علي وذوي عبد الكريم والأدارسة . عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ ، ٥٣١ ، وغاية المرام ، ج ٢ ، ص ٥١٨ .

(٤) القادة : هم فئات كبيرة من الناس ؛ ظهرت في الحجاز بعد تأسيس إمارة الأشراف ؛ وتتكون من تجمعات من أسر بعض العبيد الذين حررهم الأشراف فأصبحوا أتباعًا لهم ، وكانوا قد نشأوا =

انضمامهم إليها ، فكثرت اضطرابات هذه القوى فيما بينها ، وزاد خطرها ، حتى أصبح الحجاز مسرحًا للفتن والقلاقل طوال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[1] .

ومع مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي عدل المماليك من ميزانهم ، فرجحوا كفة أشراف مكة على غيرهم ، عندما استجدت أحداث جعلت مصالح الطرفين تلتقي معًا . وهي أن الشريف حسن بن عجلان عجز عن توحيد صفوفه ، مع باقي القوى الحجازية الأخرى ، كما أنه لم يتمكن من التغلب عليها . لذلك لجأ إلى المماليك ، وطلب معونتهم ، مقابل موافقته على

---

= تنشئة عسكرية على غرار نظام المماليك في مصر ، فعاشوا بعد تحررهم مستقلين يحيون حياة القبائل في الأرياف أو البادية ، فزادت أعدادهم حتى شكلت كل مجموعة منهم قوة عسكرية أصبح يحسب لها حساب ؛ لأن انضمامها لجبهة من الجبهات المتنافرة في الحجاز كان كثيرًا ما يساعد في ترجيح كفة على أخرى . وأشهرهم القادة العمرة نسبة إلى عمر بن مسعود ، ومسعود هذا كان مولى للشريف أبي سعد حسين بن علي بن قتادة، ولي إمرة مكة سنة ٦٤٤ هـ، قيل إنه وليها بإيعاز من سلطان مصر وساعدته زبيد ، وقيل من قبل صاحب اليمن . وسعد هو جد الأشراف ذوي عبد الكريم، وقد أورد محقق كتاب العقد الثمين أن كلمة العمرة جمع على غير قياس للعمريين ، وأنهم ينتسبون إلى عمر بن الخطاب ، وهذا غير صحيح ، لأنه يخالف متن الكتاب الذي يحققه . كما نسب السليماني القادة للأشراف من غير نسل أبي نمي ، وهذا أيضًا يخالف ما رواه المعاصرون . وأما الحميضات فإن جدهم مولى لأحد الأشراف المدعو حميضة ، كما ذكر السخاوي ، وهو حميضة بن أبي نمي الحسني . الفاسي: العقد الثمين ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، والقلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧٦ ، ومورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ، ص٣٦ ، والسليماني : العلاقات الحجازية ، ص٢٠٨ ، وعمر بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٩٨ ، والزهراني : الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان ، ص ٦٣ - ٢٢٥ ، والسخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مجلد ٣ ، ج ٦ ، ص ٧ ، والزيلعي : نظام المشاركة في الحكم ، ص ٨٧ .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ٣ ، ج ٤ ، صفحات متفرقة ، والفاسي : العقد الثمين ، ٨ أجزاء ، صفحات متفرقة .

تقوية نفوذهم في الحجاز ، فَقَبِل تعيينه نائبًا للسلطنة المملوكية في الحجاز ، مع ما في هذا التعيين من انتقاص من استقلال إمارته ، وهو المبدأ الذي كان يحرص عليه أمراء مكة كما سبق ذكره[١] .

وكانت هذه الخطوة مهمة للمماليك ؛ لأنها قوّت تبعية الحجاز لهم في وقت اشتد فيه نشاط المنافسة الدولية في مكة ، من قبل الرسوليين[٢] في اليمن ، والمغول فالتركمان في العراق ، وأخيراً وهو الأهم الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى[٣] . كما زاد اهتمام المماليك بالحجاز لأسباب مالية وهي زيادة دخل جمارك التجارة في الموانيء الحجازية ، وبخاصة ميناء جدة ، حتى شكلت مورداً مهمًا ، حرص المماليك على الاستفادة منه ، في وقت كان فيه التدهور الاقتصادي قد استشرى في دولتهم ، بسبب الحروب الخارجية والفساد الإداري والمالي الداخليين ثم ما تلاهما من تحول طرق التجارية العالمية على يد البرتغاليين فيما بعد[٤] .

ولقد قوّى المماليك وجودهم في مكة في هذه المرحلة عن طريق إدخال

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٨٦ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣١٨ - ٣٢١ . والزهراني : حسن بن عجلان ، ص ٢٢٤ .

(٢) الرسوليون : قدم جدهم محمد بن هارون رسولاً إلى اليمن ، فعرف بالرسول ، ثم نسبوا إليه ، يقال : إن أصلهم من الغساسنة ، كان مجيئهم مع الجيش الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م ، فكان الأيوبيون ينيبونهم عنهم . وبعد ضعف الأيوبيين استقل الرسوليون باليمن في عهد عمر بن رسول سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ، وقد اتخذوا تعز عاصمة لهم ، اتسع ملكهم حتى شمل حضرموت ومكة ، وتغلبوا على الأئمة الزيدية في اليمن ؛ كانت لهم إضافات حضارية في كثير من المجالات ، انتهت دولتهم سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٩ ، والعسيري : موجز التاريخ الإسلامي ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٣) عن المنافسة في الحجاز بين المماليك والرسوليين والمغول . أحمد : بنو رسول وبنو طاهر ، ص٣٣٤ ، والزهراني : حسن بن عجلان ، ص١٥٠ ، والخفاجي : موقف مصر ، ص٤٢ .

(٤) البكري : الحجاز ( ٨٥٩ - ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ - ١٥١٧م ) ، ص ٤ ، وعبد المجيد : النظم الإدارية في مكة ، ص ٢٥٨ ، والزهراني : حسن بن عجلان ، ص ٢٣٠ .

نظم إدارية واقتصادية ؛ إلى جانب توحد جهودهم مع أشراف مكة، مما مكنهم من بسط نفوذ أقرب إلى المباشر في الحجاز ، حيث استحكم التدخل المملوكي في إمارة الأشراف في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . وخاصة في عهد السلطان قايتباي[١]، والشريف محمد بن بركات[٢]؛ لأن الشريف أصبح اليد المنفذة للإرادة المملوكية في المنطقة ، فلقي منهم من الدعم ما مكنه من استقطاب أشراف المدينة[٣]، وإخضاع حكام حلى[٤] وإقصاء الأسرة الحاكمة من بني إبراهيم عن السلطة في ينبع[٥] ،

---

(١) قايتباي ( ٨٧٢ – ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ – ١٤٩٥ م ) : هو الحادي والأربعون من سلاطين المماليك في مصر، وهو جركسي الجنس، وجلب إلى مصر سنة ٨٣٩ هـ فاشتراه الملك الأشرف برسباي وأعتقه السلطان الظاهر جقمق . أصبح أمير عشرة في عهد الأشرف إينال، ثم رقي أتابك للعسكر في عهد الظاهر تمر بغا ؛ لكن الجند لم يرضوا بتمر بغا وعملوا على خلعه وتولية قايتباي مكانه. له نشاط عسكري على عدة جبهات : حيث سير ستّ عشرة حملة انتصر فيها كلها إلا واحدة صالح فيها ؛ وقد صادم العثمانيين في عدد منها . توسع في المشاريع العمرانية ؛ وله إحسان وحضور قوي في الحجاز ، ابن إياس ، ج ٣ ، ص ٣ ، وعبد التواب : قايتباي المحمودي : ص ١٢٥ .

(٢) محمد بن بركات ( ٨٥٩ – ٩٠٣ هـ / ١٤٥٤ – ١٤٩٧ م ) ولد سنة ٨٤٠ هـ ، تلقى تعليمه في مكة ، وعرف بحسن الخلق والشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ؛ كان سفير والده بركات بن حسن بن عجلان إلى مصر سنة ٨٥٠ هـ ، له أعمال خيرية عامة أهمها الأسبلة في طريق جدة . عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ ، وعبد العزيز بن فهد : نيل المرام ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ، و السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، مج ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) أشراف المدينة : هم أسر من سلالة الحسين بن علي رضي الله عنه، وحين ولي محمد بن بركات الشرافة عيّن على المدينة فارس بن شامان ابن أخته حزيمة : عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣، ص ٧٣ ، والفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٧٩، وعمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

(٤) حلى : مدينة نسبت إلى ابن يعقوب ، لأنه أسس بها دولة، وقد بدأ الأشراف في مكة في بسط نفوذهم عليها منذ القرن الثامن، وقد أخضعها محمد بن بركات، وولي عليها أميرًا تابعًا له من أهلها، لكن وضعها لم يستقر . البلادي : بين مكة واليمن ، ص ١٧٦ ، وعمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج٤، ص٦١٣ ، ٦١٤ .

(٥) بنو إبراهيم : أسرة من الأشراف، حكمت ينبع، وقد خلطت بعض المصادر بينهم وبين أعراب بني إبراهيم من جهينة، تنافست أسر منهم على حكم ينبع في القرن التاسع الهجري، فساند شريف مكة قسمًا وأجلى قسمًا آخر، ومنهم والد يحيى بن سبع، فأراد يحيى استرداد الإمارة فلم يتمكن، مما جعله ينضم إلى أعداء حكام مكة حينها . ابن فرج : السلاح والعدة ، ص ٤٠ ، السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

وإخراجهم من بلدة السويق قاعدة إمارتهم . كما أنه قسا في تعامله مع أعراب زبيد[١] بالقتل، وبانتزاع درك طريق الحج من أيديهم بعد تعديهم على الحجاج . وقد أراد مكافأتهم بعد أن أعلنوا خضوعهم ، كما أراد أن يجعل ولاءهم له دائمًا ، فعاد وأكرمهم ماديًا بعد ذلك ، وارتبط بهم عن طريق المصاهرة[٢] . أي أنه سلك معهم سياسة الترغيب والترهيب . وقد كسب محمد بن بركات ودَّ آل ظهيرة[٣] قضاة مكة في البداية، فوحد جهوده معهم حتى أصبحوا يدًا واحدة ، فزاد علوّ شأنهم ، وساعدوا الشريف محمد في إدارة شئون الحجاز بدلاً من أن يسيئوا إليه . ولكنه لم يستطع مناصرتهم في خلافاتهم المالية مع السلطان قايتباي، مما جعلهم ينضمون إلى الحزب المعادي لحزبه ، الذي تزعمه ابنه بركات بن محمد بن بركات بعده ، فشاركوا في إقصائه عن الشرافة[٤] .

ومع مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تراخت قبضة

---

(١) زُبيد : قبيلة من مسروح من حرب، يسكنون سواحل ينبع، تولى رومي الزبيدي مشيختهم في القرن التاسع الهجري، وجعل مقره خليص، وكان أتباعه من أكثر العرب عددًا ، وقد حسن مرور الحجاج بها حالتها اقتصاديًا، وتتراوح المنطقة التي يتولى أتباعه حراسة قوافل الحج فيها من ينبع إلى وادي فاطمة ، وتولوها منذ عهد الناصر بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ، وقد امتدت تحركاتهم إلى الشام . القلقشندي : قلائد الجمان ، ص ٩٠ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، والجاسر : معجم قبائل المملكة ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، والبلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص ١٩٢، ٣٢٨ ، ونسب حرب ، ص ٥٧ ، ١١٣ . وعبد المجيد : النظم الإدارية في الشام ، ص ١٧، وعبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٧٦ . وقد عد البدراني أن مصاهرة محمد بن بركات لزُبيد تدل على ما كان لهم من رفعة وعلى أصالة نسبهم الذي شككت فيه بعض المصادر المعاصرة . البدراني : فصول من تاريخ حرب ، ص ١٦٨ .

(٣) آل ظهيرة : من أشهر الأسر ذات المكانة العلمية في مكة ، تولى عدد منهم منصب قاضي القضاة الشافعي ، مذهب المماليك الرسمي ، خلال القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الهجري . أشهر شخصياتهم برهان الدين بن ظهيرة ، توفي سنة ٨٩٦ هـ . السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ٩٩ ، وعبد العزيز بن فهد : غاية المرام : ج ٢ ، ص ٦٠٦ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٣٣ ، ١٢٦ ، وعبد التواب : قايتباي المحمودي ، ص٥٩.

المماليك عن الحجاز ، بسبب انشغالهم بالخلافات التي نشبت بينهم ، وأدت إلى انقسامهم ، ووقوع اصطدامات بينهم قبل فترة وجيزة من وفاة قايتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٥م[١] .

ثم امتدت الفوضى إلى الحجاز بعد موت محمد بن بركات سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م ،لوقوع خلاف تقليدي بين أبنائه من بعده حول السلطة[٢] . فلقدخرج هزاع على أخيه بركات الذي كان مرشحًا لتولي الحكم بعد والده[٣]، وذلك لأسباب تتعلق بالتغيرات المملوكية في الحجاز كله وما يتعلق من هذه الأسباب بالنواحي السياسية التي ندرسها في هذه الفقرة هو تفضيل بركات على هزاع، على الرغم من أنه أكبر منه سنًا، ولا يقل عنه علمًا وفضلاً وشعبية؛ لأن أخوال بركات من الأشراف آل أبي نمي ذوي النفوذ والغنى[٤] . وسيأتي ذكر باقي الأسباب كل في موضعه تباعًا .

وقد استغلت القوى المعارضة من أعراب زبيد وأشراف بني إبراهيم في الحجاز سخط هزاع ، ووسعت شقة الخلاف بينه وبين أخيه[٥] . ولم

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ ، و محمد بن فهد : منهل الظرافة ، الأوراق ، ١ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٠ ، وعبد الغني : تاريخ أمراء مكة ، ص ٦٦٥ .

(٣) بركات بن محمد : ولد سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٦م في مكة ، أمه الشريفة عمرة ابنة محمد من آل أبي نمي ، تلقى تعليمه على عدد من الشيوخ، وعرف بعلو سنده في علم الحديث ، رحل بركات إلى مصر لمقابلة السلطان قايتباي سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م فوافق على تعيينه شريكًا لوالده . اتصف بركات بصفات خُلقية وخَلقية جيدة، عرفت له من ثناء معاصريه عليه، ومن مواقفه مقارنة بغيره . عبد العزيز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، والسخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، مج ٢ ، ص ١٤ ، وعبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، وبلوغ القرى : ورقة ١٠٠ .

(٤) ابن فرج : السلاح والعدة ، ص ١٥ .

(٥) كاد هزاع يستجيب لوساطة المماليك وينهي النزاع حول الإمرة . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١١٠ .

تفلح محاولات المماليك للإصلاح بينهما[١]، فأعلن هزاع خروجه على أخيه سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م ، واستولى على ينبع ، بعد أن أخرج منها الحامية التابعة لأمير مكة . وأعاد إليها الحزب المعادي لبركات بزعامة يحيى بن سبع من بني إبراهيم، وانضمت إليهما قبائل زبيد، وهم أشد المعارضين لأمير مكة خطرًا[٢].

ولم تستطع الفرقة المملوكية الموجودة في مكة ملء الفراغ وحدها ؛ لقلة عددها[٣] ، بل على العكس من ذلك فإنها شكلت مركزًا من مراكزالصراع، لتأثرها بالمشاكل والانقسامات التي حدثت بين المماليك في مصر، ودخولها في دوامات خلافاتهم ، وذلك لأن تقوية ارتباط مكة بمركز السلطة زاد في وجود كثير من القيادات المملوكية فيها، بتوجهاتهم وأفكارهم المختلفة، فمنهم من كان يأتي فارًا كقانصوه خمسمائة[٤] ، أو لاجئًا كبرد بك[٥] ، أو منفيًا كالأمير

---

(١) ورد مرسوم آخر بطلب الصلح ، لكن هزاعا لم يستجب . عبدالعزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٦ - ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ١١٠ ، والبدراني : فصول تاريخ قبيلة حرب ، ص ١٧٤ - ١٧٩ .

(٣) لا تزيد فرق الجند في مكة على مائة أو مائة وعشرين جنديًا، والسبب قلة الموارد في مكة، خاصة الموارد المائية، وهو ما ذكرنا أنه السبب الأول في إضعاف السلطة المركزية في الحجاز، لذلك كان دور الجند محدودًا زمن الفتن ، حتى قتل الجازاني - كما سنرى فيما يلي - تم بجهد فردي من بعضهم، وليس في معركة . المصدر السابق ، ورقة ١١٠ - ١٦٥ .

(٤) قانصوه خمسمائة : كان سبب الفتنة في نهاية عهد قايتباي بسبب تنافسه مع أقبردي الدوادار على الزعامة . قدم إلى مكة بعد محاولته الأولى للاستيلاء على السلطة التي هزم فيها، وتخلى عنه المماليك بعدها . وقد بقي في مكة مدة تسعة أشهر، ولم يعلم خبره في مصر، ثم ظهر مرة أخرى هناك سنة ٩٠١ هـ مظهرًا توبته للسلطان ، وقد ذكر عبد العزيز بن فهد أنه قدم في تلك المدة إلى مكة، وقابله بركات بغاية الحفاوة والإكرام . والجدير بالذكر أن قانصوه خمسمائة كان يشغل منصب أمير أخور كبير ( أمير إسطبلات السلطان )، وهو عادة ما يكون برتبة مقدم ألف، أي أنه أمير مائة أمير أقل منه ، ويقود ألف جندي . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ، ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٥٤، والقلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ١٩ ، ٤٦١ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ص٨٦ وقد تفرد بين معاصريه بذكر قدوم قانصوه خمسمائة إلى مكة .

(٥) برد بك : أحد الأمراء المقدمين، ولي نيابة جدة فترة من سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م، وعين أمير ركب =

الكبير أُزبك[١] والأمير الكبير تاني بك الجمالي[٢] .

وقد كانت مكة المكان المناسب لنفي تلك الشخصيات الكبيرة ؛ لقدسيتها التي تضفي على المنفي إليها نوعًا من التكريم ، ولبعدها عن مركز السلطة ، وقيل لقسوة العيش فيها[٣] .

---

= الحج الأول سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . أصله من مماليك قايتباي ، طلب إرساله إلى مكة بعد هزيمة آقبردي ، فمات بها سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧ م بعد فترة قصيرة من وصوله . ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣ ، ص ٣١٧ ، ٣٥٢ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ص ١٠٤ .

(١) الأمير الكبير أو أتابك العسكر : هو كبير أو قائد الجيش ، وأزبك : اشتراه السلطان برسباي وأعتقه السلطان جقمق وزوجه ابنتيه الواحدة تلو الأخرى ، ولي حاجب الحجاب ورأس نوبة النوب ونائب الشام، ثم أصبح أتابكًا في عهد قايتباي سنة ٨٧٣هـ . وبقي في منصبه هذا ثلاثين سنة، قاد خلالها عدة حملات منها ثلاث ضد العثمانيين وانتصر عليهم فيها . وتزوج ابنة قانصوه خمسمائة أيضًا . كان واسع الغنى ، عمر ضاحية الأزبكية في القاهرة، لكنه كان شديد الخلق، نفي أربع مرات وسجن مرتين في الإسكندرية ، كانت إحدى مرات نفيه إلى مكة بعد أن انضم إلى حزب صهره قانصوه خمسمائة حين اختلف مع آقبردي في نهاية عهد قايتباي لكنه استدعي سنة ٩٠٣هـ ليعود إلى منصبه، ثم توفي سنة ٩٠٤هـ وهو أتابكًا، وله من العمر خمسة وثمانون عامًا . كان خروجه إلى مكة بطلب من قايتباي خوفًا عليه من المماليك الجلبان . القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٦ ، ص ٥ ، ٣٥ ، والباشا : الفنون الإسلامية ج ١ ، ص ٥٤ ، و ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣١٤ ، ٤١١ .

(٢) تاني بك الجمالي : عينه محمد بن قايتباي أمير سلاح سنة ٩٠٢هـ، وظل في منصبه حين تسلطن قانصوه خمسمائة، وبعد أن هزمه آقبردي الدوادار اختفى تاني بك، ثم عاد بعد تولي جانبلاط وأصبح أتابك العسكر بعد وفاة أزبك المذكور أعلاه . وعاد إلى الاختفاء بعد تولي العادل طومان باي، وظهر بعد الثورة عليه . كان مرشحًا للسلطنة، وخرج له بشاراتها لكن الجند لم يقبلوه واختاروا قانصوة الغوري فنفى تاني بك إلى مكة وأرسل إليها بصحبة قافلة الحج سجينًا سنة ٩٠٦هـ، وحين ولي جازان السلطة في مكة، وفعل أفاعيله بالمقيمين فيها، كان تاني بك أحد ضحاياه ، حيث عذبه ونكل به، وطالبه بمبلغ الثمانين ألف دينار التي أخذها كمقرر له عن إمرة الحج من والد جازان، وكان قد ولي الإمرة عدة مرات. فظل تحت التعذيب حتى مات سنة ٩٠٨هـ . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ ، ٤٥٩ ، ج ٤ ، ص ٣ ، ٦ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٣١ .

(٣) الخفاجي : موقف مصر من الحجاز ، ص ٤ .

وبسبب تقلب الأوضاع في مصر فإن من يُنفى إلى مكة غير مرضياً عليه، يعود إلى أفضل من مركزه بعد تغلب حزبه على السلطة مرة أخرى .

وقد كان لوصول بعض المسئولين المنفيين إلى مكة أثر طيب في مساعدة أهلها[١] . أما قانصوه البرج[٢] ومرافقه طراباي[٣] فقد جرَّ وصولهما إلى مكة منفيين سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠م ويلات ، دامت لعدة سنوات . لأن أعداء بركات – الذي كان يلي الشرافة حينها – وفي مقدمتهم أخوه هزاع استطاعوا استقطاب البرج ، فسعى حين عادت إليه السلطة بعد أن تولى الغوري الحكم إلى تحويل الشرافة إليهم ، مستعيناً بقوة أمراء الحج بعد إغرائهم مالياً ، مما أدى إلى اندلاع الحرب بين الشريفين المتنازعين[٤] .

ولم يقتصر القدوم إلى مكة على الأفراد ، بل شمل أيضاً فرقاً من

---

(١) كان لأزبك مواقف مشكورة في مكة ، حيث أصلح بين القضاة ، وكان الناس يقصدونه لقضاء حاجاتهم ، فلحقوا به إلى باب الشبيكة وهو مسافر من مكة . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٩٥ ، ١٠٢ .

(٢) قانصوه البرج : كان من مماليك قايتباي. أشرف على بناء برج الإسكندرية، وعمل مديراً للحرس فيه فترة فنسب إليه. عين مقدم ألف سنة ٩٠١ هـ . كان ممن فر بعد فتنة قانصوه خمسمائة سنة ٩٠٢هـ ثم عاد في العام نفسه . ولي إمرة الحج سنة ٩٠٥ هـ وكان من أنصار جانبلاط مثل تاني بك الجمالي، فنفاه العادل طومان باي –حين ولي السلطة– إلى مكة في رجب سنة ٩٠٦ هـ . وبعد أن ولي الغوري في شوال من نفس العام استدعاه وعينه نائباً للشام . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ ، ٩٥٩ ، و ج ٤ ، ص ١٦، وابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١، ص ٢٤٠، وعبد العزيز ابن فهد : غاية المرام ، ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، وبلوغ القرى ، ورقة ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) طراباي : أمير آخور ثاني أخو نائب جدة تنم . قدم إلى مكة منفياً مع قانصوة البرج في عهد العادل طومان باي ، فتسلط على التجار في جدة وأخذ أموالهم ، وظلم الناس في مكة أشد الظلم ، وحين أراد الغوري معاقبته حماه قانصوه البرج ، وكل ما تم بخصوص تلك الوقائع هو نفي مملوكه شاهين إلى سواكن . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١١٩ ، ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٢٠ .

الجند ينتمي كل منها إلى حزب معادٍ للآخر في مصر ، مثل العادلية وجند قيت الرجبي[١] . وكان يُقصد من إخراجها من مصر إنهاء الاحتكاكات فيما بينها بإبعادها عن مركز الأحداث . لكن بعضًا منها قدم إلى مكة حاملاً أحقاده فنفس عنها بالقتال فيما بينها أو مع جند باش مكة[٢] .

وحدث أيضًا أن انضم الفارون من مصر إلى العصاة من الأعراب[٣] ، وذلك حين خطف رزمك الجنبلاطي قاتل العادل[٤] التاجر شمس الدين ، محمد بن يوسف القاري[٥] من جدة بمعونة أعراب زبيد، ولم يطلقوه إلا بفدية سُلِّمَتْ إليهم على الرغم من معارضة الشريف ، ورفضه إعطاءها لهم . كما تقاتل جند الباش مع الأعراب في مكة ذاتها[٦] .

---

(١) العادلية : حين ولي السلطة العادل طومان باي اشترى جندًا، وجعلهم أتباعًا له، وسماهم العادلية. وهي عادة درج عليها سلاطين المماليك، مما أدى إلى تشكل فرق متنافسة، منهم الخوشقدمية والجنبلاطية وغيرهما . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٧ ، ٥٧ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الورقتان ١٥٥ ، ١٥٩ .

(٢) ومن جرائمهم أخذ جواري الناس وممتلكاتهم الأخرى من بيوتهم، ومنها قضية ولد حسان الصيرفي ، وفيها هاجم العادلية غلامًا في دكان والده واختطفوه، فاحتج الناس ولجأوا إلى الحرم، ودار قتال بينهم وبين العادلية حتى تمكنوا من تخليص الفتى من أيديهم، وذلك في سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥م . عبدالعزيز ابن فهد : بلوغ القرى ، الورقتان ١٥٥ ، ١٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٥٥ .

(٤) رزمك : أمير عشرة ( أول رتبة في الجيش المملوكي ) ، هو الذي قتل السلطان المملوكي العادل الذي كان متوليًا قبل الغوري مباشرة . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٣٠ .

(٥) الخواجا شمس الدين محمد بن يوسف القاري : كان كبير التجار في جدة ، ولقب كغيره بالخواجا، ومعناها بالفارسية الرئيس أو المعظم أو المعلم . ابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ١ ، ص ٣٦٨- ٣٦٩ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ .

(٦) تقاتل الجند التركي مع بني إبراهيم أنصار الشريفين هزاع وجازان مع جند بركات أيضًا، أي أنهم لم يتفاهموا مع أي من المعسكرين، كما لم تكن لهم طاقة للتغلب على أحدهما، بل زادوا في الفوضى، كما حدث حين اصطدموا بأعراب دوس وأوس في مكة في عهد جازان . ورأينا كيف رفضوا التعاون مع بركات ضد رزمك وزبيد . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٠ - ١٢٧ .

وبذلك نلاحظ أن التغيرات السياسية سبّبت الأحقاد بين مراكز القوى في الحجاز . فكانت أرضًا خصبة نبتت عليها سائر الخلافات ، كما أدت زيادة النفوذ المملوكي في مكة إلى إدخالها في دوامة الخلافات بين المماليك ، وتكثيف عناصر الشغب فيها .

أما ما يتعلق **بالتغيرات الإدارية**، فقد أبقى المماليك في بداية حكمهم للحجاز لإمارة الأشراف في مكة استقلالها الذاتي ، وتُرك لشريفها وإمكاناته الشخصية والمادية حق توسيع المناطق التابعة لإمارته، لكن دون إلزام لأي من الزعامات الأخرى في الحجاز بالتبعية له، بل على العكس، فإنهم شجعوا على تدعيم القوى المختلفة، وساعدوها على النهوض، وسمحوا لها بمخاطبتهم دون الرجوع إلى شريف مكة، إلى أن غدا الحجاز حتى مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يخضع لحكم ثلاث وحدات سياسية، كان ارتباط كل منها بالقاهرة أقوى وأكثر دوامًا من ارتباطها بالأخرى، وهي إمارات : مكة، والمدينة، وينبع(١) . وقد تركت لهم الإدارة المملوكية الحرية في تحديد العلاقات بينهم، دون تدخل من الدولة، بل إنها استفادت من الخلافات المحلية لتقوية سلطتها على الإقليم في تلك الفترة .

وقد تمتعت إمارتا مكة والمدينة بالقدسية ، لكن موقع إمارة مكة على طرق التجارة جعلها الأقوى والأكثر حضورًا في المنطقة في أغلب الأحيان . وقد أوجد حكام مكة في ظل استقلالهم الذاتي نظامًا للحكم ، تناول الجوانب الإدارية والعسكرية والمالية . وتشرف على تنفيذه هيئة حاكمة، تعود فيما عدا القضاة –الذين كان مرجعهم السلطان كما سبق – إلى شريف مكة . وهو عادة ما يختار من آل قتادة الذين عاصروا حكم المماليك ، بعد أن يرشحه المسؤولون

---

(١) خفاجي : موقف مصر من الحجاز ، ص ٣١ – ٣٦ ، وعبد المجيد : تنظيمات مكة ، ص ٤٢ – ٨٢، ٩٨، ٢٢٤ ، ٢٨٣ .

في إمارته، ثم يوافق على تعيينه[١] .

ومع بدء ازدياد النفوذ المملوكي في الحجاز في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ؛ شملت التغيرات النواحي الإدارية . فلقد عين المماليك الشريف حسن بن عجلان نائبًا للسلطنة في الحجاز ، لكنهم لم يغيروا التقسيم الإداري الذي كان متبعًا في الإقليم سابقًا ، ولم يعينوا له نوابًا يمثلونهم ؛ وإنما اكتفوا بتوسيع سلطات شريف مكة ، بأن ضموا إليه رسميًا المناطق التي كانت خارجة عن حكمه، وأهمها المدينة المنورة وينبع ، بعد أن كانت لكل منهما الحرية في عدم الرجوع لإمارته .

وابتداءً من سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١م أوجد المماليك لهم حضورًا عسكريًا دائمًا في مكة ، بتعيين فرقة من الجند ، بلغ عددهم حوالي المائة جندي ، وعرف قائدهم بباش مكة .

ولم يكن لهذا العدد القليل أن يتصدى لعمل أمني أو عسكري مهمّ ، كما أثبتت الأحداث ؛ ولكنهم قاموا بدور سياسي بالدرجة الأولى ، وهو إثبات الوجود المملوكي في مكة ، ومراقبة أشرافها عن كثب ، في وقت زادت فيه المنافسة الدولية . وشكلوا أيضًا هيئة حاكمة إلى جانب الهيئة التابعة لإمارة الأشراف، أصبحت تحكم في مكة بسلطات واسعة ، دون تحديد صلاحيات أي من الحكومتين . ثم أُسندت إلى باش مكة كثيرٌ من المهام التي كانت تابعة

---

(١) استولى قتادة على الحكم بعد أن قضى على أسرة الهواشم سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤م . وقد كان الأشراف يختارون من قبل أهل الحل والعقد ، وهم أسر الأشراف والقبائل الأخرى والقضاة بما لهم من مكانة وصلة بالسلطان وبعامة الناس ، ويظهر أثر هذه الأطراف واضحًا في أحداث النزاع بين أبناء محمد بن بركات الذي نؤرخ له . الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ ، ص ٣٩ ، و العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٨٢.

لقاضي القضاة الشافعي، كالحسبة[١] ونظر المسجد الحرام ، مما حدّ من سلطاته المالية ، ووضع الباقي منها تحت الرقابة[٢] .

وفي سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤م وسع المماليك سلطاتهم المالية والإدارية في الحجاز ، بإنشاء نيابة في جدة ، بسبب زيادة الأهمية الاقتصادية لمينائها[٣] . ولرغبتهم في تقوية ربط المنطقة بالإدارة المركزية .

وقد كان لسلبيات النواحي الإدارية أثرها في ازدياد حدة الاضطرابات في الحجاز من عدة وجوه :

أولاً : كان نظام ولاية العهد في إمارة الأشراف غير إلزامي[٤] ، مما أدى إلى تطلع إخوة بركات للسلطة ، مع أنه رشح لها ؛ لما يتمتع به من مميزات أهلته للحكم شريكًا لوالده مدة خمسة وعشرين عامًا[٥] . وحين خرج إخوته عليه تهيأت الفرصة للآخرين من أعداء أسرته من بني إبراهيم وزبيد لاستغلال الوضع ، في محاولة استعادة ما فقدوه ، وللانتقام لأنفسهم لما حل بهم على يد والده[٦] .

---

(١) الحسبة : هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله . الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٩٩ ، وفضل إلهي : الحسبة تعريفها وشرعيتها ، ص ٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، أوراق متفرقة .

(٣) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٢٥١ .

(٤) الزيلعي : « نظام المشاركة في الحكم ، ص ٣٠ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

(٦) بعد وفاة محمد بن بركات سنة ٩٠٣ هـ خرج هزاع على أخيه بركات، فقام المماليك بالوساطة بينهما، وقدمت الوفود لمهمات كثيرة ، إحداها برئاسة شاهين الجمالي شيخ المسجد النبوي، والثانية برئاسة كاتب السر البدر بن مزهرأول أعداء بركات، لأنه ضغط عليه ماليًا ورفض إمهاله وأخر تنصيبه حتى يسدد ما عليه، وتشدد في موقفه أكثر مما يجب، وأما بنو إبراهيم فقد زادوا في إيغار =

ثانيـًا : تعـددت السلطات في مكة من ممثلي الشـريف ، وباش مكة، والقضـاة ، بل المسئولين المنفيين ، أو اللاجئين إلى مكة الذين كانوا يمارسـون السلطة فيها ، وكأنهم ممثلون شخصيون للسلطان[١] . مما أوجد نفورًا بين أطراف السلطة منع التعاون بينهم في أوقات الأزمات[٢] ، وأدى إلى نقل صورة مخالفة للواقع إلى الحكومة المركزية ، من قبل كلّ طرف عن الآخر [٣].

ثالثًا : أدى تحديد سلطات قاضي القضـاة الشـافعي ابن ظهيرة إلى دفعه إلى معاداة الحزب البركاتي ، وقد يكون ذلك لاعتقاده بأنهم السبب في تقوية النفوذ المملوكي وتسلطه على مكة ، أو لأنهم لم يقفوا إلى جانبه ويساعدوه حين شكك السلطان قايتباي في أمانته ، لذلك سعى في تحويل الشرافة إلى جازان أخي بركات بعد وفاة هزاع[٤] ، مما كان سببًا في نكبته المشهورة على يد بركات[٥].

---

= صدر هزاع ، وشجعوه على الخروج إليهم في ينبـع ، وحين مالـت نفسه إلى الصلح ثنـوه عن عزمـه، ودفعوه إلى طـرد الحامية التابعة لأخيه في ينبع ، وذلك سنة ٩٠٤ هـ . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٠٤ - ١٠٥، ١١٠ .

(١) ومنهم الأمير الكبير أزبك وقانصوه البرج وطراباي ، وأما الباش تنـبك فقد تدخـل في كـل النواحي حتى أمور إقامة الصلاة والأذان والطواف ، فمنع الكلام فيه وضرب فاعله . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ٩٢ - ٩٣ .

(٢) ومن ذلك مثلاً عدم تعاون جند الباش مع بركات في حادثة رزمك ، ومصادمتهم لأي سلطة من الأشراف تلي مكة من الجانبين المتنازعين . المصدر السابق ، الأوراق ١٠٩ ، ١٢٥ .

(٣) ومن أمثلة هذه الشخصيات : البدر بن مزهر الذي أثر على موقف السلطان ، وجعله يعتقد أن بركات يملك أموالاً طائلة، ومنهم قانصوه البرج أيضًا الذي عزل بركات وولى هزاعا بعث السلطان الغوري مرسومًا فيه الاعتذار عما حدث . وقد نقل عمر بن فهد ذلك حيث قال : « فبلغ السلطان أشياء عن القاضي في تزويق وتشخيص ، فصادف جمع ذلك للسلطان » وأيضًا قانصوه البرج تشفع لجازان ، مع أنه كان مناوئًا لأخيه وخارجا على السلطة عند السلطان ، واستطاع أن يحصل له على نفقة من بركات قدرها ثلثمائة دينار سنة ٩٠٥ هـ بعد أن عاد من إمرته على الحج في ذلك العام . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٦ - ١٣٤ ، وعمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ٥٢٩ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٥ .

(٥) المصدر السابق ، ورقة ١٢٦ - ١٢٧ .

وأمـا في **المجال الاقتصادي** فـقـد تعـددت مـواردالدخل في الحـجـاز، ومنهـا: الزراعـة والرعي والوظـائف الحكومـيـة والعـمل في خـدمـة الحـرمين والحجاج[١] والمهن الحرفية، وهي مجالات عمل حيوية، لكنها محدودة ومحصورة في المدن أو على طول طرق الحج[٢] . وقد سـدت المساعدات الخارجية قدراً من احتياجات الأهالي والحجاج وطلبة العلم والمجاورين[٣] .

أما التجارة فقد كان لها أهمية بالغة ، حتى إنها تعد أحياناً المصدر الوحيد للدخل في الحجاز[٤] وهي ثلاثة أنواع: محلية[٥] ، تشمل تبادل المنتجات بين أرياف الحجاز ومدنه ، وإقليمية : بينه وبين الأقاليم القريبة كاليمن ومصر والشام وأفريقيا عبر جزر دهلك ومصوع وبربرة وزيلع وهرر وكانت لها علاقات بكلوة وممباسا وغيرها[٦] ، وتقوم على هذين النوعين من التجارة حياة المكيين ، لأنها تحمل المواد الغذائية والسلع التموينية التي يؤدي تأخيرها إلى المجاعات والكوارث . ومن أهم الأسـبـاب الداخليـة التي كـانت تؤثر على الاقـتـصـاد في الحجاز في آخر عهد المماليك : الاحتكار، وقلة وسائط النقل ، والأحوال البيئية، والخلافات القبلية . فكان الإقليم يعاني من أزمات اقتصادية حتى في وقت قمّة ازدهار التجارة العالمية، كما في سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٣م، أي قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح[٧] . والنوع الثـالث من التـجـارة هو التـجـارة العـالمية أو تجارة العبور ، ويعتبر مصدر الدخل الأول لحكومة الأشراف ، ولطبقة محدودة من

(١) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ١٢٨ – ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٩ – ٥٠٨ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٦٤ .

(٤) السليمان : علاقة مصر بالحجاز ، ص ١٩٢ – ٢٠٤ ، وعبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص٢٥٨–٢٧٦ ، ومورتيل : الأحوال السياسية ، ص ١٧٣ – ١٩٣ .

(٥) الحسن : النشاط التجاري ، ص ٣٠٠ – ٣٣٤ .

(٦) عن تعريف هذه المواقع انظر : زكي : الإسلام والمسلمون ، ص ١١١ ، ١٢١ – ١٢٧ ، ٣٧–٤٩ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٧٥ ، والسليمان : علاقة مصر ، ص ١٥٨ – ١٧٩ ، والخفاجي: موقف مصر ، ص ٩٧ – ٩٩ .

العاملين بالتجارة ، مما جعل تأثيرها غير مباشر على عامة الناس[١] .

لكن مصادر الدخل كانت قليلة في الحجاز عامة ، وهي عرضة للتقلب بسبب ظروف البيئة والأوضاع العامة في الداخل والخارج ، فحتى مكوس التجارة العالمية، وهي المورد الأساسي للإقليم ، لم تكن تثبت على حال . وقد مرت خلال العهد المملوكي بطورين متباينين[٢] :

الطور الأول : دام من بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حتى مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . نمت خلاله التجارة في الحجاز ، بسبب : انعدام الأمن في الطرق الآسيوية بعد انهيار دولة المغول الإليخانيين . ولسوء معاملة الرسوليين في اليمن والأعراب حول ميناء عيذاب في مصر ، للتجّار ، مما حول تجارة البحر الأحمر إلى موانيء أخرى ، كان من أهمها جدة ، فزاد اهتمام السلطان برسباي[٣] والشريف حسن بن عجلان بالتجار في هذه المدينة ، فحددوا الضرائب فيها بالعشر ، وسهلوا إقامة التجار وعملهم، بينما منعوا المصريين والشاميين من دخول عدن، وضاعفوا الضرائب على الأجانب الذين يمرون بها .

وزاد النشاط التجاري في النصف الثاني من هذا القرن، بسبب فتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م.لأن جزءًا كبيرًا من التجارة التي كانت تمر بها حوِّل إلى البحر الأحمر وموانيء الشام عبر الخليج العربي[٤]،

---

(١) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٧٢٥ ، ٧٣٠ .

(٢) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ، ص ٣٥ ، ومورتيل : الأحوال السياسية ، ص ١٧٣ .

(٣) السلطان برسباي : ( ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م – ٨٤١هـ /١٤٣٧ م ) هو أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، تم في عهده الاستيلاء على قبرص . له أعمال إنشائية في مصر، منها مدرسة في القاهرة، وتعين في عهده أول نائب لجدة . ابن حجر : أنباء الغمر ، ص ٢٤٣ .

(٤) مورتيل : الأحوال السياسية ، ص ١٧٣ .

فتضاعفت عشور التجارة ، وزاد دخل الأشراف بقدر كبير .

الطور الثاني : دخلت تجارة البحر الأحمر في هذا الطور الذي بدأ من أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ؛ وفيه أخذ دخل التجارة في جدة في الانهيار ، بسبب سياسة السلاطين المماليك في النواحي الاقتصادية، التي أدت إلى انهيار تجارة الكارم[١] ، وتحسين اليمنيين لمعاملتهم للتجار . ولاستمرار الاضطرابات في الحجاز ، والسبب المهم هو اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، وتعمدهم إقفال الطرق القديمة، والعمل على احتكار التجارة لهم وحدهم[٢] . فانخفض الدخل[٣] ، وقلت السفن الواردة إلى جدة ، فساءت أحوال الأشراف الاقتصادية ، ونقص دخلهم .

وقد كان للنواحي الاقتصادية أثر كبير في زعزعة الاستقرار في الحجاز، ففي الوقت الذي زاد فيه دخل الأشراف خلال الطور الأول ، الذي ازدهرت فيه التجارة ، كانت الأحوال المالية في دولة المماليك قد أخذت في التدهور ؛ نتيجة للحروب المتواصلة ، وتغيير نظم الإقطاع ، وعموم الفساد، كالاحتكار والتحجير وغش العملة ، والحمايات ، إلى جانب فرض الضرائب الباهظة ، وإهمال إصلاح المرافق . فاتجهوا للاستفادة من غنى أشراف مكة بأن فرضوا عليهم

---

(١) تجارة الكارم : نشاط اقتصادي ، قامت به مجموعة من رجال الأعمال . هناك اجتهادات كثيرة في سبب تسميتهم بالكارمية، كلها معقولة، وليس هناك ما يرجح سبباً على آخر ، وكان مقرهم القاهرة ، وامتدت تعاملاتهم إلى أقطار العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، فكان لهم مندوبون ووكالات في كل المراكز التجارية الإسلامية المهمة ، وقد حققوا نجاحاً اقتصادياً وثروات هائلة، للعبهم دور الوسيط بين العالم الإسلامي وأوروبا، حيث كانوا يتبادلون متاجرهم مع تجار البندقية وجنوه في جنوب إيطاليا، لكن تدهورت أحوالهم بسبب التدخل الحكومي في اليمن والحجاز ومصر، حتى تلاشى دورهم تماماً . زكي : الاسلام والمسلمون ، ص ٥٠ - ٥١ ، و الحسن : النشاط التجاري ، ص ٣٢٦ - ٣٤٣ .

(٢) فهمي : تجارة مصر ، ص ٣٥ - ١١٤ و ٧٣ - ٧٥ ، و التويم : تجارة مصر ، ص ٢٦٣ - ٣١٤ .

(٣) مورتيل : الأحوال السياسية ، ص ٢٠١ .

وعلى أشراف ينبع والمدينة وغيرهم، مبالغ طائلة، نظير توليتهم مناصبهم، مما ترك أثرًا سيئًا في العالم الإسلامي، لأن الأموال كانت عادة تحمل إلى الحجاز لا تؤخذ منه[١] .

وابتداءً من سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م شارك المماليك أشراف مكة في أهم مورد مالي لهم ، وهو عشور التجارة ، بنسبة كانت تتغير زيادة ونقصانًا . كما فرض على الموانيء ضرائب جديدة بسبب الحملات العسكرية في عهد الغوري، حتى تضررت الموانيء المملوكية، ومنها جدة[٢] .

وفي الوقت الذي كان فيه دخل الأشراف ينقص باستمرار ، كانت مطالب المماليك تزداد . حتى إنهم استولوا على ما زاد على الألف من تركة من مات وليس له وارث . وتدخلوا حتى في الضرائب المحلية التي كان يفرضها الشريف على الأسواق[٣] ، دون مراعاة لاحتياجات الصرف في الإمارة ، كحفظ الأمن وتغطية نفقات أتباع الشريف وأسرته[٤] . وقد بدأ سخط هزاع منذ نهاية عهد والده في سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م ، لأنه لم يعد يُعطى النصيب الذي اعتاده من المخصصات المالية[٥] . كان على بركات بمجرد توليه السلطة أن يجابه أعداءه الذين أرادوا الانفكاك عن فلك الإمارة ، وكان أولهم خروجًا عليه أهل حلي[٦]

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ٦٢١ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٥ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٣٠ ، وغاية المرام ، ج ٣ ، ص ٥١٧ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ٤٩ ، ٥١٧ ، وعبدالمجيد : تنظيمات مكة ، ص ١٠٢ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٨٣ .

(٦) وذلك لتعديهم على القوافل التجارية ، فهاجمهم في عامي ٩٠٤ و ٩٠٥هـ . المصدر السابق ، الأوراق ١٠٩ ، ١١٤ .

ومطير[١]، كما طولب أيضًا بسداد ما توجب عليه لقاء منصب الشرافة . فعجز عن ذلك مما أخر تنصيبه .

وقد تشدد البدر بن مزهر ناظر الخاص في مصر ، الذي اعتُبر العدو الأول لبركات ، في مطالبة بركات، وأصر على عدم إمهاله ، بل رفض تنصيبه، ما لم يسدد ما عليه، لأن أعداءه من بني إبراهيم أشعروا المماليك بأن بركات يخبئ أموالاً طائلة ورثها عن آبائه وأجداده[٢]. وكان السبب المباشر الذي ذكره هزاع حين أعلن عصيانه بالاستيلاء على ينبع، وطرد ممثلي حكومة أخيه بركات منها سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م ، هو حاجته إلى المال، وأن ما يصله من مال لا يكفيه[٣] . وقد استطاع هزاع استمالة قانصوه البرج منذ أن قدم أميرًا للحج في سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩م، فجعله يقنع السلطان بأن يفرض على بركات نفقة لأخيه جازان ؛ مما أحنق بركات على قانصوه، فلم يلقه بالاهتمام نفسه الذي كان يلقى به المسئولين المماليك المنفيين أو الفارين إلى مكة، كقانصوه خمسمائة حين قدم إلى مكة منفيّا قبل عدة أعوام . فاستمر قانصوه في مساعدة أعداء بركات بعد أن استرد السلطة بتعيينه نائبًا للشام في العام نفسه وهو سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، فعزل بركات، وولى هزاعًا الشرافة بإغراء أمير الحج ماليّا أيضًا[٤]. لكن بركات رفض الخضوع لما دبر له، فاندلعت الحرب بينه وبين هزاع

---

(١) مطير : قبائل مواطنها عسير والحجاز ونجد، كلها تحمل الاسم نفسه ، والذي يبدو أن بركات هاجم قبائل مطير التي تسكن السفوح الشرقية لحرة الحجاز ، لأنه ورد أنه اتجه إلى الشرق ، وقد كان هجومه عليهم سنة ٩٠٦ هـ . الجاسر : معجم قبائل المملكة ، ص ٦٨٩ - ٦٩١ ، والبلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ، وعبدالعزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١١٩ .

(٢) الشلي : السنا الباهر ، ورقة ١٣٢- ١٣٦، وعبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣، ص ٧٨، ٧٩، ٨١.

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١١٧ ، ١٢٠ - ١٢٢ .

واتسع نطاقها، وتبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، حتى توفى هزاع سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، فعمل ابن ظهيرة على تولية جازان، لأنه كان يعتقد أن لحزب بركات يد في تحديد سلطاته أو أنهم لم يدافعوا عنه، كما مر فيما سبق[١] .

ولقد كان للإغراءات المالية لكل من أمير الحج اصطمر سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م وقيت الرجبى[٢] قائد حملة سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م دور في استمرار جازان في ارتكاب مفاسد ومظالم في مكة ،اعتبرت من الكوارث المعدودة في تاريخها[٣] ، حتى مقتله سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م على يد جند من المماليك، أغراهم أخوه حميضة إثر خلافات بينهما[٤] .

ورغبة في استقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية في الحجاز ، وخوفًا من المدّ البرتغالي نحو الأماكن المقدسة، فقد قام السلطان الغوري بعدة حملات برية وبحرية نحو أربع جهات، على النحو التالي :

---

(١) عبدالعزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٥ . وقد شرح قسماً من علاقة آل ظهيرة ، ص ٩ ، ١٩ .

(٢) قيت الرجبى : قالوا الرحبى بالحاء وليس بالجيم ، هو من مماليك السلطان قايتباي ، بدأ عمله الوظيفي سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٦م أمير عشرة . أصبح واليًا للقاهرة سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م . انضم في الاضطرابات التي حدثت بعد موت قايتباي إلى حزب قانصوه خمسمائة فسجن بعد هزيمته سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م ، وبعد أن تغلب هذا الحزب على الآخر الذي يتزعمه آقبردي الدودار أفرج عنه . وخرج في عدة حملات إلى الشام وإلى عرب عزالة في مصر ، عينه السلطان العادل طومان باي أمير سلاح سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، لكنه تزعم الحركة ضده وسعى في تولية قانصوه الغوري في العام نفسه ، فعينه أتابكًا للعسكر ، غير أن قيت تعسف في جمع الأموال من الناس ، وأساء التصرف في هذه الحملة التي قادها ، ثم عاد إلى التآمر على السلطان وسعى لتولي السلطنة، فسجنه الغوري ، ثم أعدمه سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ وما بعدها ، و ج ٤ ، ص ٣ وما بعدها ، والسنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ١٤٤ – ١٤٦ .

(٣) التزم جازان بدفع ستين ألف دينار . الشلي : السنا الباهر ، ورقة ٣٢ . وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٢٣ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٣٨ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

## أولاً - حملة مكة سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م :

كان ضمن مظالم جازان التي ارتكبها سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م تعديه على قافلتي الحج الشامي والمصري . فأراد الغوري القيام برد فعل قوي ضد ذلك العمل الوحشي ، للحفاظ على مركزه زعيمًا للمسلمين ، فعاقب المتسببين في الحادث -من المصريين- عقابًا صارمًا ، ومنهم أمير الحج والقضاة الذين كان لديهم علم بوجود مشاكل في الحجاز ولم يطلعوه عليها[(١)] .

كما أمر بخروج قافلة الحج في موعدها ، حاملة كسوة الكعبة المشرفة والمساعدات المالية ، وأعاد الاحتفالات بخروج المحمل بعد أن كانت قد أوقفت منذ سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م أي لمدة واحد وستين عامًا[(٢)] ، حتى يظهر بأن الوضع تحت السيطرة ، وكان هذا هدف الحملة الأول ، أما هدفها الثاني فهو إنهاء النزاع بين بركات وإخوته حول الشرافة .

خرجت الحملة إلى الحجاز بقيادة الأتابك قيت الرجبى الرجل الثاني في الدولة . فما كان من جازان إلا أن فر هاربًا من مكة بمجرد علمه بقدوم حملة مملوكية لحربه . كما خرجت وفود من حزبه لمفاوضة قائدها ، وإغرائه بعدم القتال ، فوافق مقابل مبلغ مالي كبير . وحين وصلت الحملة إلى مكة لقيها بركات بالحفاوة والترحيب ، لكنها بدلاً من أن تساعده ، خدعته وألقت القبض عليه ، وصحبته سجينًا مقيدًا بالأغلال إلى مصر[(٣)] . ولا يعلم هل كان هذا التصرف من قيت ناتجًا عن الخوف من جازان لكثرة جنده أو للإغراء المالي

---

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥ ، ٤٩ ، وابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٦١ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٥٩ ، ٦١ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٣٧ .

الذي عرضه ، أو للعجز عن الظفر بالمشاغبين ، فغطى ذلك العجز بالقبض على بركات ، أو ربما لهذه الأسباب كلها مجتمعة ؟.

وبقي بركات سجينًا في بيت الأتابك قيت لمدة تسعة أشهر، ثم تمكن من الفرار، قيل بتواطؤ مع قيت، وقيل مع الدودار، وقيل مع الشيخ فهد بن الحسن الشهير بابن عنان، أحد صلحاء مصر وعلمائها المعروفين[١] .

وصل بركات إلى مكة بعد أن أمده أعراب شمال الحجاز بالمساعدة، فوجد الجند المملوكي قد قتل جازان ، وعين حميضة مكانه ، وذلك سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م [٢] . وهكذا ، لم تحقق هذه الحملة هدفها الثاني ، وهو إنهاء الصراع بين أشراف مكة[٣] .

ووضع بركات السلطان أمام الأمر الواقع ، إلا أن حسن تصرفه مع الحجاج ، وهو في طريقه إلى الحجاز فاراً من مصر . وعدم تعديه عليهم خلال موسم الحج في ذلك العام ، جعلا السلطان يظهر الرضا عنه ، ويقرر توحيد جهودهما معًا للقضاء على باقي المفسدين في الحجاز ، وخاصة أن بركات أثبت أنه أكثر الفرقاء اعتدالاً وعقلانية[٤] ، أو على مبدأ : إذا لم تستطع التغلب عليه فانضم إليه ، لذلك أصدر الغوري مرسومًا بتولية بركات ، أو من يختاره، لشرافة مكة ، ثم طلب منه المساعدة في إقرار الأوضاع في الحجاز .

لكن عودة بركات إلى لسلطة كانت بمشاركة أخيه قايتباي . أولاً : لأن بني إبراهيم لم يرضوا إلا به ، وثانيًا : لأن بركات ظل يخشى المماليك ، ولا يثق في المسؤولين الذين يقدمون إلى الحجاز منهم ، لغدرهم به .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٥٦ – ٥٧ ، والشلي : السنا الباهر ، ص ٧٩ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٢ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الورقتان ١٩٤ ، ١٩٦ .

## ثانيًا - الحملات إلى ينبع :

تحدثنا عن العداوة بين أسرة يحيى بن سبع من بني إبراهيم أمراء ينبع، وأشراف مكة ، منذ أن أصبحت ينبع تحت وصايتهم ، طبقًا للتغيرات التي أُشيرَ إليها ، والتي نتج عنها إجلاء أسرة يحيى بن سبع عن بلدتهم السويق، ونزع إمرة ينبع من أيديهم ، ولم يسمح لهم الشريف محمد بن بركات بالعودة ما لم يوافقوا على نزع أسلحتهم ، حتى لا تتكرر مفاسدهم ، لكنهم لم يقبلوا، وظلوا يحملون عداوتهم ، حتى حانت لهم الفرصة لتحقيق ما يرغبون فيه .

عاد يحيى بن سبع إلى السعي في استعادة إمارته منذ سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م ، مستغلاً الاضطرابات السابق ذكرها ، فكان المحرض الأول ضد بركات ، وهو الذي صعّد المشكلات التي أثارها كل من هزاع والمسؤولين المماليك ، وكانت زبيد تعمل على تولية ابن أختهم الشرافة ، للحصول على ميزاتها ؛ ومنها استرد أادراك طرق الحج التي فقدوها ، فكانوا هم وبنو إبراهيم جندًا لكل من هزاع ثم جازان فحميضة ، الذي لجأ إليهم بعد عودة بركات ، فأرسل لهم الغوري حملتين للقضاء على مفاسدهم ، ولم يقبل تشفعاتهم ولا عروضهم المالية ولا وعودهم ، والحملتان هما :

### الحملة الأولى إلى ينبع :

كان لها هدفان ، الأول : استعادة سيطرة المماليك على الملاحة في البحر الأحمر ، بعد أن أصبح للأعراب نشاط فيه أيضًا ، فلقد هاجم الأعراب الحجاج سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م بحرًا . وفي سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م لم يكتف أعوان جازان من بني إبراهيم بالتحرك في البر ، بل امتدت تعدياتهم إلى البحر ، فسيطروا على سواكن ، ولم يتمكن المسالمة من بني عقبة الذين كلفتهم الدولة بحراسة طرق الحج بحرًا من منع تحركات بني إبراهيم البحرية ، أو أن الأعراب وحدوا جهودهم واتفقوا على الخروج على المماليك في البر والبحر، كما

كـان الحـال في ينبع والكرك التـي تعرضت فيـها قوافل الحج للهجـوم من أصحاب الأدراك أنفسهم[١] ، فخرجت سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م حملة من مصر بحرًا ، واتجهت إلى ميناء ينبع ، ودمرته بعد أن استولت على ما فيه من سفن، للقضاء على الشريان الذي كان يمد الينابعة بالمؤن[٢] . ثم اتجهت إلى جدة، لتفريغ حمولتها، ومنها خرجت بعد ذلك إلى سـواكن[٣] على الشاطئ الغـربي للبحر الأحمر؛ فاستعادت السيطرة عليه ممن كان به من الموالين لبني إبراهيم ، وأقامت به حامـية تابعة للمماليك[٤] . أما الهدف الثاني لهذه الحملـة فـهـو: التصدي للخطر البرتغالي ، كما سيرد في موضـعه .

## الحملة الثانية إلى ينبع :

وصلت حملة جديدة إلى ينبع في رمضان سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، بقيادة خاير بك الكاشف[٥] ، وبصحبتها الرجال القادرون من الحجاج فقط[٦] . وطلب

---

(١) عبد العزيـز بن فهـد : غايـة المرام ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، والجـزيري : الـدرر الفرائـد ، ج ٢ ، ص١٣٦٢ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ص ١٣٣ وما بعدها .

(٣) سواكن : بلد مشهور على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، له صلة تجارية وسياسية بمكة . أهم السلع التي تستوردها مكة منه الحبوب والماشية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ ، والفاسي: العقد الثمين ،ج٤، ص٨٤ ، ٧، ص١٢٣، و Petters : Mecca, p. 168.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٦ .

(٥) خاير بك الكاشف : هـو خاير بك مـن إينال أي أن إينال هـو من اشتراه . تولى كشف الغربية فأصبح المشرف الفني والمالي على المقاطعة الغربية فـي مصر . كـان برتبـة أمير مائة ، ثم أنعم عليه برتبة مقدم ألف بعد انتصاراته في الحجاز ، توفي سـنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ، وقد كان في سعة من المال لكن السلطان استولى على تركته بعد موته. ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩٧، ج ٥، ص ١٥ ، ١٦.

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

السلطان مساعدة الشريف بركات ، استقطاباً له واستفادة من إمكاناته ، فساعدهم في جولات من الصراع، بأن قدم لهم ومعه نحو ألف جندي[١] . دون أن يلقاهم مباشرة، لاستمرار تخوفه منهم[٢] . لكن الحملة عادت إلى مصر بعد ثمانية أشهر من قدومها على الرغم من أنه كان مقرراً لها أن تبقى حتى تستقر الأوضاع ، وذلك بسبب نقص المؤن وموت الدواب . واكتفى بتعزيز حامية مكة بثمانين جندياً ، نصف رواتبهم على السلطان والنصف الآخر على الشريف . وقد تمكن بركات في سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م من قتل مالك بن رومي شيخ زبيد وإخوته[٣] ، في مقره بخليص[٤] . ففتحت طرق الحج المصري في ذلك العام بعد أن اقتصرت على القادرين منذ سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م ، وأوقفت تماماً في سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م. وفي سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م استسلم يحيى بن سبع للسلطان بدون قيد أو شرط[٥] . ثم صالح بركات سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م[٦] .

وبذلك وضع حد لتجاوزات بني إبراهيم وزبيد . كما كان لحملة خاير دورها في تحسين العلاقات بين بركات والمماليك إلى حد ما ، لأنها ردت إليه اعتباره ، فتحقق بذلك قدر كبير من الاستقرار الداخلي في الحجاز .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٦٩ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٦ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الورقتان ١٧١ ، ١٧٤ .

(٤) خليص : سهل متسع يقع شمال مكة ، ويبعد عنها نحو مائة كيلو متر ، يمتاز بوفرة مياه العيون فيه وكثرة المزروعات . ويأتي خليص بعد المشقة التي يعانيها الحجاج والمسافرون في عقبة السويق ، ولذلك اتخذت فيه مرافق لراحتهم . وسكانه من قبائل حرب من زبيد والبلادية . البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ج٣، ص ١٤٩ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٥٨ – ١٤٦٢ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ص ٨٩ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٩ .

## ثالثاً - الحملات إلى شمال الحجاز ( الكرك )[١] :

وهي ضد أعراب لام[٢] بالدرجة الأولى، ومن ساندهم من بني عقبة[٣] وغيرهم، ويتمركز هؤلاء الأعراب في الكرك، لكن منازلهم وأدراكهم تمتد إلى قرب المدينة المنورة [٤] ، ومنطقتهم هذه هي المنفذ الوحيد لقوافل الحج الشامي التي تضم حجاج الأقاليم الإسلامية في شمال وشرق الشام بالإضافة إلى الشاميين أنفسهم[٥]. وقد تكررت خلافات لام مع أمير مكة محمد بن بركات منذ سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م بشكل سنوي تقريباً[٦] ، لكن بعد وقوع الاضطرابات في إمارة مكة. وضعف قوة أشرافها بزيادة سوء الأحوال الاقتصادية، أصبحت هجمات الأعراب تستقصد قوافل الحجاج، فخرجت إليهم حملات من الشام ومصر على مدى ثماني سنوات، ابتداءً من سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩م إلى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م، بلغ عددها ست حملات، على الرغم من تكلف الدولة والشعب نفقات طائلة في الإعداد لهذه الحملات[٧] ، فإن النتيجة الوحيدة التي تحققت

---

(١) الكرك : قلعة حصينة ، تعد معقلاً من معاقل الشام ، لأنها تتميز بموقع استراتيجي ، وهي بمثابة حلقة وصل بين مصر والشام والحجاز وفلسطين . عبد المجيد : التنظيمات الإدارية ، ص ٦٨ ، ١٠٦ – ١٠٨ – ٣٦٢ .

(٢) لام : بطن من الأعراب القحطانيين ، ينتهي نسبهم إلى طيىء منهم من ينزل حول المدينة المنورة ، وهم طوائف متعددة ، ودركهم بعد ينبع إلى حسما في نيابة الكرك . القلقشندي : نهاية الأرب ، ص ٤٤٨، والجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ١٣٦٨ ، ١٤٠٢ ، وعبد المجيد : تنظيمات الشام ، ص ١١٧ .

(٣) بنو عقبة : من أعراب الكرك ، تبدأ أدركهم من البويب إلى آخر مغارة شعيب ، ولهم من حدرة عيون القصب إلى وادي النار ، ولبعض منهم ممن في الكرك أموال لا لدرك وإنما لاتقاء شرهم . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠٢ .

(٥) عبد المجيد : تنظيمات الشام ، ص ١٠٦ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ .

(٧) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ق٢ ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٦٤ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ج ٤ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٣.

هي الصلح مع لام على إعادة فتح طريق الحج الشامي سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢م تحت خفارتها أيضًا، بعد أن ظل الطريق مغلقًا مدة سبع سنوات[١] . وقد كان هذا الصلح هشّا، فلم يفلح نواب الشام ولا شريف مكة بركات في إعادة لام إلى الطاعة ، على الرغم من محاولة الشريف إشراكهم في غزواته ضد القبائل الأخرى ، كما في سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١م ، فعادوا إلى مهاجمة الحجاج في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م . وقد خرج لهم أبو نمي بن بركات ، وتمكن من تحقيق نصر جزئي عليهم[٢] .

ويعود السبب في كثير من تحركاتهم إلى الاضطرابات السياسية التي أدت إلى نقص عوائدهم أو إيقافها تمامًا دون مراعاة لحاجتهم ، مع القسوة في التعامل معهم[٣] . هذا إذا استثنينا العناصر المخربة التي تستغل الفوضى لتعيث في الأرض فسادًا .

## رابعًا - حملات جدة :

خرجت حملتان بحريتان، وتبعتهما عدة فرق عسكرية جاءت كإمدادات لهما، من السويس إلى جدة، بهدف تحصينها، ثم اتخاذها قاعدة ومنطلقًا لمجابهة الخطر البرتغالي الذي كان يهدد المقدسات الإسلامية، وخاصة أن التحركات البرتغالية زادت في البر والبحر ابتداءً من سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م، فتجددت استغاثات الهنود والبنادقة بالغوري، مما جعله يرسل قوات إلى جدة في الوقت الذي كان يعمل فيه على تهدئة الأحوال الداخلية في الحجاز[٤] .

---

(١) ابن الحمصي : حوادث الزمان ، ق ٢ ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٤٤ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٠٦ ، ١٦١ ، ١٦٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٥ مثلاً .

(٣) قال الجاسر : إن الأعراب أساءت حين كانت بدون رعاية ، ولكن حين وجدت التوجيه أصبحت عنصرًا منتجًا ، وذلك في تعليقه على أخبار الأعراب في كتاب الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٤) الدسوقي : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، ص ٤١٣ ، وأباظة : أثر تحول ==

## الحملة الأولى إلى جدة :

قدمت من مصر في سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م بحرًا بقيادة حسين الكردي[١]، وهي الحملة نفسها التي عُرف أنها أسهمت في تقوية الوجود المملوكي في البحر الأحمر ، وأنها بعد أن ضربت ينبع تقدمت إلى جدة ، بهدف تحصينها ببناء سور حولها . وقد جرى إنجاز أهم المراحل المطلوبة من السور في أقل من عام ، نظرًا لخطورة الموقف[٢] . ثم أضيف للسور برجان بحريان وباب جديد سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م [٣] بمساعدات أرسلها الهنود للغوري ، للإسهام في المجهود الحربي ضد البرتغاليين . كما عملت إضافات أخرى إلى السور في بداية العهد العثماني كما سيأتي .

## الحملة الأولى إلى الهند :

بعد أن اطمأن الغوري إلى تحصين جدة ، بعث دفعة من الإمدادات الجديدة إليها ، وأمر حسين الكردي باستكمال استعداداته، والخروج على رأس الحملة إلى الهند ، فخرج في شهر ربيع الثاني سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م[٤] . وبعد أن تزودت من اليمن ببعض المؤن[٥] وواصلت طريقها إلى الهند ؛ فالتقت

---

= التجارة العالمية ، ص ٣٠ ، ٤٤ ، ١٠٦ - ١٠٨ . فهمي : طرق التجارة ، ص ٧٩ ، وعبد القادر العيدروسي : النور السافر ، ص ٥٦ .

(١) بدأ الغوري مجابهته للبرتغاليين بالجهود الدبلوماسية والمراسلات مع المعنيين من ملوك أوروبا ؛ وحين لم تُجد لجأ إلى القوة وجهز حملته هذه . فهمي : طرق التجارة ، ص ٧٧ - ٧٩ ، و ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٥ - ٩٦ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٦١ ، ١٦٦ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٠٩ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٦١ - ١٦٦ .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٨٥، عبد العزيز بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ٢٠٢ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١١٦ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

بالبرتغاليين في معركة شول سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، وحققت نصراً جزئيّاً عليهم، وقد قتل قائد البرتغاليين وهو ابن نائب ملكهم في الهند . ولكن أسطول البرتغاليين باغت القوات المملوكية بعد ذلك في ميناء الديو، وقضى عليها في سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م[١] وهي المعركة التي اشتهرت باسم « معركة ديو » البحرية؛ وذلك للفارق الكبير في التسليح ، وقيل لعدم تعاون الهنود مع قائدها[٢]. وقد عاد حسين بعد غياب عدة سنوات، وبصحبته رسل من ملوك الهند يطلبون المساعدة من جديد . فأعيد حسين إلى نيابة جدة في رمضان سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م [٣] ، وتقرر الإسراع في إخراج حملة ثانية إلى الهند .

## الحملة الثانية إلى الهند :

زادت التحركات البرتغالية نشاطًا في البحر الأحمر منذ سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، ففي سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م قبض الشريف بركات على جواسيس في مكة فأرسلهم إلى السلطان، وفي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م هاجم البرتغاليون عدن وسواكن، وحاولوا ضرب جدة مرتين، وأصبحت لهم صلات بالحبشة المسيحية بقصد توحيد قواهم معها ضد المسلمين[٤] ، مما تسبب في حالة من الذعر في

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٨٠ ، وفهمي: طرق التجارة ، ص ٨٩ - ٩٠ . وقد أطلق شاكر هذا المسمى على المناوشات التي دارت بين البرتغاليين وحملة سليمان الخادم سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م وهو ما لم تعرف به . شاكر : التاريخ الإسلامي، ج ٨ ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٦ . عبد العزيز بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ١٨٤ .

Lane Poole : Medieval India under Muhammedan Rule, pp.176-177 .

Lane Poole : A History Egyptian the Middle Ages, 352 .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٨٥ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٦.

(٤) عين الفونسوا البوكيرك نائبًا لملك البرتغلال بعد دالميدا ، فغير السياسة التي كان يتبعها النائب الذي سبقه، وهي الاكتفاء بالسيطرة على الملاحة، وقرر العمل على احتلال المراكز البحرية المهمة وإقامة الحصون القوية في جميع الجهات في المحيط الهندي، حتى يحكم السيطرة على مصادر التجارة فيدعم بذلك مركزه النائي عن البرتغال، ويأمن ضربات الحكام الوطنيين، فتمكن من السيطرة على بوابات المحيط الثلاث، وهي هرمز وباب المندب وملقا في جنوب جزر الملايو، وأحكم سيطرته على =

مكة ومصر ، حتى قرئ القنوت في المساجد[١] . فاتجه الغوري بطلب للمساعدة من البنادقة، فاستجابوا له[٢] بعد أن رفضوا في المرة السابقة ، كما استعان بالهنود، فأرسلوا له ثمن حمولة ثلاث سفن ، استفاد منها في تكملة سور جدة، ثم لجأ إلى العثمانيين فأمدوه بثلاث دفع من المساعدات، وصله منها دفعتان، إحداهما سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م ، والثانية سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ، وأغرق فرسان القديس يوحنا برودس[٣] الدفعة التي أرسلت سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م .

بدأ العمل في بناء الأسطول في السويس في محرم ٩١٥هـ / ١٥٠٩م، أي بعد معركة شول مباشرة[٤] ، واستمر إعداده عدة سنوات[٥]، أرسلت خلالها قوات لحفظ جدة ،استجابة فورية من الغوري لاستنجاد الشريف بركات به

---

== شرق إفريقيا . وكان أهم ما حققه هو استكشاف أحوال البحر الأحمر: أباظة : أثر تحول التجارة ، ص ١٠٧، ١١٠، و :

-Serjeant, R.B.:The Portuguese of the South Arabian Coast,p.170 .

-Alvarez, F : Narrative of the Portugese Embassy to Abyssinia during the years 1520 - 1527, pp 265 , 270.

-Coupland, R. : East Africa and Its Invaders, pp 40 - 42 .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ٣٠٧ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) فهمي : طرق التجارة ، ص ٩٢ .

(٣) رودس : جزيرة صغيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط عند مدخل بحر إيجه جنوب غرب الأناضول، سكنها بقايا الصليبيين وفرسان القديس يوحنا، وهم مجموعة من الفرسان الصليبيين تكونت في القدس خلال الحروب الصليبية، وبعد أن طردوا من الشام تمركزوا في رودس، وقد طردوا من هذه الجزيرة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني وتمركزوا في مالطة ثم قضى عليهم نابليون سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م نهائيًا، لأنهم كانوا ضد الثورة الفرنسية ، وذلك خلال حملته على مصر . الدسوقي : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، ص ٢١ ، وفريد : الدولة العثمانية ، ص ١٨٠ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ٢٠١ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥١ ، ١٨٥ .

بعد أن هاجم البرتغاليون جزيرة كمران ، وهددوا بمهاجمة جدة سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ، حيث وصلت فرقتان من الجند: الأولى ، بقيادة الأمير خوشقدم ، والثانية بقيادة الأمير شاهين ، وأقامتا في أبراج السور[١]، وفي سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م[٢] تم إعداد الأسطول[٣] ، وقدم به سلمان الرومي[٤] المشرف على العمل فيه إلى جدة،حيث تسلم حسين الرومي قيادة الحملة الثانية إلى الهند أيضاً، وقد مر بكمران لتحصينها[٥]، ولطلب المؤن من الطاهريين في اليمن ، فرفضوا التعاون معه ، مما اضطره إلى مهاجمة أراضيهم ، والاستيلاء على قسم منها، وقد أقام حسين حاكماً من قبله على اليمن، وعاد إلى جدة[٦] بعد أن نمى إلى علمه القضاء على دولة المماليك، ودخول العثمانيين إلى مصر، وانتقال مهمة التصدي إلى البرتغاليين بعد ذلك إلى الدولة العثمانية مباشرة سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٣١ ، ٤٧٢ .

(٣) حملة سلمان عدت الطبقة الخامسة من الجند ، لأنها ليست من المماليك ولم يعدّ جندها بنظامهم السابق، بل جمعت من المتطوعين من أجناس مختلفة ، منهم مغاربة وأتراك بلغ عددهم ألفي شخص ، حتى قائدهم بحار عثماني . أعد لهم عشرين مركبًا ، وقد زار الغوري الحملة في السويس ، وبعد أن خرجوا إلى جدة غرق أحد المراكب ووصل إليها الباقي . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٣١، ٤٧٢ ، ويلماز أوزتونا : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٤) سلمان الرومي : بحار تركي من المجاهدين في البحر الأبيض المتوسط ، كلفه الغوري بإعداد هذه الحملة ، وقد واصل سلمان الجهاد حتى قتل في اليمن . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٣١، ويلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢١ ، ٢٢.

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ، ص ٢٧٧ . والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ، ص ٢١٠ .

ولهذا لا يمكن إنكار ما قام به السلطان الغوري من أعمال أسهمت في درء الخطر السياسي عن الحجاز ، سواء من الداخل أو من قبل البرتغال[١] .

ولم تقتصر أعمال الغوري على مقاومة البرتغال ، وحماية الأماكن المقدسة من وصولهم إليها ، بل امتدت أعماله إلى العمران ، وخدمة الحجاج وبيت الله الحرام .

فقد حرص الغوري على إنفاذ قوافل الحج وسلامتها ، وعاقب المقصرين في حقها في مصر والحجاز ، واستمر في إرسال كسوة الكعبة والمساعدات لأهل الحرمين الشريفين ، وعمل على تأمين احتياجاتهما دون انقطاع طوال عهده ، فكانت ترسل بحراً حتى في أحلك الظروف التي كانت توجب توقف خروج قوافل الحج من مصر كما في سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، التي منع فيها خروج الحجاج بسبب اضطرابات أعراب الحجاز[٢]، وأيضًا في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م في الوقت الذي كان فيه الغوري يجابه الخطر العثماني نجده يبعث من معسكره في الشام لدويداره ( كاتبه ) في مصر ، يطلب منه التأكد من سلامة طرق الحج ، وألاّ يسمح بخروج الحجاج ما لم يتأكدوا من أمن الطريق . لكن بعد وقوع معركة مرج دابق ودخول العثمانيين الشام ، لم تخرج قوافل الحج ، إلا أن التعليمات بشأن إرسال الكسوة ومستلزمات الحرمين نفذت ، حيث أُرسلت إلى جدة بحراً[٣] .

وقد أعطى الغوري لصيانة الحرمين ، وللأعمال الإنشائية فيهما وعلى طول طرق الحج أولوية دائمة وبعث موظفًا مختصًا للقيام بهذه المهام في مكة ، هو خاير بك[٤] ، الذي عُرف بالمعمار . وكان قد أوفد قبله ناظر الخاص لتوزيع

(١) الثقفي : دراسات متميزة ، ص ٨٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٨ ، ٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١١٥ .

(٤) خاير بك : أحد أمراء العشرات ( أي فرقة من عشرة جنود ) ، كلفه السلطان الغوري بالمنشآت ==

صدقات في مكة ، ولغسل الكعبة ، والبدء في إصلاح عين عرفة ، وذلك سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م ، أي بمجرد انتهاء العمليات العسكرية داخل الحجاز[١] .

فعني خاير بالمنشآت العمرانية بأن عمل عدد من الإصلاحات في المسجد الحرام ومنها تجديد باب إبراهيم وعمل في أعلاه قصر ومبنيين حوله وكان له رباطًا ومدرسة في مكة [٢] ، كما أقام الترميمات على طول طرق الحج على عدد من المنشآت المهمة منها خانات وقلاعا وبركا، وحفر آبارًا ، وأصلح العيون في عدد من المحطات التي ينزل فيها الحجاج للراحة ، وقد عيّن في القلاع جندًا للحراسة يستبدلون سنويًا ، وهي أعمال جليلة انتفع بها الحجاج ، وظلت تذكر للغوري لعشرات السنين .

أما قضية توفير المياه لمكة وعرفة فقد جند لها الغوري جهود جميع المسئولين في الحجاز من مصريين ومكيين على الرغم من الحالة المالية السيئة[٣] ، وقد تكفل السلطان شخصيًا بالتعقيب على خطوات التنفيذ في معظم مراسيمه التي كان يبعثها إلى مكة، حتى تحقق قدر مُرضٍ من العمل .

نشطت في مكة أعمال الحسبة، حيث نظفت الشوارع، وخاصة المسعى،

---

== العمرانية في مكة ، وبعد أن باشر عمله لفترة عاد إلى مصر ليطلع السلطان على ما تم ، وعلى نتائج استطلاعاته سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م ، ومعه رؤوس من قتل من الأعراب من زبيد وبني إبراهيم الذين خرجوا على السلطة ، وتعدوا على الحجاج ، وقتلوا في حملة ينبع الثانية ، فأنعم عليه السلطان بإمرة طبلخانة ، مما أكسبه مكانة ، فأصبح من الشخصيات المرموقة في الحجاز ، ويعمل له استقبال رسمي حين حضوره ، ويخرج المسئولون لاستقباله إذا قدم من مصر ، ومنهم حسين الكردي نائب جدة وممثلو شريف مكة . ثم عين باش مكة لفترة من الوقت ، لكن ساءت علاقته بالسلطان بعد فترة، وسجنه لعدم مطابقة بعض مراحل العمل للمطلوب ، ولقضايا مالية كانت هناك بعض التساؤلات حولها، دام عمله في الحجاز من سنة ٩١٣ إلى ٩٢٠هـ . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص١٧١، ج ٤ ، ص ٨٤، ١٢٩ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٧٢ ، ١٨٦، وعمر الشماع الحلبي: عيون الأخبار ، مخطوط ، ج ١ ، ورقة ٢٧ ، والموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٢٢ .

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٧٤ ، ١٨٨ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٣ ، ج ٥ ، ص ٩٥ ، ودفتر مسقفات الغوري ، إدارة الأوقاف في مكة ، ص ٤ ، وحسين الشافعي : الرباط في مكة ، ص٢١٥ ، والدحلان : خلاصة الكلام ، ص١٠٣ ، وقد ورد في رسالة القشامي : الأوضاع في الحجاز ، ص ١٧٠ بأن الغوري لم يحدث مدرسة ولا رباطًا في مكة مما يتنافى مع المصادر السابقة .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ١٣٣ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٧٠، ١٧٢ ، والعصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٥٠ ، ٥٣ .

وعني بنظافة أبواب المسجد الحرام والمناطق حوله وغير ذلك ؛ وبلغ من اهتمام الغوري بهذا الجانب أنه فصل الحسبة عن باش مكة ، وعين لها موظفًا يراجع السلطان مباشرة هو قراكز ، وذلك سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م[١] .

لا يُعد نشاط الغوري المعماري في مكة مستغربًا أو جديدًا ، حيث عُرف عنه الولع بالعمارة حتى في مصر . وأما الاهتمام المملوكي بمكة عامة فقد دام طول حكمهم[٢] . لكن ما تم في هذه الفترة فاق المألوف ، خاصة مع الظروف المالية والحربية التي كانت تمر بها دولة المماليك ، مما يدل على أنه تحرك سياسي إلى جانب كونه خيريًا .

وكانت أجلّ خدمة أسداها الغوري للمكيين هي إعادة إقرار الأمن في مكة، بعد أن فُقد تمامًا، وضاعت أرواح الناس وحرياتهم وأعراضهم وأموالهم. ثم استأنف أعمال البر في مكة ، فكان ضمن المهام التي قدم لأجلها ناظر الخاص توزيع إعانات إضافية على الناس ، زيادة على ما كان يرسل إليهم من مخصصات سنوية . وحين قدمت عائلة السلطان الغوري للحج سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م تفقدت أحوال المحتاجين ، وقامت بحصر الأربطة في مكة، وخصصت لكل منها مساعدات مالية ، لكن كان الإحسان في عهد الغوري أقل بكثير مما كان عليه في عهد قايتباي ، وكان محل نقد معاصريه ، ذلك وكأنهم نسوا تغير الظروف الاقتصادية حينها[٣] . تلك الظروف التي كانت سببًا في

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ص ١٧٢، ١٧٥ ، ٢٢٥ عن إصلاح المكاييل والموازين ، و ص ١٨٨ عن توسعة الشوارع ، و ص ١٩٥ عن الدعوة لترحيل الحجاج سنة ٩١٦ هـ ، والجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٧١٤ ، ٧١٦ . وقد سبق تعريف الحسبة ص ١٧ .

(٢) عن أعمال كل من السلطان جقمق وقايتباي والغوري : العلاقات المصرية ، ص ١١٢ – ١٢٤ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٢ – ٢٢٣، والجزيري : الدرر ، ج ٣ ، ص ١٦٨٥ – ١٧٢٩ .

استمرار السياسة المالية للدولة في الحجاز ، بما عرفت به من مغالاة في الحرص على مستحقاتها وغيرها في الحجاز منذ مطلع القرن التاسع الهجري[١] . وكانت من أهم المآخذ على عهد الغوري[٢] .

## ب - علاقة مكة بالعثمانيين قبل سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م :

الدولة العثمانية دولة إسلامية ، كانت إحدى خصائصها أنها قامت على أسس دينية[٣] ، ولذلك ارتبطت بمكة بروابط دينية وثيقة . أولها : قصد الحجاج العثمانيين إليها لأداء فريضة الحج[٤] . وثانيها : الإسهام العثماني فيما نُدب إليه المسلمون من رعاية أهل الحرمين والبر بهم[٥] ، وهي روابط أوجدت نشاطًا اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا للعثمانيين في مكة ، قبل امتداد نفوذهم السياسي المباشر إليها بفترة طويلة .

فلقد كانت وفود الحجيج العثماني تقدم إلى مكة برفقة قافلة الحج الشامي[٦] ، وغالبًا ما كان يأتي بصحبتهم شخصيات من المسئولين العثمانيين لأداء فريضة الحج ، وللقيام بمهام كانت توكل إليهم في الحرمين ، حيث حج القاضي شمس الدين محمد بن حمزة الرومي الحنفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨هـ[٧]. وقدم أيضًا وزير السلطان مراد الثاني ( ٨٢٤هـ/ ١٤٢١هـ - ٨٥٥هـ/١٤٥١م) ووزع مساعدات جزيلة في الحرمين ، وعمل سقاية للحجاج في المسجد الحرام في سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م[٨] .

---

(١) الأسدي : التيسير والاعتبار ، ص ١ ، والبكري : نصرة أهل الإيمان ، ص ١٠٩، ١١١ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٨ ، ١٥٤ .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٤) حرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٦٠ ، والحربي : نظم الحكم والإدارة ، ص ٣٧ .

(٥) الأزرقي : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ٥٦٨ .

(٨) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

وفي سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م وَفَدَ جم بن محمد الفاتح إلى مكة لأداء فريضة الحج ، في الوقت الذي كان فيه لاجئًا في مصر ، بعد أن خرج على أخيه بايزيد الثاني[١] . وممن كان في مكة سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م القاضي مفتي الروم ، وقد اتصل به الشريف حميضة في فترة توليه الحكم في مكة طالبًا منه إقراضه مبلغًا من المال فاعتذر منه . ثم سافر إلى مصر للتوسط لدى المماليك بإصرار، لأجل تولية أبي المكارم بن محب الدين قضاء المالكية في مكة. وعاد معه إليها فاستقبله المسئولون فيها باحتفال رسمي ، وأقاموا له الولائم بناءً على توصية من القاضي المالكي في مصر عبد البر بن الشحنة[٢] .

وهناك مسئولون عثمانيون آخرون ، كانوا يقدمون مع الحجاج بصفة دورية . ومنهم وكيل الصدقة الرومية . وكان في عهد الغوري الشريف عبدالله الفراش ، ابن خالة العالم المدني إبراهيم السمرقندي[٣] ، الذي قربه السلطان

---

(١) ذكر السباعي في تاريخ مكة ص ٣٤٣ التالي : « إن السلطان بايزيد والد سليم فاتح مصر حج في السنة التي تولى فيها ملك آل عثمان، وتوثقت أسباب مودته بأمير مكة لذلك العهد محمد بن بركات، كما توثقت مودته بكبار العلماء في مكة وأعيان الأهالي ونالهم بعطاياه ، وأغدق عليهم من خيراته ، ووزع على الفقراء أموالاً جمة » . وقد أخذ هو وغيره من الباحثين بعد ذلك. انظر مثلاً الحربي : نظم الحكم، ص ٣٩ عن النهروالي : الإعلام بأعلام بلد الله الحرام ، ص ٢٧٢ الذي قال : « وقاتله السلطان أخوه جم وتهازما، فانهزم السلطان جم، ووفد إلى مصر ، وحج زمن السلطان قايتباي » فسماه النهروالي سلطانا ، بينما لم يل السلطنة. أما سلاطين العثمانيين فإنه لم يحج منهم أحد». يلماز أوزتونا : الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٨ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ٧٠ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٤٢ .

(٣) إبراهيم السمرقندي : عالم من المدينة المنورة، طاف ببلاد العجم والعثمانيين ، كان يعرف اللغة التركية ، وقربه الغوري أيضًا، وولاه عدة مهام في مكة، وكان يستقبل استقبال كبار الشخصيات في مكة ومصر، لم تحمد سيرته وكان عليه بعض المآخذ بين عامة الناس ، ومن ذلك أنه وشى بابن ظهيرة فسجن ، وأنه استولى على الأموال التي أرسلها السلطان لقبائل لام . خرج مع الغوري في حملة الشام ، وكان على صلة بالعلماء هناك ، اتضحت علاقته بالعثمانيين بعد قدوم السلطان سليم إلى الشام لكن السلطان المملوكي طومان باي ظفر به وقتله . =

الغوري إليه ، وكلفه بتنفيذ عدة مهام في الحجاز[١] .

ومنهم الرسل أو السفراء الذين كانوا يترددون على مكة ، وكانوا على صلة طيبة بأهلها ، ومَثَّلهم في سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦م شخص يُدعى عبد الرحمن ، وقد غرقت سفينته قرب جدة في ذلك العام ، وذكره الناس بالخير[٢]. كما أقامت في مكة جاليات عثمانية ، خصصت لها رواتب سنوية كانت تصلهم في موسم الحج[٣] . وممن أقام في الحجاز من العثمانيين أيضًا الجند الذين قدموا بصحبة الإمدادات العسكرية للحملات التي وجهت ضد البرتغاليين ، وكانت آخر دفعة وصلت إلى جدة بصحبة سلمان الريس[٤] .

كما اهتمت الحكومة العثمانية ، بخروج قوافل الحجاج ، وبإصلاح الطرق التي يمرون بها . ليس داخل دولتهم فقط ، وإنما أيضًا في المناطق التابعة للمماليك ، فقد أبدى عدد من السلاطين[٥] العثمانيين رغبتهم في إصلاح مصادر المياه على طرق الحج ، وفي مكة بعد أن اشتكى حجاجهم من ندرة المياه ، والمشقة في الحصول عليها .

وأما رعاية أهل الحرمين فقد تمت عن طريق إرسال مساعدات لهم عُرفت

---

= عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٨٠ ، ١٤٣ - ١٤٥ ، وابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ١٥ .

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الورقتان ١٨٢ ، ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ١٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٧٧ .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، وابن إياس : بدائع الزهور، ج ٥ ، ص ٢٣٤.

(٥) وأشهرهم السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد الثاني . الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ١٦١ - ١٦٢ . حرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٦٠ ، والنهروالي : الإعلام ، ص٢٧٤- ٢٧٦، و جارشلي : أمراء مكة ، ص ٦ . و

Tansel : Osmanli Kayakarna, SS. 22 - 23 , 330 .

باسم الصـرة[١] ، كانت تصل إلى مكة مع قوافل الحج منذ مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . حسب ما أوردته المصادر التركية[٢] . أما المصادر المملوكية والمكية فقد اكتفت بذكر أخبار ملوكهم ، والثناء على شخصياتهم ، والإشادة بانتصاراتهم ، لكن لم يرد لديهم ذكر للمساعدات العثمانية إلى مكة ، على الرغم من حرص المؤرخيين المكيين[٣] على ذكر أقل ما يرد إليهم من المعونات ، والثناء على أصحابها . إلا أن ذكر العثمانيين لم يرد بشكل منتظم إلا اعتبارًا من الربع الأخير للقرن التاسع الهجري[٤]، وتوسعوا في الحديث عنهم بعد عقد الصلح بين بايزيد الثاني والسلطان المملوكي قايتباي الذي كان من بنوده السماح بمرور المساعدات لأهل الحرمين من ميناء الإسكندرية[٥] . فأصبحت المساعدات تصل إلى مكة مع قافلة الحج المصري[٦].

(١) الصـرة : لغويًا كلمة مأخوذة من الفعل صر بمعنى ضم ، وجمعها صرر، ويقصد بها الكيس الذي تحفظ فيه النقود وغيرها ويربط عليها جيدًا . ولها معنى اصطلاحي وهو مجموعة الأموال التي كانت تبعث بها الدولة العثمانية لأهل الحرمين سنويًا مع قوافل الحج . وسترد تفاصيل عن تاريخها ومقدارها في الفصل الخامس من هذه الدراسة Atalar : Surre , SS. 1,3.

(٢) محمد فريد : الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٢ ، وحرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٥٩ ، ٦٠ ، والبكري : طرق الحج ، ص ٣٢ ، ٣٨ .

(٣) ويستثنى منهم ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، إلا أن كتاباته مثلت وجهة نظر المماليك ، وابن إياس في بدائع الزهور لكن كتابته كانت شديدة الإيجاز والاختصار في بعض الأحيان ، والسخاوي في الضوء اللامع فقد مدح هؤلاء المؤرخون العثمانيين لكن لم يذكروا مساعداتهم الأولى لأهل الحرمين . الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٤) وذلك في كتاب بلوغ القرى في الذيل على إتحاف الورى لابن فهد ، وذكر ابن إياس وبعض مؤرخي الشام بعض من الإسهامات العثمانية في البر بأهل الحرمين . حيث بدأ ابن فهد في ذكرهم اعتبارًا من سنة ٨٨٨ هـ ، انظر ص ١٢ في كتاب : بلوغ القرى ؛ مما يدل على أحد أمرين : فإما أن العثمانيين كانوا متحفظين في اتصالاتهم بالناس بحسب الطبيعة المستعلية لهم . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٤٢ ، وبيومي : قراءة جديدة ، ص ٩٤ - ٩٦ ، أو أن تعتيمًا مقصودًا أحيطت به أنشطة العثمانيين في مكة بسبب التنافس الدولي في مكة وتصدي المماليك له .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، انظر أخبار الحج سنويًا منذ سنة ٩١٦ هـ ، ورقة ١٩٦ .

وقد شكلت هذه المساعدات مع غيرها ، مما كان يرد إلى مكة من البلاد الإسلامية الأخرى ، موردًا اقتصاديًا أسهم في التخفيف من وطأة الظروف البيئية والاقتصادية المتقلبة في الحجاز .

وخصص قسم من هذه المساعدات لتشجيع النواحي العلمية والثقافية ، كالصرف على دروس في الحرمين الشريفين ، وعلى العلماء عامة[١] . وقد تختص شخصيات منهم برواتب ثابتة[٢] ، مثل السمهودي[٣] والزرندي[٤] في المدينة المنورة ، وبعض آل الشيبي في مكة[٥] .

وكان تكريم بايزيد الثاني للشاعر أحمد بن العليف[٦]، واختصاصه براتب

---

(١) سنة ٨١٣ هـ كان قسم من المساعدات ( للطلاب على كل المذاهب ولقارئي الحديث ) ، وكان قسم منها يوزع على عامة العلماء ، وقد لا يكون نصيب الواحد منهم إلا أشرفيات قليلة ، أو قد تصل إلى مائة دينار كما في سنة ٩١٦هـ . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ٥٥ ، ١٧٣ ، و العيدروسي : النور السافر ، ص ٥٦ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ٢١٨ ، وأبو السرور البكري : المنح الرحمانية ، ص ٣٢ .

(٣) علي السمهودي : ولد سنة ٨٤٤ هـ/١٤٤٠م، في سمهود في مصر ، ودرس بها ، نزل المدينة سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م . كان عالمًا مؤرخًا ، اشتغل بالتدريس ، تتلمذ عليه كل من عاصره ، عين مفتيًا في المدينة المنورة ، توفي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م . له مؤلفات منها : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، وخلاصة الوفاء ، ملخص للكتاب السابق ، وغيرهما . السخاوي : الضوء اللامع ، مج ٣ ، ج ٥ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، وابن العماد : شذرات الذهب ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٤) الزرندي : عرف عدد من علماء المدينة بهذا اللقب ، وممن كان له صلة بالعثمانيين في عهد الغوري قاضي القضاة فتح الدين الزرندي ، وقد خصصوا له راتبًا ظل يصرف لولده بعد موته أيضًا . عبد العزيز بن فهد، بلوغ القرى ، ورقة ٢١٨ ، والزرندي : المرور بين العلمين ، ص ٥ ، ٣٠ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ٢٠ ، ٢٦ .

(٦) أحمد بن العليف : ولد سنة ٨٥١هـ / ١٤٤٧م ، درس على عمر بن فهد والفاسي ، رحل إلى القاهرة مرارًا لطلب العلم ، اشتغل بنسخ الكتب . وصفه جار الله محمد بن عبد العزيز بن عمر بن فهد ==

ثابت له ولعقبه ، يهدف إلى تشجيع الأدباء على التنويه بذكر العثمانيين ، بالإضافة إلى أهداف أخرى سيرد ذكرها فيما بعد .

وعلى الرغم من أن المساعدات العثمانية والهندية[١] كانت أكبر المساعدات الخارجية وأكثرها انتظامًا وشمولاً ، فإن العثمانيين لم يحاولوا إيجاد أي نوع من النفوذ السياسي الظاهر لهم فيها ، حيث لم يطالبوا بالدعاء لهم على منابر الحرمين ، ولم يرسلوا محامل تحمل اسمهم ، كما لم يقوموا بأي حركة عمرانية كبناء الأربطة أو الميضأ أو المدارس على نحو ما كان يعمل الهنود[٢] أو اليمنيون أو التركمان ، إلا ما سجل من طلب الحكومة العثمانية لعمل إصلاحات على طريق الحج[٣] ، ثم في مكة وما قام به الخواجا محمد بن عباد الله الرومي[٤] من تجديد مقام الحنفي في المسجد الحرام ، ومع ذلك فسرت تلك الأعمال بتوجهات سياسية من قبل المماليك ، لأنها مثلت مزاحمة

== بأنه متنبِّي زمانه ، لأنه كان شاعرًا مبدعًا ، لازم الشريف بركات ، ومدحه في كل مناسبة مر بها ، وتعاطف معه في كل محنة تعرض لها . له ديوان شعر ، اشتهر بشاعر البطحاء ، وهو من عائلة برز فيها أكثر من شاعر ، مدح كل منهم الأشراف أمراء مكة طوال القرن التاسع الهجري . الهيلة : التاريخ والمؤرخون ، ص ١٧٢ - ١٧٩ ، و السخاوي : الضوء اللامع ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ، وترجمة والده في السخاوي : الضوء اللامع ، مج ٢ ، ج ٣، ص ١٥٥ .

(١) تحدث عبد العزيز بن فهد في مؤلفه بلوغ القرى ، عن المساعدات الواردة إلى مكة اعتبارًا من سنة ٨٨٥هـ بصفة سنوية تقريبًا ، كما تحدثت بقية المصادر الأخرى عن الفترات السابقة ، مثل إتحاف الورى ، ومؤلفات الفاسي المعاصرة لتلك الفترة .

(٢) بنى الهنود وغيرهم العديد من المدارس والأربطة التي تحمل أسماء ملوكهم أو مدنهم ، مثل المدرسة الخلجية والمدرسة الكلبرقية ورباط رامشت . وفي سنة ٨٨٦هـ وصل محمل عراقي وأراد الخطبة للتركمان ، وفي سنة ٨٤٨هـ كسا شاه رخ الكعبة . عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ٤٨٥، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٨ ، و الخفاجي : العلاقات المصرية ، ص ص ٤٢ - ٥٠ ، ٥٩ - ٧٠ .

(٣) طلب محمد الفاتح إجراء إصلاحات في طرق الحج ، وقد فسرت بأنها تدخل سياسي في دولة المماليك ، و

Asik Pasa - Zade : Asik Pasa Tarihi, p. 208 - 209 .

(٤) الخواجا محمد بن عباد الله الرومي : الخواجا كلمة فارسية ، تعني السيد أو المعلم أو الأستاذ ، ==

لهم في اختصاصهم وواجباتهم كزعماء للعالم الإسلامي[١] .

أما علاقة العثمانيين بأشراف مكة ، فقد بدأت على حد علمنا من قبل الشريف ثقبة بن حسن بن عجلان الذي نازع أخاه بركات على الإمارة ، وحين لم يجد طائلاً فر مستنجداً بالعثمانيين سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م [٢] . وبعد فتح القسطنطينية أرسل محمد الفاتح بالبشرى لشريف مكة ، ومعها قسم من الغنائم ، لتوزع على فقراء الحرمين ، على الرغم من أنه قد بعث برسالة مماثلة للمماليك الذين كانت تقع إمارة مكة تحت نفوذهم السياسي في ذلك الوقت[٣] ، وكان للأشراف عامة ، وأشراف الحجاز وغيرهم من أهل الحرمين ، تقدير ورعاية خاصة في الدولة العثمانية ، كانت تحيطهم بها منذ نشوئها[٤] .

وقد استعان المكيون بقسم من المساعدات العثمانية خلال فترة الحرب بين أبناء محمد بن بركات ، فصرفت لبركات درءًا للفتنة وحقنًا للدماء ، بعد أن رفض حميضة إعطاءه ما طلب من المال ، ليمكنه تدبر أمره بعد فراره من سجن المماليك سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م[٥] ، وفي سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م غادر مكة كل من محيي الدين عبد القادر العراقي[٦] وابن العليف –الذي سبق ذكره–

---

== وكانت تطلق على التجار في ذلك الزمن ، وعباد الله شخصية عثمانية مشهورة ، وكان لهذا التاجر سفينة خاصة تحمل بضائعه من جدة . قام بإصلاحات واسعة في الحرم . لكن لم يحمد الناس له تلك الأعمال ووصفوها بحب الظهور، ولم يسمح له بالإسهام إلا سنة ٩٢٠هـ التي رخم فيها المطاف بإذن الغوري، مع أنه كان يلزم غيره من التجار بالإسهام في خدمة الحرمين دائما .

عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٨١ ، ٢٠٢ ، وعبد العزيز بن فهد : نيل المرام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠، و طاش كبرى زاده : الشقائق النعمانية ، ص٢٠٣.

(١) الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٣٧٥ ، ونوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ١٣٠ ، وعبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ ، ص ٤٩٠.

(٣) الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ١٦٢ ، وفريدون : مجموعة منشآت السلاطين ، ص ٢٣٨-٢٤٣.

(4) Atalar: Surr-i Humayun. SS.9 . 10.

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٤٣ ، عن تاريخ الرحلة ، وأحمد بن الحسين بن العليف : كتاب الدر المنظوم في مناقب بايزيد ملك الروم ، ورقة ١١٨ .

(٦) محيي الدين عبد القادر بن عراق : قال عنه محمد بن فهد « الشيخ الأديب » : من الشخصيات المعروفة في مكة ، وله صلات بمصر . رافق ابن العليف في رحلته إلى إستانبول، وناله بعض إنعام ==

متوجهين لمقابلة السلطان العثماني بايزيد الثاني . والذي يبدو أن الشريف بركات تحت ضغط حنقه على المماليك ، لموقفهم العدائي والمهين له[١] ، لجأ لما كان يقوم به أشراف مكة عادة حين يتهددهم خطر ما ، وهو الاتصال بقوى إسلامية أخرى لطلب المساعدة منها .

كما أنه اتصل ببني جبر، والأرجح أن رحلة العالمين المذكورين كانت إحدى سفارات العلماء ، التي اعتادوا الخروج فيها كموفدين من قبل الأشراف، لشرح وجهة نظرهم للجهة التي يُبعثون إليها في العالم الإسلامي[٢]. ويدل على ذلك أنها تمت بمجرد عودة بركات من مصر ، وفي ذروة أزمته مع المماليك ، وأيضًا لأن من قام بها هو ابن العليف الشاعر الثائر[٣] ، والناطق

---

== السلطان بايزيد . وهذه المهام التي يقوم بها العلماء ليست بمستغربة . انظر رحلة من هذا النوع وفي الزمن نفسه للنهروالي : التذكرة عن سفره في مهمة بعثه بها الشريف أبو نمي، قابل فيها السلطان سليمان. البكري: المنح الرحمانية ، ص ٦٧ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٢٩ - ١٥٤ .

(١) انظر ما سبق من موقف المماليك مع بركات، وهو موقف تكرر من المماليك تجاه الأشراف ، فكثيرًا ما كانوا يغدرون بأمراء مكة ، ويلقون القبض عليهم . وعن ذلك مثلاً العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .

(٢) الأمثلة على استعانة الأشراف بقوى خارجية كثيرة ، حيث اعتادوا الاستفادة من التنافس الدولي حول مكة ، فكانوا دائمًا يجدون تعاطفًا مع رغباتهم . ومن ذلك مثلاً كيفية وصول النفوذ المملوكي إلى مكة عبر لجوء الشريفين أبي نمي الأول وعمه إدريس إلى كل من اليمنيين والمصريين ، كما اتصل الأشراف بالمغول . الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٤٥٦ - ٤٧١ ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ ، والعصامي: سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

(٣) سبقت ترجمته، وانظر فلسفته ووجهة نظره في الأحداث حوله، في قصيدة أوردها له العيدروس، ومنها:

واجعل سبيل الذل عنك بمعزل ... فالعز أحسن ما به يستمسك

ومن تألمه لبركات حين قبض عليه :

برغم العلى والمجد والسيف والندى ... حصلت أبا عجلان في قبضة الترك

وتلك لعمر الله أدهى مصيبة ... أصم بها الحاكي عن الحادث المحكي

توفي ابن العليف سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م .

باسم بركات، وسليل أسرة خدمت الجانب الإعلامي الناطق باسم أمراء مكة طوال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[١] . ويدل عليها أيضًا الاستجابة الفورية لبايزيد بالتعاطف مع مضمون الرسالة عمليًا ، حيث بالغ في إكرام ابن العليف بما لم يعهد لأحد ممن مدح العثمانيين ، أو ألف الكتب بأسماء ملوكهم قبله ، أو بعده ، على كثرتهم ؛ مع ما رافق ذلك من دعاية ظلت على مدى القرون[٢] ، لكن السلطان بايزيد اكتفى بتكثيف سياسة التغلغل السلمي في مكة . وقد يكون السبب هو عدم استقرار الأحوال في دولته في ذلك الحين، أو يكون انتظارًا للفرصة المناسبة[٣] ، وتمثلت استجابته الآنية في زيادة

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ، مج ٢ ، ج٣ ، ص ١٥٥ ، و العيدروسي : النور السافر ، ث ١٧٤ .

(٢) أكرم ابن العليف بجائزة قدرها ألف دينار ، وقرر له مائة دينار سنوية ، ظلت تصرف له ولعقبه ، مع أن زيارة ابن العليف ليست الأولى من المكيين ، ولم تكن الأخيرة ، بل إن البلاط العثماني كان يعج بالقاصدين ، وأما الكتاب الذي ألفه ابن العليف فإنه تكون في أجزاء كبيرة منه من وصف للمكان وهو آسيا الصغرى ، وسكانه من الرومان البيزنطيين وليس العثمانيين ، وجاءت في نهاية الكتاب القصيدة التي مدح بها بايزيد ، وهي قصيدة جيدة ، لكن أهم ما يميزها أن قائلها أديب من مكة ، قدم إلى العثمانيين في ذلك الوقت الحرج ، وتنبأ له بحكم الشام قبل أن يصلها نفوذهم فعلاً ، حيث قال :

أطاع له ما بين روم وفارس ... ودان له ما بين بصرى إلى مصر

وقد كان أهل المشرق العربي كلهم ، ومنهم المكيون ، يطلقون على الأتراك العثمانيين لقب الروم ، لأنهم سكنوا آسيا الصغرى ، وورثوا نفوذ سلاجقة الروم ، وهم قسم من الأقسام التي انقسمت إليها دولة السلاجقة عامة ، وكانت تقع في آسيا الصغرى . ووردت القصيدة التي مدح بها ابن العليف بايزيد في نهاية المخطوط. أبو السرور البكري : المنح الرحمانية ، ص ٦٧ ، والموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٢ . وابن العليف : الدر المنظوم ، الأوراق ٣ - ١١ ، ١٤ - ٢٠ ، ١١٦ - ١١٨ .

(٣) لم يكن بايزيد في أيامه الأخيرة ميالاً لحرب أوروبا ، بسبب مشكلة أخيه جم ، ثم بسبب خلافات أبنائه معه ، وبظهور الخطر الصفوي . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

المساعدات للمكيين كافة ، واختصاص الشريف بركات وأخيه قايتباي بمبالغ كبيرة غير معتادة[١] ، لفتت الأنظار حتى في مصر[٢] . كما تدخل في عملية إزالة آثار الفتن ومخلفاتها في مكة ، بطلب الإسهام في إجراء العيون وغيرها ، ولكنه منع من ذلك[٣] . ويبدو أنه أوعز لأحد رعاياه ، وهو الخواجا محمد بن عباد الله الرومي بالقيام بعمليات صيانة وترميم ، قصد منها تجديد مقام الحنفي مذهب العثمانيين الرسمي ، إلى جانب مقام إبراهيم وحجر إسماعيل وغير ذلك . وقد قوبل عمل ابن عباد الله بالاستنكار من المكيين . وفسر بأنه لمجرد حب الظهور[٤] .

أما موقف المماليك فقد بدأ بإعادة تحسين العلاقات مع بركات ، ورفض طلب بايزيد القيام بأي مشروعات في مكة ، ومنعت هدايا كانت مرسلة إليه من الهند ، ولم تبعث إليه إلا بعد طول عناء[٥] . كما عين الغوري خاير بك المعمار الذي سبقت الإشارة إلى المهام التي نفذها في مكة وقام إلى جانب ذلك بإزالة أغلب ما عمله ابن عباد الله ، كإعادة صيانة مقام إبراهيم وترخيم الحجر ، ثم كتب عليه بعد الانتهاء من العمل فيه اسم السلطان الغوري[٦] . مع أنه من المألوف أن توكل أعمال الصيانة في الحرم إلى التجار ، مثل قاوان والقاري وغيرهما ، ووضع الغوري ابن عباد ومعه التاجر النيربي والشريف منصور العجمي تحت الملاحظة .

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٦ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٨ ، والعصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ ، ٤٨٥ .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، وغاية المرام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٠٢ .

والجدير بالذكر أن حج عائلة السلطان ، والمبالغة في إكرام بركات ، وطلب السلطان منه أن يحلف بالله على عدم الخيانة ، على عادة المماليك حين يرتابون في أتباعهم ؛ كانت بعد معركة جالديران[١] ، وخاصة أن الغوري كان قد سمح له بالاتصال بسليم مباشرة سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م بخصوص تسوية موضوع توزيع المساعدات العثمانية[٢] . أدت كل تلك الملابسات والمواقف إلى زيادة قلق الغوري ، وإلى تعزيز فكرة تطلع العثمانيين إلى زعامة العالم الإسلامي لديه ؛ فتصاعدت ريبته من التحركات العسكرية العثمانية في تلك الفترة .

وهكذا شهد مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي دورًا من أدوار عدم الاستقرار، التي كانت غالبًا ما تحدث في التاريخ المكي، ولكنه كان في هذه المرة صراعًا عنيفًا داميًا، لأنه عميق الجذور، وناجم عن أسباب داخلية وخارجية سياسية واقتصادية وإدارية، لذلك فإنه على الرغم من الهدوء الظاهري الذي بدا بعد الحملات العسكرية والمجهودات الدبلوماسية التي قام بها الغوري، فإن أسباب التذمر ظلت قائمة، لعدم إمكان قطع دابر الفتن والتخلص من أصل الداء ، وأهمه الفساد المالي الذي أدى إلى سوء الوضع الاقتصادي، إلى جانب تحول طرق التجارة، حيث لم تتح الفرصة للمماليك لاستكمال تصديهم للبرتغاليين، إذ إن الحجازيين وغيرهم كانوا قد كثفوا صلاتهم بالعثمانيين، لإنقاذهم، ولحماية المقدسات، وهي نداءات لقيت استجابة من الدولة العثمانية التي كانت ترى أحقيتها بالزعامة الإسلامية -كأي دولة إسلامية عظمى أخرى- على مدى قرن من الزمان ، مما كان له أكبر الأثر على

---

(١) معركة جالديران : وقعت بين العثمانيين والصفويين ، وانتصر فيها العثمانيون سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م، وأسفرت عن ضم أغلب الأناضول إلى دولتهم ، فلم يبق خارج سلطنة العثمانيين إلا ما كان بيد المماليك . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢١٥ ، ٢٢٠ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٢ .

تطورات العلاقات العثمانية – المملوكية ، ووصولها إلى النهاية التي سارت إليها . وهي قضاء العثمانيين على دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، مما ترك أثره على مكة ، وأدخلها في حقبة جديدة من تاريخها ، تميز فيها دورها السياسي بالنشاط داخليّا مع الدولة العثمانية ، التي مدت نفوذها إلى الحجاز بمجرد دخول قواتها إلى القاهرة ، أو مع العالم الإسلامي كله ، كما سنلاحظ في الفصلين التاليين .

# الفصل الأول
# دور مكّة السياسي والإداري

المبحث الأول : عهد السلطان سليم
( ٩٢٣-٩٢٦هـ / ١٥١٧-١٥١٩م )

أ - إمارة الشريف بركات .

ب - وصول النفوذ العثماني إلى مكة .

جـ - نُظم الحكم في مكة في بداية الحكم العثماني .

المبحث الثاني : عهد السلطان سليمان القانوني
( ٩٢٦-٩٧٤هـ / ١٥١٩ - ١٥٦٦م )

أ - إمارة الشريف بركات ودور مكة في التصدي للبرتغاليين .

ب - إمارة الشريف أبي نُمي وتتمّة المجابهة البرتغالية .

المبحث الثالث : عهد السلطانين سليم الثاني
( ٩٧٤-٩٨٢ هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م)
ومراد الثالث
( ٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٤م)

ـ إمارة الحسن بن أبي نُمي .

# المبحث الأول

# عهد السلطان سليم

## ( ٩٢٣ - ٩٢٦ هـ / ١٥١٧ - ١٥١٩ م )

في الوقت الذي أخذت فيه أحوال دولة المماليك في التدهور ، ظهر العثمانيون على مسرح الأحداث ، قوةً فتية عزيزة الجانب، مما أهلهم لتولي زعامة العالم الإسلامي،وهم قد بدأوا في تولي مهام الزعامة فعلاً بالمشاركة في العناية بالمقدسات وحمايتها، وبتقوية صلاتهم بالمسلمين في كل مكان، ومع ذلك حرصوا على حصر خلافاتهم مع المماليك في النطاق الإقليمي، وقووا الجانب الودي في العلاقات معهم ، لكن تطورات الموقف الدولي العالمي والإسلامي، واستشراء علل الدولة المملوكية ، أدت إلى توتر السلطان الغوري ، ودفعته إلى الزج بقواته في حرب لم يكن من السهل عليه ضمان التغلب فيها في الظروف التي كانت تمر بها دولته ، ومع وجود الدوافع القوية ، والموقف الذي وجد السلطان سليم نفسه فيه ، تقدم ولقي السلطان الغوري في معركة مرج دابق، التي انتهت بانتصار العثمانيين. وقد لوحظ الاهتمام العثماني بالمقدسات الإسلامية بمجرد دخولهم الشام ، حيث لُقب السلطان سليم بخادم الحرمين الشريفين بعد دخوله دمشق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م [١] . وقبل تقدمه إلى القاهرة أعلن أن السبب الرسمي الذي يدعوه للقضاء على المماليك هو الحلول محلهم في حيازة المقدسات وخدمتها[٢] ، لذلك نجد أنه ما إن قضى العثمانيون نهائيًا على دولة المماليك بعد موقعة الريدانية حتى شرعوا في إيصال نفوذهم إلى الحرمين في الحجاز .

---

(١) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٢٥ ، و :

-Tansel: Yavuz Sultan Selem, S 215, 216.

## أ - إمارة الشريف بركات :

مرت حياة الشريف بركات السياسية بمرحلتين ، المرحلة الأولى : كان فيها الحجاز تابعًا لدولة المماليك في مصر، وقد مرت بثلاثة أطوار ، أولها : مشاركة بركات لوالده محمد بن بركات في الحكم منذ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م وله من العمر خمسة عشر عامًا ، وقد قام فيها بدور كبير في إقرار الأحوال في الحجاز ، وتقوية فرض سيطرة إمارة مكة عليه . والطور الثاني : بدأ بعد وفاة والده سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م . وقد سادته القلاقل والاضطرابات ، بسبب تخلي المماليك عن نصرته ، وما جر إليه ذلك من تجرؤ إخوته عليه ، هم ومن استفاد من موقفهم ، وقواهم وساندهم ضده ، من أعراب زبيد ، وأشراف بني إبراهيم. والطور الثالث :وافق الفترة الثانية من حكم الغوري في الحجاز، وفيها عادت علاقة بركات بالمماليك إلى التحسن . فأعادوا له اعتباره ، وأعلوا شأنه ، بسبب علمهم بتزايد النفوذ العثماني في مكة . وقد مضى شرح هذه المرحلة فيما سبق . أما المرحلة الثانية : من حياة بركات فتبدأ باستيلاء العثمانيين على مصر ، والقضاء على دولة المماليك ، وكان من الطبيعي أن يدخل الحجاز تحت الحكم العثماني ، ضمن المناطق المملوكية التي أصبحت تابعة له[١] ، وتمت إجراءات إلحاق إمارة مكة بالدولة العثمانية رسميًا ، بعد أن أرسل سليم في أثناء إقامته في مصر خطابًا لشريف مكة ، يعلمه فيه باستيلائه على مصر ، ويطلب إليه القبول بالسيادة العثمانية[٢] ، فهو بذلك يستأنف صلاته ببركات ، تلك الصلات التي كانت قد بدأت منذ أواخر عهد المماليك كما مرّ .

وقد جاء في بعض المصادر المكية[٣] أن السلطان سليم فكر في إرسال

---

(١) عبد الرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص ١٥ .

(٢) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

جيش لضم الحجاز ، وأن مجموعة من الحجازيين ، في مقدمتهم القاضي صلاح الدين بن ظهيرة ، والتاجر قاسم الشرواني شاه بندر جدة ، قابلوا الوزير بيري باشا ، وأشاروا عليه بمراسلة بركات[١] ، ويبدو أن ما ذكروه أكد ما كان لدى العثمانيين من معلومات عن مكة ، توافرت لديهم من خلال اتصالاتهم بها طوال القرن التاسع ، ومطلع القرن العاشر ، الهجريين .

فلم يتردد الشريف في القبول بالانضمام إلى العثمانيين، للصلات الحسنة لهم بمكة ، ولأنه لم يكن له قبل بالرفض، فلو لم يقبل لأخضع بالقوة، حيث بلغت قوة الدولة العثمانية حدًا لا يستهان به في ذلك الوقت ، وقد علل القبول بأن الحجاز يرتبط بمصر ذاتها ، بغض النظر عن الحكومة الموجودة فيها ، وذلك لأنه بحاجة للمساعدات التي تصله منها ، ولأنه مجال استراتيجي لمصر هجومًا ودفاعًا ، كما أن قوافل الحجاج من وسط وغرب أفريقيا كانت تأتي إلى مكة بصحبة قافلة الحج المصري[٢] ، لكننا عرفنا أن العلاقات بين الحجاز وكافة الدولة الإسلامية تحددت وفقًا لعاملي المكانة الدينية والبيئة الجغرافية اللذين تم شرحهما فيما سبق، وبذلك فإن الدول الإسلامية تسعى لضم الحجاز لترتفع مكانتها في العالم الإسلامي، وكان الحجاز يرتبط دومًا بأقوى الدول الإسلامية، ويحظى ببرها، ولذلك نجد أنه تبع في تاريخه الشام والعراق واليمن ومصر، ونلاحظ أنه حين كان مركز الدولة الإسلامية القوية في الحجاز فإن كل هذه الأقاليم كانت تابعة له ، كما في عصر صدر الإسلام ، ولكن نظرًا لظهور قوى

---

(١) ذكر أوزون جارشلي أنه لم يرد في المصادر التركية أن العثمانيين أعدوا جيشًا لضم الحجاز ، وربما كان قوله أقرب إلى الواقع لأن عادة العثمانيين مراسلة من يقصدونه أولاً ، كما حدث مع الغوري وطومان باي وإسماعيل الصفوي مثلاً ، فإذا أعلن الحرب يتقدمون إليه بالجيوش . جارشلي ، ص١٠١ ، والدحلان: خلاصة الكلام ، ص ٥٠ .

(٢) حراز : الدولة العثمانية ، ص ١٠٠ ، ١٠٢ ، نقلاً عن المستشرق كريستين نيبور .

عديدة متوالية في القطر المصري فقد كانت تبعية الحجاز لمصر أطول حتى ظهور العثمانيين .

ومن المعروف أيضًا أن شمال الحجاز ، أو المنطقة التي شملت نيابة الكرك في عهد المماليك، هي المجال الاستراتيجي لمصر ضد القوى التي كانت تهددها عبر بلاد الشام [١]. أما الحجاز نفسه ، ومنطقة الحرمين بالذات ، فإنها أبعد ما تكون عن أي هجوم أو دفاع ، بسبب طبيعتها الجغرافية المعروفة ، فالأراضي الحجازية بحكم موقعها المتوسط بين الشرق والغرب ، لم تكن إلا معبرًا ومحطة للتجارة العالمية ، ولعدد محدود من القوافل ، وفي مواسم معينة، نظرًا لندرة المياه فيها ، ولقسوة مناخها .

وقد حمل جواب الشريف بالموافقة ، على عرض السلطان سليم ، وفد برئاسة ابنه أبي نمي ، وكان صبيًا لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وكان معه عرار بن عجل سفير بركات للمماليك سابقًا ، وبصحبتهما ممثلو الحكومة المملوكية في مكة ، وهم بيبردي من كسباي باش مكة أو قائد الجند فيها ، وقراكز المحتسب وقائد فرقة المدينة المنورة[٢] .

وصل الشريف أبو نمي إلى مصر يوم ١٥ أو ١٦[٣] من جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، فقوبل بإكرام بالغ ، واستضيف في مقر قائد الجند، هو ومرافقوه الحجازيون[٤] . أما المسؤولون المماليك الذين قدموا معه ، فقد نفوا إلى إستنبول ، وحدث أن غرقت سفينتهم في البحر قبل أن يصلوا إلى هناك[٥].

---

(١) عبد المجيد : نظم الشام ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٠ .

(٣) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٠ .

(٤) جارشلي : المرجع السابق و الصفحة نفسها ، وصولاق زاده : صولاق تاريخي ، ص ٤١٠ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢١٧ ، ٢٢٩ .

كما صدر أمر بإعدام نائب جدة حسين الكردي ، بإغراقه في البحر، بناءً على شكوى من الشريف بركات ، وقيل من سلمان الريس ، وبموافقة ومباركة من الرأي العام الحجازي والمصري ، لمظالم ارتكبها في حق الناس في الحجاز[١] . لقي أبو نمي المسئولين العثمانيين ، ومنهم الوزير الأعظم يونس باشا وقاضي العسكر ، ثم قابل السلطان سليم ، وتبادل الطرفان الهدايا ، فقدم أبو نمي مجموعة من المقتنيات الأثرية[٢] ، حملت جميعها إلى إستنبول ، وشيد لها جناح خاص في سراي طوبقابو ، لتحفظ به ، عرف بجناح «خرقة شريف»[٣] ، وقدم السلطان بدوره لأبي نمي هدايا فاخرة ، وإنعامات مالية ، بالإضافة إلى منشور إمارة مكة[٤] .

ودّع أبو نمي بمثل ما استقبل به من حفاوة ، فخرج عائدًا إلى الحجاز

---

(١) قيل إن سلمان الريس هو من طالب بقتله ، بينما جاء في المصادر المكية أن الشريف بركات هو من طلب ذلك . أو أن السفير عرار بن عجل هو من طلب ذلك، والسبب في قتل حسين هو ارتكابه مظالم في حق الناس أخذها عليه كثير ممن عاصروه وعايشوا أعماله في الحجاز، من إجبار الناس على العمل في السور، وضرب البعض منهم وقتل آخرين، ومنهم بعض موظفي الشريف بركات نفسه . لكن الواجب يقتضي ذكر الجانب الإيجابي في شخصية هذا القائد البحري الذي كان مجاهدًا متحمسًا، استشعر الخطر المحدق بالمقدسات الإسلامية، فعمل بجد وإخلاص على مدى أحد عشر عامًا للدفاع عنها، منذ قدومه قائدًا لحملة سنة ٩١١هـ حتى قتله سنة ٩٢٣هـ . وأبرز أعماله الإشراف على بناء سور جدة في أقصر مدة ممكنة وهي أقل من عام، وقد جاء بناؤه محكمًا وأقرب إلى التكامل حيث لم يُضف إليه إلا أبراج مكملة فيما بعد ، وظل مقاومًا لعوامل الزمن عدة قرون بعد إنشائه . كما حصّن كمران بالهمة نفسها فأتم المنشآت فيها في خمسة أشهر، وقد أثبتت أعماله فعاليتها في صد البرتغاليين، خاصة عن جدة، مما يدل على سلامة استراتيجيته العسكرية وبُعد نظره، وإن لم يبرر ذلك هذه المآخذ عليه . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ ، والنهروالي : البرق ، ص ٢٦، ٢٧ ، والشلي : السنا الباهر ، ص ١٢ ، ١٣ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٦٢ .

(٢) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣١ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٠ .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ويلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣٤ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٣ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٠ ، ٣٣ .

يوم الخميس الرابع من شهر رجب سنة ٩٢٣هـ في موكب كبير ، وعليه الخلع ، وأمامه الرماة ، بالنفط ، وبصحبته غالب الحجازيين الذين كانوا في القاهرة[١].

وفي شعبان من العام نفسه خرج سليم من مصر إلى الشام[٢] ، فتفقد أحوالها لبعض الوقت ، ثم عاد إلى إستنبول سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، أي بعد حملة دامت سنتين وشهرين ، وهي أطول حملة عثمانية .

## ب - وصول النفوذ العثماني إلى مكـة :

تدرج وصول النفوذ العثماني المباشر إلى مكة ، فقد عدت في حكم التابعة للعثمانيين بمجرد تغلبهم على المماليك ، ودخولهم الشام ثم مصر ، حيث خطب لسليم فيها ، مضافًا إلى ألقابه ، عبارة : خادم الحرمين الشريفين[٣] ، ثم أعلن بعد ذلك إلحاق الحجاز رسميًا بالدولة العثمانية ، بقبول الشريف بركات أمير مكة الخضوع لسلطتها . وبعد ذلك دخل التمثيل العثماني في المنطقة مرحلة عملية جديدة، بإقامة سنجقية في جدة كمراقبة لإمارة مكة، على مبدأ توازن القوى ، الذي عمل به العثمانيون في إدارتهم لكثير من المناطق التي حكموها .

بالإضافة إلى دورها في حفظ ميناء جدة وحمايته،وكان أول من عين نائبًا لها قاسم الشرواني[٤]، وهو شاه بندر جدة السابق، الذي ولي ذلك المنصب منذ

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص ١٤٨ ، والصلابي : الدولة العثمانية ، ص ٣٠٨ ، و

-Danismend : Izahli Osmanli Tarihi, S. I - VI.

(٤) ظل قاسم في نيابة جدة حتى شهر ذي القعدة سنة ٩٢٥هـ ، وكانت علاقته بالشريف بركات غير جيدة، وقد اتهم بالتعالي حتى على أمير أمراء مصر خاير بك، وبأنه على صلة بالصفويين، وأنه فر إليهم في مركب، ولكن قبض عليه وأعيد إلى جدة، وشكك في ذمته المالية، لكن ثبتت براءته بعد التحقيق بعد أن سافر ولقي السلطان . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ورقة ٣٣ ، ١٩٠ - ١٩٢ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٤ .

سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م . ثم خدم العثمانيين بعد دخولهم مصر وتقرب إليهم[١]. بينما أوكل السلطان للشريف بركات أمير مكة في المرسوم الذي بعثه إليه مع ابنه أبي نمي أمر إدارة الحجاز كله ، وأطلق سلطته فيه ، بل إن السلطان أسند إليه مهام أخرى خطيرة خارج حدود إمارته ، وهي : تمثيل السلطة العثمانية في اليمن والهند حيث المجابهة البرتغالية ، كما نعلم ، فعلت مكانة الشريف ، وزادت رفعته ، قال ابن إياس « وأنصفه غاية الإنصاف ، فتزايدت عظمة الشريف بركات للغاية »[٢] .

يتضح مما سبق أن الحجاز فصل في بداية الحكم العثماني عن التبعية الإدارية لمصر، التي كان قد عين لحكمها باعتبارها ولاية تابعة للعثمانيين،الوزير الأعظم يونس باشا منذ جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م[٣]. أي قبل قدوم ابن شريف مكة ، لكنه لم يوفق في السيطرة عليها، لاختلاف أحوالها عما اعتاده الإداريون العثمانيون ، ولرفض قسم كبير من إداريي المماليك التعاون معه ، ولعمل قسم آخر منهم على تعجيزه وتتبع مثالبه ، وكشف نواقصه للسلطان ، لتأليبه عليه . ودافعهم إلى ذلك تحقيق طموحات ومصالح لهم .

وفي مقدمة هؤلاء الأمير المملوكي خاير بك الذي خدم العثمانيين منذ دخولهم بلاد الشام ، وتبعهم إلى مصر ، فأظهر النصح للسلطان ، وحرضه

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٠٧ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٣) ورد أن تعيين يونس باشا كان في ١٨ من ربيع الأول ٩٢٣هـ / ١٨ أبريل ١٥١٧م ، وأنه حكم مصر مدة تقارب الخمسة أشهر قبل أن يغادر سليم مصر في ١٠من شعبان ٩٢٣هـ / ٢٩ أغسطس ١٥١٧م . نقلاً عن المصادر التركية . ومغادرة سليم لدى ابن إياس كانت يوم الخميس ٢٣من شعبان ٩٢٣هـ . ويرجح قول ابن إياس ، لأنه كان معايشا للأحداث ، وتأتي أخباره كاليوميات . المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٨٦، والسيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٨٩ .

ضد طومان باي آخر سلاطين المماليك ، فقتله ، كما عمل حلقة وصل بين العثمانيين وطوائف المصريين كافة[١] .

أدرك سليم أن الأوضاع في مصر لن تستقر بإدارة عثمانية مباشرة في تلك الفترة الانتقالية الحرجة ، لذلك أسس شكلاً مرحليًا للحكم ، أبقى فيه مصر تحت إدارة مملوكية ، لكن برقابة عسكرية عثمانية ، وقرر الاستفادة من طموحات خاير في تسيير دفة الأمور خلال الصعوبات التي طغت على مصر حينها . وهكذا حولت مصر إلى إيالة ، عين خاير حاكمًا لها برتبة بكلر بكي (فريق أول) ، وعزل يونس باشا بعد فترة قصيرة من تعيينه[٢] ، فبقيت بذلك العديد من تشكيلات الحكم الأساسية في مصر على عهدها السابق[٣] ، ولم يكتف خاير باستعادة نفوذ المماليك في مصر ، بل تعداها إلى الحجاز أيضًا ، فأعاد ربطه بإدارته ، حتى أصبحت مهام إيالته تشمل : حراسة الحدود الجنوبية للدولة وموانيها من الأخطار الخارجية ، تلك المهمة التي سبق ذكر أنها أسندت للشريف أولاً . كما التزم بتوفير أرزاق الحرمين الشريفين ، متعللاً بوجود الأوقاف المحبوسة باسمهما في مصر ، ولسهولة اتصاله بالحجاز بحرًا لو وقعت مشاكل[٤] . وبعد هذه التغيرات اتخذ النفوذ العثماني – المصري في مكة شكلاً ملموسًا ، بقدوم لجنة بصحبة قافلة الحج المصري في العام نفسه ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، قامت بعدة أنشطة دينية وإنشائية ، قد يكون القصد منها إيجاد واقع محسوس لانتقال السلطة إلى العثمانيين في مكة . فحملت أول كسوة للكعبة في العهد العثماني، وكلفت مجموعة من القراء بقراءة القرآن ،

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٨٩، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٠ .

(٣) السيد : مصر في العهد العثماني ، ص ٩٢ .

(٤) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

والدعاء للسلطان في الحرم ، وما ماثل ذلك ، وأشرفت على توزيع المساعدات المالية والعينية ، التي أمر سليم ببعثها لأهالي الحرمين ، فكانت أول مساعدات عينية من القمح يرسلها العثمانيون إلى مكة [1] . ومن ذلك أيضًا أن الدولة العثمانية أعادت تعمير مقام المذهب الحنفي في المسجد الحرام عدة مرات وحرصت على شكله وعلى ملاءمته للمكان، لأنه مقام المذهب الرسمي للدولة[2]. وعلى الرغم من أن بركات أُشرك في لجنة توزيع المساعدات ، واستؤذن قبل البدء في تعمير المقام[3] ، فإنه لم يتسلم مع قافلة الحج أي مرسوم بتأكيد إمارته وتجديدها على العادة. ولم يُعلم رسميًا بالتغيرات التي حدثت في مصر، ولم يكن يُعلم موقف سنجق جدة وأمير الحج المصري منه وديًا ولا متعاونًا ، حيث تعدى سنجق جدة على اختصاصه في رعاية شؤون القبائل ، واقتحم منطقة معسكره في أجياد دون إذنه ، وقاتل أتباعه حين خرجوا للاستفسار عن القضية ، كما أبدى أمير قافلة الحج تحفزه للهجوم على بركات ، بسبب حادثة مشاحنة فردية بين أتباعهما ، لولا تدخل القضاة المصريين المرافقين للقافلة[4] . مما أدى إلى إثارة شكوك بركات ومخاوفه ، فبعث رسوله مسلمًا إلى مصر ، للاستعلام عن التغيرات الحادثة وموقعه منها . فمهد خاير للخبر بإعلام بعض قضاة مكة الذين قصدوه ، بجانب من الصلاحيات التي أعطيت له أو سحبت منه . ثم بعث بمرسوم لبركات جوابًا عن استفساره، وهو أن الحجاز

---

(١) هذه أول مساعدات عينية عثمانية تصل إلى مكة، لأنهم كانوا يكتفون بإرسال الأموال، لكنها ليست أول حبوب لمكة، لأن المماليك وغيرهم كانوا يرسلون مقادير سنوية من الحبوب أيضًا . السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، وعبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ورقة ٢٥ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٢ – ٤٢ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١ – ٥٠ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٦ .

ظل تابعًا لمصر إداريّا وماليًا ولإستنبول في باقي النواحي، كالتعيينات مثلاً[١] .

وبذلك اتضحت الصورة لبركات ، وتلاشى ما كان قد تراءى له من إلغاء التدخل المباشر في شئون إمارته ، وزاد من وقع الأمر عليه ، أن العودة للتبعية لمصر كانت تحت إدارة مملوكية ، يتزعمها الحزب المعادي له من المماليك ، لأن خاير كان أخا قانصوه المحمدي المعروف بالبرج، عدو بركات الذي كان سببًا في عزله سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠م . ومما أكد اهتمام خاير بك بالأمر، وأنه ما زال عالقًا في ذاكرته ، أنه كتب في المرسوم الذي بعثه إلى الشريف مشيراً لما حدث في الماضي ، وكأنه يتهدده ، أو يؤنبه ، أو يتهكم عليه ، قائلاً « بيننا وبينكم محبة قديمة من زمن الأخ قانصوه المحمدي المجاور بمكة ، وحصل له العناية والمساعدة منكم »[٢] .

وقد عُلم مما سبق أن ما حدث هو العكس ، وأن أحد أسباب العداوة بينهما أن بركات لم يلتفت لقانصوه حين أتى إلى مكة منفيّا ، ولم يلقه بما يرضيه من حفاوة كان يلقى بها غيره ، وربما كانت هذه الخلفية العدائية هي سبب تجاهل خاير لبركات ، وتأخره في إعلامه بما استجد ، أو ربما آثر ألاّ يخبره بذلك قبل موسم الحج ، خشية من ردة فعل غاضبة منه تضر بالحجاج . لكن بركات تلقى المرسوم بالاحتفالات وإظهار السرور بدلاً من الثورة . ربما لأنه توقع الأسوأ ، كعزله أو إلغاء إمارته ، أو لأنه أراد أن يظهر لخاير حسن نيته ، وأنه عازم على تقبل الأمر الواقع ، حتى لا تتجدد الفتن التي عانى منها الكثير .

فشرع في إدارة شئون الحجاز على نحو ما اعتاد من قبل ، ونفذ خاير من جانبه أمر السلطان بإشراك بركات في حركة الجهاد الخارجي ، ولكن

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٦ – ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٧٩ .

بإشراف وإمداد مصري[١] . وقد ظن بركات أن النفوذ العثماني اقتصر على سنجقية جدة، ولكنه عاد إلى معايشة النفوذ المملوكي بما كان يحمله من أحقاد قديمة ، مما أدخل بركات ومكة معه في دوامة جديدة من القلاقل والفتن ، لكنها لم تصل إلى الحد الذي بلغته في نهاية عهد المماليك . غير أن استمرار التدهور الاقتصادي زاد في معاناة المكيين ، لنقص السلع التموينية ، وارتفاع أسعارها[٢] . وهذا ما اضطر بركات إلى أن يسلك مسلكه نفسه حين حكم شريكًا لأخيه قايتباي في عهد الغوري ، حيث تولى هو مهام الحكم المنوطة به كاملة، بعيدًا عن الاتصال المباشر بممثلي السلطة العثمانية، وذلك اعتبارًا من سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م [٣] ، وهو العام نفسه الذي توفي فيه السلطان سليم الأول[٤] ، إلى سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، وهي سنة وفاته هو[٥] ، حيث ترك أمر ملاقاة قوافل الحج والاحتكاك بالمسئولين العثمانيين لابنيه أبي نمي وثقبة الذي أصبح شريكًا لأخيه بطلب من والدهما[٦] .

## جـ - نظم الحكم في مكة المكرمة في بداية الحكم العثماني:

كان العثمانيون في بداية حكمهم يبقون عادة على نظم الحكم المحلية في البلاد التي يدخلوها في صورتها السابقة[٧] ؛ لكنهم يعملون بعد ذلك على

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٧٥ ، ٨١ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ ، ٢٨٦ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ، ص ٣٥٧ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .

(٧) الدمرداش : الدرة المصانة ، ص ٧ ، ومغيث : مصر في العصر العثماني ، ص ٩٧ ، و ريمون : المدن العربية ، ص ٣٣ .

تعديلها ومواءمتها تدريجيًا ، لتتناسب مع الإطار العام لسياسة دولتهم [١].

وستتم الإشارة إلى ما حدث من تعديلات على أنظمة الحكم في الحجاز خلال القرن العاشر الهجري ، ضمن هذا الفصل من الدراسة ، مع الاقتصار في هذا المبحث على ما تم إدخاله من مستجدات على هذه الأنظمة في عهد السلطان سليم ، حيث اهتم بالجانب السياسي قبل غيره، بأن عمل على ضمان تثبيت واستمرار تبعية الحجاز للعثمانيين . وكان سبيله إلى ذلك الإبقاء على قاعدة توازن القوى، التي كانت مطبقة في المنطقة أساسًا ، ممثلة في إمارة الأشراف في مكة ، ونيابة جدة ، وقضاء مكة . وقد ربط سليم تعيين قيادات هذه الأجهزة الثلاثة بمركز الدولة ، وأعطاهم الحق في الرجوع إليها مباشرة فيما قد يستجد من أحداث وقضايا طارئة ، يرون مناقشتها مع المسئولين في العاصمة[٢] . فحقق السلطان سليم بذلك إيجاد نفوذ عثماني دائم في المنطقة ، ثم ألحق الإقليم بمصر إداريًا وماليًا ، فأضاف عنصرًا رابعًا للقوى المؤثرة فيه[٣] . ويتضح ترتيب أهمية كل من هذه القوى عند ذكر ممثليها في الخطبة لهم على منبر الحرم الشريف ، حيث كان يُدعى للسلطان ، ثم للشريف ، ويليه أمير أمراء مصر ، فقاضي مكة ، فنائب جدة بعده ، لكن النائب احتج فأصبح اسمه يذكر قبل اسم القاضي[٤] .

وكان مما استجد على الجانب السياسي في عهد سليم توسع سلطات بركات ، بإشراكه في تنفيذ سياسة الدولة خارج إمارته فيما، يتعلق بالتحركات

---

(١) عبد اللطيف : الإدارة في مصر ، ص ٣٤ ، والبكري : الروضة المأنوسة ، ص ١٤ ، ١٥ ، وهريدي: شئون الحرمين ، ص ٢٤ ، ٢٧ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٦ – ٢٧ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٦٨ ، ١٩٤ .

العسكرية في اليمن والهند[١] . غير أنه رفع في الوقت نفسه من مكانة القوى الأخرى في الحجاز ، وقوى حضورها بمقابل إمارة الأشراف ، بمساواة ممثليها بالشريف ، أثناء مراسم التعيين ومظاهر إعلانه في مكة ، وذلك للحد من نفوذه وتقليل سلطانه[٢] .

وفي ظل التعددية السابق ذكرها طور نظامًا إداريًا وعسكريًا وماليًا وقضائيًا ذا طابع فريد ، اشتركت في تنفيذه كل الأطراف السابقة . فمن الناحية الإدارية ، لم يطبق العثمانيون أي نوع من أنواع تقسيم الإقطاع الحربي على الحجاز[٣] ؛ بل أُنيط حكمه بشريف مكة كوحدة سياسية واحدة، كما كان وضعه دائمًا .

وظل للشريف نفوذ في جدة ، على الرغم من أنها مقر للسنجقية التي أوجدها العثمانيون في الحجاز منذ بداية عهدهم [٤] . وحتى بعد أن أُلحق الإقليم بالإدارة المصرية ؛ فإن الشريف استمر في إدارته بالهيئة نفسيها الحاكمة للإمارة فيما سبق ، بشقيها ، الحضري : المختص بالمدن ، والقبَلي: المتعلق بشئون البادية[٥] .

ففي جدة أعاد الشريف تعيين وزيرها محمد بن راجح بن شميلة الحفصي[٦] سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م . وأبقى علي بن الجنيدب في منصب والي

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ .

(٢) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٤٣٢ – ٤٣٣ .

(٣) فائق الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٤) ليس صحيحًا أن العثمانيين عينوا سنجقًا على جدة بعد أن زادت تعديات الأشراف على الأهالي والتجار . جارشلي : أمراء مكة ، ص ٤٢ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٤ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٣ .

(٥) عن حكومة الأشراف وتسلسلها الهرمي، انظر عبد القادر الطبري : نشأة السلافة في منشآت الخلافة، الأوراق ٩٧ – ١٢٢ ، وعمر بن فهد : الدر الكمين ، أوراق متفرقة ، وإتحاف الورى ، صفحات متفرقة، والعصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، صفحات متفرقة .

(٦) محمد بن راجح بن شميلة الحفصي: من بني حفص، وهم قبيلة يمانية، مضاربها بين زبيد وجازان،==

(مدير شرطة) مكة . وناب عن الشريف في المدينة المنورة ابن عمته فارس بن شامان الحسيني ، على سابق عهده . وكان للمحتسبين وأصحاب السوق التابعين للشريف نشاط ملموس في مكة وجدة[١] . وعلى الرغم من تخصيص قسم في إدارة إمارة مكة لتولي أمور البادية فإن حكامها كانوا يؤثرون مباشرة ما يتعلق بأحوال القبائل بأنفسهم . وكانت أبرز نتائج تواصل الشريف بالقبائل إقرار الأمن وحماية المسافرين والحجاج[٢] .

وقد مثلت سنجقية جدة النفوذ العثماني السياسي الرسمي والعسكري في الحجاز ، وكان لها إلى جانب ذلك دور إداري ومالي مهمّ تنفذه مجموعة من الموظفين التابعين لسنجقها ، وأبرزهم في عهد سليم : القاضي زين الدين الذي ولي الإشراف على عدة وظائف مالية وإدارية ، أهمها الحسبة[٣] ، ثم وليها بعد اعتذاره منها سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩ م القاضي شرف الدين بن شيخ الدهشة ، فعيَّن وكيلاً له على الحسبة في مكة ، هو القاضي تاج الدين بن ظهيرة[٤] .

---

== كانوا ممن بقي في جدة زمن الاضطرابات بين هزاع وجازان وبركات في مطلع القرن العاشر الهجري، ويقال : إنه كان لهم دور في الفتنة ، وكان شميلة قد ولي وزارة جدة أيضًا . ولم يرتح المكيون لتولية ابنه راجحًا ، لما اشتهر عنه من تحجير الأقوات ، وذكر أن ميزته الوحيدة هي معرفته كيفية التعامل مع ممثلي الدولة وأعوانهم . توفي سنة ٩٢٥ هـ ، وولي بعده يحيى بن سبيع الجدي . ابن فرج : السلاح والعدة، ص ٤٧ ، ٤٩ ، وابن الديبع : بغية المستفيد ، ص ٢١٣ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٣ ، ١٤٥ .

(١) وفي عهد السلطان سليم كان محتسب مكة من قبل الشريف يُدعى شوفان بن بيسق ، وهو قائد كبير اشتهر بالعقل والدين ، مات سنة ٩٢٦هـ ، وقد رخصت الأسعار في عهده . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٦٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٤ .

(٢) الطبري: نشأة السلافة ، الأوراق ١١٤، ١٣١ ، والحربي : نظم الحكم في مكة ، ص ١١٤ ، ١٢٠ .

(٣) كان قد عين في سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، وقد التزم للدولة بمبلغ ثلاثة آلاف دينار ، حيث إن جمرك جدة كان يُدار بنظام الالتزام . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٥ ، ٨٥ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ومن أبرز أعمال الحسبة ، التابعة لسنجقية جدة ، الاهتمام بالشئون البلدية في مكة ، كتنظيف أبواب المسجد الحرام ومراقبة عماله . وقد اعتمدوا في عملهم على عمال أتراك تابعين لسنجق جدة ، ربما كانوا ذوي صبغة عسكرية . ويُلاحظ أن المحتسبين التابعين للشريف يمارسون عملهم في مراقبة الأسواق وأسعار السلع بشكل عام ، لا في الأعمال البلدية كلها .

كما كان السنجق يتولى تعيين موظفي الحرم ، ويشارك في تيسير أداء الحجاج لمناسكهم[١] ، وفي الإشراف على المشروعات الإنشائية في الحجاز، فكان أولها تعمير مقام المذهب الحنفي في الحرم الشريف ، ثم أعمال الصيانة لبعض الأماكن الأثرية الأخرى في مكة ، وأبرز اختصاصاته مراقبة استيفاء رسوم جمرك جدة ، وصرف رواتب الموظفين والقضاة ، والصرف على المنشآت والإصلاحات . كما كان أحد المشاركين في توزيع المساعدات التي بعثها السلطان سليم بصحبة قافلة الحج في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، وهو أول موسم حج في العهد العثماني ، ضمن لجنة ، عثمانية - مصرية - حجازية . عملت بعد فراغها من عملية التوزيع على تنفيذ الأعمال التي سبقت الإشارة إليها ، فشرع فيها بعد استئذان الشريف بركات[٢] . وقام أعضاء اللجنة بتنفيذ أوامر السلطان سليم كما ذُكر من قبل[٣] .

ويقوم كل من أمير الحج وشريف مكة وسنجق جدة بكتابة تقارير عن أحوال الحجاز ، ثم يرفعون مرئياتهم إلى أمير أمراء مصر ، حيث تناقش في مجالس الحكم التي كانت تعقد في القاهرة ، ويتخذ حيالها

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥، والحربي : نظم الحكم في مكة ، ص ١٦٦.

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٣ ، ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

الإجراءات اللازمة إداريًا وماليًا[١] . أما ما عدا ذلك فكان يبعث إلى مقر السلطنة ، كما حدث حين طلب بعض القضاة تعيينهم في بعض المناصب القضائية في مكة[٢]، فكانت مصر في تلك الحالة حلقة وصل بين الحجازيين والسلطة ، مع بيان وجهة نظرها سلبًا أو إيجابًا[٣] . ولكن دون أن يمنع ذلك الاتصال المباشر للسلطات الحجازية بالسلطان .

وفي الجانب العسكري ، لم يفرض العثمانيون على الحجازيين الالتزام بالتجنيد الإجباري[٤] ، أو بالمشاركة مع الدولة في حملاتها الخارجية ، عدا ما ألزم به الشريف بركات تجاه اليمن والهند .

وكان لشريف مكة حامية عسكرية قدرت في وقت من الأوقات بخمسمائة جندي[٥] . وقد ذُكر فيما سبق أنه لم يكن بإمكان أي طرف من الأطراف زيادة أتباعه زيادة كبيرة بسبب قلة الموارد ، خاصة المياه وأعلاف الدواب ، مما كان يمنع تواجد تجمعات ضخمة في المنطقة .

وحصرت مهام الجند النظامي التابع للشريف في حمايته الشخصية، والإسهام في حفظ الأمن في المدن . فكان حاكم مكة من قبل الشريف في بداية العهد العثماني هو القائد مبارك بن بدر ، وحاكم جدة هو القائد جوهر العراقي[٦] .

---

(١) الدمرداش : الدرر المصونة ، ج ١ ، ص ١٠ ، ٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، ٤٣٠ ، ومغيث : مصر في العصر العثماني ، ص ١٠١ ، وسيد : مصر في العصر ، ص ٢٠٥ ، ٢١٥ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٧ .

(٣) سيد : مصر في العصر ، ص ٤٣٣ .

(٤) الصواف : العلاقات الحجازية ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٥) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٤٥ – ٤٦ ، والحربي : نظم الحكم ، ص ١٠٤ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٦٨ – ٦٩ .

وأما حملات الشريف ضد القبائل أو إلى جانب جند الدولة في اليمن ؛ فقد كان جنوده فيها من رجال القبائل الموالية له ، ومن المتطوعين من أهل المدن وليسوا من فرق الجند النظامي السابق ذكرهم وحدهم .

وقد تولى بركات الإشراف على بقايا القوات المملوكية في جدة ؛ فطالب بعزل سلمان الريس ، وطلب تعيين القبطان محمد مكانه ، وذلك سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م [١] . لكن سنجق جدة عاد إلى التفرد بالقيادة العسكرية بعد فترة وجيزة ، وتلقى الإمدادات من مصر بحسب مقتضى الأحوال حتى نهاية عهد السلطان سليم ، كما سيجيء عند ذكر المجابهة البرتغالية فيما يلي .

وظلت الفرق العسكرية التي كانت تقدم إلى الحجاز بصحبة قافلة الحج لحماية الحجاج تقوم بدور كبير في مكة إذا حدث ما يستدعي تدخلها ، كما في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وسنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩م ، عندما تحركت قوات أمير الحج للعمل بمجرد ظهور بوادر للشغب خلال موسم الحج[٢] .

وقد أكمل النظام المالي الذي أقره السلطان سليم في الحجاز ما بدأه العثمانيون منذ فترة طويلة من اهتمام بالأحوال المعيشية لأهل الحرمين . فأبقى على نظام قايتباي فيما قرره على الحجاز من التزامات مالية[٣] ، بينما زاد في المساعدات والمخصصات، وبدأ في إرسال أول مساعدات عينية عثمانية[٤]، وذلك للتخفيف من معاناة الناس الاقتصادية التي زادت حدتها، لتردي الأحوال في المناطق حولهم شمالاً وجنوبًا، وهي مصادر رزقهم كما هو معروف[٥] . ومع كل

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٦ ، ٢٠١ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

(٣) نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ ، وسيد : مصر في العصر ، ص ٢٥٢ .

(٤) نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ وما يليها .

(٥) انظر النواحي الاقتصادية في التمهيد .

الجهود التي بذلها العثمانيون ، فقد استمرت موجة الغلاء تجتاح مكة طوال عهد السلطان سليم[١] . ولعل أبرز ما استجد في هذا العهد هو تخصيص رواتب ومنح للشريف بركات ، كانت تأتيه بصحبة الصرة سنويًا . ولم يسمح له بأخذ الثلث من المساعدات العثمانية ، على عادته فيما يصل إلى مكة ، ولكنه ظل يحصل على هذه النسبة من الأموال الواردة من غير العثمانيين[٢] .

وأسس العثمانيون في بداية عهدهم نظامًا قويًا للقضاء ؛ كان نافذ الكلمة في شئون الحجاز سياسيًا وعدليًا وماليًا[٣] . فقد مر أن سلطة القضاء كانت مستقلة ، وأن تعيين القضاة كان يأتي من العاصمة ، مما أعطاهم حرية في تطبيق أحكامهم وأعلى كلمتهم[٤] . وقد أبقى العثمانيون في عهد سليم منصب القضاء في أيدي المكيين ، كما كان سابقًا ؛ وكان لقاضي القضاة نواب على المذاهب الأربعة في مكة ، ويمثله قضاة تابعون له خارج مكة أيضًا ، في المناطق التابعة لإمارة الأشراف[٥] .

ويتضح مدى قوة نفوذ قاضي القضاة سياسيًا من الدور الذي لعبه صلاح الدين بن ظهيرة وسيطًا بين سليم وشريف مكة ، وقد حفظ الطرفان للقاضي حسن صنيعه ، فأبقاه السلطان في قضاء مكة ؛ وهو شافعي المذهب، على الرغم من حرص العثمانيين على سيادة مذهبهم الحنفي رسميًا ، وعملهم على إظهاره . أما الشريف فقد عاد إلى تقريب صلاح الدين بن ظهيرة، وانتهت العداوة التي كان يكنها لأسرته[٦]، بل على العكس من ذلك نجده يصر على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ ، ٢٨٦ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٢ – ٥٣ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٣) كانت مهمة القاضي تشمل تنفيذ الأحكام الشرعية والحقوقية ، ومراقبة الأوضاع وإخبار الدولة عما يجري في المنطقة . جارشلي : أمراء مكة ، ص ٨٧ – ٨٨ ، والبكري : الروضة المأنوسة ، ص١٤–٢٦، ومهنا : الإسلام في آسيا ، ص ١٤٣ – ١٤٩ .

(٤) الحربي : نظام الحكم ، ص ١٨٤ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٢٢ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٦) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٧٠ .

إعادة ابن ظهيرة إلى القضاء بعد صدور أمر بعزله سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م [١] ، كما ألح في تولية ابن أخيه مكانه بعد أن توفي[٢] . وكان للقضاة دور فعال في النواحي المالية ؛ فقد أعاد السلطان سليم إليهم منصب نظر الحرم والإشراف على الأوقاف ، وجعل لهم أيضًا المشاركة في لجان توزيع المساعدات ، فظل لهم الإشراف على هيئة الموظفين المشرفين على إقامة وتنفيذ شعائر الدين، ومنهم الخطباء والمؤذنون مثلاً ، وهيئة القائمين بالخدمات العامة في الحرم، كالفراشين والوقادين والبوابين وغيرهم [٣] . وكان القضاة وتابعوهم يقومون بأعمالهم نظير رواتب سنوية مالية وعينية من جمارك جدة ، أو من الصرة القادمة من مصر[٤] .

وأما الشريف فكان يُشارك في الجانب القضائي بالبت في القضايا الحقوقية والجنائية التي يلجأ إليه أصحابها طلبًا للحكم بينهم فيها ، وفي القضايا المستعصية ، وفي الخلافات التي قد تنشأ بين القضاة أنفسهم[٥] .

وهكذا ، يتضح أن العثمانيين قد أدخلوا تغييرات ملموسة في جوانب كثيرة، جعلت نفوذهم قويًا في الحياة العامة في الحجاز منذ بداية عهدهم ، وأن الحكم العثماني لم يكن سطحيًا ولا عديم التأثير [٦] . والحقيقة أن النظم التي استجدت في عهد سليم لم تحدث انقلابًا جذريًا في الأوضاع ، لكنها حملت بوادر تعديلات أخرى تلتها كما سيأتي .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٢ – ٣٣ ، ٥٢ – ٥٣ .

(٤) الحربي : نظم الحكم ، ٢٩٢ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢١٤ .

(٦) مانتران : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

سطحية الحكم : ترك الأمور في الولايات على ما هي عليه دون تدخل جوهري من الدولة في حياة الناس على أن تظل تابعة للسلطان الذي يكتفي بوضع حاميات للدفاع عن البلاد ولنشر الأمن أما ما عدا ذلك فقد ترك لأهل البلاد ولحكامها من الولاة أو الشيوخ والأعيان يتصدون لعلاج مشاكل بلادهم وأهلها . نوار : تاريخ العرب ، ص ٣٦ – ٣٧ .

كما أن تعدد الأطراف المسئولة في الحجاز ، وعدم تحديد صلاحيات كل منها ، وتعارض مصالحها، أحدث اصطدامات كثيرة بينها ، مما انعكس سلبًا على الأحوال العامة في المنطقة ، فأدى إلى فقدان الأمن وهياج البدو[1] .

(١) نشبت الخلافات بين جند نائب جدة وجند الشريف سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، وبين الشريف ونائب جدة قاسم الشرواني ، ذلك الخلاف الذي انتهى بعزل قاسم وسجنه ، بل اتهامه بالاتصال بالصفويين ، وعين بعده حسين الرومي ، ولكن وقعت المشاحنات نفسها بين أتباعهما كما في موسم حج سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق١ ، ص ٨٣ ، ٩٠ ، ٩٥ - ٩٦ ، ٢٠١ ، ١١٥ ، ١١٦، ٢٨١.

# المبحث الثاني

# عهد السلطان سليمان القانوني

## ( ٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥١٩ - ١٥٦٦م )

يُعد عهد السلطان سليمان قمة العصر الذهبي العثماني، لما تم خلاله من أعمال عسكرية وتنظيمية ، حيث امتدت فتوحات الدولة في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، فبلغ عدد الحملات التي أسهم فيها السلطان بنفسه ثلاث عشرة حملة ، مما زاد ثروة الدولة ، وجعلها تحقق سيادة عالمية .

أما التشريعات والنظم التي سُنت في هذا العهد ، فقد استكملت ما كانت الإدارة العثمانية قد بدأته في هذا المجال . وهي نظم عُرفت بالعدالة والتقدمية، ومراعاة الظروف الخاصة لكل منطقة على حدة[١] ، فكانت مكة في مقدمتها .

### أ - إمارة الشريف بركات ودور مكة في التصدي للبرتغاليين:

تلقى الشريف بركات خطاباً رسميّا من الدولة ، عن طريق أمير أمراء مصر خاير بك بعد حج سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م ، بُلّغ فيه خبر تولي السلطان سليمان الحكم[٢] ، أي بعد حوالي ثلاثة شهور تقريباً من وفاة السلطان سليم، التي كانت يوم الخميس ٩ من شوال من العام نفسه [٣].

وقد وافقت بداية عهد السلطان سليمان آخر فترة حكم الشريف بركات ، التي كان فيها حريصًا على تجنب الاصطدام بممثلي السلطة

---

(١) فريد : الدولة العلية ، ص ١٩٨ ، ويلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١، ص٢٥٤، ٢٥٧، Kinross: The Ottoman Centuries 159-285 .

(٢) محمد بن فهد : الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان ، ورقة ٦٣ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ .

العثمانية في الحجاز ، وعلى البقاء على علاقته الحسنة بالعثمانيين ، فأرسل كتابًا يهنئ فيه السلطان بفتح رودس سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م[١] ، ثم بنجاحه في القضاء على حركة جان بردي الغزالي[٢] الانفصالية في الشام سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م[٣] .

لكن الأمر لم يخل من احتكاكات مع سنجق جدة حسين الرومي ، إنما على نحو أقل حدة مما كان عليه الحال في عهد سلفه[٤]. كما استأنف الشريف عملياته العسكرية في مناطق مختلفة من بوادي الحجاز، للقضاء على بعض تحركات الأعراب هناك، فقاتل قبائل لام[٥] وبطونها الذين عادوا إلى التعرض للحجاج مجدداً منذ عهد السلطان سليم، كما هاجموا المدينة المنورة[٦] ، وأبقى

---

(١) هارولد لامب : سليمان القانوني ، ص ٨٢ .

(٢) جان بردى الغزالي : أمير مملوكي ، كان نائبًا لحماة حين قدوم العثمانيين إلى الشام ، وقد كان لتعاونه معهم بعد دخولهم مصر دور كبير في استقرار حكمهم فيها ، فكافأه السلطان سليم بتعيينه نائبًا للشام سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م وهو في طريقه إلى إستنبول . ثم خرج جان على السلطان سليمان سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م فتصدت له القوات العثمانية وقضت على حركته . ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق٢، ص ص ٢٤، ٢٥ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧٥ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٩١ ، ٣٥٧ .

(٥) كانت هذه القبائل مصدر قلق للسلطات في مصر طوال العصر المملوكي ، حيث لم يستطع الغوري في نهاية هذا العهد السيطرة على قبائل لام وبطونها على الرغم من الحملات المتوالية التي بعثها إليهم، كما لم يتوصل شريف مكة معهم إلا إلى صلح هش لم يلتزموا به ، فعادوا إلى مهاجمة الحجاج في السنوات ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ هـ بقيادة شيخهم جغيمان ، وطالبوا بالأموال التي لهم عن عدة سنين، ثم هاجموا المدينة ، وقام بطن منهم يُعرفون بالظفير بمحاصرة المدينة ، وقطعوا أشجار النخيل حولها، فقاتلهم أبو نمي ، وقد كانت منازلهم حول الحناكية قرب المدينة ، وذلك قبل أن ينزحوا إلى حفر الباطن والكويت والعراق حيث يقيمون حاليًا . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٤ ، ١١٦ . البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص٢٨٨ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٤ ، ١١٦ .

على تبعية حلى لإمارة مكة ، وكفها عن النزاع مع حاكم جازان[(١)] ومن عضده من قادة جند المماليك ، الذين قدموا إلى اليمن مع الحملة الثانية التي بعثها الغوري إلى الهند[(٢)] .

وقد حققت الحملة التأديبية التي قادها شريف مكة ضد قبيلة عتيبة [(٣)] هدفها في صد عدوانهم على منطقة بجيلة[(٤)] قرب الطائف التي كانت مصدراً جيداً للحبوب والأطعمة لمكة المكرمة ، وفوض الشريف أمر تقديم الخدمات للحجاج والمسئولين المرافقين لهم إلى ابنيه أبي نمي وثقبة ، دون تدخل مباشر منه، تجنباً لما قد يحدث من خلافات ، كما حدث في الأعوام السابقة[(٥)] .

---

(١) جازان : مدينة تقع في جنوب تهامة عسير على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، كانت تتبع إمارة المخلاف السليماني التي أسسها سليمان المطرفي من قبائل حكم ، إحدى أهم قبائل المنطقة ، ثم حكمها بعد أن أقصى سليمان هذا عنها الشريف داود بن سليمان الحسني ، ويبدو أن المخلاف نسب إليهما . وتمتد الإمارة من قرية الموسم في الجنوب إلى حلى في الشمال ، وتراوح وضعها السياسي بين الاستقلال والتبعية لليمن كأحد المخاليف أو الأقسام الإدارية لها أو لإمارة مكة . وقد عرفت جازان حاضرة لهذه الإمارة منذ مطلع القرن التاسع الهجري بعد أن انتقل حكمها إلى آل القطبي الذين كانت لهم أملاك فيها . محمد العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني ، ط ٢ ، ج ١ ، ص٦٢ ، ٧٢ ، وصفحات متفرقة ، والبهكلي : نفح العود ، ص ٩٠ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٠ ، ١١٨ .

(٣) عتيبة : يرجع نسب قسم كبير من هذه القبيلة إلى هوازن . وقد يكون اسمها مشتقًا من العتبات ، وهم بطن يُعرف بأبي عتيبة بن عبدالله بن بكيل من همدان ، قدموا المنطقة وساكنوا أهلها من هوازن . البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص ٣١٥ ، ٣١٧ .

(٤) بجيلة : فرعة في سراة بني مالك ، منطقة زراعية ، سكانها بني مالك فرع من بجيلة القديمة . وبجيلة موضع شمال شرق وادي لية شرق مدينة الطائف . البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ص ١٧٨.

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٨٣ ، ٢٩٣ .

وقد مثل الشريف النفوذ العثماني في مكة وجدة ، حين بقي مواليًا للعثمانيين خلال الحركة الانفصالية التي قام بها أحمد باشا[١] في مصر سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م ، حيث عد أصحاب الحركة الحجاز تابعًا لهم ، وداخلاً تحت نفوذهم ، مستغلين تبعيته الإدارية لمصر . فأقصوا حسين الرومي عن سنجقية جدة ، وحصروا نفوذه في الأعمال الإنشائية في مكة فقط [٢]. وعينوا نائبًا بجدة من قبلهم هو فرحات الرومي ، في محاولة منهم لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العثمانيين ، كما عملوا على إحياء الخلافة في مصر[٣] ، وذلك لحرمان الدولة العثمانية من زعامة العالم الإسلامي،الأمر الذي كانت تحرص عليه كل الحرص . وقد استغل منافسو بركات في مصر ، وهم : محرم بن هزاع وابن يحيى بن سبع أمير ينبع السابق ، عدم تعاون إمارة مكة مع الانفصاليين، وسعوا لدى الحكومة الجديدة للحصول على السلطة في الحجاز ، وتقربوا إليها بعرض مبلغ مالي ضخم لهم ، ليمكنوهما من تنفيذ هدفهما. غير أنه تم القضاء على الحركة في مصر ، فتصدت الحامية العسكرية التابعة للشريف بركات لأتباع أحمد باشا في جدة ، إذ منعت النائب فرحات من الفرار بحرًا ، وتمكنت من القبض عليه بعد تبادل لإطلاق النار ، نتج عنه مقتل جنديين تابعين لشريف مكة وجندي من الانفصاليين[٤] .

---

(١) أحمد باشا : كان من رجال السلطان سليم المقربين ، تدرج في الوظائف حتى رشح لمنصب الصدارة العظمى في عهد السلطان سليمان ، لكن اختيار ( إبراهيم آغا ) رئيس الجناح السلطاني الخاص صدرًا أعظمَ أوغر صدر أحمد باشا ، وجعله يطلب توليته إيالة مصر ، فاستجيب له لإبعاده عن مركز الدولة ، فحاول الاستقلال بها ، لكن قبض الجند العثماني في مصر عليه بالتعاون مع الأعراب ، وتم إعدامه بعد أن حكم تسعة أشهر ونصف شهر ، وقيل نحو السنة . السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١١٧، ١٢٢ ، و البكري : المنح الرحمانية ، ص ١٣٩ ، ١٤١ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

(٣) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٢٠ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

وهكذا ، نجد أن علاقة بركات بالعثمانيين في عهد سليمان القانوني استمرت قوية ، كما مال تعامله مع الموظفين العثمانيين في الحجاز إلى الهدوء والودية ، مقارنة بعهد سليم الذي اتسمت فيه صلات الشريف بسنجق جدة وأمراء الحج بالخلافات والمنازعات المتكررة .

وقد شهد هذاالطور من حكم بركات تعديلاً مهمًا في نظم الحكم العثماني في الحجاز، شمل الجانب المالي، حيث ضمت واردات جمرك جدة إلى خزانة الدولة سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م ضمن موارد موانئ الإسكندرية ودمياط والسويس ، على أثر توصية رفعها دفتردار بلاد العرب ، وهو ناظر أموال عينه السلطان سليمان على الإدارة المالية في مصر ، وطلب منه القيام بالتفتيش على أحوال الإيالة من الناحية المالية بعد اضطرابها في عهد خاير بك،زيادة على ما كانت تعاني منه من قبل. كما عين ناظرًا جديدًا لدار ضرب النقود[١]. وكان مما أورده ابن إياس في أخبار سنة٩٢٧هـ/١٥٢٠م أن موارد موانئ مصر ضمت إلى الدولة منذ ذلك التاريخ ، لكن لا يعلم :هل كانت جدة ضمنها أو لا؟[٢] .

ومن الملاحظ أن هذا الإجراء لم يقابل بردّ فعل فوري عنيف في الحجاز، ربما لقوة الدولة العثمانية ، أو للزيادة الكبيرة في المساعدات[٣] التي قرر السلطان سليمان إضافتها إلى ما كان يصل إلى الحجاز من قبل[٤] ، أو للسببين معًا ، لكن أبي نمي لم يكن غافلاً عما يجري وربما كان يترقب إلى أي مدى ستبلغ الأمور[٥] .

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

(٣) زاد سليمان المساعدات التي كانت تبعث إلى الحجاز ، حتى أصبحت الصرة المرسلة ضعف ما كان يرسله أبوه السلطان ، سليم كما أضاف إليها موارد أخرى على النحو الذي سيرد مفصلاً في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

(٤) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) هريدي : شؤون الحرمين ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وتميز الجانب القضائي في هذه الفترة في مكة باستمرار خضوعه لتأثير نفوذ بركات بقدر كبير، فهو لم يكتف بإعادة تعيين قاضي القضاة صلاح الدين ابن ظهيرة إلى منصبه بعد صدور أمر بعزله، بل طالب بتعيين ابن أخيه مكانه، بعد وفاته سنة٩٢٧هـ / ١٥٢٠م ، فنفذت رغبة الشريف على الرغم من تحفظ آل ظهيرة أنفسهم على اختيار الشريف لابن أخيهم ، نظرًا لصغر سن القاضي الجديد(١).

وقد كان تعيين قضاة الطائف وما يليه من مناطق الحجاز جنوبًا يتم بتفويض من قاضي القضاة في مكة(٢) . مما يدل على مدى سيطرة بركات على جانب مهمّ للسلطة في الحجاز، هو الجانب القضائي، وقد زادت أهمية هذا الجانب بسبب إعادة السلطة المالية وتنظيم المسجد الحرام لمتوليه منذ بداية العهد العثماني(٣) .

كما سادت ظاهرة التنافس بين القضاة في مكة ، وسعى كثير من المكيين لدى السلطات في إستنبول لأجل توليتهم ، فساءت العلاقات بينهم ، ووصلت بعض شخصيات من غير الأكفاء ، أو ممن لا يلقون التأييد على الصعيدين الرسمي والشعبي ، إلى منصب القضاء ، مما أثار السخط والاستنكار في مكة(٤) . لكن الدولة استجابت لرغبة بركات في عدم تولية القضاء في الحجاز لقضاة من خارجه وعزل القاضي الذي عين فسافر ساخطًا في سنة٩٣١هـ / ١٥٢٤م(٥).

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٩٧ ، ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٥٥ ، ٩٨ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٩٧ ، ٢٤٤ .

(٥) هو القاضي محمد بن يوسف الحلبي ، كان عالمًا جليل القدر ، ولي قضاء طرابلس ثم حلب في العهد المملوكي ، وولي مشيخة عدد من المدارس في حلب ، وعين في قضاء مكة ، فكان أول قاضٍ يعين فيها من غير أهلها ، لكن الشريف بركات لم يسمح ببقائه ، فخرج من مكة، وأرسل للشريف أبياتًا سماها: السهام المهلكة من الباري ، في الشريف بركات وأتباعه والذراري ، ومنها :

يا واليًا قطن الحجاز تعسفًا      عزلي بموتك منذر قد عزّ لي

الغزي : الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، ج ١ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وفي سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م تلقى بركات من السلطان سليم خلعة ومنشوراً ضمن من بعث إليهم السلطان من أمراءالعشائر التابعين لإيالة مصر إدارياً[١]، فكان ذلك أول مظاهر التوجه لدمج إمارة مكة في الكيان الإداري لمصر ، على الرغم من التكريم المعنوي الذي كان لشريفها[٢] .

وتبدو أهمية دور بركات في التصدي للخطر البرتغالي في بداية العهد العثماني من التطورات التي شهدتها ساحة الصراع في المنطقة العربية ، فلقد كثف البرتغاليون نشاطهم الحربي في البحر الأحمر اعتباراً من سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ، وذلك للسيطرة على تجارة الشرق، والوصول إلى المقدسات، وإيجاد تحالف مع مسيحيي الحبشة[٣] . بينما انقسم الصف الإسلامي وزاد تصدعه . فالحملة العسكرية الثانية التي بعث بها المماليك إلى الهند سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م للتصدي لهذا التصعيد البرتغالي توقفت في اليمن، واستولت على أجزاء من أراضيه ، متخذة من زبيد قاعدة لها ، وذلك بعد أن اشتبكت في صراع مع القوتين السياسيتين اللتين كانتا تسيطران على الأراضي اليمنية، بدءًا بالدولة الطاهرية ، ثم دولة الإمامة الزيدية[٤] . كما مر فيما سبق .

وفي ذلك الوقت كان العثمانيون قد قضوا على المماليك، ودخلوا مصر ناقلين إليهم مسئولية المجابهة البرتغالية . غير أن الدولة العثمانية لم تقم بعمل عسكري مكثف في البحر الأحمر في بداية عهدها ، وذلك نتيجة لاضطراب الأحوال في مصر سياسيًا واقتصاديًا ، ولانشغال العثمانيين بالصراع مع

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٣٥ .

(٢) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٨٧ ، ٩١ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ، ج ٥ ، ص ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، والفضل المزيد ، ص ٣٤٥ - ٣٤٨، وابن حسين: غاية الأماني ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

الصفويين ثم مع أوروبا ،وفي إخماد عدة ثورات داخلية[١].كما بدا أن العثمانيين آثرواالاستمرار في استراتيجيتهم التي بدأت بها دولتهم منذ فترة طويلة، والعمل على تعزيزها وتقويتها، وهي محاولة السيطرة على البحر المتوسط، وإبقاء المعارك البحرية مع الأوربيين فيه، لعدة أسباب لعل من أبرزها :

أولاً : قربه من مناطق المواد الخام، ومن مقر القيادة البحرية العثمانية في أوروبا، مما يجعل إمكان بناء الأساطيل الحربية أكبر، كما يسهل إعادة تسليح القوات وتقديم الإمدادات في حال الحاجة إليها، وقد كانت للعثمانيين قوات حربية بحرية أثبتت كفاءتها في الجهاد لفترة طويلة[٢] .

ثانيًا : حماية سواحل الشام ومصر، وتأمين طرق المواصلات والحجاج إليهما، التي طالما تعرضت لهجمات الأوروبيين[٣] .

ثالثًا : توحيد الجهود مع المجاهدين المسلمين في شمال أفريقيا، والاستفادة من خبرتهم البحرية في السيطرة على الملاحة في البحر المتوسط، ومن ثم مهاجمة أوروبا في عقر دارها[٤] . وبذلك يقضي على أصل البلاء في مهده .

أما مهمة الدفاع عن الجبهة الجنوبية للدولة ، فقد اكتُفي بتكليف أمير أمراء مصر بها[٥] ، بالتعاون مع شريف مكة[٦] .

---

(١) سالم : الفتح العثماني ، ص ١٤٢ ، وحرب : العثمانيون في التاريخ ، ص ٢٧ ، ٥٩ ، والحميد: موقف الدولة العثمانية ، ص ٦٩ ، ٧١ .

(٢) نبيل رضوان : القوة العثمانية بين البر والبحر ، ص ٥٨ ، ١١٤ ، وأوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٤٤ .

(٣) فريد : الدولة العلية ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، وأوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦٢. ٢٦٤ .

(٤) أوزوتونا : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٥) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٩٢ ، ١٦٦ ، ٤٣٨ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٧ .

ونظراً لاستمرار تردي وضع مصر الداخلي، فقد نفذ أمير مصر ما كان قد قرره السلطان من إسناد أمر المجابهة البرتغالية إلى الشريف بركات[١] وبذلك مثل الحجاز خط الدفاع الأول عن المقدسات ، معتمداً على بقايا القوات المملوكية في جدة ، وعلى إمكانات إمارة مكة ، حيث لم تصل إلى الحجاز منذ بداية الحكم العثماني حتى ١٥من ذي القعدة سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م ، أي بعد حوالي ثلاث سنوات من الخضوع للعثمانيين ، سوى دفعة واحدة من الجند، تراوحت بين ثلاثمائة وخمسمائة جندي، بعث بها خاير بك، بعد أن سمع بتحرك الحملة البرتغالية الثالثة إلى جدة منذ بدء الحكم العثماني[٢] . ثم عادت الثورات للاندلاع في مصر بعد وفاة خاير، فانقطعت المساعدات العسكرية عن الحجاز، حتى صدور قانون نامه مصر[٣] سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، أي ما يوافق نهاية عهد الشريف بركات بوفاته في العام نفسه[٤] .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ ، ٣١٢ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص١٣٣ ، ١٩٠ .

(٣) قانون نامه مصر : زاد اضطراب أحوال مصر بعد دخول العثمانيين ، فلم يتمكن السلطان سليم من إخضاعها لإدارة عثمانية مباشرة ، وعجز خاير بك الذي عهد إليه سليم بإيالة مصر عن السيطرة على الجوانب المالية أيضاً ، ثم استشرت الفوضى – بعد وفاة خاير – أكثر من ذي قبل ، وتعددت حركات التمرد والثورات ، فأرسل السلطان سليمان الصدر الأعظم إبراهيم باشا وبصحبته هيئة إدارية إلى مصر لدراسة أحوالها . وقد تم وضع قانون نظمت به أحوالها ، وأقرت أنظمة لحكمها روعي فيها القوانين المملوكية التي عمل بها في فترات الاستقرار، كعهد قايتباي ، كما أخذ بالأعراف والمعاملات التي تمت خلال فترة الحكم العثماني السابق ، على أن تكون جميع بنود القانون موافقة للشريعة الإسلامية . وقد بدأ العمل بهذا القانون في مصر سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤ م ، وشهدت بعده تحسناً ملحوظاً في أحوالها ، وكان هو الأساس للإدارة العثمانية فيما بعد . السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٢٥ ، ١٣٣ ، والدمرداش : الدرة المصانة ، ص ٨ ، ومغيث : مصر في العصر العثماني ، ص ٩٧ ، ١٢٤ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٧ .

وهكذا ، زادت مهام بركات في المواجهة البرتغالية في العهد العثماني، فقام حيالها بما وسعه الجهد والإمكانات متابعًا ما كان يؤديه من مهام في صد البرتغاليين منذ بدء محاولتهم للوصول إلى الحجاز . وتتلخص أعمال بركات على الجبهة البرتغالية واليمنية فيما يلي :

أولاً : شكلت إمارة مكة نقطة مراقبة، ومركز إنذار متقدمًا تولى الإعلام بالتحركات البرتغالية بمجرد حدوثها، وذلك بحكم قرب الإمارة من موقع الحدث نسبيًا، وسعة صلاتها بالدول الإسلامية ، لذلك كان شريف مكة هو من أبلغ عن حوادث سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م(١) ، وسنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣م(٢) ثم ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م للمسئولين في مصر، وطلب إليهم سرعة التحرك لحماية المقدسات(٣) .

ثانيًا : يلاحظ أن تواجد الشريف في مكة سد الفراغ السياسي، والنقص العسكري الذي كان يحدث في الحجاز نتيجة انشغال المماليك والعثمانيين بالخلافات بينهما، أو بشؤنهما الداخلية، ومن ذلك أنه في الوقت الذي شغل فيه العثمانيون بإتمام السيطرة على مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، تعرضت جدة لهجوم حملة برتغالية حاصرتها بقيادة لوبوسواريز(٤) ، لكن تصدت لها حامية المدينة بقيادة سلمان الريس، مما اضطرها إلى التراجع(٥) . كما عوقت حملة

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٢ ، ٢١٣ ، وغاية المرام ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٠٨ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٠ .

(٤) لوبوسواريز : نائب ملك البرتغال في الهند منذ سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ، خلف البوكيرك بعد وفاته، وقد غادر جوا في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م على رأس أسطول بحري مكون من أربعين سفينة وألفين من الرجال المسلمين ، وكان هدفه القضاء على المماليك وتدمير جدة والاتصال بالحبشة . سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٥) المرجع السابق ، والصفحة نفسها ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٠ .

أخرى قدمت إلى المنطقة في العام التالي ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م بفعل الرياح، فعادت إلى كمران، وهاجمت منها ميناء اللحية اليمني، فطاردها سلمان الريس أيضاً، واستولى على إحدى سفنها وأسر بحارتها، ثم أرسلها إلى العثمانيين[١] . وفي سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، وصلت الفرقة العسكرية التي بعثها خاير بك إلى جدة بعد أن سمع بتحرك الحملة البرتغالية التالية إليها[٢]، وبصحبتها حسين الرومي النائب الجديد الذي ظلت علاقته بالشريف غير محددة الصلاحيات أيضاً ، فكل ما صدر هو أن يعملا جنباً إلى جنب على أن يعتمد نائب جدة على الشريف . لكن حسين نفذ حكم القبض على النائب الذي قبله قاسم الشرواني ، بسبب شكوى الشريف منه[٣] . كما أن الشريف من جانبه قلل من معارضاته ، فلم يسجل بينه وبين حسين سوى مصادمات محدودة .

ثالثاً : شاركت إمارة مكة في التكاليف المادية والعملية التي تطلبها التصدي للتعديات البرتغالية منذ بدايتها . فشارك الشريف والتجار في مكة وجدة في نفقات بناء سور جدة[٤] . كما أرسل فنيين وعمالاً للإسهام في عمليات البناء مع المهندسين الذين قدموا من مصر[٥] . وأشرف بركات نفسه على سير العمل في مراحل التنفيذ المختلفة ،إلى جانب المسئولين المماليك[٦]. وفي العهد العثماني طلب إلى الشريف تعزيز تحصينات جدة ببناء برج إضافي

---

(١) سالم : الفتح العثماني لليمن ، ص ١١٩ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، القسم والصفحة نفسهما .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٥) المصدر السابق ، ورقة ١٦١ .

(٦) المصدر السابق ، ورقة ١٦٦ .

لسورها ، فأنشأ البرج اليماني( الجنوبي )[١] من السور مما يلي البحر في سنة ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م [٢]. ثم تلقى حسين الرومي نائب جدة أوامر جديدة في العام التالي ببناء البرج الشامي ( الشمالي ) ، فأنجز كسابقه وأضيف معه باب للسور سُمي باب البر . وقد اعتمد في بناء كلا البرجين على بناة وعمال استقدموا من مكة[٣] .

وشاركت الحامية العسكرية التابعة للشريف ، ومن انضم إليها من المتطوعين ، في الدفاع عن جدة إلى جانب جند الدولة، بتكلفة تسليحهم وكامل نفقاتهم، ففي سنة ٩٢٦ هـ/١٥١٩م رد الشريف على أخبار استعدادات البرتغاليين للهجوم على جدة بإعلان التعبئة العامة ، ونادى حاكم مكة بالجهاد والتوجه لحماية الثغر بأسرع وقت ممكن ، ثم سعى بعد ذلك في توفير المؤن للجند بشرائها من أسواق مكة[٤] . وقد تكرر تزويد الحملات العسكرية التي كانت تخرج للقاء البرتغاليين بالمؤن من مكة طوال فترة المجابهة على الرغم من الصعوبات الاقتصادية ، والنقص في المواد التموينية التي كانت تعاني منها في أغلب الأحيان[٥] .

رابعًا : أدت اتصالات بركات بالقوى المختلفة في اليمن إلى نتائج إيجابية على الحجاز . فلقد كانت الاضطرابات تسود اليمن بسبب تقاتل

---

(١) استخدمت أسماء المناطق لتحديد الاتجاهات في المصادر المكية وغيرها، فإذا ذكر أن الشريف خرج إلى فريقه ( معسكره ) جهة اليمن ، فإنه يقصد جنوب الحجاز ، وإذا قالوا إلى الشام فالمقصود شمال الحجاز . وكذا في مصر فإنهم يعبرون عن الجنوب بقولهم الوجه القبلي أي ما كان جهة القبلة، محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٣٥ ، والسيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٤٣٠ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ص ٢٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٣ .

الطاهريين والزيديين فيما بينهم من جهة، وتقاتلهم كل على حدة مع قادة الحملة المملوكية من جهة أخرى[١] .

وبعد أن استولى العثمانيون على مصر انقسم هؤلاء القادة على أنفسهم، فقسم مؤيد للعثمانيين، وآخر يتطلع إلى الاستقلال باليمن على الرغم من إظهارهم الطاعة للعثمانيين[٢] . وقد تركزت إحدى الفرق المنشقة في ميناء اللحية اليمني بقيادة سنان الرومي، واضطرهم الحصار وانقطاع المدد إلى التعرض للسفن الناقلة للتجارة في البحر الأحمر، فانقطع قدر كبير من احتياجات مكة من المواد الغذائية عن الوصول إليها من شرق أفريقيا، فخرج الشريف إلى جنوب الحجاز، واتصل بسنان، وتوصلت المفاوضات بينهما إلى إعادة هذه الفرقة إلى طاعة العثمانيين، فقدمت له إمدادات مالية وتموينية ومعدات، وأرسل الجند التابعين له للعمل تحت إمرته بعد فرارهم ولجوئهم إلى مكة، وذلك للاستفادة من جهودهم في مواجهة المناوئين للعثمانيين في اليمن[٣] .

بينما اتخذ إسكندر أحد قادة الجند المملوكي مدينة زبيد مقرًا له ، معتبرًا نفسه الممثل الرسمي للقوة العسكرية في اليمن،وقد كان يظهر خلاف ما يبطن، إذ أرسل إلى السلطان سليم يعلن خضوعه وتبعيته له، فأقره السلطان على حكم ما تحت يده من مناطق، وطلب منه أن يمثل النفوذ العثماني فيها[٤] . لكن اتضحت ميول اسكندر الاستقلالية من علاقته بممثلي الدولة في الحجاز . ففي البداية هبّ لمساعدة حاكم جيزان في تحركاته في جنوب الحجاز ضد إمارة مكة، فخرج إليهم الشريف بركات ، وآثر عدم الاصطدام بهم ، بل اتخذ موقفًا

(١) سالم : الفتح العثماني ، ص ١٤٤ .

(٢) أوزوتونا : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٢٢ ، ١٢٧ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

دفاعيًا منهم بأن أعاد تبعية حلي لإمارة مكة ، وعمل على تحييدها وكفها عن الدخول في الصراعات الإقليمية ، بنزع أسلحة أهلها ، وتغريمهم ، لردعهم عن التورط فيما قد يؤدي إلى تصعيد الاضطرابات ، وما ينتج عن ذلك من فقدان للأمن ، وزيادة في تفاقم الأزمة الاقتصادية[١] .

وبدت نوايا إسكندر بشكل أكثر جلاءً بعد أن خدع[٢] نائب جدة سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م ، ثم استولى على ما قدمه النائب من معونات للجند في اليمن ، واستغلها في تثبيت حكمه هناك ، مما جعل خاير بك أمير أمراء مصر يعلن تخليه عن إسكندر ، ويشهر محاربة الدولة له . ويحذر حاكم عدن من التبعية له . وقد تمادى إسكندر في عصيانه بمنع السفن من القدوم إلى جدة سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م[٣] . حتى تمكن كمال الرومي من قتل إسكندر في هذا العام نفسه وتولى السلطة مكانه[٤] .

كما اتجهت أنظار مرجان الظافري حاكم عدن التابع للطاهريين إلى شريف مكة ، ليبلغ صوته للعثمانيين ، ويشرح لهم موقفه ، وتعرضه للضغط من قبل البرتغاليين بحرًا ، والقوى المملوكية والزيدية برًا ، خاصة بعد قتل مبعوثيه

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٠ ، ١١٨ .

(٢) كلف خاير بك حسين الرومي بإصلاح أحوال اليمن ، فخرج في حملة إليها ، لكن إسكندر لقيه معلنًا طاعته للعثمانيين مجددًا ، وعرض أن يشترك في استكمال السيطرة على اليمن مع حسين الرومي، وبعد أن حصل إسكندر على المعدات أشاع قدوم حملة برتغالية جديدة هدفها جدة فخرج حسين مسرعًا إليها ، ثم اتضح إنها إشاعة من إسكندر ليبعد العثمانيين عن اليمن ويستقل بحكمها، وهذا ما أسخط خاير بك عليه ، وجعله يتوجس من استغلال البرتغاليين لهذا ، فكادت تكون نتيجة عمله وخيمة حين قدمت حملة لوبو سكويرا إلى البحر الأحمر فعلاً بعد فترة وجيزة ، إذ ربما ظنت الحامية أنها إشاعة أخرى ، ولكن الحملة لم تستطع الوصول إلى جدة ، فاتجهت إلى مصر . بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ ، ص ص ٢١٣ ، ٢١٧ . وابن الحسين : غاية الأماني ، ص ٦٦٣ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٣ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٥ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٣٣ .

اللذين أرسلهما إلى السلطان سليم من قبل جند الحملة المملوكية وهما في طريق عودتهما إلى عدن[١] .

وهكذا ، أسفرت جهود بركات على الجبهة اليمنية عن وقف امتداد أثر الاضطرابات في اليمن إلى جنوب الحجاز ، والقضاء على الأسباب الإقليمية التي هددت الملاحة في البحر الأحمر، مما ساعد على حفظ الأمن والاستقرار في الحجاز ، وقلص الأزمة الاقتصادية في مكة . كما عملت إمارة مكة كهمزة وصل أسهمت في نقل وجهة نظر حاكم عدن للعثمانيين ، لكن لم تؤت هذه الوساطة نتائج عملية حتى وفاة بركات سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م .

ومن سلبيات موقف بركات في المهمة التي أسندت إليه،وهي تنفيذ سياسة الدولة العثمانية في جبهتها الجنوبية، أنه اعتمد على المقاومة البرية، وركز جهده على الاتصال بالجند المصري في اليمن برّا من معسكره في جنوب الحجاز[٢] ، وعلى دور دفاعي داخل مدينة جدة فقط ، أما النشاط العسكري البحري ضد البرتغاليين فلم يكن لبركات أي مشاركة فيه، بعد أن حملت المسئولية له وحده بتكليف من السلطان سليم ، ثم بتأكيد من خاير ، الذي طالب الشريف بحصر السفن والمعدات في جدة ، وبتفعيل دورها ، لكن استجابته لم تكن بمستوى خطورة الموقف ، وقد يعود ذلك إلى قلة الإمدادات بل انعدامها، وفقر الموارد المحلية لمثل تلك المتطلبات، ولعدم الخبرة العسكرية البحرية في الحجاز، وهذا يقودنا إلى سلبية أخرى للشريف في المجابهة ضد البرتغاليين ، وهي عمله على استبعاد العناصر النشطة ذات الخبرة الملاحية ، التي كانت شديدة الحماسة للدفاع البحري عن المقدسات، وعلى تطوير البحرية الإسلامية، لتصبح بمستوى البحرية البرتغالية ، وعلى الرغم من المواقف المشكورة للقائدين المسلمين اللذين

---

(١) سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ١٢١ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٨ ، ١٤٦ .

شاركا في هذا المجال ، وهما: حسين الكردي وسلمان الريس ، فلقد استجاب العثمانيون لمن طالب بقتل حسين الكردي ، ثم نفذت رغبة بركات في إبعاد سلمان الرومي ، فعزل وألقي القبض عليه ورُحِّل إلى إستنبول للتحقيق معه . وترك لبركات اختيار قبطان يرتضيه ، فعين القبطان محمداً[1] لكن لم يسجل له أي عمل ملموس لا ضدالبرتغاليين ولا ضد الخارجين على السلطة في اليمن[2].

وربما كان لبركات عذره في موقفه من القائدين حسين وسلمان ، وهو قسوتهما في التعامل مع الحجازيين ، وتهديدهما لاستقلال إمارة مكة ، وتدخلهما في شئونها المالية[3] .

وقد كان موقف بركات – مع حالة مصر واليمن غير المستقرة ، وانشغال الدولة العثمانية في عدة جبهات أخرى ، وحفاظها على استراتيجيتها السابقة في التصدي للأوروبيين – سبباً في جعل مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر في بداية العهد العثماني تقتصر على الجانب الدفاعي ، وفي أضيق الحدود .

## ب – إمارة الشريف أبي نُـمي وتتمّـة المجابهة البرتغالية :

عد الشريف أبو نمي الممثل الرسمي لإمارة الأشراف منذ أن تنازل له والده الشريف بركات عن الشرافة سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩م ، فكان يلقى أمراء الحج ، ويتسلم من أمير الحج المصري مراسيم تجديد تعيينه سنويّاً يشاركه أخوه ثقبة ، ولذلك فإن وفاة الشريف بركات في ذي القعدة سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، لم تحدث تغييراً في الوضع ، فأعيد تنصيب أبي نمي في موسم

---

(١) لم يذكر ابن فهد سوى اسمه الأول ، نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٥ .

(٢) المصدر والقسم نفسهما ، ص ٧٩ ، ١٢٣ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ ، و النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٧ .

الحج على النحو المعتاد . ثم تأكدت توليته لمنصبه في العالم التالي، بمراسيم عاد بها مبعوث الشريف إلى إستنبول ، الذي كان قد سافر مع قافلة الحج الشامي لإبلاغ خبر وفاة الشريف للسلطان سليمان(١) .

وفي سنة ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م قصد أحمد بن أبي نمي العاصمة العثمانية استنبول ، لعرض بعض مطالب إمارته ، ومن بينها تعيينه شريكًا لوالده في الحكم ، حيث كان عمه ثقبة قد توفي منذ سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م(٢) .

لكن الشريف أحمد توفي أيضًا سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م ، فخلفه أخوه الحسن في العام نفسه وظل شريكًا لوالده إلى أن تنازل له عن الحكم رسميًا سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، وقد أصبحت مشاركة أبي نمي لولده الحسن في الشرافة اسمية بعد ذلك ، حتى توفي سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م (٣).

وهكذا ، فإن أبا نمي اتبع السياسة نفسها التي سار عليها والده الشريف بركات من قبل ، وللأسباب ذاتها ، وهي ضمان استخلاف ولده من بين منافسيه الكثيرين من أفراد أسرته ، إلى جانب خوف الشريف أبي نمي من المسئولين العثمانيين ، وكرهه للاحتكاك بهم ، لتجدد دواعي الخلاف معهم، نتيجة تزايد النفوذ العثماني في الحجاز ، مما كان يتعارض مع استقلالية إمارة مكة عامة ، ويستهدف إزاحة الحزب الحاكم فيها من الأشراف في تلك الفترة بزعامة أبي نمي بن بركات خاصة(٤) .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .

(٣) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ، ٣٧٣ .

(٤) وقد أوقعت قضية المشاركة في الحكم التي كانت مألوفة في تاريخ إمارة مكة المؤرخين الأتراك في حيرة، وأثارت لديهم تساؤلات عن المتولي للحكم حقيقة ، ومنها مثلاً ما ورد في كتاب جارشلي : أمراء مكة، ص ١٠٥.

ويظهر اهتمام العثمانيين بالحجاز ، وتغلغل نفوذهم فيه خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بشكل ملحوظ ازداد وضوحًا في عهد انفراد أبي نمي بالحكم ، في جانبين هما :

أولاً : تكثيف الأنشطة الخيرية والعمرانية في المدينتين المقدستين وعلى طول طرق الحج ، لأن تنفيذ المشاريع العديدة في هذين المجالين تطلب تواجد الكثير من المسئولين العثمانيين والخبراء والفنيين ، الذين كانوا يقيمون في الحجاز بصفة مؤقتة لمهمة عارضة ، كتوزيع المساعدات ، أو بشكل دائم للإشراف على إقامة منشآت ، أو تحسين بعض المرافق ، كعين عرفة ، لأن مشاركة هؤلاء الموظفين لم تكن تقتصر على مسئولياتهم التي كانوا يكلفون بها فقط، بل تتعداها إلى الإسهام فيما قد يعرض من أحداث في الحجاز، ويتطلب تدخلاً سريعًا لمعالجته ، مما قوى النفوذ العثماني في المنطقة ، حيث بدأ المسئولون العثمانيون يفدون إلى مكة بمجرد دخولها تحت الحكم العثماني ، فقد عين السلطان سليم خازن داره الأمير مصلح الدين العثماني أمينًا للصرة المرافقة لأول قافلة حج خرجت من مصر إلى مكة في العهد العثماني، وفي مكة تشكلت لجنة برئاسته وعضوية عدد من القضاة المصريين ذوي الخبرة المالية، ومنهم ابن الجيعان سليل أسرة القضاة الذين تولوا الشئون المالية في مصر لفترة طويلة من الزمان ، والمنوفي الذي كان المرجع في أحوال الحالة المالية في مكة . وقد أقام مصلح الدين في مكة لفترة من الوقت ، ثم غادرها بعد تنفيذ عدد من المهام ، بعضها إداري ، ومن ذلك مثلاً حكمه بالجلد على عدد من الجند في مكة ، لأنهم فروا من القبطان سلمان الريس . ومن المسئولين الذين كانوا يقيمون في مكة ويمثلون النفوذ العثماني في عهد سليمان، الأمير إبراهيم بك الدفتردار المأمور بالإشراف على عمارة عين عرفة ، وأيضًا أمين عمارة المدارس السليمانية ، وقاسم سنجق جدة ، ومن أمثلة تمثيلهم للسلطة ما حدث حين وصل خبر وفاة السلطان سليمان القانوني إلى مكة، وهو أن المبعوث بالنبأ قصد الأمير إبراهيم ثم سنجق جدة وأمين المدارس ، وبعد ذلك أعلم ممثل

الشريف محمد بن عتبة حاكم مكة ، فنقل الخبر إلى الشريف أبي نمي[١] ، وقد دل على كبر هذه المجموعات العاملة ما بلغته أعمالها من الضخامة والتعدد والشمول ، مما طبع مظهر المدينتين المقدستين بالطابع العثماني خلال فترة وجيزة .

ثانيًا : تطوير نظم الحكم في الحجاز ، بما يكفل تحسين أحواله ، مع الاتجاه إلى تقوية مركز العثمانيين فيه ، فالنفوذ العثماني المباشر بدأ في الوصول إلى الحجاز بمجرد دخول العثمانيين مصر ، ثم تابعوا تدخلهم في المنطقة بعد ذلك بغير اندفاع ، كما هي عادتهم حينما يضمون مناطق جديدة إلى دولتهم ، بل إنهم كانوا أشد حذرًا في تعاملهم مع الحجاز منهم مع غيره من المناطق ، نظرًا لحساسية وضعه الديني والبيئي والسياسي، لذلك نجدهم قد اتبعوا سياسة النفس الطويل في ربط الإقليم بعجلة دولتهم ، ودمجه في كيانهم الإداري . ولعل هذا الهدوء والتأني والتوزيع الذكي للسلطة في الحجاز الذي سيلاحظ فيما يلي إلى جانب تأثير الفكر الاستشراقي[٢] أو المعادي للعثمانيين، هو الذي كان وراء وصف الحكم العثماني عامة بالسطحية والجمود[٣] ، وأنه ورث طبيعة رعاة الماشية التي لا تتعدى حراسة القطيع[٤] ، مما جعل كثيرًا من الدراسات التي تعرضت لتاريخ الحجاز ، حتى لو كان كاتبوها من المؤيدين لسياسة الدولة العثمانية ، ترى أن العثمانيين اكتفوا بتبعية الإقليم السياسية

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ وصفحات متفرقة ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٣ - ٣٤ ، ٣٥ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٢٤٦ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧.

(٢) وقد بلغ من الأخذ عن المستشرقين أن ترجمت حتى الأسماء عنهم، فكتب اسم أبي نمي ( أبي نمو ) ثلاث مرات في الصفحة ، أي أنه ليس خطأ مطبعيًا . وأما كتاب حكام مكة لديغوري فقد حرفت فيه الأسماء في الترجمة ، فظهيرة كتب ضحويرة وذو كتبت ضحو . أنيس : الدولة العثمانية ، ص ١٢٩ ، وجيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص ١٢٧ ، ١٧٣ .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٥١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١ ، نقل فيه نصًا عن المستشرق أرنولد توينبي ، وأنيس : المشرق العربي، ص ١٤٢ - ١٤٩ .

لهم ، وأن سيطرتهم عليه تمت بفرض قاعدة توازن قوى بسيطة بين إمارة الأشراف في مكة والحامية العسكرية في جدة . مع إشارة بعض الدراسات إلى وجود نظام مدني لم تحدد ماهيته ولا أثره[١] . غير أن تتبع تطور أنظمة الحكم في الحجاز في عهد السلطان سليمان القانوني، يظهر أن المنطقة لقيت من التوجه التنظيمي الذي عرف به هذا العهد ما لا يقل ، بل قد يفوق غيره من مناطق الدولة الأخرى . وسنلاحظ أن إدخال الأنظمة في الحجاز لم يكن دفعة واحدة كقانون نامه مصر مثلاً، إلا أنه كان في شموليته ، حيث عم التطوير النواحي السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية والمالية. وهي تطورات جاءت متوائمة مع السياسة العثمانية العليا ومحققة لأهدافها في المنطقة ، وأهمها الاحتفاظ برعاية الأماكن المقدسة دون منافسة ، مع الحرص على قيام العثمانيين بواجبهم بصفتهم حكام أقوى دولة إسلامية تحمل لواء زعامة المسلمين . وأهم الواجبات التي كانت الدولة تحرص على إنجازها : تيسير سبل الحج للمسلمين ، بحفظ استقرار الحجاز وأمنه ورخائه .

ففي الإطار السياسي،راعى العثمانيون العوامل المؤثرة في تاريخ الحجاز فأبقوا للأشراف إمارتهم في مكة ، ولم يغيروا من وضعهم السياسي والمعنوي الذي كان المسلمون يطالبون لهم به[٢] ، كما أبقوا على ما توارثوه على مدى

---

(١) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٦ ، والسباعي : تاريخ مكة ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢ . وحراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) كان للأشراف حكام مكة مكانة عالية لدى المسلمين ، ويظهر اهتمام الرأي العام الإسلامي بهم في ذلك الحين من موقف كل من العيدروسي وابن حجر ، وهما عالمان جليلا القدر ، حيث يصف العيدروسي ألمه وتفجعه من حادثة الاعتداء على أبي نمي سنة ٩٥٨ هـ ، التي سيأتي ذكرها ، ويصف أمير الحج القائم بها بالطاغية ، ويذكر رد فعل الناس إزاءها في بلده . كما ألف ابن حجر الهيتمي – وقد سمي ملك الدين – كتاباً بين فيه وجهة نظره . العيدروسي : النور السافر، ص ٢٥٩ ، وابن حجر الهيتمي : الصواعق المحرقة ، ص ٢١٨ ، والشلي : السنا الباهر ، ورقة ٢٧٣ .

عدة قرون ، كما حرصوا على استمالتهم كعصبية محلية قوية ، قد تؤدي استثارتها ضد العثمانيين إلى إعاقة تحقيق الهدف العثماني ، وهو أمن الحجاز وقاصديه .

لكن ومع ذلك ، فإنه من الناحية العملية ، ظهرت منذ بداية حكم العثمانيين للحجاز، ميولهم إلى التقليل من ندية إمارة مكة ومنافستها لهم في النفوذ الروحي على العالم الإسلامي ، بأن عملوا على دمجها وصهرها في الكيان الإداري العثماني بوصفها إحدى الإمارات العشائرية التابعة لهم ، مع الحرص على تقليص نفوذها على المدن . فبعد أن ربط السلطان سليم سنجقية جدة وقضاء الحرمين ونظر الحرم المكي ومشيخة الحرم النبوي بالسلطة المركزية في العاصمة مباشرة، ألحق الحجاز بمصر إداريًا وماليًا . ثم إن السلطان سليمان ألمح بعد ذلك إلى اعتبار الشريف واحدًا من رؤساء العشائر الذين أقرت الدولة بحكمهم لمناطقهم ، وعدتها ضمن تقسيماتها الإدارية ، فبدا كأن وضع إمارة الأشراف وحدة إدارية مستقلة في التقسيم الإداري ، إنما كان مظهرًا من مظاهر التكريم المعنوي للمنطقة وأشرافها(١) . وقد ازدادت مقاصد العثمانيين وضوحًا بعد ذلك ، حين أصدر السلطان أمرًا في سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م بتعيين الشريف أبي نمي سنجقًا حاكمًا في الحجاز . وقد فسر المكيون ذلك الإجراء بأنه تقوية لمركز الشريف إزاء أمراء الحج ، بعد أن كثرت اصطداماته بهم(٢) . لكن أشراف مكة لم يكونوا غافلين عن أن هذا الإجراء إنما هو انتقاص من استقلاليتهم(٣) ، وأن ما حلموا به وعملوا لأجله من التخلص من القيود التي كبلتهم مع نهاية الحكم المملوكي لم يتحقق . بل إن أمر بقاء أمراء مكة على حالتهم هذه حتى في العهد العثماني، مجرد موظفين يتقاضون رواتب سنوية، ظل قائمًا(٤) . وزاد تخوفهم بعد أن تعرضت نسبة دخلهم من جمارك جدة

---

(١) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ص ٨٩٦ - ٩٠٠ ، والنهروالي : التذكرة ، ورقة ٢٥٦، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٢١ ، و النهروالي : البرق اليماني ، ص ٩٢ .

(٣) هريدي : شؤون الحرمين ، ص ٢٧ .

(٤) خصص السلطان سليم لشريف مكة راتبًا سنويًا يصله مع الصرة من مصر، ومقداره خمسة =

للتغيير، فتراوحت بين الوقف والنقص والزيادة[١] . وقد أدى إلحاق جدة بمناطق شرق أفريقيا التي ضمها العثمانيون إليهم، مع رفع تقسيمها الإداري من سنجقية إلى ولاية يحكمها لواء ، عرفت بولاية الحبش[٢] ، إلى إعلاء مكانة واليها ، وتقوية مركزه بمقابل شريف مكة ، ثم أسندت إلى والي جدة مشيخة الحرم المكي وألغوا تولية القضاة المكيين فيها خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، فارتفعت سلطة الوالي في مكة ، وقوى تدخله في شئونها رسميًا وعلى الرغم مما أبداه الأشراف من مقاومة ، فإن ولاة جدة استمروا في القيام بدورهم الإداري بحسب النظام [٣].

ومن الناحية الإدارية ، فقد راعى العثمانيون في إدارتهم للحجاز الجوانب المعنوية والعملية أيضًا . فمعنويًا نلاحظ أن إمارة مكة أدرجت وحدةً مستقلة ضمن التقسيمات الإدارية العثمانية[٤] ، وتركت تدير شئونها بهيئتها الحاكمة دون تدخل من العثمانيين ، بل إنهم استفادوا من إمكانات الإمارة في فرض نفوذهم وتنفيذ أحكامهم في كثير من الأحيان[٥] . وأما معنويًا فقد كان لشريف مكة أسمى مقام في التشريفات التي تقام في العاصمة، حيث كان مركزه أعلى من مرتبة الوزير بمرتبة واحدة[٦]، وهو يلي مركز الصدر الأعظم مباشرة[٧].

---

== وعشرون ألف قرش ، يقتطع مما خصص للسلطان نفسه ، كما كان يصله مبلغ آخر قدره خمسة آلاف قرش من مصادر الصرة الأخرى . جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٢ - ٣٨ .

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ٤٠٠ .

(٢) الرمال : صراع المسلمين ، ص ٣٠٤ ، والصواف وآخر : « أهمية ثغر جدة » ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ .

(٣) الحربي : نظم الحكم ، ص ١٥٨ - ١٦٤ ، والمحبي : خلاصة الأثر ، ج ٢ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٤) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ١٩ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٦) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٧ .

(٧) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ .

ولكن من الناحية العملية فإن دور الإمارة لم يزد على أي من إمارات العشائر التي أقر العثمانيون بسلطتهم في حكم مناطقهم بمجرد اعترافهم بالنفوذ العثماني، وذلك في سائر إقليم الحجاز، أما المدن المقدسة والطرق المؤدية إليها فقد أصبح النظام الإداري فيها فريدًا ، فإلى جانب سلطة الشريف فيها فقد طبق التقسيم الإداري العثماني على كل من : جدة التي أصبحت مركزًا لولاية الحبش[١] ، والمدينة المنورة بعد أن بنى لها سور لحمايتها سنة ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢م[٢] ، وأصبحت منطقة سنجقية عين لها وال لم يتهاون السلطان سليمان في وجوده أو في الانتقاص من سلطته[٣] ، واعتبرت ينبع ناحية تولى أمر القضاء فيها قاضٍ عثماني مستقل لا يتبع قضاة مكة المكرمة ولا المدينة المنورة[٤] ، وقد أقيم فيها حصن أصبح من معالمها المعروفة[٥] وذلك نظرًا لأهميتها كميناء للمدينة المنورة . وعدت باقي المحطات المهمة على طرق الحج مناطق عسكرية ، حصنت ورتبت مجموعات من الجنود لحمايتها . وقد كانت كل هذه المناطق كباقي الحجاز تتبع مصر إداريًا وماليًا أي في الإشراف على تعيين غالب موظفيها ، عدا المناطق المستثناة التي تتبع مركز الدولة كجدة وأمانتها المالية ووالي المدينة وقاضيها[٦] . أما مكة فعلى الرغم من عدم رفع علم

---

(١) تكونت هذه الولاية بمجرد ضم مناطق من شرق أفريقيا للدولة العثمانية ، وقد ارتبطت بجدة بشكل متقطع حتى سنة ١١١٣ هـ / ١٧٠١ م التي ربط فيها العثمانيون جدة بهذه الولاية بشكل نهائي . الحربي : نظم الحكم ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ .

(٣) النهروالي : التذكرة ، ورقة ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، والسيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٣٥ .

(٤) الناحية : منطقة إدارية تأتي في المرتبة الرابعة في التقسيم الإداري العثماني الذي يتدرج من الولاية ثم السنجقية ثم القضاء ثم الناحية . فريد : الدولة العلية ، ص ٢٢٦ ، و السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٣٥ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤١٦ .

(٥) البلادي : معالم الحجاز ، ج ١٠ ، ص ٣٦ ، ٤٠ .

(٦) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٣٥ .

عثماني فيها في بداية حكم الدولة العثمانية[١] فإن نفوذ العثمانيين المباشر وصل إليها من خلال القضاء الذي سبق أن ذكر بأنه كان ملحقًا بمركز الدولة ، وكذلك الحسبة التي كان لها موظف مختص ثم ألحقت بالقضاء ونظر الحرم [٢]، والأهم من هذا والي جدة الذي يلمس دوره في الإدارة في مكة بوضـوح ، ومن ذلك مثلاً مواقفه خلال الحملات العثمانية التي كانت تصل إلى الحجاز في إطار التصـدي للبرتغاليين، وخاصـة لو وقع خلاف بين قادتها والشريف[٣] . وفـي المشاريع العمرانية التي كان يشرف على تنفيذها في مكة .

ومن ممثلي النفوذ العثماني المباشر في مكة أيضًا أمراء الحج ولجان الإشراف على المأموريات المالية والإنشائية العثمانية ، وقد فعل دورهم في هذه الفترة كما سيأتي في الفصول القادمة . ومن مظاهر التغيير الإداري العثماني قراءة المراسيم السلطانية والرسمية في الحطيم[٤] من المسجد الحرام باللغة التركية والناس وقوف ، بينما كانت تتلى في العهد المملوكي باللغة العربية وللمستمعين الخيار في الاهتمام بها أو عدمه[٥] .

وهكذا ، لم يطبق في الحجاز نظام التقسيم الإقطاعي[٦] الذي عمل به في

---

(١) اتخذ العلم العثماني رسميًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولم يرفع في مكة إلا بعد توجس العثمانيين من الأشراف خلال الحكم العثماني الثاني سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٨ م . جارشلي : أمراء مكة ، ص ٤٥ .

(٢) كان ناظر الحرم يعين من القضاة في مكة وأولهم في العهد العثماني القاضي تاج الدين المالكي وكان تعيينه سنة ٩٥٩هـ ومما يدل على قوة نفوذه ومكانته معاملة الشريف أبي نمي له بإجلال وتقدير . انظر : الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩١٤ ، ٩١٦ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٦٩ – ٣٧٤ .

(٤) الحطيم : هو المنطقة من المسجد الحرام الموجودة بين الركن والمقام والحجر وبئر زمزم ، الأزرقي : تاريخ مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٢١ .

(٦) الإقطاع الحربي : هو منح أراضي زراعية لأفراد من سـلاح الفرسان يسـتقرون فيها ويشرفـون عـلى زراعتها ، بمساعدة الفلاحين الذين كانـوا يتولـون زراعتها بصفتهم أجراء ، ولهم قوانين خاصة عمـل بها في مناطـق من الدولـة العثمـانية كالشام والعـراق . الشناوي : الدولة العثمانية، ج ١ ، ص١٣٠ .

العراق والشام حقيقة[١] ، ولم يعتبر إيالة كمصر، ولكنه لم يترك للأشراف دون تدخـل من الدولـة ، بل أوجدت له طريقة للتقسيم تلاءمت مع ظروفه ، وهي ضمن الطرق المعروفة وليست استثناء ، فكل المناطق العشائرية في الدولة العثمانية كانت مستقلة عنها ذاتيًا[٢] ، ثم بعد ذلك عوملت المناطق المقدسة وما يؤدي إليها من المناطق بما يليق بمكانتها ، ويحفظ أمنها واستقرارها .

ويعطي تطور سيطرة العثمانيين على القضاء صورة عملية لتغلغل نفوذهم في مدن الحجاز ومكة على وجه الخصوص . فلقد أبقى السلطان سليم القضاء تابعًا للدولة نظريًا بأن جعل تعيين القضاة يتم من العاصمة إستنبول، بينما استمر خاضعًا لنفوذ الشريف فعليًا طوال عهد الشريف بركات . ولكن العثمانيين لم يتساهلوا في أمر بقاء هذا الجانب المهم في منطقة تابعة لهم بعيدًا عن سيطرتهم التامة ، وذلك لأن القضاء كان يمثل السلطة الشرعية التابعة للهيئة الإسلامية ، وهي الفرع الثاني من الجهاز العثماني الحاكم في الدولة ، ويرأسه شيخ الإسلام ومرجعه السلطان[٣] . وذلك لضمان استقلالية القاضي للرغبة في التأكد من نزاهة أحكامه بإبعاده عن الضغوط[٤] . بالإضافة إلى تعلق عمل القاضي بالإدارة المالية في الحجاز ، حيث كان القضاة يشاركون في لجان توزيع المساعدات ، وفي الإشراف على مصروفات متطلبات الحرمين الشريفين ، وعلى استيفاء جمارك جدة[٥] . والأهم من ذلك أن القضاء كان يمثل إحدى القوى الحاكمة في الحجاز التي كان عليها مراقبة القوى الأخرى ، وهي شريف مكة ووالي جدة ، ورفع تقارير عن أحوالهم للدولة

---

(١) فائق الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٢١ - ٤٣١ .

(٤) الحربي : نظم الحكم ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١٧ ، وصفحات متفرقة .

العثمانية[١] . وتجنبًا للتوتر في المنطقة حوّل العثمانيون تبعية القضاء إليهم بشكل تام لكن على مراحل ، وقد سبق شرح مظاهر أولها في عهد الشريف بركات ، ولوحظ خلالها تسامح الدولة وتراجعها عن قراراتها ، فبقي القضاء على وضعه السابق دون تغيير . وبدأت المرحلة الثانية في عهد الشريف أبي نمي ، وتميزت بتعيين شخصيات في مناصب القضاء من غير الأسر المتعارف على توليها ، كآل ظهيرة في المذهب الشافعي ، وبزيادة صلاحيات قاضي المذهب الحنفي في مكة ، وهو مذهب الدولة الرسمي . فعين بديع الزمان ابن الضياء[٢] قاضيًا للمذهب الحنفي سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م وأُوكل إليه كثير من وظائف قاضي القضاة الشافعي وهو ابن ظهيرة . ومن تلك الوظائف قضاء جدة ونظر الحرم الشريف . وبدئ في هذه المرحلة أيضًا بتولية وظائف إقامة شعائر الدين الأخرى كالخطابة والإمامة إلى أي طالب لها من المكيين في البداية ، ثم ولي إمامة المذهب الحنفي علماء عثمانيون وعين قاضٍ من أهل المدينة على القضاء في مكة[٣] ، مما عد هدمًا لكل المتعارف عليه في مكة بهذا الخصوص، كما أخرجت هذه المناصب من احتكار أسر وشخصيات مكية معينة .

وأوجد هذا تنافسًا بين المكيين ، فانقسم صفهم ، ولم يعودوا يشكلون جبهة قوية في مواجهة الدولة[٤] ، مما سهل على العثمانيين اجتياز عقبة المرحلة

---

(١) جارشلي : أمراء مكة ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) بديع الزمان بن الضياء : كان من أهل الفضل والرئاسة ينتمي إلى أسرة برز منها عدد من العلماء وعمل عدد منهم بالقضاء عُين قاضيًا لمكة ، ثم عزل وسافر إلى دمشق ومنها إلى العاصمة ، فأعيد إلى قضاء جدة ، ولكنه توفي في تبليس في طريق عودته سنة ٩٤٢ هـ . الغزي : الكواكب السيارة ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، و السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ، و محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٠٢ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١٧ ، وصفحات متفرقة .

(٤) الحربي : نظم الحكم ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

الثالثة وهي عزل قاضي القضاة الشافعي ابن ظهيرة المشمول برعاية شريف مكة ، وتعيين عبداللطيف باكثير[١] بدلاً منه ، وهو مكي وعلى المذهب الشافعي كابن ظهيرة ، إلا أنه قوبل بالسخط من الشريف والمكيين أيضًا ، لأنهم عدوا تعيينه تعدّيًا على خصوصياتهم الداخلية ، بفرض شخصية للقضاء لم يرشحوها ، ولم يكن لهم رأي في اختيارها . أما المرحلة الرابعة فقد كانت تعيين قاضٍ عثماني على المذهب الحنفي في منصب قاضي القضاة في مكة ، وذلك سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦م . وقد ظن المكيون أن تنافسهم واختلافهم كان هو السبب في استبعادهم من هذا المنصب ، لكن لم يلبث العثمانيون أن عينوا قاضيًا للمدينة في سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م على الرغم من قلة الخلافات والمنافسات بين علمائها[٢] . وقد كان قضاة الحرمين من العثمانيين يختارون من فئة المولا الكبير، وبترشيح من شيخ الإسلام، ويعينهم السلطان نفسه، ولهم رواتب سنوية محددة، ويتبعهم جهاز إداري كتابي متكامل[٣] . والجدير بالذكر

---

(١) عبداللطيف باكثير : من أسرة مكية علمية ، سافر إلى دمشق وأقام بها مدة ، وقرأ الشفاء على الشيخ شمس الدين بن طولون سنة ٩٣٨هـ . توفي سنة ٩٥٠هـ ، وكان توليه القضاء سنة ٩٤١هـ . الغزي : الكواكب السائرة ، ج ٢ ، ص ١٧٨ – ١٨١ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ص ٥٨٩ .

(٢) وقد أبقى العثمانيون لنائب القاضي على المذهب المالكي مميزات ، منها أن ينوب عن قاضي القضاة العثماني حال غيبته ، وأن يحكم في بيته وليس تحت إشراف القاضي العثماني كالآخرين ، ثم أسند إليه منصب ناظر الحرم وخطبة يوم عرفة ، وكان أول من ولي هذا المنصب بعد هذه التغييرات العالم القاضي حسين بن يعقوب ، مما أعلى مكانته ، فأصبح محل تقدير واحترام الجميع بمن فيهم شريف مكة أبو نمي وذلك سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م ، وقد خصص له راتب ، وظل يُدعى قاضي القضاة كالسابق . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٩٢ ، ٧٨٢، و النهروالي : التذكرة ، ورقة ٦٧ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢٧ ، ١٣٥ ، والعيدروسي : النور السافر ، ص ٣٨٠ – ٣٨١ ، والشلي : السنا الباهر ، الأوراق ٣٢٣ – ٣٢٨، و محمد بن فهد: نيل المنى ، ص ٦٦٧ ، ٦٨٠، ٦٩٦.

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٢١ – ٤٣١ .

أن القضاة العثمانيين كانوا يزهدون في قضاء الحرمين ، لقلة مدخولهم منه ، مما اضطر الدولة إلى اتخاذ إجراءات لترغيبهم فيه فيما بعد[١] .

وقد اتخذ قاضي القضاة العثماني في مكة أربعة[٢] نواب له على المذاهب الأربعة من العلماء المكيين، ومثّله في خارج مكة نواب آخرون في جميع المناطق التي يمتد إليها نفوذ إمارة مكة . وترك للشريف حق ترشيح قاضي المذهب الشافعي فقط، وقبلوا تعيين أحد آل ظهيرة فيه[٣]. وفي سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥م أصبح نواب قاضي القضاة في مكة يرفعون أوراق القضايا التي تعرض عليهم إليه بعد مرور ثلاثة أشهر من صدور الحكم فيها ، وأصبحت المحكمة الحنفية تعرف بالمحكمة الكبرى[٤]. وبذلك نقل نظر القضايا إلى المحاكم ولم تعد تنظر في المسجد الحرام كما كان في العهد المملوكي وبداية عهد العثمانيين، حيث كان القضاء ينظر في زيادة دار الندوة في الحرم الشريف[٥] . وعدلت أيضًا أنظمة الشهود وعقود الأنكحة ، بأن حصرت مباشرتها لدى قاضٍ واحد وبمعلوم معين ، وهو إجراء لم يقابل بارتياح من أهل مكة أيضًا . وحين غدا القضاء تابعًا للعثمانيين أحيلت إلى القاضي الحسبة الخاصة بالدولة ، فكان يتدخل حتى في تسعير السلع في الأسواق بداية من سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م[٦]. وقد عرف القضاء العثماني في بداية عهده بقوة سطوته وعدالته ، إلى أن اعتراه ما أصاب الدولة عامة من ضعف بعد القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[٧] .

---

(١) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٨٨ .

(٢) كانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفي القضائي ، ومنهم من يعين في المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة . وكانوا يحلون محل القضاة في أثناء تغيبهم عن عملهم في إجازة أو مرض . والنائب يشتري منصبه ولا يتقاضى مرتبًا من الحكومة ، ولكنه يحصل إيرادات من الغرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين والخارجين على الآداب . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٣٢ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٩١ .

(٤) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٢د .

(٦) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٦٣د .

(٧) الحربي : نظم الحكم ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ .

ولم يقف الشريف أبو نمي مكتوف اليدين إزاء هذا التحول، بل سارع إلى إيقافه بشتى الطرق ، فاعترض على القضاة المعينين ورفض التعاون معهم واحتك بهم شخصيّاً ، كما لجأ إلى الإغراءات المالية فدفع المبالغ المطلوبة منه للدولة ، وقدم الهدايا والقربات للمسئولين لكن دون طائل ، وعند ذلك احتج بالطرق الدبلوماسية الرسمية بأن بعث وفداً إلى والي مصر بعد عزل ابن ظهيرة من منصبه ، وبعد اعتذار الوالي بأن القضاء ليس من اختصاصه أرسل الشريف وفداً آخر برئاسة ابنه أحمد إلى العاصمة ، لكن السلطان قبل تعيين ابن الشريف شريكًا لوالده وبرتبة سنجق ، ولم يقبل المناقشة في أمر القضاء ، وكل ما سمح به هو قبول ترشيح الشريف للقاضي المكي الذي يلي القضاء على المذهب الشافعي في مكة نيابة عن القاضي العثماني ، ثم فعّل السلطان دور المفتين ، فأصبحوا يشكلون مراكز قوى جديدة في الحجاز يمثل وجهة نظر العثمانيين[١] ، مما جعل من ولي منصب الإفتاء في مكة عرضة للمنافسة أيضًا ، وموضع سخط الطبقة التي تضررت من بروز المفتين وزيادة أهميتهم ، مثلهم في ذلك مثل القضاة .

وقد كانت النظم المالية في الحجاز من الأولويات التي عدلها العثمانيون بمجرد وصول نفوذهم إلى المنطقة ، حيث أعلن السلطان سليم إعادة العمل بقانون قايتباي ، فألغى بذلك كل الأنظمة القاسية التي أدخلها الغوري في وقت اشتداد الأزمة المالية في آخر عهد المماليك . لكن قانون قايتباي يبقي تدخل الدولة في الإدارة المالية ولا يلغيها ، ولذلك قسم العثمانيون مسئولية هذا الجانب إلى قسمين ، الأول : ما يخص الشريف ، فكان يديره وفقًا لنظم إمارته المالية، ولم تتدخل الدولة في علاقاته بالقبائل ولا بالضرائب التي كان يفرضها على المدن ، فكان يأخذ من القبائل : القطيعة ، وهي مبالغ مالية سنوية تأتي أهميتها باعتبارها مصدراً ماليّا ، ولكنها كانت تعني التبعية والولاء للشريف . كما أن الشريف كان يصدر أوامر بفرض ضرائب بالقدر الذي يراه ، وللمدة التي يحددها ، دون أن تتدخل الدولة إلا بالنصح أو أن تدفع عوضها إن ألغتها[٢] . وبالمقابل ألزم الشريف بدفع مبالغ مقابل تعيينه ، وبمكافأة أمير

---

(١) الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، وصبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ١٣ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٠٩ .

الحج السنوية ، وبنفقات حفظ الأمن الداخلي ، وما كان يقدمه من مساعدات لحملات الدولة على اليمن والحبشة والهند[١] .

وكان أمير الحج يحصل قسم من دخل الحسبة في مكة وعلى طول طرق الحج وقد زادت في بداية العهد العثماني وأصبحت مما يخص الأمير وحده بعد أن كان يشاركه فيها بعض موظفيه في السابق لكن بعد حادثة اعتداء أمير الحج محمود على الشريف أبي نمي سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م نقصت الحصص التي كان يأخذها من الحسبة في مكة وألغى ما كان يأخذه أمير آخور (المسؤول عن الدواب في قافلة الحج ) من ضرائب على الجمال وقدره نصف فضة عن كل جمل وما كان يأخذه مقدم الضوئية (المشرف على الإضاءة) من العمال بمكة واقتصرت متحصلات أمير الحج بعد هذه الحادثة على كامل ما كان يأخذه على طول طرق الحج وقدر أقل من السابق في مكة وكان أشراف ينبع يقدمون مؤن عينية لأمير الحج حين مروره بهم ذهابًا وإيابًا كما منعوا من أخذ الجمارك على السفن الحاملة للمعدات الخاصة بالدولة وقد فرض العثمانيون على أهل العلا ضرائب مقابل حماية مزروعاتهم بدأت بعثماني على كل نخلة ثم أصبحت سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م أربعين ألف عثماني[٢] .

أما القسم الثاني ، فهو الذي تولت الدولة إدارته ، وقد جعل على فرعين أيضًا ، مهمة الفرع الأول : تحصيل ما يخص الدولة العثمانية من موارد الحجاز المهمة وهي جمارك جدة ، وتركات من مات وليس له وارث ، وقد كانت لهما أمانتان[٣] تستوفيانهما ، جعلهما العثمانيون تابعتين للعاصمة ، تتولى

---

(١) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، وصفحات متفرقة أخرى ، والنهروالي . ص ١٤٧ – ١٥٠ ، ٢١٤ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٢٧١ ، والوثيقة رقم ٢٦٦٣ ، دفتر المهمة رقم٧.

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٧٠-٢٧١ ، ج٢ ، ص ١٤١٧ ، والنهروالي : التذكرة ، ورقة ١٩٥ ، الوثيقة رقم ٢٧٥٣ ، دفتر المهمة رقم ١٠٠٣/٧ ، والوثيقة رقم ٧١٠ ، دفتر المهمة رقم ٢٣٧/٦، والوثيقة رقم ٢٦٦٣ دفتر المهمة رقم ٩٦٥/٧ .

(٣) الأمانة : هي الإدارة المالية التي تتولى جمع الضرائب ، ويعين عليها موظف مسئول يسمى الأمين، ومعناه لغة : الصادق والمخلص، وقد أطلقه العثمانيون على كل المشرفين على مناصب ذات تعلق مالي كأمين الضربخانه وأمناء الحرير . وقد كان أمير مصر يولي كل الأمانات إلا أمانة ميناء جدة وأمانة الضربخانة وهي سك النقود، وأمانة البهار وأمانة الأنبار فإنه كان لا دخل له في تعيين المسئولين فيهم . البكري : المنح الرحمانية ، ٩٤ ، والباشا : الفنون الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٨٢، والباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٢١٤ ، والسيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٨٢ .

تعيين أمينيها وتحمل متحصلهما إلى مركز الدولة بعد أن يقتطع منهما جانب من احتياجات الحجاز[١] . ويتبعهما هيئة كتابية وفنية كافية لإنجاز هذا العمل الحيوي المهامّ ، كما كانت الدولة تحصل على جزء من جمارك ينبع[٢] ، وفرضت على أميرها ضيافة لأمير الحج وكانت تحصل على ضرائب من العلا مقابل توفير الحماية لمزارعها[٣]. وقد كان للشريف إدارة مالية مماثلة[٤] ، لكن تعرضت حصته في موارد جدة للإلغاء والنقص والزيادة ، ثم استقرت على حصول الشريف على نصف الواردات بالإضافة إلى عشور العدني[٥] ، مما يدل على استحكام التدخل العثماني في الأنظمة المالية في الحجاز بما لا يقل عنه في غيره بالنسبة للموارد المهمة .

وأما الفرع الثاني مما يهم الدولةماليّا في الحجاز فقد أوكلته إلى مصر[٦]. وأهم موارد هذا الفرع أوقاف الحرمين في مصر، وألحقت بها أوقاف الشام[٧]، بالإضافة إلى ثلث ما كان على مصر تقديمه للدولة ، ومعه حلوان مصر ( أي ما يقدمه من يعين في حكم ولاية مصر هدية للسلطان مقابل تعيينه )[٨] ، والفائض عن حاجة مصر من المصروفات وذلك لفترة من عهد السلطان سليمان ، وما كان الشريف ملزم بتقديمه لها . وأما المصروفات التي كانت تقدمها مصر فهي احتياجات خدمة وصيانة الحرمين وطرق الحج ، والمشروعات الإنشائية ، ورواتب قسم من الموظفين ، والمساعدات[٩] . وقد كانت مصر تطبق في تعاملاتها المالية قوانينها التي تعمل بها داخل الإيالة وفقًا لأنظمتها . ومن هنا كان وصول الأنظمة العثمانية المالية إلى الحجاز وتطبيقها فيه بطريق غير

---

(١) السيد : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، ٤٣٤ .

(٢) هريدي : شؤون الحرمين ، ص ٢٩ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٣) النهروالي : التذكرة ، ورقة

(٤) عبد القادر الطبري : نشأة السلافة ، الأوراق ١١٤ - ١٣١ .

(٥) عشور العدني : كانت بعض السفن الآتية بتجارة الهند تمر على عدن فتختلف عشورها في جدة وأيضًا كانت تمر بمكة تجارة برية من اليمن بقيت من نصيب الشريف . عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص٣٠٨ .

(٦) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٤٣٥ .

(٧) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٨٣ ، ٤٩٢ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٨) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٢ .

(٩) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٤٣٢ - ٤٣٧ .

مباشر وغير معلن. وفي مصر كانت المسائل المالية والإدارية المتعلقة بالحجاز تعرض في الديوان العالي في القاهرة ، وقد كان ممن يحضر بعض جلساته أمير الحج المصري والممثلون الماليون الذين كانوا يصحبونه[١] . وبذلك نجد أن الطابع العثماني امتد إلى الإدارة المالية في الحجاز بتطبيق أنظمة مصر من قبل أمير الحج ووالي جدة الذي كان يتبع مصر ماليّا أيضًا ، ومن أمانتي الجمارك التي كانت مما قوى السيطرة العثمانية على هذا الجانب ، ولكن على الرغم من الاعتماد على النقد العثماني في التعاملات ، فإنه كان للشريف الحق في إصدار سكة خاصة بإمارته[٢] .

وقد قوي النفوذ العثماني في الحجاز بالترغيب ، حيث أعطت مضاعفة المساعدات لأهل المنطقة الأمل في عودة الرخاء الاقتصادي لهم ، على الرغم من أنهم لم يعفوا نهائيّا من الضرائب . لكن الضغط على إمارة مكة ماليّا بهدف إضعاف نفوذها ، أو للحصول على أموال منها لسد النفقات العسكرية المتزايدة، جعلت الأنظمة المالية تبدو أكثر النظم التي فرضت في الحجاز في العهد العثماني إثارة لسخط الأشراف ، فعلاوة على ما تعرضت له حصتهم من موارد جدة من تخفيض عامة ، فقد أبطلت العشور في فترة من الفترات على الحبوب الغذائية ، على أن يعوضوا عنها من الدولة ، وما كان هذا الإجراء ليرضيهم وهم قد تعارفوا على أنه « قطع الخشوم ولا قطع الرسوم »[٣] ، لما يؤدي إليه ذلك من إضعاف قوتهم أمام القبائل في البادية ، أو في مواجهة خصومهم المنافسين لهم على الحكم . غير أن أبا نمي استطاع استمالة السلطان بإظهار الإخلاص في الدفاع عن جدة سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١م فلم يتقاعس عن صد العدوان أو يحتج بنقص الموارد ، بل أظهر البذل لآخر ما يملكه . فأعيدت له حصته من موارد الميناء مما ساعد على استمرار العلاقات الودية بين العثمانيين والأشراف ، وجنب الحجاز كثيرًا من الويلات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٤ ، وعبد اللطيف : الإدارة في مصر في العهد العثماني ، ص١٣٧، ١٤٠.

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٢٣ ، ٧١٦ .

(٣) المصدر السابق ، والجزء نفسه ، ص ٥٠٩ .

ويُعد إعفاء الحجازيين من التجنيد الإجباري إحدى المميزات التي اختص بها العثمانيون إقليم الحجاز[١] ، مع أن غالب القبائل القاطنة على طول طرق الحج كانت مكلفة بحماية قوافل الحجاز التي كانت تحرس أمن مناطقها سنويًا مقابل مخصصات مالية تصرفها لها الدولة[٢] . ومن أول مهام الشريف التي أكد عليها العثمانيون حفظ الأمن الداخلي، والمشاركة في حماية الحجاج[٣] ، وتوسيع نفوذالدولة في شرق وشمال شبه الجزيرة بالاعتماد على القبائل أيضًا، مما يدل على أن عدم مشاركة أهل الحجاز في إمداد جيوش الدولة بالجند كان بسبب انشغالهم بما هو أهم بالنسبة للعثمانيين، وهو الإسهام في حماية المقدسات وخدمة قاصديها ( وهي مهام قد لا تفي بها أعداد سكان المنطقة وحدهم )، بالإضافة إلى بعض السلبيات من جانب الأعراب ، ومن جانب القوى المرافقةلقوافل الحج والمسئولين الماليين فيها، مما أدى إلى كثرة تعرض الحجاج لاعتداءات الخارجين على القانون[٤] . لذلك أقيمت في الحجاز مواقع عسكرية شغلتها فرق من الجند طبقت من خلال إدارتها الكثير من القوانين العثمانية على الحجاز . ولقد وصلت الفرق على فترات، وأقامت في المواقع الاستراتيجية المهمة وهي جدة والمدينة وينبع وعدد من المنازل الأخرى على طرق الحج . وقد كان الجند المقيم في الحجاز يختار من الفرق العثمانية التي رابطت في مصر بصفة دائمة بعد إصلاحات سنة ٩٣١هـ . وتفاوتت أهمية الحاميات العسكرية الحجازية فكان أكبرها وأهمها حامية جدة ، إذ يُعسكر فيها ثلاثة عشر

---

(١) أُعفي أيضًا أهالي ولايات إستنبول وكريت وجزر البحر الأبيض وطرابلس الغرب واليمن والحجاز، فبذلك كان الاستثناء واردًا بحسب مقتضى الظروف وليس للحجاز وحده . الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، ص ٤٦ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٠ ، وصبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ٢٣ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٣٠٢ - ١٤٢٧ .

(٣) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ٢٠ .

(٤) هريدي : شؤون الحرمين ، ص ٢١ .

«بلوكًا» من الجند ، نظرًا لأهميتها الاستراتيجية في الدفاع الخارجي ، فكانت تلي حامية الإسكندرية في الأهمية مباشرة ، وتتبع جدة شأنها شأن باقي الموانئ المصرية المهمة لمركز الدولة عسكريًا ، من حيث تعيين قادتها ، وحقهم في الاتصال بالعاصمة مباشرة[١] .

وبعد تكرر الاعتداءات على المدينة المنورة[٢] أمر السلطان سليمان بتسويرها سنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م[٣] ، وأقام فيها حامية عسكرية ، ثم حولت إلى منطقة سنجقية تابعة لإيالة مصر إداريًا وماليًا ويعين قائدها من مركز الدولة أيضًا ، كما ألحقت ينبع بالتقسيم الإداري نفسه ، فعدت ناحية تقيم فيها فرقة من الجند ، وشملت الحماية العسكرية المحطات الأخرى عن طريق إقامة حصون فيها . ولكن تأخر تعيين فرق عسكرية لحماية مكة إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

وهكذا ، استقرت في الحجاز فرقة عسكرية ، كانت إحدى الدوائر العسكرية الثلاث الفرعية التي أوجدها العثمانيون في كل من طرابلس الغرب وجزيرة كريت وفيلق الحجاز هذا[٤] ، وقد كان أفراده ينتقون من بين الجند المقيم في مصر ، ويتبعونها ماليًا وإداريًا ويستبدلون سنويًا وسمى جند قلعة جدة بالجداليان ، ولكن نظرًا لظروف البيئة وحالة النقص المالي الذي سببته الحروب فقد كان عدد الجند محدودًا جدًا ، فقلعة جدة كانت تحوي ثلاثة عشر

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٨٥ . والبلوك : كانت الفرق العسكرية تُعرف بالوجاقات أو البلوكات أو قد يعبر عن قسم من الوجاق بالبلوك . عبد اللطيف : الإدارة في مصر ، ص ١٧٦ .

(٢) اعتدت قبائل لام على الحجاج طوال عهد السلطان سليم، وكان لها تحركات حول المدينة في عهد السلطان سليمان . كما هاجم الشريف مانع الزبيدي الذي كان يلي نيابة أمير مكة في المدينة المزارع حولها واعتدى على أهلها بسبب عزله عن إمارته . وهناك خطر أهم كان يشغل السلطان سليمان ، هو وجود فئات من الشيعة تقيم حول المدينة، وقد كان لها تحركات مريبة استغلت فيها الموقف الدولي وقامت تطالب بحقوق لها ودور في المدينة . محمد بن فهد : نيل المنى ق١ ، ص ٤٥١ ، ٥٥٨ ، وصفحات متفرقة، وابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٢٣٨ ، ٤٧٧ .

(٣) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٨٥ ، ٣٤٢ .

(٤) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ص ٢٢ .

« بلوكًا » كما سبق لكن كان في كل « بلك » ثلاثة عشرفردًا ، وفي باقي القلاع دون ذلك في العدد[١] ، مما جعل دورها في إثبات الوجود العثماني في المنطقة أكبر من دورها الدفاعي ، والدليل على ذلك انعدام أهميتها تمامًا في صد حملة سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م البرتغالية على جدة أي بعكس الرأي السائد القائل ان الدولة تهتم بالحماية الخارجية فقط . فكانت مشاركاتها السلمية ملموسة بوضوح أكبر، ومن ذلك الإشراف على المشروعات الإنشائية في الحرمين أو في أعمال الحسبة في مكة ، وذلك في عهد أبي نمي، ثم اتسعت أعمالها بعد ذلك حين أسندت لوالي جدة مشيخة الحرم المكي في القرن الحادي عشر[٢] .

نستنتج مما سبق أن الحرمين وطرق الحج أحيطت بحماية عسكرية عثمانية فعلى الرغم من أنه لم يجر تعيين فرقة عسكرية في مكة ، كما كان الحال في العهد المملوكي ، مراعاة لشريف مكة ، فإنها كانت قريبة من حامية جدة . وعلى الرغم من قلة عدد هذه الفرق فقد أوحى وجودها بالحد من سلطة شريف مكة، وانتقص من استقلال إمارته، فعاد إلى المفاوضة من جديد . لكن بعثته إلى إستنبول عادت دون أن يوافق السلطان على سحب والي المدينة وجنده، لأن الدولة لم تكن لتسامح في بقاء منطقة مهمة كالمدينة عرضة للفوضى وخارج نطاق سطوة الحكومة، وقد اكتفى السلطان سليمان بطلب التحقيق مع الوالي ومحاسبته إن أخطأ[٣] . ولكن كان للفرقة العسكرية المصاحبة لقافلة الحج، خاصة المصري، أثر أكثر فعالية من غيرها من الفرق، حيث كانت تصحب قوات كبيرة معها لحماية الحجاج، وتقيم في الأراضي الحجازية سنويًا بصفة دورية طوال أشهر الحج ، أي من شهر شوال حتى محرم ذهابًا وإيابًا . وكان أميرها يقوم خلال هذه المدة بمأموريات مهمة وخطيرة قد يكلف بها أو يتصرف فيها برأيه بحسب ما يستجد من أحداث في أثناء وجوده في الحجاز[٤] . وقد كانت علاقة الشريف أبي نمي بهذه الفرقة

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٣١٢ .

(٢) الحربي : نظم الحكم ، ص ١٩٢ ، ١٩٦ .

(٣) النهروالي : التذكرة ، ورقة ٢٢٥د ، ٢٢٦ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢، ص ٩١٠ ، ٩٤٤ .

تختلف باختلاف شخصية أميرها ، فتكون ودية إذا استطاع الأمير كسب ثقة الشريف، كالأمير جانم الحمزاوي ثم ابنه يوسف[١]. أو تصبح غير ودية إذا تعرضت للشريف بالنقد، كاتهامه بالتقصير أو بمواطأة الخارجين على القانون، فكان أبو نمي كوالده يتحاشى لقاء أمراء الحج[٢] في أغلب الأحيان، لأنه لا يثق فيهم ويخشى غدرهم، ويكتفي بإرسال ابنه وشريكه في الحكم للقاء الأمير، ليؤكد حضور إمارته، ويحصل على مراسيم تعيينه وحقوقه المالية . وقد كان الشريف محقًا في توجسه فعلى الرغم من كل الحذر الذي أبداه، فإن أمير الحج محمود كاد ينفذ خطة هدفت إلى القبض على أبي نمي وعزله، ومن ثم تعيين أبناء عمه هزاع مكانه[٣] .

كما شهد الحجاز منذ بداية الحكم العثماني له حتى قرب نهاية القرن العاشر الهجري، وصول العديد من الحملات العسكرية القوية التي اتخذت منه

---

(١) جانم الحمزاوي : كان من أعيان أبناء الناس، لأن جده كان نائب الشام في العهد المملوكي . رقاه خاير بك أمير أمراء مصر وسلمه الإدارة المالية في الإيالة ثم أصبح سنجقًا . ولي إمارة الحج سنتي ٩٣٠هـ و ٩٣١هـ ، ثم وليها ابنه فكانت سيرتهما محمودة في إمرتهما . قتلهما سليمان باشا الخادم والي مصر بأمر السلطان سنة ٩٤٤ هـ . كانت علاقتهما بالشريف طيبة، إلا ما كان من مطالبتهما له بمبالغ مالية ضخمة . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٣٣ ، ٤٩٣ ، والجزيري : الدرر الفرائد، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، والشلي : السنا الباهر ، ورقة ١٨٥ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٥ ، ٢١٣ ..

(٣) أمير الحج محمود : عُين أميرًا للحج في عام ٩٥٨هـ وكانت لديه أوامر بالقبض على الشريف أبي نمي وتعيين أحد منافسيه في شرافة مكة، لاتهامه بالاتصال بالثوار في اليمن ، وقد ذكر سببًا آخر لهجومه على الشريف وهو أنه لم يلتفت إليه حين قدم حاملاً بشرى تولية والي مصر علي باشا واستغل الفرصة للانتقام ، وهناك احتمال كبير أنه حصل على مبالغ مالية كبيرة من أعداء أبي نمي ، نظرًا لما عرفت به شخصيته من تطلع وطمع ، لكن لم يتمكن من تنفيذ مهمته لانكشاف أمره ، وفرار الشريف منه، ثم لتدخل عمة السلطان وكانت ضمن الحجاج لكن يبد و هذا المبرر الأخير واهيًا نظرًا لمكانة أمراء مكة لدى السلطان فلا يجرؤ موظف على الإقدام على عزلهم دون أمر منه . النهروالي : البرق اليماني ، ص ١١٩ ، ١٢٠، و الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ٨٩٩ ، و ج ٣ ، ص ١٩١٠ ، ١٩١١ .

قاعدة وهي في طريقها إلى اليمن أو الهند في إطار تصدي الدولة للبرتغاليين، وما تطلبه ذلك من تثبيت نفوذها في اليمن ، كما كان يتردد في الحرمين الدعاء للدولة العثمانية بالنصر على أعدائها في الداخل والخارج ، ثم تعم بعد ذلك الاحتفالات إذا وردت الأخبار بالتغلب على هؤلاء الأعداء ، مما قوى هيبة السلطة ، فشهدت الحالة الأمنية في الحجاز هدوءًا نسبيًا[١] . واقتصر عمل الشريف في حفظ الأمن الداخلي على دورياته التقليدية التي كان يؤكد بها نفوذه على بعض القبائل ، لكنها كانت مواجهات محدودة النطاق. وكان أهم تحرك عسكري قام به الشريف أبو نمي هو إعادة بسط سلطته على جازان سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م بحملة استغرقت عامًا[٢] . لكن العثمانيين أرادوا جعل هذه المنطقة تابعة للإدارة العثمانية مباشرة ، فأقصوا منها ممثل الشريف وألحقوها بإدارة الوالي العثماني في زبيد[٣] . وذلك في نطاق حصر نفوذ شريف مكة وتقليصه، ولما للمقاطعة من أهمية اقتصادية واستراتيجية، ولأسباب سياسية، وهي الخشية من اتصال شريف مكة بأشراف اليمن الثائرين الخارجين على السلطة العثمانية وتوحيد جهودهما معًا كما سنرى .

يتضح مما سبق ، أن السلطان سليمان وضع نظامًا لحكم الحجاز شمل جميع النواحي، طبقت فيه الأنظمة العامة للدولة، إما مباشرة، وإما عن طريق والي جدة والهيئةالقضائية، وإما بما لمصر من سلطة مالية وإدارية على الإقليم، مع محاولة حصر دور إمارة مكة في بوادي الحجاز كأي إمارة عشائرية أخرى في الدولة فاستكملت الدولة العثمانية بذلك سيطرتها على الحجاز دون الحاجة إلى المساس بالتكريم المعنوي للأشراف بتعيين والٍ للحجاز . لكن التدهور الذي أخذ يدب في كيان الدولة منذ أواخر عهد السلطان سليمان[٤] أدى إلى ضعف

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، صفحات متفرقة من جزءي الكتاب ، والنهروالي : البرق اليماني ، صفحات متفرقة .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٦٣ ، ٧٢٥ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٨٧ .

(٤) فريد : الدولة العلية ، ص ٢٥٢ .

القبضة العثمانية على الإقليم بعد القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[١] .

وقد ظل أبو نمي على ولائه للعثمانيين لأنه كان يعلم مدى قوة الدولة في عهده ، وحرصها على زعامة العالم الإسلامي ، فلم يجابهها بالعنف ، بل لجأ إلى المساومة والتفاوض الدبلوماسي والإغراء المادي ، بل المقاومة المسلحة المحدودة النطاق ، كما في تصديه لحركة محمود باشا المذكورة . وتشير الأحداث إلى أن الشريف قد عمد إلى أسلوب آخر اعتاده أشراف مكة في مقاومة الدولة العثمانية ، وهو الاستعانة بقوى سياسية منافسة لها، وربما كانت القوة التي حاول أبو نمي التقرب إليها هذه المرة هي قوة أئمة اليمن الذين تصدوا للحكم العثماني فيه . وقد اتهمه بذلك والي اليمن العثماني أزدمر باشا[٢] . لكن هذا الاتصال لو تم لم يكن ليسفر عن نتائج مهمة لوقوع اليمنيين تحت ضغط عسكري متواصل[٣] ، ولعوامل الخلاف بينهم وبين أشراف مكة أصلاً ، إلى جانب تيقظ العثمانيين لتحركات الشريف في انتظار الفرصة المناسبة لإقصائه ، لقوة شخصيته ، وما نتج عن ذلك من انتشار شعبيته في العالم الإسلامي ، ولقدرته على وقف التدخل المالي في موارد الحجاز المحلية، فأوعزوا إلى محمود باشا بالقيام بحركته . وحين لم يتم إبعاد الشريف أبي نمي ، لجأ العثمانيون إلى أسلوب الترغيب فأعادوا له عشور العدني

---

(١) الحربي : نظم الحكم ، ص ٣١٩ – ٣٢١ .

(٢) أزدمر : أحد المماليك الذين أبقى عليهم سليم بعد دخولهم مصر وأدخلهم في خدمة العثمانيين . عين كاشفًا في مصر . صحب حملة سليمان باشا . وعين أول والٍ بجيزان . ترقى في اليمن وكان حسن السمعة . يعتبر من أهم الشخصيات العثمانية في اليمن ، حيث ضم أغلب أقاليمه إلى الدولة ، وله جهود في الحبشة . سالم : الفتح العثماني ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٩ – ١٢٦ ، وسالم : الفتح العثماني لليمن ، ص ١٧٤ – ٢١٣ .

أيضًا، خاصة أن الصراع العثماني – الصفوي قد تجدد في ذلك الحين[١] .

ولم تكن محاولة محمود باشا هي المحاولة الوحيدة للإطاحة بحكم أبي نمي بل كانت هناك محاولات سابقة ، فلقد استغل منافسوه فرصة خلافه مع قادة حملة سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م فاتصلوا بهم ، وطلبوا منهم المساعدة للتغلب على أبي نمي ، غير أن الإدارة المصرية كانت موالية له في ذلك الحين فلم تستجب للخارجين عليه ، لكن بعد أن ساءت علاقة أبي نمي بالعثمانيين ، وظهر ذلك بمحاولة محمود باشا سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م تجرأ أعداؤه عليه ، فخرج أعمامه وأبناؤهم ضده سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م، فتمكن من صدهم لكنه لم يقض عليهم [٢] . لذلك أدرك خطورة موقفه ، وأصبح لا يخشى من استبعاده وحده، إنما من خروج السلطة من يد الحزب الحاكم من أسرته ، فخفف مقاومته وبدأ بالانسحاب من الحياة العامة بتقديم ابنه الحسن في كثير من المناسبات، اعتبارًا من سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م ، ثم تنازل له عن الشرافة نهائيّا سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م كما سبق .

وهكذا ، كادت اعتراضات أبي نمي تكلفه إمارته ، بل ربما حياته ، ومع ذلك لم يتمكن من إيقاف تنامي النفوذ العثماني في المدن الرئيسة في الحجاز، لكنه وفق في الاحتفاظ بما للإمارة من امتيازات مالية وسياسية ، ثم استطاع ابنه الحسن تطوير الجانب الإداري في الإمارة ، وأن يحتفظ بدورها في المدن أيضًا كما سيتضح فيما بعد .

وعلى الرغم من أن العلاقات بين العثمانيين والشريف أبي نمي اتسمت بالحذر ، وشابتها بعض المصادمات الظاهرة والمشادات الخفية فيما يتعلق

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٩٩ – ٩٠٨ ، ٩٢٠ ، ١٩١١ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص١١٩ – ١٢٠ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٧٣–٣٧٥ ، ٤١٥ ، والجزيري : الدرر الفرائد، ج ٢، ص٩٣٨ .

بالصلات السياسية والإدارة الداخلية في الحجاز، فإن إسهام الشريف في الدفاع عن المقدسات ضد الخطر البرتغالي الخارجي كانت إيجابية، فأدت إلى التقارب بين الجانبين، وخففت من حدة الخلافات بينهما، لأن الشريف أبدى تعاونًا مع الحملات العثمانية إلى اليمن والهند، وقدم لها كل ما بوسعه من التسهيلات، وكان موقفه متعقلاً حتى ممن قصد التعدي على حقوقه من قادتها وأضمر العداء له. مما ساعد الشريف على الاحتفاظ بمركزه، وفوت الكثير من المحاولات للإطاحة به . ويمكن تقييم دور الشريف أبي نمي في التصدي للبرتغاليين من خلال استعراض مواقفه من الحملتين العثمانيتين اللتين مرتا بالحجاز في عهد السلطان سليمان القانوني، وهما من أهم الحملات في الصراع العثماني البرتغالي، بالإضافة إلى موقف الشريف من حملة سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م البرتغالية على جدة التي هددت البحر الأحمر ردّا على الحملة العثمانية الثانية :

## أولاً : حملة سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م :

وضح فيما سبق أن سلمان الريس اختلف مع الشريف بركات، فاستُدعي إلى مصر وأُرسل منها إلى إستنبول ، وهناك استطاع شرح موقفه للسلطان، فسمح له بالعودة برفقة الصدر الأعظم إبراهيم باشا عندما قدم إلى مصر لتنظيم شئونها سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م[١] . فجهزت حملة بحرية في السويس ثم خرجت إلى اليمن بادئة بذلك مرحلة ثانية من مراحل اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين، وبتدعيم نفوذهم على السواحل اليمنية . وقد أسندت قيادة الحملة للأمير خير الدين حمزة، وعين سلمان قائدًا للأسطول البحري[٢] . وبعد أن وصلت القوات إلى جدة في رمضان سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٤م بدا مسلكها في الحجاز غريبًا لم يتكرر من أي من الحملات قبلها أو بعدها . والذي يبدو أن

---

(١) يلماز أوزوتونا : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٩ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٢، ٤٣.

العثمانيين على يد المصلح إبراهيم باشا، وبإشارة من سلمان الريس الذي كان على خلاف مع أشراف مكة، هدفوا إلى إضعاف سلطة إمارتهم، بالاستيلاء على أهم موارد دخلهم المالي وهو حصتهم في جمارك جدة، كما أرادوا تجربة بسط سيادة عسكرية قوية مباشرة على الحجاز، حيث قام الجند بحركة انتشار واسعة النطاق في جدة ومكة وعلى طول الطريق بينهما، وأقاموا في البيوت، ونصبوا أعلامهم في الحرم الشريف . لكن الشريف أبا نمي كان على علم بدوافع سلمان، وأنه وراء تحريض الصدر الأعظم ضد إمارة مكة، فاتخذ موقفه الدفاعي الذي اعتاده كلما شك في تحركات العثمانيين العسكرية ، وهو الانسحاب إلى معسكره خارج مكة، ورفض مقابلة أي مسئول عثماني[١] . وترك للأهالي والعلماء مهمة الاعتراض على سكن الجند في مكة والحرم ، كما أصبح الجند المنتشرون بين المدينتين عرضة لهجمات الأعراب ، ربما بتحريض من الشريف ، لأنه بعد أن سوى الأمر أمرهم بالكف عن هجماتهم فامتثلوا له ، بينما ظل هو يعلن ولاءه للسلطان .

وبعد أن عمت الفوضى عجزت موارد الحجاز القليلة عن سد حاجات الناس فضلاً عن الجنود ، وعم القحط حتى قيل « سنة سلمان » ، تدخل العلماء وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن عراق[٢] ، وسوى الأمر بين سلمان والشريف ، وكان لدور خير الدين قائد الحملة ، ولتدخل سنجق جدة ، فضل كبير في تدارك الوضع قبل أن تستفحل المشاكل[٣] . وبذلك نجد أن تعقل الشريف ، وعدم تعرضه للحملة حينها ، جنب المنطقة كثيراً من الرزايا ، فأقام الجند في منى حتى تهيأت لهم أسباب السفر فغادروا مكة إلى اليمن [٤]. وقامت الحملة هناك

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٢ .

(٢) هو محمد بن عراق الكناني ( ٨٧٨ - ٩٣٣هـ / ١٤٧٣-١٥٢٦م) ولد بدمشق وتعلم في الشام ثم قدم إلى مكة ، كان عالمًا عاملاً حارب البدع والمنكرات . توفى في مكة بعد أن جاور فيها مدة طويلة . الهيلة : التاريخ والمؤرخون ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٨ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٩ ، ٥١ .

بدور مهم في تمهيد السبيل للحملة التي تلتها، لفرض النفوذ العثماني، لكن دب الخلاف بين قادتها، وقتل سلمان الريس في اليمن سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م . ثم خرج قسم من القوات من اليمن بقيادة مصطفى بيرم بصحبة الخواجا صفر لأداء الهدف الرئيسي للحملة ، وهو مجابهة البرتغاليين . فمر مصطفى بكمران وأعاد تحصينها ، ثم غادرها إلى الهند ، وقد ساعد وجودهم في الهند على تدريب الهنود على استعمال الأسلحة الحديثة ، لكن جهدهم كان فرديًا وعلى نطاق ضيق[١] .

## ثانياً : حملة سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م :

ظل تصدي العثمانيين للتعديات البرتغالية في البحر الأحمر إقليميًا دفاعيًا حتى سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، لاعتماد الدولة على سياسة محاربة الأوروبيين في البحر الأبيض ، وقد حققت انتصارات مدوية فعلاً على هذه الجبهة ، حيث رعت نشاط الإخوة بربروسا[٢] في جهادهم البحري في البحر المتوسط[٣] ، إلى جانب تقوية الأساطيل العثمانية في البحر ، لكن السلطان سليمان أمر بإعداد أسطول في البحر الأحمر ، لأنه أراد توسيع نطاق المجابهة البرتغالية في البحارالشرقية بعد تحالف البرتغاليين مع الصفويين، ثم زيادة الاحتكاك العثماني - البرتغالي في الخليج إثر استيلاء العثمانيين على العراق ، وتجدد استغاثة الهنود بالسلطان والتجائهم إليه[٤] . لذلك

---

(١) سالم : الفتح العثماني ، ص ١٥٠ ، ١٥٤ .

(٢) خير الدين بربروسا : أصله من أتراك مدينة مدللي إحدى جزر البحر الأبيض ، مارست عائلته الجهاد والتصدي للإسبان ، والعمل على إنقاذ شمال أفريقيا من الوقوع في أيديهم ، وكان لجهود خير الدين أثر كبير في تطوير البحرية العثمانية في العهد العثماني وتوسيع نطاق دورها . فريد : الدولة العلية ، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ ، والتر : الأتراك العثمانيون ، ص ٤٢ .

(٣) الصلابي : الدولة العثمانية ، ص ٢٣٥ ، ورضوان : القوة العثمانية ، ص ٥١ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٥٣ ، وصفحات متفرقة بعدها ، وسيد سالم : الفتح العثماني ، ص ١٥٥ ، وشاكر : التاريخ الإسلامي ، ج ٨ ، ص ١٠٩ .

خرجت حملـــة عثمانية كبيرة من السويس سـنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، من إعداد وقيادة سليمان باشا الخادم [١] والي مصر، فمرت بجدة وحصلت على المؤن الضـرورية دون أن ينزل أفرادها إلى البـر، بل واصلوا طريقـهم إلى اليـمن . فاستولت على عدن ، وأكدت تبعية الشحر للعثمانيين[٢] . ثم أبحـرت بعـد ذلك إلى الهند، لكنها لم تحقق أي إنجازعسكري يُذكر هناك، بل عاد قائدها مكتفياً بتقوية النفوذ العثماني على سواحل البحر الأحمر من جازان التي أخرجها من سلطة شريف مكة وضمـها لسلطة والي زبيد[٣] ، والأهم من ذلك أنه قضى على نفوذ بقايا الأمراء الجراكسة في اليمن نهائيّاً[٤] . ثم مـر في طريق عـودته بالحجاز مرة أخرى، ومكث فيه شهرين خرج بعدهماا إلى مصر، ومنها إلى إستنبول،حيث قيمت نتائج حملته، فعدت ضمن الحملات الاستطلاعية الناجحة، وعين سليـمـان وزيراً في الديوان[٥] . وعلى الرغم من ســخط الرأي العــام الإسـلامي ضـده، لانسحـابه من الهند دون قتـال مما لم يعتده المسلمون من العثمانيين فـخابت آمـالهم لشدة مـا عانوه من تعديات البرتغـاليين، فقـد أقر سليمان السياسة الدفاعية عن البحر الأحمر، على أن تتخذ اليمن قاعدة لتركيز الدفاع عن الحرمين ، وتُـؤمن منها الحدود الجنوبية للدولة العثمانية [٦].

---

(١) سليـمـان باشـا الخـادم : من الأرنؤوط كـان من مماليك السلطان بايزيد ، تربى في سـراي السلطان سليمان. تولى إيالة مصر سنة ٩٣٣هـ ، حكمها عشر سنوات . قاد حملة العراق ، وأعد حملة الهند وقادها . وتولى الوزارة العظمى . النهروالي : البرق اليماني، ص ٧٠-٩٢، والإعلام ، ص ٣٠٠-٣٠٢، بجوى : بجوى تاريخي ، ص ٢١٩ – ٢٢٥ .

(٢) سالم : الفتح العثماني ، ص ١٦٤ ، والشلي : السنا الباهر ، ورقة ١٧٢ .

(٣) لكن جازان عادت إلى سلطة أئمة اليمن بعد فترة وجيزة ، ولم تستقر أحوالها تبعًا لأحوال اليمن . حسين : غاية الأماني ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ ، ٦٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨٥ .

(٥) محمد بن فـهـد : نيـــل المنـــى ، ق ٢ ، ص ٧٦٨ – ٧٩٣ ، ويلماز أوزوتـونا : الدولـة العثمانيـة ، ج ١ ، ص٣٣٠.

(٦) سيد سالم : الفتح العثماني ، ص ١٦٩ ، ٤٢٢ .

وقد اتخذت هذه الحملة الحجاز محطة في طريقها للعودة، فكان تأثيرها عليه إيجابيًا، لأنها كانت استمرارًا للحضور العسكري العثماني في المنطقة، الذي ساعد على إقرار الأمن ، ولما عم مكة من إنعامات قائدها على الناس، وجلوسه للمظالم في المسجد، ليلمس رد فعل الأنظمة العثمانية لديهم . لكن الحجازيين حملوا مشاعر باقي المسلمين نفسها لسليمان، لأنه خذلهم بنتائج حملته في الهند، فانتقدوا كل ما صدر عنه، وفسّروا تفقده لأحوال الحجاز، بإعطائه أهمية لنفسه يعوض بها عدم تحقيقه أي إنجاز يذكر[١] ، مع أنه والي مصر، والحجاز يتبع له إداريًا وماليًا . لكن كانت علاقة سليمان باشا بالشريف أبي نمي مثالية، وظهرت الثقة بينهما جلية لأن الشريف اجتمع به في المسجد الحرام، وأكرم كل منهما الآخر، وهو موقف لم يقابل به الشريف كثيرًا من القادة العثمانيين على كثرتهم . وقد قدمت إمارة مكة لهذه الحملة احتياجاتها من الدواب الضرورية للمواصلات، والوقود والمؤن والماء الذي يُعد حاجة ملحة في الحجاز . وقد رد سليمان على إكرام الشريف له بتلبية بعض المطالب ، فيما هو في حدود سلطته ، كإلغاء ما أصدره المفتش الذي قدم إلى مكة في تلك الفترة من أوامر بخصوص استخدام بعض الأوقاف[٢] . ثم صحب معه وفدًا من قبل أبي نمي لملاقاة السلطان،ليعرض عليه ما هو خارج عن نطاق اختصاص سليمان الإداري ، ومن ذلك اشتراك أحمد بن أبي نمي في الحكم، وطلب عدم تغيير أنظمة القضاء[٣] . لكن المشاركة الحقيقية للشريف أبي نمي كانت في صد رد الفعل البرتغالي على حملة سليمان، الذي تمثل في قدوم حملة برتغالية كبيرة تجولت في البحر الأحمر سنة ٩٤٨هـ /١٥٤١م ، فمرت بسواكن ثم قصدت السويس ، لكنها فرت لضخامة الاستعدادات العثمانية فيها ، وقيل ان البرتغاليين لم يضربوا الأسطول العثماني لأن قادته أنذروا بقدوم الحملة البرتغالية فرفعوا سفنهم إلى البر[٤] . وهاجمت بعد ذلك جدة وحاصرتها في

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٧٦٨ – ٧٧٨ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٩٠ – ٩١ .

(٤) Kennedy : The Red Sea Coast , p. 157 و 158 .

وحاصرتها في الوقت الذي كانت فيه القوات العثمانية قد غادرتها[١] . فتصدى لهم الشريف بإمكانات الحجاز العسكرية وحدها، وأجبرهم على الانسحاب ، مما أثبت أهمية دور إمارته كقوة دائمة التواجد والاستعداد ، تمكنت من إكمال النقص الذي تركه عدم إمكان إبقاء أعداد كبيرة من الجند في الحجاز بسبب ظروف البيئة . وقد رضي السلطان عن تصرف الشريف ، فكافأه بإعادة نصف دخل جمارك جدة إليه ، على سابق عهده ، وكان قد أنقصها من قبل كما سبق[٢] . كما ساعد جند الشريف والي جدة العثماني سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣ م في إقرار الأوضاع في جدة بعد أن وقع صدام مسلح بين الجند العثماني المرابط في قلعة جدة وجند حملة ازدمر باشا التي قصدت اليمن في ذلك العام فعاد الهدوء إلى جدة ولجأ الجند الفارون إلى سفن أقلتهم خارجها[٣] .

ثم مارس العثمانيون سياستهم الراميةإلى اتخاذ اليمن خط دفاع متقدمًا عن المقدسات ، فأصبحت عدن قاعدة الدفاع الأولى ، وجدة القاعدة الثانية ، مما أدى إلى جعل مشاركة أبي نمي هذه تشكل تتمة للمجابهة البرتغالية المباشرة في جدة ، لأنه لم يحدث هجوم برتغالي آخر على الحجاز حتى نهاية انتشارهم في البحار الشرقية . لكن استمرت مشاركة شريف مكة غير المباشرة في حركة الجهاد ، وذلك بالإبلاغ عن التحركات البرتغالية في البحر الأحمر بمجرد حدوثها، كما في سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م، وسنة ٩٧٢هـ/١٥٦٤م التي أبلغ فيها الشريف السلطات في مصر عن قدوم حملة إلى البحر الأحمر في الأولى ، وعن مهاجمة سفن الحجاج في الثانية ، فكانت السلطات المصرية تبادر بإرسال قوات كافية لردهم ، بلغت عدتها ثلثمائة محارب ، ثم عشر سفن

---

(١) السيد : الفتح العثماني ، ص ١٧٤ ، ٤١٤ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٨ .

(٢) قال عبد الهادي طاهر في الدر الفاخر في خبر الأوائل والأواخر اعطاه النصف الآخر وهذا مغاير لأخبار المصادر الأخرى . طاهر : الدر الفاخر ، ورقة ٤٨ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٣٧ .

من الأسطول في السويس[١] . كما شارك الشريف في تسهيل أمر عبور قادة حملات اليمن وولاتها الذين كان عليهم تثبيت النفوذ العثماني هناك، أو في طريق عودتهم [٢]. وعندما تطلب الموقف تدخل العثمانيين في شرق أفريقيا لمساعدة المسلمين هناك للوقوف في وجه الحبشة ، وقطع طرق اتصالها بالبرتغاليين حتى لا يشكلوا قاعدة لهم في البحر الأحمر [٣] ، أصبح الحجاز همزة وصل بين أمراء شرقي أفريقيا والعثمانيين ، فأسهم الشريف بالكثير من الإمدادات للمجهود الحربي هناك[٤] . وقد استمرت هذه الإسهامات غير المباشرة حتى انحسار النفوذ العثماني عن اليمن سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م، وكان الخطر البرتغالي قد أخذ في الانحسار والتلاشي .

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢٣ ، ٤٥٥ .

(٣) صيرفي : الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، والرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين ، ص ٧٥ ، ٣٢٣ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٤ .

# المبحث الثالث

# عهد السلطانين

## سليم الثاني ( ٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م )

## ومراد الثالث ( ٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٤م )

أرسل السلطان سليم الثاني مبعوثًا إلى المسئولين في الحجاز واليمن، لإبلاغهم بخبر وفاة السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م . فتلقى المسئولون العثمانيون المتواجدون في مكة النبأ ، ثم أبلغوه للشريف ، وصلى الجميع صلاة الغائب على السلطان في المسجد الحرام [١].

وقد ظلت الدولةالعثمانية في عهد السلطان سليم الثاني متماسكة الأركان، لرسوخ أسسها وقوتها العسكرية، وكونها دولة الإسلام الأولى،فاستمر جهادها الحربي ، وحققت لها فيه انتصارات عسكرية مهمة منها : الاستيلاء على قبرص[٢] ، واستعادة السيطرة على اليمن وتونس[٣] . لكن زاد تطرق الاختلال إلى هيكلها الإداري ، وكثرت المآخذ حول مسلك السلطان الشخصي ، إلى جانب عدم الرضا عن طريقة وصوله إلى الحكم ، لأنها أظهرت بداية تدخل كثير من الشخصيات في البلاط السلطاني في إدارة الدولة ، وتشكيلهم مراكز قوى أخذت تسيّر سياسة الدولة وفق مصالحها[٤] . وقد انعكست الأحوال العامة للعثمانيين في تلك الفترة على مكة ، حيث تجلت مظاهر القوة العسكرية

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٢٤٦، و السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ .

(٢) قبرص: جزيرة مهمة لموقعها بين الشام ومصر، ظلت تحت الحكم العثماني إلى سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨ م، ثم سلّمها العثمانيون لإنجلترا بسبب هزيمتهم أمام الروس الذين هددوا العاصمة إستنبول . فريد : الدولة العلية ، ص٢٥٥.

(٣) فريد : الدولة العلية ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٨، و النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٦٤ .

(٤) فريد : الدولة العلية ، ص ٢٥٢، و الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٧٢ ، ٦٧٤ .

في استمرار تدفق القوات العثمانية إلى الحجاز في طريقها إلى اليمن ، لإخماد الثورة التي قام بها اليمنيون حتى سيطروا على أغلب الإقليم ، وحصروا النفوذ العثماني في زبيد قرب وفاة السلطان سليمان . وقد أعيدت سيطرة عثمانية جزئية على اليمن في عهد السلطان سليم الثاني ، وعقد صلح مع اليمنيين سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م بعد قتال عنيف دار بين الجانبين[١] . كما ظهر أثر تنازع مراكز القوى في العاصمة العثمانية على الحجاز . لكثرة التنافس فيما بين أقطابها على أعمال البر في الحرمين ، فتعددت المنشآت فيهما وزادت المساعدات . وكان لقادة حملات اليمن وولاتها إسهامات خيرية أيضًا كانوا يبذلونها خلال مرورهم بمكة ، وقد دام ذلك حتى وفاة السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م[٢] .

وكان عهد السلطان مراد الثالث امتدادًا لعهد سلفه من حيث استمرار الانتصارات العسكرية على الجبهة الشرقية الصفوية ، أما في أوروبا فقد كانت الحرب سجالاً بين الطرفين ، وبدا فيها تعادل القوتين ، كما استقرت أحوال الحكم العثماني في اليمن نسبيًا واستعيدت السيطرة عليه بشكل كامل تقريبًا . لكن عوامل الضعف استمرت تنخر في جسد الدولة ، وزادت مظاهر الفساد والاتجاه إلى حياة الدعة[٣] .

وقد أدى استكمال السيطرة على اليمن والبحر الأحمر وشرق أفريقيا إلى جانب تقبل الحجازيين للأنظمة العثمانية وتعايشهم معها ، إلى استمرار الأمن والرخاء ، وكان مما ساعد على ذلك زيادة واطِّراد عناية العثمانيين بالمدن المقدسة ، ومنها عمارة المسجد الحرام مثلاً[٤] .

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٧٥ ، وسالم : الفتح العثماني ، ص ٢١٤ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٦ ، والإعلام ، ص ٣٦٢ .

(٣) فريد : الدولة العلية ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ .

(٤) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

## إمارة الحسن بن أبي نمي :

تنازل الشريف أبو نمي لابنه الحسن عن الحكم سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م، وشاركه في الحكم أخوه ثقبة. وأهم ما يميز فترة حكم الحسن التي عاصر فيها السلطان سليم الثاني تحسن الوضع الاقتصادي في مكة خاصة والحجاز عامة[١]، وزيادة استتباب الأمن، وقد ساعد على ذلك مرور القوات العثمانية بالحجاز وهي في طريقها إلى اليمن، أو ما كان يُشاع من عزم الدولة على السيطرة على الأراضي الحجازية بالقوة العسكرية، حيث تردد أن الصدر الأعظم مصطفى باشا عزم على إرسال حملة للقضاء على إمارة الأشراف . ثم تجددت تلك المقولات في عهد عزيز أحمد باشا، لكنهم شُغلوا بوفاة السلطان مراد سنة ١٠٠٣هـ[٢] . لكن لم تصح أخبار تلك الحملات، وإنما استمر تطبيق النظم العثمانية على قواعد السلطان سليمان نفسها، حيث لم يلحظ استحداث تغيير ذي بال حتى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إذ اقتصر التعديل على انقاص ما كان يحصل عليه الشريف من رسوم على قافلة الحج اليمني[٣]. وعلى العكس من ذلك فقد طورت إمارة الأشراف بعض الجوانب الإدارية والقضائية فيها، وأول مظاهر التغيير الإداري التزام الشريف الحسن بدوام الحضور في قصر الحكم في مكة أغلب أوقات السنة[٤] . فهو بذلك قد ترك عادة الأشراف السابقة في الإقامة في معسكرات كانوا يقيمونها خارج المدن، ويمارس فيها الشريف إدارة الإمارة على النحو العشائري في مجلسه اليومي . وقد كان يترك مقر الحكم في مكة لهيئة إدارية أهم المسؤولين فيها وزير الشريف ، ولحاكم مكة إدارة شئون الحكم دون أن يلتزم الشريف بأن يكون بينهم . كما أدخل الشريف حسن نظام المعاملات

---

(١) المحبي : خلاصة الأثر ، مج ٢ ، ص ٢ ، ١٤ ، والسنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٦٣ ، ٤٦٦ .

(٢) المحبي : المصدر والمجلد نفسه ، ص ١٠ ، ١١ .

(٣) النهرواني : ابتهاج الانسان والزمان ، ورقة ١٨ .

(٤) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٩٢ ، وعبد القادر الطبري : نشأة السلافة ، ورقة ١٠٦ .

الكتابية الرسمية لتصريف شئون الناس العامة، حيث كانت تعرض أمور الإمارة المختلفة على موظفي الشريف المختصين، ثم يطلع عليها هو شخصيّا ويضع عليها التوجيه اللازم بخصوصها مع توقيعه بالعلم مع عبارات تميز شخصيته[١] . كما أن إمارة مكة لم تتمكن من إبقاء القضاء خاضعًا لنفوذها، وكره المكيون طول إجراءات المحاكم العثمانية وتكلفتها المادية مما زاد أهمية دور الشريف في نظر القضايا المدنية التي كان يشرف عليها بنفسه، ومن ثم ظهرت فراسته ، وتناقل الناس أخبار فطنته وعدالة أحكامه[٢] .

وبدأت تظهر في مكة مظاهر الترف والغنى،فتنافس الأشراف في البنيان، وزادت مشاركاتهم في الأعمال الخيرية[٣] . ويعود اتخاذ الشريف لمثل هذه الإجراءات إلى رغبته في أن يثبت دور إمارته في حكم مدن الحجاز، بعد أن رغب العثمانيون في حصر نفوذها في البوادي وفرض الطابع العشائري عليها. كما أنه تأثر بمظاهر الحياة التي أخذت تظهر في الدولة العثمانية ذاتها من حيث الميل إلى الترف والأخذ بأسباب الحضارة ، فأصبح أكثر ميلاً لحياة الاستقرار ، وأكبر استعدادًا لتقبل المستجدات . وقد كان لهذا التحول أثره في إنعاش الحياة العلمية والأدبية[٤] .

وقد استمرت إمارة مكة في المشاركة في الجهود غير المباشرة في حماية الحرمين ، حيث طلب إلى الشريف حسن مراسلة ثوار اليمن ومحاولة اجتذابهم وتقديم النصح لهم ، وذلك في سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م[٥] ، وحين لم تسفر

---

(١) العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٥ .

(٣) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٤، وجلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٦٤ ، ٢٧٤ .

(٤) المحبي : خلاصة الأثر ، مج ٢ ، ص ٤ ، ٥ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٣٦ .

(٥) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ .

المراسلات عن أي طائل ، قدمت إلى مكة في ذلك العام حملتان عثمانيتان ضخمتان وهما حملة سنان باشا سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م وحملة عثمان باشا سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م في طريقهما لاستعادة السيطرة على اليمن ، وقد صدرت الأوامر للشريف بالمشاركة في الحملةالأولى وهي حملة سنان باشا بنفسه[١] ، ثم عدل عن الجهدالشخصي واكتفى بما قدمه الشريف من مؤن ومعدات، منها مائة وخمسون حصانًا وألف جمل[٢] . كما طلب منه السلطان توفير جلاب لحمل المعدات من الطور إلى جدة فجهز عشرين سفينة من الخمسمائة المطلوبة[٣] . ومعلوم أن توفير هذا القدر من وسائل المواصلات يعتبر إسهامًا لا يُستهان به في ذلك الوقت . وعلى الرغم مما أسداه الشريف للحملة الثانية من إكرام وتعاون، فإنه استمر على السياسة الاحترازية التي دأب عليها الأشراف، وهي عدم مواجهة أغلب قادة القوات القادمة إلى الحجاز، مما كاد يفضي إلى أزمة في هذه المرة، لولا حكمة الشخصيات المكية من العلماء وموظفي الشريف، مما ساعد على استمرار دعم الشريف للنشاط العسكري العثماني دون تقصير[٤] . وقد مد السلطان سلطة الشريف حسن إلى بلدة وصاب[٥] في اليمن وذلك ليشارك في حماية المسافرين من الحجاج والبريد وبذلك استمرت إمارة مكة في ذلك العهد طرفًا ثالثًا في المواجهة والمجهود الحربي إلى جانب والي مصر ووالي اليمن[٦] . ولكن يلاحظ أن توسيع نطاق مسئولية الشريف كان في المناطق الداخلية وليس في السواحل حيث الموانيء ذات المردود الاقتصادي الجيد .

---

(١) صالحية : حملة سنان باشا ، ص ١١ ، ١٤ ، Uzun Carsili , Osmanli , 127 .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠ . والوثيقة رقم ٢٦٦٣ دفتر رقم ٧ ، أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول .

(٣) وثيقة رقم ٢٧٥٣ ص ١٠٠٣ دفتر رقم ٧ . أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول ،

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢١٠ - ٢١٧ ، وصالحية : حملة سنان ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥) وصاب : ناحية كبيرة تعرف بجبلان العركبة وتتكون في العصر الحاضر من وصاب العالي ومركزها الدن ووصاب السافل ومركزها المصباح . صالحية : حملة سنان ، ص ٧٠ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧١ وفيها وثيقة منشورة رقم ١٥٢٠ دفتر ١٤ ص ١٠٣٦ .

وفي عهد السلطان مراد الثالث انفرد الشريف الحسن بالحكم منذ وفاة والده الشريف أبي نمي سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م الذي كان يشاركه مشاركة اسمية[١] . وقد استمرت علاقات إمارة مكة بالعثمانيين في هذه الفترة هادئة يسودها التفاهم إلا من محاولة أو إشاعة بعث قوات للسيطرة العسكرية على الحجاز سنة ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤م[٢] كما سبق ذكره ، كما لم يخل الأمر من احتكاك مع أمراء الحج لكن بعد سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م ، وهي احتكاكات ظلت محدودة لم يترتب عليها نتائج خطيرة[٣] إلى ما بعد منتصف القرن الحادي عشر[٤] .

ويُلاحظ أن تحركات الشريف حسن العسكرية في الحجاز قد عادت إلى النشاط في عهد السلطان مراد الثالث ، وربما كان ذلك لهدوء جبهات القتال العثمانية في اليمن ، فاستخدم الشريف إمكاناته للعمل في الداخل ، أو لأنه أراد إثبات أهمية إمارته وتنفيذ أوامر الدولة ، بحفظ البوادي وتوسيع النفوذ العثماني في شبه الجزيرة العربية ، خاصة بعد سماعه بأنباء احتمال قيام تحركات عسكرية في الحجاز نفسه كأخبار الحملتين المذكورتين . فكان المجال الذي تحرك فيه هو الجبهة الشرقية والشمالية والجنوبية للحجاز فكانت تحركاته في الجبهة الشمالية واسعة ربما للإسهام في ربط ممتلكات العثمانيين في شرق الجزيرة وغربها بعد دخول الأحساء تحت الحكم العثماني، لتسهم إمارة مكة في حزام الأمان الذي أراد العثمانيون تطويق الحرمين به ، خاصة مع وجود الصفويين ومحاولتهم بعث قوات مع قوافل الحج[٥] ، وكانت أشهر تحركاته

---

(١) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٢) المحبي : خلاصة الأثر ، مج ٢ ، ص ١٠ ، ١١ .

(٣) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٢٥ .

(٤) جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٩ ، ١٨٥ .

(٥) الجزيري : الدرر ، ج ٣ ، ص ١٩١٤ ، وبابكور : حزام الأمن العثماني ، ص ٢٥٤ .

بين عامـي ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م و٩٨٩هـ / ١٥٨١م ، وهي بقيادته أو قيادة أحد أبنائه ، وذكر أن السبب المباشر للخروج هو بعض المخالفات الدينية أو الخروج على سلطة الدولـة[١] .

وقد واصل الحسن رعايته للعلـم والأدب ، والمشاركـة فـي أعمال البر . لكن يبدو أن تحديث العملية الإدارية لم يستكمل جميع جوانبه ، بل تخللت ذلك النظام ثغرات استغلها أحد ضعاف النفوس من موظفي الشريف هو ووزيره عبدالرحمن بن عبدالله بن عتيق الحضرمي[٢] ، فزور في المعاملات واستولى على حقوق الناس بالباطل ، ولكن سرعان ما تدارك أبو طالب ابن الشريف الحسن[٣] الموقف ، وأوقف الجاني عند حده ، وذلك بعد وفاة الشريف الحسن بن أبي نمي سنة ١٠١٠هـ / ١٦٠١م [٤].

نخلص في نهاية هذا الفصل إلى القول بأن العثمانيين قد بدأوا تعاملهم مع الحجاز سياسيًا وإداريًا بمجرد دخولهم إلى مصر ، وهم كعادتهم في حكم المناطق التي كانت تُضَم إليهم حديثًا كانوا مرنين في فرض التغيرات التي كانوا يدخلونها على النظم السابقة حتى يوائموا بين نظمهم الأساسية وحاجات المنطقة الجديدة . وفي حالة الحجاز كان عليهم مراعاة ما يجب له من اعتبارات روحية ومتطلبات مادية ، إلى جانب التفاتهم إلى تحقيق مصالح دولتهم العليا . فراعوا مكانة الحجاز الدينية وكرم محتد أشرافه ، بأن أبقوا على إمارتهم في مكة بنظامها السابق ، ممثلين شرفيين للإقليم من وجهة النظر العثمانية من

---

(١) العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، وبابكور : حزام الأمن العثماني ، ص ٣١٩ ، ٣٣٤ .

(٢) ترجمته في المحبي : خلاصة الأثر ، مج ٢ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) أبو طالب بن الحسن : ولد سنة ٩٦٦ هـ وعين مشاركًا لأبيه في الحكم سنة ١٠٠٩ هـ بعد وفاة أخيه مسعود . انفرد بالسلطة بعد أن توفي والده سنة ١٠١٠هـ . المصدر السابق، مج ٣ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٧ .

(٤) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٥٠٧ ، والعصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ .

جهة ، مع استفادة الدولة من جهود الأشراف في بسط نفوذها على المناطق العشائرية فيه من جهة أخرى . فلم يعين العثمانيون ولاة للحجاز، ولم يبعثوا فرقًا عسكرية للإقامة فيه بمجرد انضمامه إليهم ، بل أبقوا الموجود فيها في جدة من قبل عهدهم ، كما لم يسموا الفرق التي وصلت إلى الإقليم بعد ذلك باسمه ، كما لوحظ ، وإنما أبقوها تابعة لمصر .

لكن العثمانيين مكنوا لنفوذهم في المنطقة بالترغيب ، وبفرض أنظمة حكم استحدثوا بعضها وأبقوا البعض الآخر على ما كان عليه في عهد أسلافهم المماليك . وقد نجحوا بذلك في تحقيق ما تطلبته النواحي العملية في الحجاز من خدمات . وعلى الرغم من أن هذا التغلغل والنشاط العثماني ، جوبه برفض ومقاومة من الأشراف ، فإن الطرفين لم يلبثا أن توصلا إلى تعايش مترقب فيما بينهما ، بل لقد دفع الأشراف إلى تطوير أنظمة إمارتهم الإدارية هم أيضًا . وقد حالف العثمانيين النجاح في تحسين أحوال الحجاز في بداية حكمهم ، وكان مما أعان العثمانيين على ذلك : قوتهم العسكرية ، وثراء دولتهم، مما جعل منطقة الحرمين تنعم بالرخاء والاستقرار وازدهار النشاط العلمي، وليس أدل على أن هذه الإنجازات كانت ثمرة التنظيم والغنى والقوة والحكمة ، إلا ما حدث من اختلال بمجرد فقد هذه العناصر أو بعضها فيما تلا ذلك من القرون حتى نهاية الحكم العثماني[١].

وهكذا فقد حقق ضم مكة للعثمانيين ما هدفوا إليه سياسيّا ، وهو نقل زعامة العالم الإسلامي إليهم ، والحظوة بالنفوذ الروحي لدى المسلمين كافة . والعثمانيون في حرصهم على احترام مكانة مكة الدينية ، ومراعاة ظروفها البيئية ، والاستفادة من جهود أشرافها باعتبارهم عصبية محلية ، قد فرضوا نفوذهم عليها من خلال الأنشطة الخيرية والتنظيم التشريعي الذي تفردوا فيه، فأدى إلى نتائج مرضية ، لمس المكيون آثارها خلال الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وهو نهاية العهد الذهبي العثماني .

---

(١) بيومي : قراءة جديدة ، ص ١٢١ ، ١٢٤ .

# الفصل الثاني
# العلاقة بين مكة المكرمة وأقطار العالم الإسلامي

أولاً - صلة مكة بالتحركات العسكرية على الجبهة الأوروبية .

ثانياً - دور مكة في الربط بين العثمانيين والقوى السياسية الإسلامية الموالية لهم على الجبهتين الجنوبية والشرقية للدولة العثمانية.

ثالثاً - التنافس الدولي الإسلامي في مكة منذ دخولها تحت الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري .

انتهى في مطلع القرن العاشر الهجري طور من أطوار التنافس الدولي الإسلامي في مكة بدخولهاتحت الحكم العثماني. ومن بداية العهد العثماني سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م حتى نهاية ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م ، وهي الفترة الزمنية للبحث. ظلت مكة على عادتها حلقة وصل بين الدولة الحاكمة لها والقوى الإسلامية الصديقة وموضع تنافس بين القوى المعادية .

وقد سبق الحديث عن تأثر العلاقات بين الدول الإسلامية ، منذ انقسام المسلمين سياسيًا ، بالاهتمام الذي كانت تبديه كل منها بالمقدسات الإسلامية في الحجاز ، وتسابقها لتقديم أفضل الخدمات لقاصديها ، وأن مكة شهدت خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تيارات سياسية ، كان أطولها بقاءً وأشدها تصاعدًا تيار النفوذ العثماني الذي بلغ قدرًا كبيرًا من القوة في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، فكان سببًا في طبع العلاقات : بين العثمانيين والمماليك -حكام مكة- بطابع خاص ، جعلها تأخذ اتجاهين مختلفين ، أحدهما : ذو طابع ودي كان قد بدأ بمشاركة المماليك للعثمانيين أفراحهم بالانتصارات التي كانوا يحققونها على الأوروبيين؛ ففي سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م انتصر السلطان بايزيد الأول على الأوروبيين في معركة نيكوبوليس[١]، وبعد أن بعث للمماليك ببشرى الفتح تلقى منهم رسالة تهنئة، اعترفوا فيها بسلطته وأرفقوها بتقليده سلطانًا من الخليفة العباسي[٢]، على

(١) معركة نيكوبوليس : خاضها بايزيد الأول ( يلدرم ) ( ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م - ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م ) ضد أوروبا كلها مجتمعة بزعامة البابا في روما ، وصرفت عليها أموال طائلة . كان قائد الأوروبيين سجسموند الأول ملك المجر ، وقد دارت المعركة عند حصن نيكوبوليس على شاطئ نهر الدانوب، وانتصر فيها بايزيد ، وبذلك تمهد السبيل إلى القسطنطينية ، وحقق العثمانيون السيادة في بحر إيجه على الأسطول البندقي . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠٦ ، ١٠٩ .

(٢) كان الخلفاء العباسيون يرسلون تقليدًا بالحكم لملوك الدول الإسلامية ، ويعدّونه نوعا من الرابطة المعنوية بين المسلمين ، ورمزًا لاستمرار بقاء دولة الإسلام الأولى بشرعيتها ونفوذها الروحي على المسلمين ومن أمثلة من تلقى تقليدًا في القرن التاسع الهجري ملوك الهند ، كما في سنة ٨٧٦هـ، والعراق،=

عـادتهم مع باقي ملوك المسلمين الذين تربطهم بهم عـلاقـات ودية . وأظهـر المماليك السرور أيضًا بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م[١] ، وحين علموا بكذب خبر وفاة محمد الفاتح بمرض الطاعون سنة ٨٦١ هـ/ ١٤٥٦م[٢]، ولم يتـوان السلطان بايزيد الثاني عن مد يد العون للمماليك في المجابهة البرتغالية . لذلك أظهر الغوري الحزن عند وفاته ، وصليت عليه صلاة الغائب في مصر[٣] .

أما الاتجاه الثاني الذي اتخذته العلاقات بين العثمانيين والمماليك حكام مكة ، فقد كان عدائيًا ، وشمل ثلاثة مظاهر :

الأول : مزاحمة العثمانيين للمماليك في رعايتهم للمقدسات ، وعنايتهم بالسبل المؤدية إليها ، على النحو المذكور سابقًا .

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يظهروا سوى الجانب الخيري ، فإن المماليك لم يغفلوا عن ميول العثمانيين السياسية[٤] ، مما أدى إلى ظهور العداء الصريح بين الجانبين ، حيث يُقال : إن محمدًا الفاتح أعد حملة قبل موته ، لم تكن تعلم وجهتها ، وأنها ربما كانت ستبعث للقضاء على المماليك[٥] ، كما كان السبب المباشر لأول صدام لبايزيد الثاني مع المماليك هو منعهم للعثمانيين من

---

= من ملوك أفريقيا . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ -٣٤٤، وعبد الفتاح العنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ٣٨ -٤٠، وأوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١١ ، وحرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٢٢ .

(١) الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

(٤) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٢ ، والرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٣٥٧ .

(٥) نفى الرشيدي صحة عزم محمد الفاتح على القيام بحملة إلى مصر ، وقال : إنها من أقوال المستشرقين بدون سند تاريخي ، ولكن محمد حرب عاد إلى ذكرها . الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٣٧٤ ، وحرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٦٠ .

عمل إصلاحات على طريق الحج ، وإعاقتهم مرور المساعدات إلى أهل الحرمين عبر مصر وتعويق هدايا كانت مرسلة إليه من ملوك الهند، وحجزها في جدة[١].

والثاني : التدخل في شؤون إمارات الحدود المجاورة لهما تدخلاً تطور إلى مجابهة عسكرية بينهما ، تكررت عدة مرات خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٢] .

والثالث : معنوي، فمن جهة كان لدى كل من الدولتين إحساس بالتفوق على الأخرى. لأن المماليك كانوا ينظرون إلى العثمانيين كتابعين لهم ، واستمروا في بعث تقليدٍ بالسلطنة إليهم بين الفينة والأخرى ، لتأكيد فكرة التبعية وترسيخها[٣] . وكان العثمانيون بدورهم يرون أنفسهم أحراراً أبناء أحرار[٤] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(٢) بدأ النزاع بين المماليك والعثمانيين منذ مطلع القرن التاسع الهجري ، باستيلاء بايزيد الأول على ملطية، وزاد تدهور العلاقات بين الطرفين حول إمارات الحدود منذ عهد محمد الفاتح ، ثم تحول إلى صدام مسلح في عهد بايزيد الثاني وقايتباي تكرر عدة مرات في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ومن ذلك الاصطدامات التي حدثت في السنوات ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ، و٨٩٠هـ / ١٤٨٥م ، و٨٩١هـ / ١٤٨٦م ، و٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ، و٨٩٦هـ /١٤٩٠م وذلك بسبب التدخل في منازعات إمارات الحدود ، وخاصة إمارة ذي القدر وإمارة كرمان والبستان، وفي سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م ، حتى عقد الصلح بين الطرفين ، وقد تم بواسطة الحفصيين في تونس ، غير أن أياً من الدولتين المتنازعتين لم يحقق كسباً حاسماً ، فالنصر كان حليف المماليك في أغلب هذه المعارك ، لكنهم لم يستغلوه ، وظل محدود النتائج ، بل على العكس خرجت سوريا بعد هذه العمليات العسكرية منهكة ومدمرة اقتصادياً . تاريخ الدولة العثمانية : إشراف روبير مانتران ، ص ٧٦ ، ١٥٧ - ١٥٩ ، ويلماز أوزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٨ - ١٩١ ، وعبد التواب : قايتباي ، ص١٣٧ - ١٧٦ ، وابن إياس: بدائع الزهور : ج ٣ ، ص ٣ - ٣١٥ .

(٣) وذلك في زمن بايزيد الأول ، ثم بعث المماليك التقليد للعثمانيين بعد ذلك في مناسبات عديدة ، ومنها في عهد بايزيد الثاني ، إذ أرسل له قايتباي تقليداً سنة ٨٩٠هـ ، وفي عهد السلطان جقمق سنة ٨٤٤هـ قدم وفد من الأندلسيين يطلبون النجدة من دولة المماليك فكان رد السلطان : إنه سيبعث إلى ابن عثمان ليعينهم. ، وكأنهم عمال له من حقه أن يصدر إليهم توجيهات . حرب : العثمانيون ، ص ٢٢ ، وأوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١١ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٢١٣ ، ٢١٥، وعبداللطيف الحميد: موقف الدولة العثمانية تجاه الأندلس، ص ٥٢.

(٤) أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٧ ، وحرب : العثمانيون ، ص ٦٠ .

وقد أوجدوا لأنفسهم مكانة دولية بالانتصارات العسكرية الباهرة التي حققوها، ونالوا بها مكاسب جديدة للإسلام ، بنشره في آفاق لم يبلغها من قبل ، مما أعاد لأذهان جمهور المسلمين ذكرى أمجادهم السابقة في عهد الفتوحات الإسلامية الأولى[١] . وزاد في شعبية العثمانيين ما كانت تتمتع به دولتهم من ازدهار اقتصادي، وما اشتهر به سلاطينهم من علم وكرم[٢] . فكانت للعثمانيين علاقات ودية بكثير من الدول الإسلامية ، كالحفصيين[٣] في تونس ، وبعض ملوك الهند[٤] . كما أصبح البلاط العثماني ملجأ للمسلمين من فئات مختلفة، فقصدهم العلماء من بلاد إسلامية كبيرة[٥] ، ومنهم من قدم إليهم من دولة

---

(١) حرب : العثمانيون ، ص ٨١ ، وإيفانوف : الفتح العثماني ، ص ١٧ ، ١٩ .

(٢) وصف ابن إياس محمد الفاتح بقوله : « كان ملكًا جليلاً معظمًا ساد على بني عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال ، وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها » . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣، ص ١٨١ .

(٣) الحفصيون : أسسوا دولتهم في تونس على أنقاض دولة الموحدين سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م ، أصلهم من البربر ، أشهر ملوكهم أبو زكريا يحيى ثم ابنه محمد وصل نفوذهم الروحي إلى مكة المكرمة سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م . تعرضت دولتهم لهجمات الإسبان وخضعت لهم من سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م إلى سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، ثم ضمها العثمانيون إلى دولتهم . شاكر مصطفى : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، ج ٨ ، ص ٥١٧ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩١ .

(٤) اتصلت الأسرة البهمنية في الهند ببايزيد ، وقد حكمت في الفترة ( ٧٣٠ - ٩٢٩ هـ / ١٣٢٩ - ١٥٢٢م ) . يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٩ ، والساعاتي : تاريخ المسلمين في الهند، ص ١٦١ .

(٥) قصد العثمانيين كثير من العلماء ، ومنهم المؤرخ ابن عرب شاه ، وابن الجزري شيخ القراء الذي ما زالت قصيدته الجزرية مرجع القراء في علم التجويد حتى العصر الحاضر . ومنهم الشهاب الكوراني الذي فر إليهم من المماليك فعينوه قاضي عسكر ثم مفتيًا ، وأنشأ في إستانبول جامعًا ومدرسة سماها دار الحديث ومساجد أخرى في المدينة نفسها ، وفي غيرها . وقد سبق ذكر علماء الحرمين الذين كان لهم صلة بالعثمانيين . قال ابن إياس بخصوص إبراهيم السمرقندي : « قدم مصر ، ==

المماليك ، ونقل إليهم صورة عن المظالم التي كانت تحدث هناك ، خاصة في النواحي المالية التي نتجت عن التدهور الاقتصادي . وقد عرفنا بعدد من علماء الحرمين ، الذين كانت لهم صلات بالعثمانيين . وبعث إليهم علماء الشام أيضاً بخطاب مشترك شكوا فيه ما شهدته بلادهم من تعديات . مما استثار حفيظة المماليك الذين لم يكونوا غافلين عن تلك الصلات . ففي سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م شنق قاضي المدينة المنورة ، سيف الدين يوسف الحنفي ، لاتهامه بالخيانة العظمى ، والتعاون مع العثمانيين[١] .

وحين بدأ الإعداد للحملة الخارجية لقتال العثمانيين في عهد الغوري ، رفض كثير من العلماء قتال المسلمين[٢] . وكان من مظاهر العداء بين الدولتين أيضًا إفساح كل منهما صدرها لأعداء الأخرى ، حيث استقبل السلطان قايتباي المملوكي الأمير جم ، وساعده ضد أخيه بايزيد . وناصر الغوري عدداً آخر من الأمراء العثمانيين الذين انشقوا على السلطان سليم [٣] ، وكان من

---

= وأصبح من أخصاء الغوري ، فلما هزم الغوري أصبح من أخصاء سليم ، وقيل إنه ممن حسّن لسليم دخول مصر ، وكان ممن أطمعه في ذلك » ثم إن السمرقندي قتلَ في عهد طومان باي حين قدم مصر مع العثمانيين في ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، ومن قضاة المدينة وعلماء الشام : عبد الرحيم الحموي والعالم العامل محمد بن عراق ، وغيرهم من العلماء الذين بعثوا برسالة يشكون فيها إلى سليم أحوال أهل الحرمين ، والشام ويطالبونه بتخليصهم . محمد بن فهد : الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان ، ص ٢٤ ، ١١٩ ، وابن الجزري : المقدمة ، ص ٦ ، ٨ ، والسخاوي: الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ ، وابن إياس : بدائع الزهور، ج ٥ ، ص ١٤٣ ، ٣٣٦ ، ومهنا : الإسلام في آسيا ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٣٧، والبكري : نصرة أهل الإيمان ، ص ١٢٣ ، والشلي : السنا الباهر، ورقة ٨٢ .

(٣) لجأ جم إلى قايتباي فأكرمه ، وفي عهد الغوري فر إليه سليمان بن أحمد ابن أخي سليم سنة ٩١٨هـ =

بينهم الأمير قورقودوا[١] قاسم بن أحمد بن بايزيد الذي رافق الغوري في الحملة المصرية التي خرجت إلى بلاد الشام سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م [٢]. ومن الجانب المملوكي فر إلى العثمانيين عدد من المسئولين المماليك ، كان آخرهم اثنين ، يعتقد أن لهما دوراً كبيراً في استثارة حمية العثمانيين ضد المماليك . وفي زيادة قلقهم بخصوص المقدسات في الحجاز، وهما : يونس العادلي وخوشقدم ، فأكملا ما أوجدته كل الشخصيات التي سبقتهما[٣] لدى الجانبين من توتر وتحفز، حملته كل دولة منهما ضد الأخرى .

---

= وكان أحمد قد فر إلى الصفويين ، ثم تبعه أخوه علاء الدين بن أحمد ، لكنهما ماتا في الطاعون سنة ٩١٩هـ ، وكان سليم قد قتل والديهما ، ثم قدم أيضًا قاسم بن أحمد ، والي مصر. ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ٧٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ .

(١) قورقود بن بايزيد أخو السلطان الأول لجأ إلى الغوري فأمده بسفن في البحر الأبيض ليتمكن من التغلب على أخيه سليم . ماهر : البحرية الإسلامية ، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٤ . ٢٣٥ – ٢٣٧ .

(٣) من المسئولين المماليك الذين فروا إلى العثمانيين عبد الرحمن بن الكويز ناظر الخاص ، أي المسئول عن أموال السلطان في عهد الظاهر خشقدم ، ثم عاد في عهد قايتباي ، ومنهم قنبك الشيخ نائب صهيون، فر إليهم خوفًا من حكم صدر بقتله ، وفي سنة ٩٠٦هـ خرج إليهم أركماس نائب البيرة فشفع فيه وأعيد ، ومنهم أيضًا دولات باي نائب الشام ، لجأ إلى العثمانيين سنة ٩٠٦هـ خوفًا على نفسه ، لأنه كان قريب الملك العادل . ومنهم يونس العادلي الذي خرج إلى العثمانيين أول مرة لطلب مساعدة من بايزيد ، لصد البرتغاليين ، ومنهم نائب حلب محمد بن أزدمر الذي أمر الغوري بشنقه سنة ٩١٩هـ ، وآخرهم خوشقدم وهو أحد أمراء الفرق العسكرية التي أرسلت إلى جدة مَدداً لحملة الهند الأخيرة ، وكان مقرراً أن يلي القيادة في جدة عقب خروج الحملة نيابة عن حسين الكردي ، لكن الغوري عزله من عمله في جدة ومن منصبه الأساسي وهو شاد الشون ، لأن صهره والد زوجته هو جاني بك ناظر ديوان المفرد الذي عجز عن تسديد ما طلبه السلطان من مبالغ مالية ، ولم يكتف الغوري بعزل خوشقدم بل صادر أملاكه وطالبه بخمسة آلاف دينار ، وأمره بتطليق زوجته ، ففر إلى العثمانيين في سفينة صغيرة ، وقد عرف الناس أنه سيقنع سليمًا بسوء أوضاع مصر وبضرورة المسير إليها ، وقد عاد خوشقدم مع سليم فعلاً إلى مصر في ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م وظل المصريون يعنفونه على فعلته ، لأنه بقي في مصر بعد سفر سليم ، في وظيفة كاشف أسيوط ومنفلوط ، فكان العثمانيون ينتصرون له ويدافعون عنه كما حدث في ذي الحجة سنة ٩٢٣هـ /١٥١٧م . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩ ، ٤٢٩ ، ٤٧١ ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، ٤٤٩ – ٤٥٠ ، ٤٧١ ، ج ٥ ، ١٤٧ ، والبكري : نصرة أهل الإيمان ، ص ١١٧ .

ويعود السبب في تناقض الموقف بين المماليك والعثمانيين إلى كونهما دولتين دينيتين عسكريتين[١] . فالعاطفة الدينية كانت تدعوهما إلى التقارب ، ولتقدير ما تقدمه كل منهما للإسلام والمسلمين من خدمات . لكنهما كغيرهما من الدول الإسلامية التي ظهرت على مسرح التاريخ منذ انقسام المسلمين ، كانتا تسعيان إلى الزعامة الإسلامية فهي تشريف وتفوق ، كما أنها واجب وتكليف فرضه عليهما دينهما ، ويطالبهما به جمهور المسلمين . كما أن الدولتين ذاتا طبيعة عسكرية ، نتجت عن ولادتهما ونموهما في ظل ظروف قلقة ، فرضت عليهما التيقظ الدائم ، وجعلت مبدأهما تكون أو لا تكون .

وقد بنى المماليك زعامتهم للمسلمين ، وكانوا يرون أحقيتهم بها ، على أساس من قوتهم وصدهم لأعداء الدين ، ودفاعهم عن المقدسات . ولكن بعد أن أحسوا بتطرق الضعف إلى دولتهم ، وفقدهم للميزة التي قام عليها وجودهم ، بدأ القلق يساورهم ، والشكوك من تحركات العثمانيين تسيطر عليهم[٢] .

أما بالنسبة إلى العثمانيين ، فإن المراقب المتتبع للأحوال السياسية حولهم ، يلحظ أنها كانت كتشكيلات السحاب ، لا تثبت على حال ، مما جعل التحركات والتوسع العثماني إلى الشرق والغرب بالقدر نفسه ، وفي أزمان متتابعة[٣] . وبذلك تهيأت دواعي الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، نتيجة للتداخلات الحدودية . لكن لم يبلغ التوتر بين الجانبين مداه إلا بعد أن زج

---

(١) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٩ ، ٢٢ ، ٢٩ ، وياغي : الدولة العثمانية ، ص ٥٩ .

(٣) علل الشناوي تلك التحركات بأن العثمانيين عسكريو النزعة ، وعزز هذه النزعة لديهم موقع إمارتهم في الأناضول ، وإحاطتها بالكيانات المسيحية والإسلامية ، وأن علاقتها بهم كانت عدائية في معظم الفترات ، لذلك قامت الإمارة العثمانية على سياسة التوسع الإقليمي في شتى الاتجاهات . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ومهنا : الإسلام في آسيا ، ص ١٥٣ – ١٥٥ .

الغوري بنفسه في الصراع العثماني الصفوي ، بالتحالف مع الصفويين ، ثم الخروج إلى الشام على رأس حملة مملوكية موسعة التجهيز ، ويصحبها الأمير العثماني المنشق على السلطة في بلاده[١] .

وقد أعطت هذه الملابسات العدائية التي خلفها تحرك الغوري الفرصة للسلطان سليم لزيادة تصعيد الموقف[٢] ، وتحقيق مكسبين له .

أحدهما عسكري ، وهو تأمين جبهة من جبهات دولته ، بالقضاء على المماليك ، الذين طالما أظهروا لها العداء ، واحتكوا بها ، ثم تحالفوا مع أعدائها. وقد تم له إنجاز ذلك الهدف بعد أن انتصر على الغوري في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م ، ونتج عنها دخول بلاد الشام تحت الحكم العثماني . وكان المكسب الثاني الذي ناله العثمانيون دينيًا ، وهو تولي القيام بواجبات الدولة في الإسلام ، والتزامهم بها أمام المسلمين . وسياسيًا ، وهو تنفيذ سياسة دولتهم العليا بالوصول إلى زعامة العالم الإسلامي ، أملهم الذي ظلوا يتطلعون إليه لأكثر من قرن من الزمان ، فالعناية بالحرمين كانت امتيازًا لأقوى سلاطين المسلمين في كل عصر[٣] .

اتضح مدى أهمية الهدف الثاني للسلطان سليم ، من ردة فعله حين نعته خطيب جامع دمشق في خطبة الجمعة يوم ٩٢٢/٩/٧هـ بحاكم الحرمين الشريفين ، حيث أظهر الفرح ، وسجد لله شكرًا ، وأنعم على الخطيب بردائه الثمين الذي كان يلبسه ، وذلك قبل أن يتم دخولهما تحت حكمه رسميًا . ثم اتخذ سليم من هذه العبارة لقبًا له ، بعد أن غيرها إلى خادم الحرمين الشريفين، للدلالة على تواضعه وخضوعه لله[٤]. وقد ظل السلاطين العثمانيين

---

(١) هو الأمير قاسم بن أحمد بك بن بايزيد بن عثمان . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٩، الأشبيلي : الدر المصون في سيرة المظفر سليم خان ، الأوراق ١٥ ، ١٨ ، والغزي : الكواكب السائرة، ج ١ ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) أساء سليم إلى رسل الغوري ، ولم يشأ هو الآخر تدارك الأمر أو الإغضاء عن الغوري وتهوره . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٦٤ ، ٨٦ .

(٣) هريدي : شؤون الحرمين ، ص ٩ ، ١٦ ، والحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ومحمد بن فهد : الجواهر الحسان ، ورقة ٥٠ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

يحملون هذا اللقب حتى نهاية الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م [١].

خرج سليم بعد ذلك إلى مصر ، ومر في طريقه بالقدس[٢]، ليعلن ضم أول الأماكن المقدسة إلى دولته عمليًا ، فصلى فيها صلاة الحاجة ، ثم واصل طريقه إلى مصر . وكان قد بعث برسالة إلى المماليك يشرح فيها سبب تقدمه ، وهو تولي أمر رعاية المقدسات ، وأنه لا حاجة له بحربهم ، إن قبلوا الحكم العثماني[٣] . لكن المماليك رفضوا ، وتصدوا للدفاع عن دولتهم ، فانتصر عليهم في موقعة الريدانية ، ثم دخل مصر أول سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م[٤] ، وارثًا بذلك عنهم زعامة العالم الإسلامي ، وواصلاً ببلاده إلى العالمية بسيطرتها على أراضٍ واسعة في ثلاث قارات ، وإشرافها على البحار التي كانت تربط قلب العالم بأطرافه[٥] .

عدّ هذا الإنجاز العثماني نقطة تحول تاريخية ، لقيت من جمهور المؤرخين اهتمامًا بالغًا ، انصب حول دوافع تغيير وجهة التحركات العسكرية العثمانية من الغرب الأوروبي إلى الشرق الإسلامي .

فرأى البعض أن العثمانيين وصلوا إلى مرحلة التشبع في جهادهم غربًا، وأن نشاطهم تحول من الهجوم إلى الدفاع ، بينما ظلت لديهم الرغبة في

---

(١) يلماز أوزوتونا : تارخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢٥ .

(٢) محمد بن فهد : الجواهر الحسان ، ورقة ٥١ .

(٣) قال سليم في خطابه : « أنا خليفة الله في أرضه ، وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين » ، ويتحسر ابن إياس على مصر فيقول : « ومن العجائب أن مصر صارت نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين أولاً وقبل كل شيء » . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٢٥ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص

(٥) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢٥ .

التوسع ، ومنهم من قال : إن التحركات العثمانية كانت للعمل على تأمين أطراف دولتهم ، وحماية حدودهم، التي أصبحت متداخلة مع جيرانهم المماليك. بينما أرجع آخرون التوجه العثماني شرقًا إلى الرغبة في صد الخطر البرتغالي والصفوي . ورجح بعضهم القول إن التحول كان بتأثير هذه العوامل كلها مجتمعة[١] . لكن الدارس لتطور التاريخ العثماني منذ نشوء الدولة العثمانية خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يلحظ أن التحركات العسكرية العثمانية ، لم تكن كلها موجهة إلى الغرب فقط . ففترات الجهاد على هذه الجبهة كانت توقف أو تواكب تحركات عسكرية أخرى موسعة في الجبهات الثلاث الباقية . وذلك بسبب الاضطراب السياسي، خاصة على الجبهة الشرقية كما مرّ [٢] ، الأمر الذي جعل العثمانيين في حالة نشاط عسكري دائم في جميع الجبهات لنشر الإسلام ، أو للدفاع عن كيانهم . وتعتبر معركة أنقرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م[٣] مثالاً جيدًا على التحرك العثماني شرقًا قبل عهد

---

(١) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، و بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص٥٥ . ٧٣ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، وتاريخ الدولة العثمانية : إشراف منتران ، ج ١ ، ص ٢١٣ – ٢١٥ ، وحرب : العثمانيون ، ص ٢٨ ، و متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ، ص ٧٨ ، و أنيس : الدولة العثمانية ، ص ١٠٢ ، و الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٧ ، وعبد اللطيف : تاريخ مؤرخي مصر والشام ، ص ١٠ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٢، ص ٦٩٨ ، وابن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٥٨ ، ٥٩ وقد نبه إلى أن كلمة فتح تستعمل لحروب العثمانيين في أوروبا ، وأما البلاد الإسلامية فالأفضل أن تستخدم كلمة ضم حين التعبير عن دخولها تحت الحكم العثماني ، والثقفي : دراسة متميزة ، ص ٩٨. والحربي : نظم الحكم في مكة ، ص ٤٤ ، ٥٠ .

(٢) حاول بايزيد الأول توحيد الأناضول ، واحتك بالمماليك في مصر ، وكانت له طموحاته في قيادة العالم الإسلامي ، إلى جانب فتح ألبانيا ورومانيا وحصار القسطنطينية ، ومحمد الفاتح كان له نشاط عسكري ضد إمارات الأناضول ، وتقاتل مع حسن الطويل الذي استعان بالأوروبيين ضده . انظر : نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣١ ، وحرب : العثمانيون ، ص ٨٣ .

(٣) معركة أنقرة : ٨٠٤هـ / ١٤٠١م كان تيمورلنك المغولي يسعى هو وبايزيد الأول إلى توحيد العالم ==

سليم ، وفي هذه الحالة كان العثمانيون هم من تلقى الضربة من تيمورلنك[١] ، وقد أعاد المغول السلطة إلى إمارات كان العثمانيون قد قضوا عليها في السابق ، كما أوجدت إمارات أخرى كثيرة متفاوتة الأهمية[٢] ، ولم تكن كل تلك القوى السياسية على علاقات طيبة بالعثمانيين ، ومنها مثلاً : إمارة الآق قوينولو ، ومن أبرز زعمائها أوزون حسن الذي طمح حتى للزعامة الإسلامية ، بمحاولة مد نفوذه إلى الحرمين الشريفين، كما مهد عصره لظهور الصفويين[٣].

---

= الإسلامي تحت سيادتهما، وقد أثبت كل منهما أنه رجل حرب شديد المراس في أواسط آسيا، وقد فر إلى كل منهما أعداء الآخر، واستعان تيمورلنك بالأوروبيين الذين كانوا موتورين من بايزيد في أعقاب فتوحاته في أوروبا، فانتصر تيمورلنك على بايزيد بسبب الكثرة العددية لجيشه، ولأن بايزيد لم يحسن اختيار مكان نزول جيشه فعانى من نقص الماء في وقت الصيف، مما أدى إلى موت جنده بالعطش، ثم تكاثر الجند المغولي على بايزيد فهزم وأسر وتوفي في أسره سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م . وتُعد هذه المعركة من أكبر معارك العصور الوسطى، لأنها وقعت بين أكبر قوتين في العالم حينها، ونتج عنها نتائج خطيرة، منها إعادة الإمارات التي كان بايزيد قد قضى عليها في الأناضول ، واستعادة القوى الأوروبية لكثير من أراضيها ، ووقوع النزاع بين أبناء بايزيد بعده . الرشيدي : محمد الفاتح ، ص٣٤-٣٥ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠٩ ، ١١١ .

(١) تيمورلنك : ( ٧٧١ - ٨٠٧هـ / ١٣٦٩ - ١٤٠٤م ) آخر عظماء المغول، قدم إلى الشرق على رأس جيوش كبيرة واجتاح الشام والأناضول ضمن المناطق التي اجتاحها . وينتمي إلى قبيلة برلاس، وكان أحد أجداده مقربًا إلى جنكيز خان، وهو مسلم شيعي طاغية سفاك للدماء، استولى على بلاد ما وراء النهر، واتخذ سمرقند عاصمة له سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م ، ثم اجتاح معظم آسيا وهزم المماليك في الشام ، والعثمانيين سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م . توفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وتفتتت بلاده بعده ، عسيري : تاريخ العالم الإسلامي ، ص ٢٨٩ ، ٢٩١ .

(٢) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، ج ٨ ، ص ٤٨ ، وقد عدد منها خمس عشرة إمارة .

(٣) إن الأعداء المحيطين بالعثمانيين حاربوهم حربًا واحدة ولكن في ميادين مختلفة ، ويمكننا القول إنها في أزمان متتالية أيضًا . الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠١ .

وغالبًا ما كانت احتكاكات العثمانيين تنتهي بهذه الكيانات السياسية إلى إعادة ضمها إلى النفوذ العثماني ، فكان الأناضول مسرحًا لعمليات عسكرية عثمانية لفترة طويلة ، إذ جرى توحيده تحت الحكم العثماني أكثر من مرة . ومدت الحدود العثمانية على الجبهة الشمالية أيضًا حتى غدا البحر الأسود بحيرة عثمانية، كانت سلطتهم فيها هي العليا حتى القرن الثامن عشر[١] . كما لا ننسى المجابهة العثمانية – الصفوية شرقًا في جالديران قبل فترة وجيزة من الزحف العثماني على المماليك[٢] . وقد اتضح فيما سبق دور إمارات الحدود في زيادة توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك . لكن بدا جليًا أيضًا أن النزاع حول المساحات المتداخلة والمهمّة وحده كان مرحليًا فقط ، ويمكن أن يسوى تمامًا ، دون أن تتطور الخلافات بين الجانبين إلى حرب شاملة على النحو الذي حدث في عهد السلطان قايتباي . وهكذا ، فإن اعتبار اتجاه العثمانيين شرقًا زمن سليم خرقًا للقاعدة التي سار عليها العثمانيون سابقًا لا يصدقه الواقع . أما فكرة التشيع غربًا فقد أشاعها المستشرقون[٣] ليلقوا في نفوس المسلمين أن سبب الفتوح أصلاً ليس الجهاد الإسلامي ، وإنما الرغبة في التوسع والغزو ، وليشيروا إلى أن بلادهم الغربية بدأت تنهض وتقف في وجه العثمانيين في ذلك الوقت المبكر . وليظهروا العثمانيين بمظهر المعتدين على

---

(١) عن كثرة إمارات الأناضول وعن تحركات العثمانيين حتى جالديران آخر معركة خاضها العثمانيون باتجاه الشرق قبل تقدمهم إلى دولة المماليك . يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٨٩ ، ١٧١ ، وياغي : الدولة العثمانية ، ص ٥٠ ، و بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٥٢٣ .

(٢) معركة جالديران : وقعت بين سليم بن بايزيد الثاني العثماني والشاه إسماعيل الصفوي سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، انتصر فيها العثمانيون ودخلوا بعدها تبريز عاصمة الصفويين واحتلوا الأناضول الشرقية نهائيًا وقد كان لها نتائج اقتصادية واستراتيجية مهمّة حيث حمت الهضبة الأناضولية في الشرق من الغزاة القادمين من وسط آسيا كما سيطر العثمانيون على طريق نقل الحرير الفارسي بين تبريز وحلب وبورصة . بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٣) بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٥٨ .

بلاد إسلامية رغبة في التوسع والسيطرة . وهدفهم إثارة مشاعر المسلمين ضد الدولة العثمانية . كما صوروا الزعامة الإسلامية، - دافع العثمانيين الحقيقي-، بأنها رغبة في التملك والسلطة والنفوذ، وأنها مطية لغرض سيطرتهم على الدول الإسلامية الأخرى فقط ، وصورها القوميون العرب بأنها استعمار باسم الدين. مع أنه لا علمانية في الإسلام. فخدمته وحماية مقدساته وأهله والحرص على مصالحهم واجب ما كان المسلمون ليغفروا للعثمانيين إهماله ، ولو لم تقم به الدولة العثمانية لتصدى له غيرها[١] .

أما الفتوحات العثمانية فقد استمرت غربًا ، حيث أضيفت مساحات للدولة العثمانية بعد ذلك . إذ فتح سليمان بن سليم جزيرة رودس الحصينة وجابه القوى الأوروبية كلها مجتمعة باستثناء دولتي فرنسا وإنجلترا ، وزاد الحضور العثماني في البحر المتوسط ، حتى أصبحت السيادة فيه للعثمانيين[٢] . وقد حاول البعض التقليل من أهمية نشاط سليمان العسكري في أوروبا ، لكن إذا ضمت إلى فتوحات سليمان الثورات الداخلية الأربع ، التي أخمدتها قواته ، وما بذله من جهد في تنظيم حكم بلاده ، لما قل ما أنجزه عن أعمال سابقيه من السلاطين العثمانيين[٣] . كما كان لابنه سليم إضافات أخرى واستمر التفوق العثماني في أوروبا لفترة بعد ذلك[٤] ، حتى إنهم لم يوقعوا معاهدة كطرف

---

(١) محمد بن فهد : الجواهر الحسان ، ورقة ١٢٠ ، وبيومي : قراءة جديدة ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) ضم سليمان إلى دولته المجر وترانسلفنيا وبانات وبلغراد وفويفودينا وخرواتيا وجزر كيكلاد وسبورات في بحر إيجة وميناء ناوبليو في المورا وجزر بانتلاريا ولامبادوسا في جنوب صقلية وغيرها بمساحة كبيرة تزيد على الأراضي التي كانت تابعة للدولة العثمانية في عهد سليم في أوروبا فكيف يقال إن الفتوحات توقفت وإن تحركات سليمان في أوروبا كانت دفاعية . هارولد لامب : سليمان القانوني ، ص ص ١٨٦ ، ٣٦٨ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٦، فريد : الدولة العلية ، ص١٩٩ ، ٢٥٠ .

(٣) حرب : العثمانيون ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٤) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٥٧ .

مهزوم، حتى معاهدة كارلوفتز سنة ١١١٠ هـ/١٦٩٨م[١]. وبلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لها في عهد السلطان مراد الرابع[٢] . وقد ورد أن السلطان سليمان تحول من محارب إلى سياسي ، وأنه دخل في متاهات الدبلوماسية الأوروبية بتحالفه مع أوروبا[٣] ، لكن هذا التصرف من سليمان كان يمكن أن يكون إلى حين يطمئن العثمانيون على جبهاتهم الأخرى ، كما حدث ذلك في تاريخهم لأكثر من مرة[٤] لولا تطرق الضعف إلى الدولة بعد عهد سليمان .

أما المجابهة البرتغالية ، والصفوية الشيعية ، فقد كانت إلى جانب تأمين بعض احتياجات أهل الحرمين الاقتصادية ، جزءًا من واجبات ومهام الزعامة الإسلامية ، التي أسهم فيها العثمانيون ، وشاركوا في التصدي لها ، حتى قبل أن تنتقل إليهم الزعامة بوقت طويل كما سبق . والذي يبدو أن وقف الخطر الصفوي بحد ذاته ، لم يكن يمر عبر القاهرة ، لو أن المماليك لم يورطوا أنفسهم في التحالف مع الصفويين ، ثم في الخروج وتحدي العثمانيين ، بل على العكس . فلو أن القوات العثمانية التي وزعت في المشرق العربي وجهت كلها ضد الصفويين ، فلربما استطاعت القضاء عليهم .

وقد لاحظنا أن تقدم سليم إلى الشرق ، كان بعد تسعة عشر عامًا من

---

(١) ظلت النمسا تدفع الجزية للعثمانيين حتى عقد هذا الصلح . فريد : الدولة العلية ، ص ٢٣٨ .

(٢) الحموي : فضائل بني عثمان ، ص ٩٨ .

(٣) لامب : سليمان القانوني ، ص ٨٢ ، ١٢١ ، وذكر أن سبب توقف المد العثماني ليس التشبع وإنما استعانة سليمان بالأجانب ممن ليسوا من أصول مسلمة ، ومنهم إبراهيم باشا اليوناني الأصل .

(٤) كثيرًا ما كان السلاطين العثمانيون يعقدون هدنة مع الجبهات الأوروبية يتوجهون خلالها إلى إقرار الأوضاع في جبهاتهم الأخرى ثم يعودون للجهاد من جديد فمثلاً ، أبرم بايزيد الأول صلح مع البيزنطيين لأجل مجابهة تيمورلنك في الشرق ، وأيضًا مراد بن محمد ( ٨٢٤ هـ / ١٤٢١م - ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) اتفق مع ملك ألمجر على هدنة خمس سنوات حتى يتفرغ لإقرار الأوضاع في آسيا، أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، ومحمد فريد بك : الدولة العلية ، ص١٤٤ .

وصول البرتغاليين إلى المياه الشرقية سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م . وهي مدة طويلة لم يقف خلالها العثمانيون مكتوفي الأيدي ، ينتظرون حتى يصل نفوذهم إلى المشرق العربي فيتصدوا له ، بل إنهم بادروا ببذل ما في وسعهم لرد الخطر البرتغالي بمجرد وصوله(١) ، بأن تعاونوا مع المماليك تعاونًا مشرفًا ، معتبرين الأمر قضية المسلمين عامة ، ولولا مساعداتهم التي أرسلوها للغوري لما كانت الحملة المملوكية الثانية إلى الهند بالضخامة التي انطلقت بها ، ولما استطاعت القيام بتحصين كمران مدخل البحر الأحمر ، حيث أمدها العثمانيون بالمعدات والخبراء والجنود ، مما عوض النقص لدى المماليك ، الذين كانوا يفتقرون إلى الخامات الأساسية من أخشاب وغيرها ، ويعانون من تدهور اقتصادي حاد . والدليل على أن العثمانيين عملوا أقصى ما يستطيعونه قبل وصول نفوذهم المباشر إلى البحر الأحمر ، أن استراتيجيتهم لم تتغير كثيرًا حين انتقلت إليهم المجابهة البرتغالية ، بعد القضاء على المماليك . وهي حماية المقدسات بتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية كما سيأتي .

والخلاصة من كل ما سبق أن حملة سليم كانت في البداية حلقة في سلسلة من الحملات العثمانية السابقة واللاحقة في اتجاه الشرق عامة والصفوي خاصة ، لكن رغبة الدولة العثمانية بصفتها أقوى دولة إسلامية في التصدي للقيام بواجبات الدولة في الإسلام ، الأمر الذي كانت تقوم بجزء منه فعلاً برعاية الحرمين ومجابهة الصفويين والبرتغاليين ، بينما الاسم للمماليك، إلى جانب سوء تصرف الحكومة المملوكية وضعفها ، كان وراء تحديد توقيت تحرك العثمانيين لتولي زعامة العالم الإسلامي ، وتمكينهم من تحقيق سياستهم العالمية العليا التي كانوا يطمحون إليها ، بعد أن ضموا إليهم المقدسات الإسلامية في الحجاز .

وقد تناقلت المصادر العثمانية أن الخليفة العباسي المتوكل تنازل عن

---

(١) قدم البرتغاليون لدوافع مختلفة كان أهمها وأقواها الدافع الديني في الوقت الذي كان فيه العثمانيون أيضًا حماة للإسلام والمذهب السني بالتحديد . رمضان : العالم الإسلامي ، ص ٢٩ ، ٣٧ ، والحموي: فضائل بني عثمان ، ص ٣٥ .

الخلافة لسليم في احتفال جرى في الجامع الأزهر في مصر ، ومنهم من قال إن الاحتفال تم في أياصوفيا في إستنبول[١] .

لكن الخلافة أبقيت في العباسيين لنسبهم،فكيف يتنازل شخص عن نسبه، وقد لاحظ المؤرخون العرب هذا الجانب في زعامة العثمانيين، لذلك نراهم يذكرون أقوالاً وردت بعروبة أصل العثمانيين، وأنهم من الحجاز[٢] . وحين قام أحمد باشا بحركته الانفصالية في مصر سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م حاول إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، لكن قُضي على حركته ، وانتهت محاولته ، فكيف يحيي خلافة ما زالت حية ، لو أن المتوكل تنازل لسليم عنها[٣] . وذكر جار الله محمد بن فهد أن المتوكل بعث إليه في مكة بوصية بمستحقات لهم فيها ، ودعاه ابن فهد بلقبه ودعا له[٤] .

والذي يبدو أن العثمانيين ركزوا جل اهتمامهم على تسلّم مهام الدولة الإسلامية ، وعلى القيام بها خير قيام من الناحية العملية ، بإقامة شعائر الإسلام وحماية الأماكن المقدسة ، ومساعدة المسلمين في كل مكان بقدر الإمكان ، ولم يلقوا بالاً للتلقب بلقب خليفة رسمياً في البداية[٥] ، ولم تثر مسألة

(١) أولياجلي : الرحلة الحجازية ، ص ٤٠ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧ ، وفريد : الدولة العلية ، ص١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ ، وذكر أن المقريزي نسبهم إلى أبي مسلم الخراساني ، ص٣٦٥ ، ومحمد بن فهد : الجواهر ، ورقة ٢٠ ، ٢١ نقلاً عن السخاوي والمقريزي .

(٣) ذكر أن الباشا العاصي أخذ البيعة لنفسه من والد الخليفة المتوكل في القاهرة . سيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٢٠ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ج ١ ، ص ١٧٥ قال عنه : « أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبدالله محمد العباسي وهو مقيم في إسطنبول مضمونها السلام وسؤال الدعاء والوصية برباط جده العباس بمكة ، وإخبار أنه وعد بالتوجه إلى مكة إذا قدم السلطان إلى إسطنبول ويستقر بها إلى الممات ، فالله تعالى يحقق له ذلك ويرزقه الثبات » أي أنه لم يتنازل عن الخلافة وإمرة المؤمنين في القاهرة وظل يحمل ألقابه حتى في إسطنبول . وقال محمد بن فهد بعد أن عدد الخلفاء العباسيين في مصر ما نصه : « مات المتوكل على الله في ثاني عشري شعبان المكرم سنة خمسين وتسعماية وبه انقطعت الخلافة » . ولمحمد بن فهد صلة شخصية بالمتوكل حيث كان ناظر رباط العباس في مكة بتفويض من المتوكل العباسي ولقبه أكثر من مرة في إسطنبول ومصر قبلها . محمد بن فهد : منهل الظرافة ، ورقة ١٠ ، وتحفة الناس بخبر رباط سيدنا العباس ، ص ١٥١ ، ١٥٣ .

(٥) أو أنهم لم يرغبوا في طرح الموضوع للنقاش حتى لا يستثيروا الرأي العام ضدهم لتجنيب العباسيين فجأة بقرار رسمي والحلول محلهم ، لذلك فإن العثمانيين كعادتهم امتصوا ردة الفعل المعارضة لنقل الخلافة إليهم لأجل النسب بأن أكرموا الخليفة في البداية ومنحوه صلاحيات في مصر ثم عادوا واصطحبوه إلى إستنبول وهناك نشبت نزاعات بين أفراد البيت العباسي حول الخلافة ونسب كل منهم للآخر مساوىء عديدة من أطماع مالية وغيرها مما زاد سخط السلطان عليهم فنفى المتوكل إلى ==

وراثة الخلافة إلا اعتباراً من القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي من قبل المؤرخين والسياسيين الغربيين ، الذين أرادوا من وراء ذلك إثبات أن العثمانيين ليسوا خلفاء ، مدفوعين بأسباب سياسية(١) .

فالعثمانيون لم يهتموا بلقب خليفة حسب رأي الغرب إلا بعد عقد معاهدة كوجك – كينارجي سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤م التي سمحت فيها روسيا للسلطان العثماني بالاحتفاظ ببعض الصلاحيات الدينية في شبه جزيرة القرم ، التي احتلها الروس، باعتباره خليفة للمسلمين(٢). واستخدمت من قبل الغربيين أيضاً لتحريض القوميين العرب على عدم قبول خلافة العثمانيين ، وأنهم ليسوا أهلاً لها(٣) ، وظلت محل أخذ ورد عبر القرون(٤) . ولكن ظل سلاطين العثمانيين محتفظين بهذا اللقب حتى آخر حكمهم الذي انتهى بعد الحرب العالمية الأولى ، حين أصدر كمال أتاتورك قراراً بإلغاء الخلافة سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م . فعاد موضوعها للبحث من قبل السياسيين العرب المعاصرين إلا أنه لم يقدر لها الانبعاث ، وظلت مطلباً يرنو إليه عدد من المفكرين المسلمين(٥) .

وهكذا ، ورث العثمانيون نفوذ المماليك ، مما أحدث تأثيراً في العالم الإسلامي والأوروبي الغربي ، لأنه فتح المجال أمام الدولة العثمانية لتصبح دولة عالمية كبرى ، حيث سيطرت بعد ذلك على شمال أفريقيا وشرقها ، واتصلت بالمحيط الهندي ، مما مهد لها للقيام بدور الخلافة الإسلامية وإن لم يلقبوا

---

== خارج العاصمة ثم سُمح له بالعودة إلى مصر ، وظل يحمل لقبه حتى وفاته ، ثم لم يجدد لغيره فانتهى الأمر دون أزمة خطيرة . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٢٢٩ ، ٣١٧ ، وكانت المنافسة بين العباسيين حول الخلافة قد بدأت منذ القرن التاسع الهجري. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٢ ، ١٧.

(١) Osmanli Oevleti , p. 29 - 33 . و :
يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، كما كان العلماء العثمانيين يلقبون السلاطين بالخلفاء مثل المفتي ابن مسعود ، وقال المقدسي « أحق من ملك سرير الخلافة باستحقاق وأول من جلس على تخت السلطنة بالاتفاق » . المقدسي : قلائد العقيان ، ورقة ٣٥ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤٩ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٠ .

(٣) زين : نشوء القومية العربية ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) الحضراوي : نزهة الفكر ، ورقة ٧٥ ، وتاج تواريخ البشر ، الأوراق ١٤٢ ، ١٨٧ ، وزهران : الريس وأعداء الخلافة ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٢٢٥ ، وفريد بك : الدولة العثمانية ، ص ٧١٨ ، ٧٤٧ ، وأبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٤٩ ، و أحمد : آثار الفكر الاستشراقي ، ص ٤٢ ، ٤٦ .

بالخلفاء في البداية ، فأرهبوا الأوروبيين وقاموا في الشرق بدور كبير[١] . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن ضم المدن المقدسة ، وبالذات مكة حيث قبلة المسلمين ومشاعر الحج ، كانت أهم دافع لتحول العثمانيين شرقًا للوصول إلى الزعامة الإسلامية ، وقد مهد العثمانيون لهذا التحول طويلاً ، وأقدموا عليه بعد أن أصبحت الظروف ملائمة لذلك ، حين عد الساخطون على المماليك أكثر من الراضين فتولي زعامة المسلمين كان الدافع إلى تقدم العثمانيين شرقًا حين آن أوان الحصول عليها ، ولم يكن نتيجة كما اعتادت المصادر التاريخية إظهاره ، إلى جانب أن دخول مكة تحت الحكم العثماني سلميًا كان أهم صلة سياسية إسلامية لها خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، لأن تولي العثمانيين قيادة العالم الإسلامي بانضمام المقدسات إلى دولتهم ، وبدئهم في تنفيذ مسؤوليات مركزهم الجديد ، ومنها العودة إلى نشر الإسلام ، وتوسيع اهتمامهم بالتصدي لحماية المقدسات الإسلامية والمسلمين عامة من عدوان الصليبيين ، وتطلعات الشيعة الصفويين، مما تطلب توسيع التحركات العسكرية العثمانية على كل الجهات ، ومن نطاق علاقاتهم السياسية والخروج بها من الإقليمية إلى العالمية[٢] ، ونظرًا للمكانة السامية لمكة المكرمة ولموقعها المميز ، فقد كانت ملتقى للتيارات السياسية التي أخذت تنشأ في ظروف الأحوال المختلفة في كل جبهة على حدة ، أو من النشاط الفردي للدعاة في العالم الإسلامي على النحو التالي :

---

(١) وقد أرجع بعضهم استحقاق العثمانيين للقب الخلافة قبل قضائهم على المماليك وأن سليم أطلق على نفسه لقب « خليفة الله في الأرض » منذ سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م لأن دوره في نشر الإسلام والدفاع عنه كان عمليًا أكثر ممن كانوا يحملون اللقب في مصر ولا يعطونه حقه . علي الصلابي : الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ص ٣١٢ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ . .

(٢) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦١ - ٣٤٧ .

## أولاً : صلة مكة بالتحركات العسكرية على الجبهة الأوروبية :

حمل الصليبيون حقداً على مكة منذ أقدم العصور[(١)] ، وقد تجدد أملهم منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في السيطرة عليها بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، فيما عرف بالدوافع الدينية للكشوف الجغرافية[(٢)] . وقد كان التصدي للبرتغاليين أحد مهام الزعامة الإسلامية التي حددت توقيت توجه العثمانيين شرقًا ، لكنهم اكتفوا في تلك المرحلة بإظلال الحرمين بنفوذ دولتهم الفتية المرهوبة الجانب ، وتركوا أمر الدفاع المباشر عنها لقواتهم الإقليمية في مصر والحجاز ، بينما أعادوا التصدي للصليبيين على الجبهة الأوروبية المباشرة ، وذلك لتحقيق عدد من الأهداف في وقت واحد ، منها : العودة إلى مواصلة الجهود لنشر الإسلام في أوروبا[(٣)] ، ورد عادية الإسبان عن بقايا مسلمي الأندلس الذين كانوا يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب وخطر الإبادة[(٤)]، وللعمل على حماية أهل شمال أفريقيا من أن يلقوا مصير الأندلسيين نفسه ، بالإضافة إلى أن هذه الجبهة هي الموصلة إلى مقر الصليبيين عامة والبرتغاليين خاصة ، الذين هددوا بتدمير مكة وبجعلها أثرًا بعد عين ، وعاثوا في الشرق الإسلامي فساداً، فهم أصل البلاء في البحار الجنوبية[(٥)] وضد الدول الإسلامية في غرب أفريقيا . فكان من الأولى والمنطق ضربهم في عقر دارهم لقرب

---

(١) سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٩٠ – ٢٩١ ، ١٠٥ – ١١٠ .

(٢) الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٥ – ٥٦ ، والرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين ، ص ٢٠ – ٢٩ ، ٦٩ .

(٣) عددت المناطق التي ضمت للدولة العثمانية في عهد سليمان ، ص ٦٤ – ٦٥ .

(٤) الحميد : موقف الدولة العثمانية من المسلمين في الأندلس ، ص ٧٣ – ٨٢ .

(٥) التر : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ص ١٧ – ١٨ ، والصلابي : الدولة العثمانية ، ص٣١٥، ٣٥٥ – ٣٦٠ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٨٧ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ص ٩٤ – ٩٦ .

المسافة وسهولة وصول الإمدادات الملاحية في البحر المتوسط ، إلى جانب أن الجهاد الإسلامي البحري كان ذا جذور قوية في البحر المتوسط سواء لدى العثمانيين أو المجاهدين المسلمين الذين كانوا يقاتلون الصليبيين بجهود فردية . وقد وحد العثمانيون عملهم العسكري مع هؤلاء المجاهدين ، وأظلوهم بحماية الدولة العثمانية[١] .

وقد كانت الجبهة العثمانية في أوروبا ذات ثلاثة محاور : اثنان منها بريّان، أحدهما في شمال أوروبا، وقد تولى خانات القرم القيادة فيه ، واستطاعوا حصر الخطر الروسي والسيطرة عليه طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[٢]، والمحور الثاني في وسط أوروبا، وهو محل الجهاد التقليدي الذي دأب عليه العثمانيون، وعرفوا به منذ نشوء دولتهم، وكان تحت إشراف الإدارة المركزية للدولة مباشرة ، ويتولى السلطان قيادة عملياته العسكرية شخصيًا حتى نهاية عهد السلطان سليمان القانوني ، وكان يأمل في القضاء على التحالفات الصليبية ، وأن يوصل الإسلام إلى مناطق لم يصلها من قبل ، ويحقق هدف محمد الفاتح بتحويل روما إلى إسلام روم ، كما حولت القسطنطينية إلى إسلام بول[٣] . أما المحور الثالث فكان بحريًا برزت الحاجة إليه منذ بدء الجهاد العثماني في أوروبا ، حيث وضعت نواة الأسطول العثماني منذ نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على إثر استيلاء العثمانيين على الإمارات المطلة على بحر إيجه ، وانتقال أساطيلها إلى أيدي

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٣٩ – ٢٥٨ ، والتر : الأتراك العثمانيون ، ص٧١–٧٥ ، ونوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) لامب : سليمان القانوني ، ص ٣٧٦ – ٣٨٢ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص٢٦٥، ٣٦٧ – ٣٦٨ .

(٣) الرشيدي : محمد الفاتح ، ص ٣٦٧ ، ٣٧٠ – ٣٧١ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

العثمانيين ، فأخذت في بناء السفن هناك ، ثم تطورت بعد ذلك العناية بالقوات البحرية منذ فتح القلسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م حتى وصلت ذروتها في عهد سليمان القانوني ، إذ تعددت ترسانات بناء السفن وزاد عدد بحارتها المهرة[١] .

وهكذا فإن عناية العثمانيين بالجهاد البحري لم ترق إلى مستوى اهتمامهم بالجبهات البرية إلا بعد أن تولوا زعامة العالم الإسلامي ، وتصدوا لحماية المسلمين والمقدسات الإسلامية ، فظهر أثر مركزهم كقادة للمسلمين على استراتيجيتهم الحربية ، حتى إنهم أعادوا أمجاد البحرية الإسلامية في البحر المتوسط ، وعرف في المقاتلين العثمانيين ربابنة مهرة كما اشتهروا كفرسان في الميدان البري[٢] . وكان السبب في زيادة الاهتمام بالقتال البحري أن البحر كان الطريق الأمثل للوصول إلى الأهداف التي ذكرت ، وهي الوصول إلى المسلمين المهددين في غرب البحر المتوسط ، وأيضاً لأن الأوروبيين اعتمدوا على الأساطيل البحرية في حروبهم ، فأراد العثمانيون التمشي مع روح العصر ومجابهة الأعداء بسلاحهم ، وقد استطاع الإخوة بربروسا[٣] ومنْ تولى القيادة البحرية بعدهم الوقوف في وجه أعظم دولتين بحريتين أوروبيتين[٤] ، وألحقوا بهما هزائم متكررة ، وهما : إسبانيا والبرتغال[٥] .

---

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٥٤ - ٥٥ ، وبروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٤٦٨-٤٧١ .

(٢) الصلابي : الدولة العثمانية ، ص ٣٤٣ - ٣٤٧ .

(٣) التر : الأتراك العثمانيون ، ص ٢٧ - ١٢٤ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٣٠٣-٣٠٩، ص ٢٩٤ .

(٤) الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص ١٢٥ - ١٣٣ .

(٥) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ٣٨٧ .

وقد زادت قوة إسبانيا أولاً بالثروة التي تدفقت إليها بعد الكشوف الجغرافية ، وثانيًا بسبب توحيد أغلب أقطار أوروبا تحت زعامة ملكها شارل الذي ورث منصب إمبراطورية الدولة الرومانية المقدسة التي كانت تحكم أجزاء من ألمانيا والنمسا ، فأصبحت ملكية إسبانيا هي المجابهة المباشرة للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، فلم يبق خارجًا عن فلكها إلا فرنسا وإنجلترا ، وكأن المسيحيين قد أوجدوا لهم زعامة مثل ما فعل المسلمون. وقد دام القتال بين العثمانيين بقيادة السلطان سليمان ، وأوروبا بزعامة شارل ملك إسبانيا ، مدة ثلاثين عامًا ، حقق خلالها العثمانيون انتصارات مدوية برًّا وبحرًا، وكسبوا منها أرضًا جديدة للإسلام ، وحافظوا على عروبة شمال وغرب أفريقيا، وضم وسطها وغربها للدولة العثمانية، كما أصبح البحر المتوسط تحت السيادة العثمانية إلى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فأمنت الملاحة الإسلامية في الحوض الشرقي لهذا البحر؛ وفتحت طرق الحج بحرًا من شمال أفريقيا إلى مصر . وعدت معاهدة إستنبول التي أنهت الحرب بين السلطان سليمان وشارل ملك إسبانيا سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م نصرًا مؤزرًا للدبلوماسية العثمانية . وقد اضطر الملك الإسباني بعد ذلك إلى التنازل عن العرش سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م الذي كان أحد أسبابه استمرار العثمانيين في مساندة أعداء إسبانيا من زعماء الإصلاح الديني في أوروبا وملوك فرنسا [١].

وقد استمر الجهاد على هذه الجبهة بعد عهد السلطان سليمان إلى أن توجت الانتصارات العثمانية على البرتغاليين بمعركة وادي المخازن في المغرب

---

(١) طلبت فرنسا حماية العثمانيين ، وقد أعطيت لها . لامب : سليمان القانوني ، ص ١١٨ ، ١٢١ . و الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ ، ويلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، والثقفي : دراسات متميزة ، ص ٨٥ ، ١٢٧ ، وموقف أوروبا من العثمانيين ، ص ٣٥ ، ٤٨ ، ونوار : الشعوب الإسلامية ، ص ١٩ ، ١٤٥ .

أو معركة الملوك الثلاثة[١] سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م التي هزم فيها تحالفًا دوليًا من البرتغاليين والإسبان وبعض القوى المحلية المغربية ، وقد تدهورت البرتغال بعد ذلك وانتهى أمرها بعد ستين عامًا من الصراع . لكن على الرغم من وصول نشاط البحارة المسلمين في هجماتهم إلى سواحل إنجلترا ، فإن المحاولات الإسلامية البحرية للوقوف في وجه الأوروبيين أخذت في الضعف ، وكان ذلك جزءًا مما أصاب الدولة العثمانية من تدهور .

واستخدم العثمانيون في جهادهم على هذه الجبهة العريضة كل ما استطاعوا من قوة ، فإلى جانب ضخامة قوات الجيوش العثمانية وحداثة أسلحتها. ، فقد استفاد السلطان سليمان من سياسة التحالفات الدولية ، فوحد جبهته مع فرنسا ، ثم تقربت إنجلترا لخلفائه ضد القوى الإسبانية . وناصر زعماء حركات الإصلاح الديني في ألمانيا وغيرها ، واستطاع السلطان سليمان تحييد المغول في الهند أيضًا .

وكانت الحرب النفسية إحدى الدعائم التي استند إليها العثمانيون ، حيث رفعوا الروح المعنوية لجنودهم ببث الحماسة فيهم للدفاع عن دينهم ، فكان السلطان سليمان يجول بين صفوف جنده قبل إقدامهم على المعارك ويلقي فيهم خطبًا بليغة ، مذكرًا إياهم بأنهم يتبعون هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينفذون تعاليمه ، فكان يلقى منهم كل التجاوب[٢] . وهذا ما جعل صلة هذه الجبهة بمكة والمدينة قوية ومؤثرة . فعلاوة على أن قتال الصليبيين كان أساسًا لحماية المقدسات ، فإن العثمانيين كانوا يحرصون على أن يعلن التأييد والمباركة لأعمالهم العسكرية على منابر الحرمين الشريفين باعتبار ذلك عاملاً

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٢٦٦ - ٤٢٥ .

(٢) يلماز أوزوتونا : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

مـهمّـا يزيد في شـحذ همم الجند ، ويقوي ارتبـاط الدولة العثمـانيـة بالقاعدة الإسلامية العريضة في العـالم الإسـلامي التي كـانت ذات ارتبـاط وثيق بمكة ، مما يكفل نشر وجهة النظر العثمانية ، ويزيد في تأليف قلوب المسلمين حولها، مما كان له أهمية في جذب جمهور كبير من القوى الإسلامية السنية الصغيرة إلى فلكها . فكما كانت تذيع أنباء حركات العصيان الداخلية ، كحركتي جان بردي الغزالي وأحمد باشا ، وتحذر من امتداد آثارها إلى الحرمين ، فإنها كانت تبلغ أشراف مكة والمسئولين فيـها بأخبـار خروج الحملات العسكرية لمجابهة الصليبين في أوروبا ، كحملة رودوس وما تلاها من حملات السلطان سليمان الثلاث عشرة . وكانت تكلف أعداداً من العلماء والقضاة بقراءة القرآن الكريم والدعـاء للجند في الحرمين ، كما كانت تأتي الرسل بعد ذلك ببشرى الفتح وتصدر الأوامر بتعميم الاحتفالات وتزيين المناطق الرئيسـة في الحجاز لمدة أسبوع ابتهاجاً بالنصر[١]. وأرسل المجاهد خير الدين بربروسا بأخبار انتصاره وتحرير طرابلس من أيدي المسيحيين سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، وأرسل مساعدات لأهل الحرمين ، وأهدى قنديلاً للكعبة سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م[٢] ، وهكذا فإن دور مكة في رفع القوة المعنوية للجيوش العثمانية كان مهمّاً وحتمياً في بث الحماسة بين الجند ، وفي تأكيد زعامة العثمانيين للعالم الإسلامي معنويّاً . كما أن قوة العثمانيين العسكرية جذبت إليها الكثير من القوة السياسية الإسلامية الدولية ، وجعلتها تسعى للارتباط بالدولة العثمانية سياسيّاً .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنـى ، ق ١ ، ص ٣٥٧ ، ٤٩١ ، وصفحات متفرقة، والجزيري : الدرر الفرائد، ج ٣ ، ص ٩٢٠ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ ، ٧٥٢ .

## ثانيًا : دور مكة في الربط بين العثمانيين والقوى السياسية الإسلامية الموالية لهم على الجبهتين الجنوبية والشرقية للدولة العثمانية :

تأهلت مكة بحكم قدسيتها وتوسط موقعها للقيام بدور الوسيط الدولي بين القوى السياسية الإسلامية الصغيرة في هاتين الجبهتين المذكورتين ، والعثمانيين بعد أن امتد نفوذهم إلى مكة . فكانت اليمن أولى المناطق التي لجأت زعامات منها إلى الدولة العثمانية طالبة المساعدة بواسطة المسئولين والأشراف في مكة المكرمة . فلقد أراد حاكم عدن من قبل الطاهريين ، الذين انحصر نفوذهم في عدن والمقرانة[١] بعد حربهم مع الحملة المملوكية سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م ، الاستفادة من صراع القوى الدولية حوله للاحتفاظ باستقلاله عنها جميعًا ، فتقرب إلى كل من البرتغاليين والعثمانيين ، بأن ساعد الحملات البرتغالية أكثر من مرة ، وعقد معهم صلحًا ، وفي الوقت نفسه كان يراسل الدولة العثمانية فبعد أن مالأ الحملة البرتغالية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م بعث إلى السلطان سليم بعد دخوله مصر يشكوإليه ما فعله حسين الكردي والمماليك عامة باليمن، واعتذر من مسالمة عدن للبرتغاليين[٢] . ثم أرسل خطابًا آخر إلى شريف مكة يشرح له فيه أحوال عدن ، ويطلب منه مساعدة رسوليْه في الوصول إلى إستنبول وقد أحسن السلطان سليم وفادة هذين الرسولين، وأرسل معهما هدية إلى أمير عدن، وعلى الرغم من أن أحد الرسولين مات في إستنبول ، وتعرض الرسول الثاني للاعتداء في دهلك، ونهبت الهدايا التي معه – ربما بإيعاز من المماليك في اليمن[٣] – فإن العثمانيين نظروا إلى حاكم عدن

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢١ ، ٢٤ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٩ .

(٢) سالم : الفتح العثماني لليمن ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

الطاهري في فترة من الفترات ، على أنه تابع لهم ، وقد يكون ذلك رغبة في ضمه إلى جانبهم بعد أن بدت النوايا الانفصالية لدى بقية قادة الحملة المملوكية في اليمن ، ففي سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩م خرج حسين سنجق جدة إلى اليمن لربطه بالإدارة العثمانية ، ولوضع إعلان قادة الجند الخضوع للعثمانيين موضع التنفيذ ، لكن لقيه إسكندر الحاكم المملوكي وأظهر له الطاعة ، ثم احتال حتى استولى على المعدات العسكرية التي كانت بصحبته ، وعمل بعد ذلك على إعاقته عن التقدم إلى عدن ، بأن أوهمه بقدوم حملة برتغالية إلى البحر الأحمر، فخاف وعاد إلى جدة على وجه السرعة . وهنا بعث خاير بك أمير أمراء مصر المكلف بتولي شئون إدارة جبهة الدولة من الجنوب إلى الشريف بركات بمرسوم في العام نفسه ٩٢٦هـ / ١٥١٩م يطلب إليه إبلاغ حاكم عدن بالاحتراز من إسكندر وأن التعيين الذي وصله يُعد لاغيًا[١] . وقد وجه خاير بك لحاكم عدن تعليمات إدارية تتعلق باستيفاء العشور في عدن، وأنها على نظام قايتباي ، وألاّ يسامح أحدًا من التجار إلا بمرسوم ، وأن يسلم السفن التي لديه منذ عهد الغوري ، وكأنه يعلم الحاكم العدني أنه يقبل تبعيته لكن بهذه الشروط . وفي رجب سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م مات حاكم عدن ، فصلي عليه في مكة صلاة الغائب[٢] ، ولكن بعد أن خرج مصطفى بيرم من اليمن في طريقه إلى الهند سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م مع مجموعة من القوات التي وصلت اليمن مع سلمان الريس منذ حملة سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م ، لم يتعاون معه العدنيون فهاجم عدن وشدد الحصار عليها ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها بسبب حصانة أسوارها ، ومقاومة أهلها الذين لم تكن لديهم القدرة على الاستمرار في المقاومة لفترة طويلة من الزمن ، فعادوا لسياسة إرضاء جميع الأطراف بأن عقدوا صلحًا مع البرتغاليين سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م، ثم أرادوا استقبال سليمان

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٤٧ .

الخادم بعد ذلك مما جعله يضع حدًا لتذبذب موقف الطاهريين في عدن ، ويقضي على دولتهم نهائيًا سنة ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨م(١)، غير أن حكام هذه المدينة عادوا للإتصال بالقوى الخارجية بعد ذلك كما في سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م(٢) .

وقامت مكة المكرمة بدور الوساطة بين بقايا المماليك في اليمن والإدارة العثمانية في القاهرة وإستنبول ، فقد استطاع كمال الرومي قتل إسكندر الذي غرر بسنجق جدة، ثم بعث إلى شريف مكة وسنجق جدة يطلب منهما تأييده في طلب تثبيته في حكم اليمن ، ففعلا ، لكن أنصار إسكندر استطاعوا قتل كمال هذا سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣م (٣) ، فخرج سنجق جدة حسين إلى اليمن مرة أخرى في العام نفسه واستطاع السيطرة على أغلب مناطق اليمن حتى وفاته سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥م(٤) . ثم تسلمت أمور اليمن بعده حملة خير الدين حمزة بعد مرورها بالحجاز ، وبذلك ظل الحجاز المركز الأمامي لمحاولات العثمانيين فرض نفوذهم الفعلي في اليمن ، إلى وصول حملة خير الدين وسلمان الريس سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥ م .

وقد وجدت قوى سياسية موالية للعثمانيين على الجبهة الشرقية على الخليج العربي ، فكانت هناك صلات سياسية بأمراء العرب على الشاطيء الغربي للخليج العربي ، وكانوا يفدون في مواسم الحج في أبهة كبيرة ولهم مشاركة في أحداث المنطقة ، ومنهم مقرن بن زامل بن جبر الذي قدم ليعين الشريف بركات زمن الفتنة بينه وبين إخوته ، وقد تكررت زيارات مقرن بعد ذلك وكان آخرها سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م التي ظهر فيها علو شأنه ، واتصل بزبيد من قبائل حرب الحجازية وصاهرهم ، فهل كان يأمل في الاستعانة بهم كالشريفين هزاع وجازان ، اللذين سبق شرح تحركاتهما خلال التمهيد

---

(١) سالم : الفتح العثماني ، ص ١٢٨ ، ١٧٠ ، ونوار : تاريخ الشعوب ، ص ١٣١ .

(٢) ماهر : البحرية في مصر ، ص ٣٧ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٣٣ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٢ .

– ليقوم بدور سياسي في الحجاز ولكن لم تتضح نواياه، حيث قتله البرتغاليون وهو في طريق عودته من الحج في ذلك العام . وقد انقسم أتباعه بعده وتنافسوا على الحكم ، فظهرت على مسرح الأحداث في الخليج شخصية راشد بن مغامس الذي أنهى حكم آل جبر وأدخل إمارتهم في الأحساء والقطيف تحت حكمه سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، بعد أن استعانوا به ضد بعضهم البعض[١] . وفي هذا العام نفسه تعرضت البصرة لهجوم البرتغاليين . وفي سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م خرج راشد لأداء فريضة الحج وبصحبته جموع غفيرة . وكان لهم نشاط خيري وثقافي في مكة ، ثم عاد مرافقو راشد بعد الحج ومكث هو في الحجاز بعدهم مدة خمسة عشر يومًا . وقدم بعد ذلك ابنه للحج أيضًا في سنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م ثم قدم هو شخصيًا سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م مرة أخرى[٢] . فربما كان لرحلاته المتكررة إلى مكة علاقة بصلاته الدبلوماسية مع العثمانيين ، حيث أعلن انضمامه إليهم بعد أن استولوا على العراق سنة ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م [٣]. وتبدو علاقته الحسنة بالعثمانيين من عدم منعهم له من دخول مكة بجموعه الغفيرة ، كما كان موقفهم من الحجاج التابعين للدولة الصفوية[٤] . ومن الصلات الخارجية المهمة التي كانت مكة واسطة فيها : صلات العثمانيين برؤساء إمارات شرق أفريقيا ، فلقد كانت علاقاتهم بأشراف مكة في القرن العاشر امتدادًا للروابط الحيوية القوية التي كانت قائمة بين الجانبين منذ أمد بعيد وهي صلات سياسية وثقافية واقتصادية ودينية دائمة[٥]،

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٠٦ ، ٣٠١ ، بابكور : جزام الأمن ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، والحميدان : مكانة السلطان أجود ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ٧ ، ١٤٠٢هـ ، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٤٢٢ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١١٢٨ ، ٧٢٩ .

(٣) نوار : الشعوب الإسلامية ، ص ١١٤، وتاريخ العرب المعاصر ، ص ٣٢٧ .

(٤) منع العثمانيون قوة كانت ترافق إحدى الشخصيات النسائية الصفوية التي كانت قادمة لأداء فريضة الحج سنة ٩٧١ هـ . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٩١٤ .

(٥) أحمد دياب : صفحات من التاريخ الأفريقي ، ص٦٩ ، ٦٥ ، ٧٤، وسالم : الفتح العثماني ، ص ٨٥ ، وعبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، ص ١١ ، ١١٧ .

وقد علمت محاولة البرتغاليين الاتصال بالأحباش ، ورغبتهم في إقامة تحالف معهم لمهاجمة المسلمين من الجنوب ، ولكن تصدت لهم الإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا ، وبرزت شخصية المجاهد إبراهيم القرين – أمير إمارة عدل – الذي تعاون مع العثمانيين حتى كادت قواتهما تقضي على مملكة الحبشة المسيحية لولا الخلاف الذي نشب بين القرين والعثمانيين(١) . ثم تدخلت الدولة العثمانية بقواتها فأرسلت حملات مباشرة،استطاعت بسط نفوذها على أجزاء من الحبشة مباشرة، وأقامت ولاية الحبش التي واصلت مهمة التصدي للصليبيين في الجنوب، فكان شرق أفريقيا إحدى النقاط التي شهدت مجابهة عثمانية – برتغالية مستترة(٢) .

وقد كانت لشرق أفريقيا ، خاصة في عهد زعيمه إبراهيم القرين صلات قوية بشريف مكة ، فقدموا طلب المساعدة للعثمانيين بواسطته . كما أسهم إبراهيم في النشاط الخيري في الحرمين بأن رصد لها أوقافًا وأرسل مساعدات إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة(٣) . وقد كانت مكة وجهة ولده حين أراد الخروج من القاهرة ، التي كانت عليه الإقامة الجبرية فيها بعد وفاة والده والقضاء على دولتهم . ولكنه لم يتمكن من مغادرة مصر ولم يسمح له بممارسة العمل السياسي والجهاد في بلاده مرة أخرى ، فتوفي بعد عام من محاولته هذه أي في سنة ٩٦٧هـ(٤) .

وبعد أن أنشأ العثمانيون ولاية الحبش أصبح شرق أفريقيا ذا صلة وثيقة

---

(١) إمارة عدل : تقع شرق أفريقيا إلى الغرب من البحر الأحمر . كانت تعرف بمملكة أوفات ثم سميت مملكة عدل كانت على صراع مع الأحباش لعدة قرون وقد عاصرهم البرتغاليون خلال القرن العاشر الهجري . سجل حاكمها الإمام أحمد القرين انتصارات باهرة ضد هذا التحالف الصليبي ولقى المعونة من المسلمين حوله . نوال صيرفي : الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، وزكي : الإسلام والمسلمون ، ص ٢٩ . ٤٩، وحسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٣١٠ ، ٣٧٧ ، ومحمد النقيرة : انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ .

(٢) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ، ٣٣٢ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢، ص ٥٥٥ ، وعبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٧٥٧ .

بالحجاز ، لأن ولاته كانوا يقيمون في جدة ، مما زاد في مراقبة الأشراف الذين حامت الشكوك حول علاقتهم بأئمة اليمن كما سبقت الإشارة إلى ذلك . مما جعل النفوذ العثماني يظل ملموساً في شرق أفريقيا خلال القرن الحادي عشر الهجري[١] .

وقد بلغت علاقة مكة بالدول الحاكمة في الهند درجة كبيرة من القوة طوال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين ، فكانت مساعدات الهند لمكة كبيرة ، ونشاطها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي قوي فيها ، وقد اقتصر إظهار النفوذ الهندي في مكة على تسمية مدارسهم باسم سلاطينها أو بشيء من هذا القبيل ، وذلك نظراً لبعد الشقة والضعف السياسي والعسكري الذي كانت تعاني منه معظم إمارات الهند ، وكان أبرز إمارات الساحل الغربي الهندي صلة بمكة إمارة الكجرات التي كانت تعاني من تهديد جاراتها ، ثم زادت عليها الأخطار بظهور البرتغاليين في المحيط الهندي ، ثم من ظهور قوة المغول[٢] في الشرق ، ومع ذلك واصلت برها بمكة . ولكن حين اشتدت الأزمة السياسية بالسلطان الكجراتي بهادرشاه[٣] بعد زيادة الانقسام السياسي في دولته إثر وفاة والده[٤] وتعرض الدولة بعده لهجوم المغول ، اضطر إلى أن يطلب من العثمانيين السماح لعائلته باللجوء إلى مكة ، وبعث معهم خزائنه للسطان سليمان القانوني[٥] ، طالباً منه أن يبادر بإرسال

---

(١) الجعلي : الطبقات ، ص ٩ .

(٢) الساداتي : تاريخ المسلمين في الهند ، ص ١٦٣ .

(٣) بهادر شاه : أبوه مظفر شاه ( ٨٧٥هـ - ٩٣٢هـ ) ملك الكجرات ، وحمدت سيرته فيها ، له صلات حسنة بمكة حيث أنشأ مدرسة وبعث إليها بمصحف خطه بيده ، وبعد وفاته ولي ابنه بهادر ودخل في حروب مع المغول الذين استولوا على دهلى ، ثم قتله البرتغاليون سنة ٨٤٣هـ ، الحسيني : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، ٣٥٥ .

(٤) العيدروسي : النور السافر ، ص ١٨٨ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ ، ٦٧٤ .

مـسـاعـدات عـسكرية له بعـد أن هـاجم السلطان المغـولي همـايون بن بـابر كجرات[١] ، وقد وعد السلطان بالاستجابة له ، لكن خروج الحملة تأخر إلى بعد وفاة بهادر وتعرض بلاده لهجوم برتغالي جديد ، عندها أمر السلطان سليمان بإعداد حملة للهند برَّ بها بوعده للكجراتيين بالمساعدة . فخرجت حملة سليمان باشـا الخـادم سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨م ، ووصلت إلى الهند واشـتـبكت في مناوشات مع البرتغاليين لعدة مرات كانت فيها الغلبة للقوة البرتغالية[٢] ، ثم انسحب بعدها سليمان عائدًا بعد أن ترك بعض المعدات في الهند[٣] ، دون أن يحقق شـيـئًـا مما أمله الرأي العـام الإسـلامي عـامـة والمكي خـاصـة تجـاه البرتغاليين . وهنا نلمس الالتفافة الشعبية حول الهنود ، وتفاعل الناس معهم وتألمهم لما حل بهم من عدوان ، مما عـرض قـائد الحملة العـثمـانيـة لموجـة من السخط والنقد ، وحمّله مسئولية عودة تلك القوات دون إنقاذ الإمارة[٤] التي كانت لها أياد بيضـاء وصلات عميقة بمكة . غير أن الحكم على القائد وعلى ملابسات الحملة يحتاج إلى إعادة نظر بعد أن توضع في الاعتبار ملابسات الموقف الدولي في تلك الفترة .

والجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا لا يرتاحوَن للصلات المباشرة لأشراف

---

(١) بابر شاه ( ٨٨٥ – ٩٣٩ هـ ) اسمه محمد ، كان فارسًا عالمًا ، وليَ الملك في بلاد ما وراء النهر سنة ٨٩٩ هـ ، وله من العمر اثنتى عشرة سنة ، ملك كابل وزحف إلى الهند وكانت سلطنتها اللودهية في غاية الوهن ، وذلك في سنة ٩٣٢هـ ، فدخل دهلي وأقام إصلاحات كثيرة في المناطق التابعة له ، كان حنفي المذهب وكتب مصحفًا بعث به إلى مكة أيضًا ، ومع ذلك كان ضعيف التمسك بالدين . ولابنه همايون سيرة مماثلة ، وقد هزمه شبرشاه الأفغاني ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الهند . كان قد حارب بهادر وانتصر عليه . المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٤٨ و ٣٨٩ – ٣٩٢ ، ومسعود الندوي : تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) الساداتي : تاريخ المسلمين ، ص ١٦٣ .

(٣) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٤) نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٤١ .

مكة، وإن كانوا يستفيدون من مكانتهم في العالم الإسلامي، ويريدون تسخيرها لتنفيذ سياسة الدولة ، فمثلاً :اتهم الشريف بالاتصال باليمنيين واتخذت ضده إجراءات مشددة وصلت إلى عزله ، ولكن حين رأى العثمانيون أن مثل تلك الوساطة قد تجنبهم أو تخفف من ويلات جولة من القتال في اليمن ، طلبوا هم من الحسن بن أبي نمي المتوسط لدى المطهر إمام اليمن ليكف عن معاداة العثمانيين ، ويقبل بالدخول تحت حكمهم ، وقد تمت تلك المراسلة بين الشريف وإمام اليمن ، ولكن دون أن تعطي ما كان مؤملاً منها[١] .

ومن الصلات التي لمكة المكرمة بالبقاع المختلفة من العالم الإسلامي: الجهود الفردية للدعاة المكيين في هذه البلاد ، بالإضافة إلى توافد ذوي الحاجات من المسئولين السياسيين أو العلماء المسلمين الذين كان لهم نشاط دعوي إصلاحي ، كان يتحول في غالب الأحيان إلى حركات سياسية في أفريقيا الغربية[٢] . أمّا قارة آسيا خاصة الشرق الأقصى فقد انتشر فيها الإسلام منذ عهود مبكرة ، لكن نشط في القرن العاشر الهجري وازدهرت الحركات السياسية الإسلامية في أندونيسيا والملايو وآشي وماليزيا ، وكان أحد العوامل التي ساعدت على ذلك ضغط البرتغاليين على الهند ، الذي أدى بدوره إلى فرار التجار الهنود وغيرهم إلى هذه البلاد حاملين معهم دينهم وأموالهم ، مما شجع الوطنيين من هذه البلاد على القدوم إلى مكة والتزود بالعلم ثم العودة إلى بلادهم ، وقد ظهرت ممالك إسلامية عديدة في هذه المناطق خلال القرن العاشر، منها : مملكة آشي[٣] التي أرسلت هي وماليزيا

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٧١ ، ٢٠٠ .

(٢) الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، ص ١٨٢ - ٢٠٦ .

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٩١ ، ٤٢٤ ، ٤١٣ - ٤١٤ ، ٤٤٥ - ٤٤٨ ، وعلوي الحداد: المدخل إلى التاريخ الإسلامي في الشرق الأقصى ، ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ .

إلى العثمانيين طلبًا لمساعدتهم عسكريًا ضد القوى المحلية والبرتغالية ، فأُرسل لهم أسطولاً مكونًا من اثنتين وعشرين قطعة بحرية سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م وآخر سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م إلى كل من ملقا وآشي بقيادة خضر بن خير الدين ، وقد حملت معها معدات عسكرية[١] أمدت بها المستنجدين من أهل هذه البلاد ، فكان دورها معنويًا وماديًا ، كحملة سليمان الخادم ، حيث إن مشاركة العثمانيين لم تكن دائمة ولا فعلية في القتال في هذه الأنحاء التي قصدتها ، لكن جهود الدعاة كسبت مناطق للإسلام في آسيا وأفريقيا فاقت تلك التي خرجت من أيدي المسلمين في أوروبا أضعاف المرات .

كما ظلت مكة ملجأ للفارين ، ومأوى للمنفيين من السياسيين من مختلف بقاع العالم الإسلامي ، ومقصداً للباحثين عن حياة يسودها الامان والهدوء، ومنهم مثلاً لاجئو كجرات وابن السلطان إبراهيم القرين ملك عدل السابق ذكرها ، والجند الذين كانوا يفرون من اليمن إلى مكة[٢] وقدم من الهند أخو سلطان المغول همايون الذي أعماه أخوه فلجأ إلى مكة ، وعدد آخر من الزعماء الهنود الذين اضطرتهم الظروف السياسية إلى ترك بلادهم[٣] فلجأوا إلى مكة ، وأمير تونس الذي عانى من اضطهاد أخيه هو الآخر بعد أن استأثر بالملك دونه[٤] . فقدم إلى مكة سنة ٩٥٩هـ/١٥٥١م ، وقد وجد الجميع في مكة الصدر الرحب والمقر الآمن .

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٥١ ، وسالم : الفتح العثماني الأول ، ص ٤٠٧ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٣١ ، ٩٣٢ ، والعيدروسي : النور السافر ، ص ٢١٨ ، ٢١٩، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، والندوي : تاريخ الدعوة في الهند ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٧٦٣ .

## ثالثاً : التنافس الدولي الإسلامي في مكة منذ دخولها تحت الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري وأثره :

تأثرت مكة بالتنافس الدولي بين حكامها من العثمانيين والصفويين أعدائهم التقليديين في إيران ، والمغول حكام الهند والتركمان من قبائل (الأزبك)[١] . بينما لم يتح لهؤلاء الأخيرين التعاون مع العثمانيين على الرغم من أنهما دولتان سنيتان اجتمعتا على حرب الصفويين وكره المغول ، وقد يكون السبب في ذلك صعوبة الاتصال بينهما ، لوقوف أراضي الصفويين حائلاً بينهما من ناحية ، ولأن العثمانيين أرادوا تحييد المغول بعدم مساعدة أعدائهم، سواء من التركمان في الشمال ، أو الإمارات الإسلامية الصغيرة على الساحل الغربي للهند ، وأهمها كجرات من ناحية أخرى ، وقد أسفرت هذه السياسة عن النتيجة التي خطط لها العثمانيون ، حيث لم يعد المغول إلى تقديم المساندة للصفويين في صراعاتهم لا مع التركمان ولا مع العثمانيين[٢] . وقد قيل إن السبب هو وحشية القائد الصفوي الذي نفر منه الهنود ، ولكن المغول لا يقلون وحشية عنهم كما هو معلوم ، فاكتفت دولة الصفويين بالتفاهم مع المعسكر المعادي للعثمانيين من الأوروبيين ، وهم الإسبان والبرتغاليون الذين كانوا يحاربون الدولة العثمانية في الجبهة الغربية . كما حرض البنادقة الصفويين وحثوهم على التأهب لتلقي الضربة المباغتة من العثمانيين لو لم يتحركوا ضدهم وسمحوا لهم بالاستيلاء على قبرص[٣] . وبذلك تشكل خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تكتلان عالميان ، تزعم أحدهما العثمانيون وانضم إليهم الفرنسيون وزعماء حركة الإصلاح الديني في أوروبا

(١) نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٢٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

ثم الإنجليز ، وتولى قيادة التكتل الثاني دولة إسبانيا وقد وحدتها مصالحها مع الصفويين والبرتغاليين في هذه البقعة من العالم . حتى قيل « لولا إيران لوصل العثمانيون إلى الراين » وإنه « لولا أوروبا وخاصة إسبانيا والولايات الألمانية لوصلت الدولة العثمانية إلى تركستان » حيث ألبت القوى الغربية الصفويين وساندوهم إلى أن تفجر الموقف على الجبهة الشرقية العثمانية ، وكانت الأسباب المباشرة للنزاع هي استئناف الصفويين نشاطهم الدعوي الشيعي في الأناضول[١] ، ثم استردادهم العراق سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م[٢] . فكان على العثمانيين التيقظ لجبهتهم الجنوبية أيضًا، والاحتراز من تحركات البرتغاليين فيها ، مما شتت الجهود العثمانية ، ومنعها من القيام بعمل حاسم على أي من الجبهات . فالعثمانيون وإن حافظوا على الغلبة خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، فإنهم لم يتمكنوا من القضاء على أي من أعدائهم ، أو على الأقل كف أذاهم عن العالم الإسلامي نهائيًا . إذ إن محاور المجابهة على هاتين الجبهتين – الشرقية والجنوبية – كانت برية وبحرية أيضًا ، ولم يقلّ القتال فيها عن مثيله في أوروبا ، فقد دارت رحى الحرب في المحور البري منها في عدة أجنحة ، وهي العراق والحبشة واليمن . وكانت نتيجة الصراع على الجناح العراقي في نهاية ذلك القرن لصالح العثمانيين بعد انتصارهم على الصفويين سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م الذي أدى إلى عقد معاهدة إستانبول سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م[٣]. وعلى الرغم من المساندة البرتغالية المكشوفة للجناح الثاني وهو الحبشة فقد أسفر النزاع عن تغلب العثمانيين ودخول الساحل الغربي للبحر الأحمر تحت حكمهم وحصر النفوذ الحبشي داخل

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٤٨ ، ولامب : سليمان القانوني ، ص١١٨ ، ١٢١ .

(٢) نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١١٢ .

(٣) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

الهضبة ، وقضى على التدخل البرتغالي في هذه المنطقة نهائيّا، فبقيت السيادة على الملاحة للمسلمين في البحر الأحمر الذي ظل بحيرة إسلامية حتى قرب نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي[١]. ولم يقبل العثمانيون مفاوضات الصلح التي تقدم بها البرتغاليون إليهم في سنة ٩٥١هـ /١٥٤٤م[٢] ، ثم تحقق للعثمانيين النصر عليهم بالوقوف إلى جانب المغاربة في معركة وادي المخازن ( وادي السيل ) سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م كما سبق .

وقد اشتد القتال على الجانب اليمني وتعددت الحملات العثمانية التي قصدت اليمن ، فكانت القوات العثمانية تنوب فيه كما يذوب الملح ، على حد تعبير النهروالي ، فطال أمد الصراع العثماني مع القوى المختلفة في اليمن، وأهمها دولة الإمامة الزيدية ، إلى أن تمت للعثمانيين السيطرة على اليمن واستمر حكمهم له إلى قرب منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي[٣] .

وترجع طول مدة المقاومة اليمنية إلى عدة عوامل ، منها : طبيعة اليمن الجغرافية الجبلية الوعرة ، والتكوين القبلي لسكانه ، وتعدد جبهات المقاومة للعثمانيين فيه ، وخلافها المذهبي مع العثمانيين ، وعدم التفات الدولة العثمانية إلى اليمن بشكل مكثف إلا بعد أن قويت شوكة الزيديين ، ولأن القوة العثمانية كانت في البداية غير متجانسة ، كما أنها ارتكبت أخطاء إدارية ، كتقسيمها اليمن إلى منطقتين إداريتين على كل منهما حاكم لا يتبع الآخر عسكريّا ، ومنها تكرار استخدام أساليب المكر العسكري ، كما في الاستيلاء على عدن وعلى حصن حب ، مما مكن اليمنيين من الصمود إلى الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وعلى الرغم من أهمية هذه

---

(١) سالم : الفتح العثماني الأول ، ص ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

العوامل كلها مجتمعة ودورها الفعال بلا شك ، فإن صمود القوة الزيدية أمام دولة من أقوى الدول في العالم آنذاك إن لم تكن أقواها على الإطلاق ، تلك الدولة التي تصدت لقوى الأوروبيين والصفويين في آن واحد مع ما كان يلاحظ من الانقسامات والحروب الداخلية في اليمن بين الزيديين ومعاداتهم لأكثر من جهة[١] حتى إنهم ضعفوا عن الوقوف في وجه الطاهريين الذين كانوا لا يملكون أسلحة متطورة ، مما يرجح أن اليمن كان على صلة بالقوى الخارجية ، كما كانت موانئ اليمن على البحر العربي مفتوحةأمام الاتصال بالعالم الخارجي[٢]، إذ قُبض على تجار من العجم في سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م في الشحر[٣] ، وحذر بعدها العثمانيون أهل الساحل من التعاون مع الفرنج وغيرهم من أعداء العثمانيين ، فذكر ابن فهد صلات اليمن بشخص يُدعى عبدالله العجمي سنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م[٤] . وفي سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م خرجت حملة بيري رئيس إلى عدن بسبب اتصالها بالبرتغاليين[٥] . وفي سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٢م أرسل البابا خطاباً لإمام اليمن يدعوه للتعاون مع الغربيين[٦] ، وفي الفترة من سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م إلى سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م كان العثمانيون قد تغلبوا على المقاومة اليمنية فجمعت كميات ضخمة من الأسلحة من أيدي اليمنيين ، فعرفوا أنها أسلحة غُنمت من القوات العثمانية التي هُزمت في اليمن في المعارك السابقة ، ويبقى التساؤل هو : كيف هزمت القوات العثمانية في البداية لتفقد أسلحتها ثم يغنمها اليمنيون لو لم يكن لديهم أسلحة أساساً ؟ فالأرجح أن

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

(٢) لطف الله : روح الروح ، ص ٢٧٣ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ١٠٦ ، وفيروز : مطالع النيران، ص ٢٩ – ٤٢ ، و : Sergeant : The Portuguees , p. 108 .

(٣) سالم : الفتح العثماني الأول ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٦٧ .

(٥) ماهر : البحرية في مصر ، ص ١٣٧ .

(٦) كما كاتب الصفويين في الوقت نفسه . يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

الحرب في اليمن في تلك الفترة من تاريخها - كما في إيران والحبشة والعراق - كانت مظهراً من مظاهر الحرب الباردة بين الكتلتين الدوليتين العظميين في العالم في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وهما العثمانيون من جهة ، والصفويين والبرتغاليين والإسبان من جهة أخرى ، وقد كانت الغلبة فيها للعثمانيين . وبذلك نقل البرتغاليون المجابهة العثمانية إلى هذه المناطق الثلاث : العراق واليمن والحبشة ، حتى يشتتوا جهود العثمانيين الحربية ، ولم ينتظروا حتى يستولي عليها العثمانيون ويتقدموا منها إلى الهند .

أما الدور الذي لعبه العثمانيون في محور القتال في البحار الشرقية خلال هذا القرن ، فقد كان : إثبات الوجود العثماني حول ممتلكاتهم وفي مياههم الإقليمية ، وإيصال النفوذ الروحي العثماني إلى باقي المناطق الإسلامية في شرق آسيا وربطهم بالدولة الإسلامية الأم ولو معنويّاً . وبالنظر إلى ما كان يواجهه العثمانيون من تحديات يظهر أن دورهم في البحار الشرقية كان مهمّاً، حيث أسهموا في بناء القوة الإسلامية في المحيط الهندي منذ العهد المملوكي .

ثم خضع النشاط العثماني في هذه البحار لظروف المعارك في الجبهات الأخرى ، فقلت التحركات العثمانية في فترة كانت تؤمل فيها تحقيق نصر حاسم على الجبهة الأوروبية ، لكنهم عادوا إلى تقوية دفاعاتهم بعد أن امتد نطاق القتال من الغرب إلى الشرق ، لأن العثمانيين كانوا يدركون أن التكتل الدولي سيزيد الضغط على الجبهة الجنوبية ، فأمر السلطان سليمان القانوني بإعداد أسطول في البحر الأحمر في الوقت نفسه الذي خرج فيه لقتال الصفويين ، كما حمى ظهره بأسطول آخر أبحر إلى البحر المتوسط[١] ، وقد عاد سليمان وأسطول البحر المتوسط بالنصر الباهر ، بينما اقتصر دور القوات البحرية في البحار الشرقية على المراقبة كما سبق وقد قامت بها عدة حملات . هذا عدا الحملات الدفاعية[٢] الدورية التي كانت تجوب البحر الأحمر

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٩ .

وتحمي الحرمين وقاصديهما . كما عمد العثمانيون إلى تركيز جهودهم على المحور البري في الخليج[١] ، وحثوا شريف مكة على تكثيف دورياته في شمال شبه الجزيرة ، لحماية باقي طرق الحج ولإحكام الطوق الأمني حول الحرمين ضد الصفويين والصليبيين[٢] .

وقد أدت العلاقات العدائية بين العثمانيين والصفويين ، والقوى الإسلامية الأخرى فيما بينهم ، إلى عودة نشاط مظاهر التنافس الدولي في مكة ، ومنها الأعمال الخيرية والمناظرات الثقافية ، وفي بعض الأحيان كانت تنشب خلافات ومنازعات بسيطة بين المنتمين إلى تلك القوى الإسلامية المتنازعة .

فمن الأعمال الخيرية التي مثلت النفوذ الصفوي وصول مساعدات مالية إلى مكة من اللار ، وهم من القبائل التي لها غالبية في إيران ، وذلك سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م[٣] ، كما قدمت مساعدات لمكة من عدد من الولايات الهندية ذات التوجهات المختلفة ، فأرسل المغول مساعدات سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م واختص فيها الشريف بأكثر من حصته المقررة [٤]. لكن مساعدات الكجراتيين كانت أعم الجميع ، وخففت عن المكيين ظروف الحرب في اليمن ، التي أدت إلى اضطراب الملاحة في البحر الأحمر ، وبالتالي إلى انقطاع وصول المؤن إلى مكة أحيانًا ، وعلى الرغم من تدهور أحوال هذه الإمارة ، فإنهم استمروا في دورهم الخيري حتى نهاية دولتهم على أيدي المغول[٥] ، ثم زاد التدخل والنفوذ المغولي في مكة ، خاصة في عهد بابور وابنه ، الذي قدم مع عائلته إلى مكة وكان له نشاط فيها[٦] ، ودام ذلك الحضور إلى ان بدأ همايون في اتخاذ مذهب جديد ابتدعه[٧] ، ربما لأسباب سياسية ، ففي الوقت الذي كانت قوة المغول فيه قد بلغت أوجها ومدت سلطتها على أفغانستان وازدهرت حضارتها[٨] ، فإنها كانت تأنف من أن تخضع للعثمانيين ولو روحيًا ، فلا تكاد المساعدات التي

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
(٢) بابكور : حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين ، ص ٣١٩ .
(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٣٢ .
(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٤٧٤ .
(٥) المصدر السابق ، ق ٢ ، صفحات متفرقة .
(٦) Islam Ansiklopedisi, citt 17, 1396 .
(٧) الندوي : تاريخ الدعوة ، ص ٥٥ ، ٥٩ .
(٨) أحمد : المسلمون في أفغانستان ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

كانت تقدمها الدول الشيعية الهندية تذكر إلى جانب المساعدات الكجراتية ، ومع ذلك فقد اشتد بهم ساعد شيعة المدينة فأصبح لهم صوت يطالب بحصص فيما يقدم من مساعدات[١] .

وظهرت المناظرات الثقافية والدينية في نطاق فاق المألوف إلى حد ما ، لكن تصدي العلماء في الحرمين لمقاومة الفكر والدعاية الشيعية ، إذ أنهم كانوا دائمي التيقظ لأمثال تلك الأنشطة[٢] ، فقد اشْتُبِه في استمالة قاضي مكة للخطبة للصفويين[٣] ، كما استثارتهم تولية إمرة المدينة لشريف كانت له ميول شيعية[٤]، وكان من مظاهر الرد على الشيعة كتابة أسماء الخلفاء الراشدين على جدران الحرمين إكرامًا لهم ، بمقابل قيام الشيعة بسبهم على المنابر لديهم[٥] . وقد وجه اللوم لمن صلى على سلطان الدكن الشيعي ، فاعتذر الفاعل بأنه لم يثبت عنده ذلك ، فرُد عليه بأن هذا السلطان كان يُكرم شيعة المدينة[٦] .

كما ظهرت آثار الخلافات السياسية بين القوى الإسلامية المختلفة في مكة، فقد كان العثمانيون يعلنون عن حملاتهم ضد الصفويين ، ويطلبون من المسلمين الدعاء لهم في الحرمين كالحملات ضد الصليبيين ، وكان يحرص على حضور هذه الأدعية كبار العلماء والشريف وكافة المسئولين ، ثم يظهر الابتهاج بالنصر ، ويبالغ فيه حتى التجار الأعاجم ، لكيلا يتهموا بموالاة الصفويين[٧] ، وكان موسم الحج يشهد تحركات صفوية معادية للعثمانيين مما كان يضطرهم لعدم مساعدة الحجاج القادمين من إيران أحيانًا ومنعهم في حالات الحرب ووضعهم تحت رقابة في أوقات السلم[٨] .

ونظرًا لوجود جالية شيعية حول المدينة ، وخشية عليها من تعديات

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٦٤ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٥٩١ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٠٧٠ سنة ٩٦٩هـ .

(٥) العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

(٦) الجزيري : الدرر الرائد ، ج ٢، ص ٩٣٠ .

(٧) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٩ ، ٦١٥ .

(٨) Islam Ansiklopedisi , clit 17, 1400-403 .

الأعراب فقد أمر السلطان سليمان ببناء سور حولها[١] . وكانت تراقب تحركات قوافل الحج القادمة من الشرق ، فلا يسمح للصفويين بالمبالغة في اصطحاب قوات عسكرية معها[٢] . وعلى العكس من ذلك فقد عززت قوات قافلة الحج المصري، واعتُني بإظهار قوة فرق الانكشارية المرافقة لها وبحسن تنظيمها[٣] . وقد أدى اشتداد النزاع الصفوي العثماني إلى تحسين العلاقات بين العثمانيين وأمير مكة فأُنهي الخلاف الذي أثاره إبلاغ أزدمر باشا عن وجود علاقة له بأئمة اليمن ، وأعيدت للشريف نصف عشور جدة ، وأضيف إليها عشور العدني ، كما سبق ذكره .

وقد امتدت آثار الخلافات بين القوى المتعادية في الهند إلى مكة ، فحدثت فيها جرائم قتل تطورت إحداها إلى وحشة بين الكجراتيين والمسئولين العثمانيين في مكة ، لأنهم لم يهتموا أو يراعوا جانب الكجراتيين فاتضح لهم موقف العثمانيين منهم بشكل أكثر وضوحًا [٤]. فلقد قبل السلطان سليمان لُجوءهم إلى مكة ، ولكنه لم يعاملهم معاملة خاصة ، بل عُشرت أموالهم كأي تجار عاديين ، ولم يسمح بالدعاء لسلطانهم في الحرم بأمر القاضي وسنجق جدة في سنة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م[٥] ، لأن ذلك يتعارض مع نفوذ السلطان العثماني ، ويُعد تأييدًا رسميًا للكجرات ، في وقت كانت فيه الحرب قائمة مع الصفويين ، مما يستعدي المغول على العثمانيين . ولم يقبل السلطان نقل خزائن السلطان بهادر شاه إليه إلا بعد انتهاء الحرب بين كجرات والمغول، وبعد أن هاجم البرتغاليون كجرات مجددًا[١] ، وكان السبب في إيثار السلطان

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٩ ، ٦١٥ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ق ٣ ، ص ١٩١٤ ، ١٩١٥ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٦٨٩ ، ٧٦٣ .

(٥) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ ، ٦٢٩ .

سليمان جانب المغول أن الإمارات الهندية وخاصة كجرات كانت متداعية[٢] ومتنافرة فيما بينها ، فوضعها كان أشبه بوضع المماليك في أيامهم الاخيرة[٣] ، لذلك ما كان هناك من جدوى من خوض حرب طويلة الامد إلى جانبهم ضد قوة فتية كالمغول والبرتغاليين ، مع بعد الشقة وضخامة المسئوليات التي كانت ملقاة على عاتق العثمانيين ، خاصة وهم يرون مصير كل الحملات التي أرسلت إلى الهند التي لم تستطع تغيير شيء في أوضاع إمارة الكجرات، وقد كان خروج أسطول سليمان الخادم لتعزيز دفاعات سواحل اليمن وحمايتها من ردة فعل برتغالية بعدالانتصارات العثمانية في العراق ثم مواصلتها طريقهاإلى الهند لاستكشاف أحوالها ، بما أوضح أنه حتى لو قضى على القوة البرتغالية الموجودة في الحصن حينها ، فإنه لا الكجراتيون ولا العثمانيون قادرون على الاحتفاظ بثمار هذا النصر، خاصة وقد بدت بوادر تذبذب موقفهم من سليمان وعدم تعاونهم[٤] معه منذ وصوله إلى الهند ، الذي عُزى لموقفه من حاكم عدن ، ولأنهم خشوا من ميول العثمانيين التوسعية . وعلى أية حال ، فقد انسحب سليمان بحملته انسحاباً منظماً دون خسائر تذكر ، وهكذا كانت مهمة حملة سليمان استطلاعية أكثرمنها ذات أهداف عسكرية[٥] .

لكن لم يكن من السهل شرح أو تقبل حقيقة هذا الوضع لدى المسلمين، وبخاصة في مكة التي آلمها الاعتداء البرتغالي على كجرات أكثر من غيرها، لشدة ارتباطها بها ، فحمّل وزر عودة الحملة من الهند دون نتيجة إلى قائدها

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٧٣ ، ٦٧٩ .

(٢) العيدروسي : النور السافر ، ص ٣١٣ ، ٣٦٠ ، ٤٠٩ .

(٣) قال يلماز : ضم المغول كجرات سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، وإن العثمانيين لو دخلوا في حرب مع المغول لغلبوا . ويبدو أن المغول أدركوا تقرب العثمانيين منهم فاستغلوا ذلك بالتدخل في شؤون الحرمين وزادوا نشاطهم في المدينتين المقدستين ، وحين تصدى لهم العثمانيون قاموا بإيجاد مذهب مخالف ليخرجوا من التبعية لكل من العثمانيين والصفويين ، يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٣٧ . Islam Ansiklopedisi . cilt 17. 1.401 .

(٤) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، ٣٣٠ .

سليمان باشا على الرغم من أنه من رجال السلطان سليمان المعدودين ، وهم صفوة إداريي الدولة العثمانية الذين حكموا في عصرها الذهبي ، فهم فريق العمل الذي يعود له الفضل في الحفاظ على تماسك الدولة حتى بعد وفاة سليمان القانوني[(١)] . وقد أثبت القائد سليمان باشا الخادم كفاءته في كثير من المواقف ، واستطاع مثلاً وضع إصلاحات إبراهيم باشا موضع التنفيذ في مصر ، وحقق فيها استقرارًا لم تشهده إلا في فترات قليلة من تاريخها العثماني[(٢)] ، كما جهز حملة العراق سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م وخرج على رأسها، وأشرف على إعداد أسطول البحر الأحمر[(٣)] في الوقت نفسه ، وأما سنه وتصرفه الشخصي ومنظره الخارجي فكلها أمور لم يكن ليُلقي لها بالاً لولا تأثر مواقف كتاب المصادر المعاصرين في اليمن والحجاز منه ، فقد وصفوه بالجبن والتراجع[(٤)] وهي صفة لم يكن ليغفرها السلطان سليمان له ، ولشنقه كما شنق مراد رئيس باشا الذي نقل عنه أنه ترك أسطوله في البصرة بسبب خوفه ، فأعدم في سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م [(٥)] . وعيب على سليمان غدره بحاكم عدن ، ولم يذكر أخطاء حكام عدن وسياستهم المتعاونة مع البرتغاليين منذ سنة ٩٢٣هـ إلى أن ضمت هذه المدينة إلى العثمانيين سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، فموقف هؤلاء الحكام كان يُشكل خطورة على أمن الحرمين والدولة عامة ، وإن قتله بمكيدة حربية كان أهون من أن يصبح مصير حملة سليمان كمصير حملة المماليك سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م فتنتهي بعد أن تشغل بمشاكل اليمن ، أما استسلام الحاكم العدني وخروجه فقد أصبحت خطة مكشوفة واستراتيجية معروفة للعثمانيين ، لأنه لطالما أعلنت عدن ولاءها ثم عادت للنكوث ، وكل

---

(١) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٢) البكري : المنح الرحمانية ، ص ١٤٩ ، ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٨٥ ، ٨٩ ، وماهر : البحرية المصرية ، ص ١٤٠ .

(٥) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

غرضها من المسالمة هو حفظ استقلالها كما سبق .

وعاب الناس تفقد سليمان الخادم لبعض الجوانب الإدارية في مكة، وجلوسه في المسجد الحرام لسماع شكاوى الناس وهو ليس إلا قائد حملة . ونسوا أنه كان واليًا على مصر ، والحجاز يتبعه إداريّا وماليّا ، وجلوسه في المسجد الحرام كان كجلوس القضاة ، فالمحاكم كانت تعقد عند باب زيادة ، أحد أبواب المسجد الحرام .

وعلى أية حال ، فإن انعكاس أثر التنافس الدولي على مكة كان سلبيّا على علاقاتها مع العثمانيين ، لأنه زاد من التوجس فيها من النفوذ العثماني الذي كان قد زاد قوة بسبب التغيرات الإدارية التي شُرحت في الفصل السابق، فكان هذا التوجس عاملاً مساعداً في عزلة العثمانيين وبُعدهم عن القاعدة الشعبية وعن الأشراف حكام مكة ، مما أدى إلى استمرار الصراع بين الأشراف وولاة جدة ، وإلى عدم التعاون فيما بينهم . كما كان حضور القوى الأخرى في مكة سببًا في إشاعة بعض القلاقل بين جنباتها ، وإلى تبني أهلها وجهة نظر مغايرة لسياسة الدولة العثمانية بخصوص الصراع العثماني - الهندي - البرتغالي .

وبذلك يتبين أن علاقات مكة بالعالم الإسلامي سياسيّا في القرن العاشر الهجري تأثرت بعلاقتها بالدولة العثمانية ، فلقد أعطى انضمام المقدسات في مكة للعثمانيين زعامة المسلمين . ونشّطت اتصالات العثمانيين وقوتهم علاقات مكة بالعالم الإسلامي ، وزادتها عما عرف لها عادة ، فأصبحت مكة واسطة للمتقربين والراغبين في المعونة العثمانية . كما أن تيارات التنافس الدولي وما صحبها من توترات عادت إلى التأثير في مكة ، ولكنها كانت ذات تأثير محدود أخذ في التلاشي مع نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

# الفصل الثالث
# الحياة العلمية والتعليمية

المبحث الأول - نظم التعليم .

المبحث الثاني - الحركة العلمية .

إن طلب العلم من الأولويات التى عنى بها الإسلام ، حيث بدأ التنزيل بقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [١] . وتوالت بعد ذلك شواهد عديدة من الكتاب والسنة حثت على العلم ، وبينت فضل أهله ، ومنها قوله تعالى : ﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ [٢] فبدأ سبحانه بنفسه ، وثنى بملائكته ، وثلث بأهل العلم ، وهي مكانة عالية ومرتبة جليلة اختُص بها العلماء[٣] .

وجاء في السنة التشديد بالوعيد لمن كتم العلم ، كما ورد في صحيح البخاري : « عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب اللّه ما حدثت حديثًا ثم يتلو ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ إلى قوله﴿ الرحيم ﴾ [٤] . وقد أدى فضل العلم وكِبَر إثم كاتمه إلى جعل العلماء يتوارثون واجب إبلاغه ، حتى غدا الحرمان الشريفان منارتين للعلم ، بل القلب النابض للنشاط العلمي والتبادل المعرفي بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها طوال التاريخ الإسلامي[٥] .

وما الحياة العلمية والتعليمية في القرن العاشر الهجري إلا مرحلة في مسيرة الثقافة الإسلامية بكل خصائصها وإنجازاتها ، من حيث نظم التعليم والحركة العلمية . وقد كان العثمانيون -بمقتضى اسلامهم- مشاركين فيها منذ بداية صلاتهم الخيرية بالمدن المقدسة . وبعد امتداد نفوذهم السياسي إليها تابعوا رعايتهم للنشاط العلمي فيها . وزادوا اهتمامهم بالعلماء في إطار سعيهم إلى بسط سيطرتهم السلمية على المنطقة وعملهم على تقوية ربطها بدولتهم .

---

(١) سورة العلق : الآية (١) .

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٨) .

(٣) الكافيجي : التيسير ، ص ٢٦٢ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٧ - ٩ ، وابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٤) الزبيدي : التجريد الصريح ، ق ١ ، ص ٧٧ .

(٥) الجاسر : رحلات الحج ، ص ١١ .

# المبحث الأول

# نظم التعليم

ربطت المسلمين في العالم الإسلامي وحدة ثقافية[١] ظهرت فيما توارثوه من تراث علمي، وفيما اصطلحوا على الأخذ به من نظم وقواعد تعليمية طوروها عبر تاريخهم على النحو الذي يكفل إيصال المعارف الإسلامية إلى طالبيها في كفاية ويسر وبأقل التكاليف . وتشمل هذه الأنظمة عدة جوانب، منها : تحديد أماكن التحصيل العلمي، وسير العملية التعليمية في كل منها ، وأنواع العلوم ، وواجبات العالم والمتعلم وامتيازاتهما ، وتقييم الحصيلة العلمية لطالب العلم . وفيما يلي تعريف بهذه الجوانب، وحالتها في مكة في الفترة التي يتناولها البحث :

**أولا - أماكن التحصيل العلمي الإسلامي:**

تعارف المسلمون على تحصيل العلم في الكتاتيب والمساجد والأربطة والمدارس والزوايا والمكتبات والمجالس الخاصة ، وقد أضيف إليها أحيانًا البيمارستانات ، حيث يمارس تعلم الطب ، ودكاكين الورّاقين ومجلدي الكتب ، لأن العمل في هاتين المهنتين كان يسمح للعامل بهما بالاطلاع على الكتب حين نسخها أو تجليدها[٢] . فكثيرًا ما يعمل فيها طلاب العلم لتكفيهم مؤنة شراء الكتب .

وقد وجدت كل أماكن تحصيل العلوم هذه في مكة في القرن العاشر الهجري ، ونظمت العملية التعليمية فيها كالتالي :

**الكتاتيب :** يرجع الأصل في إنشاء الكتاتيب إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، ولأن تعليم القرآن

---

(١) عز الدين : الحركة العلمية في مصر ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

ومبادئ القراءة والكتابة والحساب سنّة عنه أيضًا عليه السلام سنّها منذ بدء الدعوة الإسلامية ، ففي مكة كان المسلمون يجتمعون لقراءة القرآن في دار الأرقم بن أبي الأرقم . ثم توسع التعليم الأولي في المدينة المنورة ، ومن ذلك تعليم أهل الصفة[١] ، وجعل فداء أسرى بدر غير القادرين ماديًا العمل على تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

وزادت الحاجة إلى الكتَبة لكتابة الوحي ولكتابة المعاملات التجارية بعد صدور الأمر بذلك ، حتى عرف للرسول عليه السلام خمسون كاتبًا للوحي . وسار المسلمون على هذا الهدى بعد ذلك ، فلا تكاد تخلو منطقة إسلامية ولو نائية من كتاتيب للتعليم الأولى[٢] .

والغاية من إقامة الكتّاب تحفيظ القرآن الكريم ، ومعرفة مبادئ الكتابة، وبعض متون الأحاديث ، ومعرفة أصول الدين لإرشاد الطلاب إلى أهم طرق السلوك والعبادة[٣] .

وقد تقام للكتاتيب أماكن خاصة يقصدها الطلاب ، ويشترط أن تكون متسعة جيدة التهوية وقريبة من سكن من يدرس فيها ، وأن يعين فيها مشرف مهمته إيصال صغار التلاميذ ، وفي غالب الأحيان يُتلقى العلم الأولي في

---

(١) أهل الصفة : الصفة لغويًا : شبه البهو الواسع الطويل السمك ، وصفة البنيان : طرفه ، والصفة تأتي أيضًا بمعنى الظلة . واصطلاحًا : اسم أُطلق على موضع مظلل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مخصصًا لإيواء الفقراء والمساكين ومن لا مأوى له من الصحابة ، فاجتمعت في هذا الموضع مجموعة منهم لا يجمعهم جنس ولا قبيلة ولا نسب ، وإنما جمعهم دينهم ونزولهم في الصفة فنبسوا إليها . تؤدة الشريف : أهل الصفة ، ص ٣٤ ، ٤٩ ، وبناني : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف، ص ٦٧ .

(٢) الأعظمي : دراسات في الحديث ، ص ٤٧ ، ومقادمي : التعليم الأهلي في مكة ، ص ٨١ ، وصادق : دليل الحج ، ص ١١٨ ، والبركاتي : الرحلة اليمانية ، ص د١٠ ، وابن دهيش : الكتاتيب في الحرمين، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) عز الدين : الحركة العلمية ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

المساجد ، أو تلحق كتاتيب بمباني المدارس والأربطة وغيرها من أماكن العلم[١] على هيئة المجمعات العلمية حاليًا .

والكتاتيب إما خيرية يتعلم فيها غير القادرين من التلاميذ ومنهم الأيتام . وتقوم على المساعدات أو توقف عليها الأوقاف، وإما أهلية يدفع فيها الدارسون مبالغ زهيدة مقابل تعليمهم .

ومن أهم أنظمة التعليم في الكتّاب أن يتولى التدريس فيها شيخ عرف بالعلم والديانة وحسن الخلق ، ويساعده عريف أو أكثر يعينه في تعهد الطلاب ومتابعة تقدمهم الدراسي . كما يشرف على احتياجات صغار الدارسين وعلى نظافة المكان فرّاش مشهود له بالأمانة أيضًا .

وأما عدد المنضمين إلى الكتّاب فيحدده شرط الواقف إن كان الكتّاب موقوفًا . أو مقدرة الشيخ وشهرته والكثافة السكانية للمنطقة التي يقيم فيها إن كان أهليّا[٢] . فقد حدد عدد التلاميذ في الكتّاب الذي ألحق بالمدرسة التي أوقفها السلطان قايتباي في مكة آخر العهد المملوكي بعشرة طلاب[٣] ، وضمت حلقة الشيخ أحمد بن سباع أحد الشيوخ الذين تولوا تعليم الصغار في المسجد الحرام في القرن العاشر الهجري عددًا كبيرًا من التلاميذ[٤] .

ويمتد الدوام اليومي في الكتّاب من طلوع الشمس إلى العصر على أن يتخلل هذه المدة فترة راحة . وتقتصر الإجازات الرسمية على أيام الجمع والعيدين وأيام قليلة بعدهما . وعرف تخصيص أوقات من النهار لدراسة

---

(١) عز الدين : الحركة العلمية ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٤ .

(٣) عمر بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ٦١٢ - ٦٤٨ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ص ١١٧ ، ولم يرد فيما اطلعت عليه من مصادر ترجمة للشيخ أحمد بن سباع .

جانب من العلوم[١] ، بما يشبه جدول الحصص الدراسي في المدارس في الوقت الحاضر .

وكانوا يلحقون التلاميذ بالكتّاب في سن مبكرة ، في حدود الرابعة من العمر ، بحسب إمكان التلميذ ، وتنتهي الدراسة في الكتاتيب بحفظ القرآن الكريم أو حتى سن البلوغ ؛ وقد يسمح للبعض بالاستمرار بعد ذلك بقليل لمن شارف ختم القرآن . ويقام للطالب الذي أنهى الحفظ احتفال يسمى الإصرافة يتوسع الناس في إظهار البهجة فيها عادة بحسب مقدرة أهل الطالب المادية[٢]. ومن مظاهر إكرام وتشجيع الحافظ المتخرج في مكة في القرن العاشر السماح له بإمامة الناس في صلاة التراويح في المساجد في رمضان . وقد تعددت أمثال هذه الاحتفالات في المقامات المختلفة في المسجد الحرام ، ومن ذلك الاحتفالات التي أقامها القاضي المالكي[٣] والإمام محمد الطبري[٤] ، حيث احتفل الأول بتخرج ابني أخته ، وحفظهما القرآن ، ثم ابنه إبراهيم ، والثاني بولده ، وذلك سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م وسنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م . والعالم ابن أبي السرور البكري الذي وزع على الناس الحلوى ، ودعا القضاة ووجهاء المجتمع لحضور مناسبة ختم ابنه القرآن في صلاة التراويح في مقام المالكية في المسجد الحرام سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م[٥]، وبعد الختم ألقى الطفل خطبة

---

(١) عز الدين : الحركة العلمية ، ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٤٤ .

(٣) القاضي المالكي : هو تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المالكي ، واحتفل بختم ابني أخته ثم ابنه إبراهيم . حضر الشريف والقضاة الأربعة وكبار الشخصيات وزُف المتخرج من منزله في سويقة بالشامية إلى الحرم الشريف . وأما آل الطبري فقد استمر أبناؤهم في إمامة الناس في التراويح باقي القرن العاشر . عبد القادر الطبري : أنباء البرية في أبناء الطبرية ، الأوراق ٢٨ ، ٣٠ ، ٨٦ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦١٥ ، ٦٢٣ - ٦٢٤ ، ٧٢٦ - ٧٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٣٥ .

استحسنها الحاضرون لصغر سنه ، فقالوا : الولد سر أبيه[١] .

وللعملية التعليمية في الكتاتيب قواعد وأصول تربوية ، أفرد لها العلماء المسلمون مؤلفات لإرشاد شيوخ الكتاتيب وبيان ما لهم وما عليهم من حيث تحديد طريقة التعامل مع الدارسين ، وأحقية المعلمين في أخذ أجر على التعليم، وفي بيان فضل معلمي القرآن خاصة حين مراعاتهم الرحمة مع المتعلمين والاهتمام بمصالحهم . ومما ألف في هذا الجانب التربوي في مكة في القرن العاشر الهجري كتابان ألفهما الشيخ ابن حجر الهيتمي وهما « تحرير المقال في آداب وأحكام وقواعد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال » أتم تأليفه سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م بناءً على سؤال من أحد الشيوخ الذين أرادوا العمل في هذا المجال ، والكتاب الثاني « آداب المعلم والمتعلم » وفيه توسع في الشرح أكثر من الكتاب الأول ، وكان تأليفه سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م . بالإضافة إلى ما كان متداولاً في مكة أساسًا وبنى عليه هذين المؤلفين[٢] . مما يدل على حرص العلماء على تربية النشء تربية صالحة ، وعلى غرس حب العلم فيهم ، وأن تبنى معارفهم وشخصياتهم على أسس سليمة . وقد وُضعت هذه القواعد النظرية للتعليم الأولي موضع التنفيذ بإشراف المحتسب في مكة ، الذي أوقع العقوبة ببعض مؤدبي الأيتام لقسوتهم في معاملة تلاميذهم[٣] ، وعلى العكس من ذلك كان للملتزمين من المعلمين مكانة اجتماعية كبيرة ، حيث حظوا بالإكرام والاحترام من كافة فئات الناس على المستوى الفردي والرسمي؛ويتضح ذلك من الحزن الذي خيم على رواد الحرم بعد موت أحد معلمي الصبيان، وخروجهم

---

(١) عن ترجمة ابن سرور البكري . انظر : العيدروسي : النور السافر ، ص ٣٦٩ ، والبكري : المنح الرحمانية ، ص ٣٩ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق١ ، ص ٥٣٥ وصفحات متفرقة .

(٢) شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٢٣٤ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٤ .

لتشييع جنازته يرافقهم قاضي القضاة في مكة[١] . وقد كانت حلقة هذا الشيخ من أشهر حلقات تعليم القرآن في المسجد الحرام، وهو الشيخ أحمد بن سباع، الذي ظل يمارس عمله في التعليم حتى بلغ الثمانين من عمره ، وقد اشتهر بحسن الخلق ، إلى ان توفي سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، وحلقة الشيخ إبراهيم الكردي ، الذي توفي في العام نفسه . مما يدل على أن حلقات تعليم الأطفال في الحرم كانت أكثر من واحدة . ومن هؤلاء المعلمين الشيخ يوسف المديني وكانت وفاته سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م[٢] . واستمر هذا الجانب التعليمي في العهد العثماني على المنوال نفسه فقد ظل الشيخ أحمد بن علي بن عبدالله الشفتي يدرس في الحرم حتى وفاته سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م . وكذلك الحال بالنسبة للكتاتيب الملحقة بالمدارس والأربطة ، فقد تولى التدريس في الكتّاب الملحق بمدرسة السلطان قايتباي الشيخ جمال الدين محمد بن موسى الظاهري من سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م إلى وفاته سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م . وهناك أيضًا الكتّاب الذي كان تابعًا لرباط الشريف بركات ودرس فيه الشيخ الفقيه أبو بكر بن عثمان الجبرتي وتوفي سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م[٣] .

وقد مارست بعض السيدات تعليم البنات في مكة في الفترة التاريخية لهذه الدراسة ومنهن سرية ( أم ولد ) محمد العمري وأم مريم الأهدل وحبيبة ابنة الخواجا جمال المصري وأخرى لم تسم ، ولكن ذكر أنها توفيت مع اثنتين من تلميذاتها في حريق شب في وقت اجتماعهن للدرس في أحد أيام

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ١١٧ ، ١٦٢ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٨ .

ولم ترد ترجمة لهؤلاء الشيوخ المذكورة أسماؤهم أعلاه ، سوى ما جاء في المتن عنهم ضمن مؤلفات عبد العزيز بن فهد ومحمد بن فهد .

سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م[١] .

وبذلك نلاحظ أن التعليم في الكتاتيب في مكة خلال القرن العاشر كان محل عناية نظرية وعملية ، تركت أثرها في تقوية اللبنات التأسيسية الأولى في العملية التعليمية في مكة في ذلك الحين،وقد كانت أعدادها في ازدياد في العهد العثماني ، حتى ورد أنها بلغت مائة وخمسين كتّابًا سنة ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م؛ وذكر وجود حوالي أربعين معهدًا لتحفيظ القرآن بالقراءات السبع[٢] .

**المساجد** : مكان التعليم الإسلامي الأول، ورث العلماء التعليم فيه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي لم يورث درهمًا ولا دينارًا وإنما علمًا وهديًا حملهم أمانة إبلاغه للناس . فكما جلس عليه السلام للتعليم في المسجد النبوي في المدينة المنورة جلس علماء المسلمين بعده في كل مساجد الدنيا، متبعين سنته ومبلغين هديه[٣] .

وللتعليم في المساجد مميزات لا تحصى ، أقلها إيصال العلم حتى لمن لم يقصد أخذه ، لأن بعض الناس يقصدون المساجد للعبادة فقط فيجدون أنفسهم على مقربة من الدارسين فتطرق أسماعهم المداولات العلمية ، وبذلك تبلغ قواعد السلوك والعبادة للطالب وغيره ، وقد ينجذب من لم يكن راغبًا في العلم إليه حين سماعه[٤] .

وجد في مكة في القرن العاشر كثير من المساجد تختلف قربًا وبعدًا من

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ٤٦ ، ١١٣ ، ٢١٣ .

(٢) جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٣٧٨ . لكن ورد في سلنامة ولاية الحجاز سنة ١٣٠٣هـ بأن عدد الكتاتيب كان ٣٣ كتابًا بها ١١٥٠ طفلاً وليس من السهل التحقق ما إذا كان رقم جلبي مبالغًا فيه أو أن تراجعًا كبيرًا حدث في عدد الكتاتيب في مكة . سلنامة الحجاز ، ص ١٨٧ .

(٣) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، وعز الدين : الحركة العلمية ، ص٦٥-٦٦.

(٤) عز الدين : الحركة العلمية ، ص ٦٦ .

المسجد الحرام، ومنها ما كان ذا أهمية تاريخية كمسجد الراية[١] . لكن لم يلق الجهد العلمي فيها عناية إلا ما ذكر من أن المسجد المقام بقرب الموضع الذي عُرف بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رُمم في القرن الحادي عشر ، عينت الدولة العثمانية مدرسًا صرفت له راتبًا معلومًا ليلقي فيه دروسًا في يومين من الأسبوع لم يذكر موضوعها ، ومسجد آخر بالمُدّعا كان يجتمع فيه قراء ليلة الجمعة والاثنين[٢] . وربما يعود السبب في الانصراف عن متابعة الجهود العلمية في المساجد الأخرى في مكة إلى أهمية دور المسجد الحرام العلمي وعالميته، مما لا حاجة للمزيد عليه أو لتغطيته وجذبه لانتباه المؤلفين .

فالحرم الشريف مجمع علمي حوى مراحل التعليم كلها ،ابتداءً بالكتاتيب، وختامًا بالمنتديات العلمية التي كان يتدارس فيها علماء المسلمين الذين قدموا من كل أنحاء العالم الإسلامي ، مختلف العلوم المعروفة في الثقافة الإسلامية ، حيث يتبادل الأئمة خبراتهم في دروسهم التي يلقونها ، ويعملون أساتذة ، سواء كانوا من المحليين أو المقيمين أو من الوافدين ، لمدة محدودة ، على قاعدة الأساتذة الزائرين في الأنظمة التعليمية الحديثة[٣] .

بدأ التعليم في المسجد الحرام منذ فتح مكة سنة ثمان من الهجرة ، بعد أن استخلف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه

---

(١) مسجد الراية: مسجد في الجودرية على يمين الذاهب إلى المعلاة ، يُقال أنه بني في الموضع الذي ركز فيه الرسول صلى الله عليه وسلم رايته يوم فتح مكة ، وكان له حتى نهاية القرن العاشر منارة من دورين تهدم رأسها يُقال لها منارة أبي شامة . علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧١ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٦٦ ، ولم يذكر الفاسي قصة الراية . الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٦٩ ، ٧١ .

(٣) كشميري : أحمد الحضراوي ، ص ٣٤ – ٣٥ .

وكلفه بمهمة التعليم في مكة[١] . ثم اشتهرت بعد ذلك حلقة عبدالله بن عباس رضي الله عنه[٢] ، وقصدها الدارسون من الأمصار الاسلامية للاستفادة من مدرسته خاصة في التفسير[٣] . ثم تعددت الحلقات الدراسية في الحرم ، وحمل مشعل العلم فيها سحابات مترادفة من العلماء سارت عبر القرون ، لذلك كانت مكة أحد أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري . وما زال التعليم في المسجد الحرام محتفظًا بروحانيته ويسره وسهولة وصوله لكل طالب حتى يومنا هذا .

وما القرن العاشر الهجري إلا حقبة في التاريخ العلمي الحافل للمسجد الحرام ، إذ ظل طالب العلم فيه متميزًا بأنه غير مقيد بسن ولا بنسبة حضور ولا بمتطلبات مسبقة ، كما أنه كان مجانيًا ، فأغلب العلماء يقومون بالتدريس قربة إلى الله ، لخلاف كان موجودًا بين العلماء حول أخذ أجر على تعليم علوم الشريعة خاصة القرآن، لذلك كان المعلمون يتكسبون من مصادر أخرى إلى مطلع القرن الرابع عشر الهجري[٤] ، أو كانت تصل إلى بعضهم إعانات من جهات مختلفة ، أو تكلف جهات معينة كالدول أو المحسنين عددًا من هؤلاء العلماء بإعطاء دروس لمدة محددة مقابل أجر زهيد . ولا يتوقف هذا النشاط العلمي إلا لفترة قصيرة خلال موسم الحج حيث يقتصر على بعض حلقات تلقى فيها محاضرات عن الحج ومناسكه[٥] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٢) حرص الناس على الأخذ عن هذا الصحابي ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له، حيث ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم علمه الكتاب » . الزبيدي : مختصر صحيح البخاري ، ق ١ ، ص ٦٣ .

(٣) الخربوطلي : الحضارة العربية ، ص ٢٤٢ .

(٤) عبدالله غازي : نثر الغرر في التذييل على نظم الدرر ، ورقة ٥٥ ، والمجذوب : رسالة المسجد ، ص ٦٩٢ ، ولال : الإسلام والتعليم المستمر ، ص ١٣ ، والطوالع السنية ، ص ٣ - ٢٥ .

(٥) عبد الجبار : سير وتراجم ، ص ١١ - ٢١ .

ومن العلماء المعدودين الذين جاوروا في مكة خلال القرن العاشر الهجري، وأقاموا فيها إلى وفاتهم : محمد بن عراق وابن حجر الهيتمي والنهروالي[١] ، ومنهم من قدم إليها لفترة محدودة ولقي اهتماماً من الوسط العلمي ثم عاد إلى بلده ، كابن أبي السرور البكري . وبرز من المكيين عبد العزيز بن فهد ثم ابنه جار الله محمد بن فهد وقضاة مكة من آل ظهيرة وآل الطبري وآل أبي الضياء والقاضي حسين المالكي[٢] ، على سبيل المثال لا الحصر .

وهكذا فإن المسجد الحرام ظل المجمع العلمي الأول في مكة ، والنهر الذي لا تشكّل بقية أماكن تلقي العلم إلى جانبه من المدارس والأربطة إلا روافدَ صغيرة لا تلبث أن تصب فيه وتلتقي عنده ، ناهيك عن دوره العالمي في بث الثقافة الإسلامية وإيصالها لكل العالم الإسلامي من خلال من يرد إليه ويصدر عنه من المسلمين .

**المدارس :** هي مبانٍ هُيئت بكيفية مخصوصة لتكون محلاّ للتعليم . وزودت بما ييسر أسبابه للمقبلين عليه ، لإيجاد مناخ دراسي ملائم ومشجع كفكرة المنح الدراسية حاليّا . وقد هدف من إقامتها إلى تكميل مهمة المساجد التعليمية في الإسلام .

وقد ظهرت المدارس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي في الدولة الغزنوية في شرق العالم الإسلامي ، ثم توسع السلاجقة في إقامتها

---

(١) عن هؤلاء العلماء انظر : لمياء الشافعي : ابن حجر ، ص ٢٩ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص١١ . ٥٩ ، والعيدروسي : النور السافر ، ص ٢٥٨ ، ٣٤٢ .

(٢) عن مصادر تراجم هؤلاء العلماء انظر : الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص ١٧٠ ، ٢٦٧ . ويضم تراجم من عاش من أفراد هؤلاء العلماء في القرن العاشر الهجري وكان له نشاط تأليفي ، وأغلبهم كذلك .

وعمموها وجعلوا الدراسة فيها مجانية حتى إنها نسبت إليهم ، وبعد ذلك أخذ الأيوبيون بنظامها ، ومنهم انتقلت فكرتها إلى باقي العالم الإسلامي[١] .

والمدارس عبارة عن مؤسسات خيرية ينشئ مبانيها دول أو كبار شخصيات من مسئولين أو تجار . وتوفر نفقات التعليم فيها وكافة مستلزماتها من أوقاف تحبس عليها وتستثمر لصالحها خدمة لطلبة العلم .

وتقدم المدارس مميزات لكل من الطلاب والمدرسين والإداريين ، منها : التكفّل بإقامتهم وتخصيص رواتب مالية وعينية لهم . ويحدد الواقف مقادير هذه الرواتب وعدد الطلاب ونوع العلم الذي يدرّس ، كأن تخصص لتدريس مذهب فقهي معين أو للحديث أو للمذاهب الأربعة[٢] ، كمدرسة السلطان سليمان القانوني[٣] وقد يلحق بالمدارس كتاتيب لتعليم الأطفال ، كما في مدرسة السلطان قايتباي في مكة[٤] .

وقد ظهرت أول مدرسة في مكة في الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بأمر من السلطان صلاح الدين الأيوبي . ثم تنافس المسلمون من حكومات وأفراد في إقامة المدارس بجوار الحرم بعد ذلك، وكانوا يوقفون عليها أوقافًا في المناطق المجاورة لها أو خارج الحجاز كالشام ومصر[٥] .

---

(١) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٣٨٨ ، ومعروف : أصالة الحضارة العربية ، ص ٢٠ – ٣٠ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ ، ص ٤٨٦ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٤ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٤ ، ص ٦١٢ – ٦٤٨ .

(٥) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٣٨٨ .

ومع نهاية العهد المملوكي كان عدد المدارس التي اشتهرت اثنتين وعشرين مدرسة بنيت حول المسجد الحرام ، لكن كان منها ما يحل محل الأخرى فيتغير الاسم فقط [١] . وهذا العدد يعتبر قليلاً مقارنة بعدد المدارس في الشام ومصر مثلاً[٢] ، وقد يكون ذلك عائداً لقلة الكثافة السكانية في مكة ، أو لعزوف الناس عن الدراسة خارج الحرم الشريف .

وشمل إسهام العثمانيين في هذا الجانب إقامة أربع مدارس أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني، فأقيمت في موضع المدرسة الغياثية الهندية[٣] في شمال المسجد الحرام[٤] . وقد شُرع في البناء في سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م واستكملت في سنة٩٧٤هـ/١٥٦٦م في عهد السلطان سليم الثاني بن سليمان. وقد اشترط تدريس المذاهب الأربعة فيها ، ثم درس الحديث بدلاً من المذهب الحنبلي لعدم وجود مدرس أهل لتدريس هذا المذهب ، ودرست كلها المذهب الحنفي في نهاية القرن العاشر[٥] . وقد تضمن مبنى مدارس السلطان سليمان قبتين أكبر من قباب أروقة الحرم في الحجم وتتوسطها مئذنة تحمل الطابع العمراني العثماني الذي ميزها عن المئذنة التي كانت موجودة في مدرسة السلطان قايتباي في الجانب الشرقي من الحرم بطرازها المملوكي المختلف[٦] .

وأقام السلطان مراد الثالث مدرسة في الصفا عرفت بالمدرسة المرادية[٧].

---

(١) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٣٩٠ .

(٢) النعيمي : الدارس ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ ، ٥٣٧ ، وعز الدين : الحركة العلمية ، ص ٤٦ ، ٥١ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، والوثيقة رقم ٣٥٤ دفتر المهمة رقم ٧ ص ١٣٥ .

(٤) المدرسة الغياثية : أسسها الملك المنصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه صاحب بنجالة من بلاد الهند سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م عند باب أم هانئ ، تقرر أن يُدرّس فيها المذاهب الأربعة لستين طالبًا يتولى التدريس لهم قضاة مكة ، كان لها أوقاف في ضواحي مكة في الركاني من وادي مر ودار مقابلة لها ، ويقسم ريعها بين الطلاب والمدرسين ومتطلبات الصيانة . ظلت المدرسة إلى سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م . ثم جدد بناءها الشريف محمد بن بركات فنسبت إليه . عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٦ .

(٥) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٦) عن مميزات وأشكال المآذن في العصرين المملوكي والعثماني ، انظر : النمري : أشكال وأساليب المآذن، ص ١٤٣ ، ١٤٨ .

(٧) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣٢ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٩٨ .

وعمر داود باشا مدرسة أخرى هي المدرسة الداودية ، ومدرسة الوزير محمد باشا في سويقة[١] .

ومن المدارس التي أسست في مكة في القرن العاشر المدرسة المظفرية التي بناها السلطان مظفر شاه سلطان كجرات – الإمارة الهندية – ، وقد أوقف عليها عدة أوقاف في مكة ، وخط مصحفًا بيده ثم طلب وضعه فيها باحتفال كبير ، وخصص عدداً من الشيوخ لقراءة القرآن في مصحفه . وهذا جانب من نشاط الهنود الخيري في مكة أتموا به ما كان معروفًا عنهم طوال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٢] .

بينما ظل قسم كبير من المدارس التي أقيمت منذ العهد المملوكي يعمل في نشر العلم ، كمدرسة قايتباي والمدرسة الشرابية ، وتوقف قسم آخر عن العمل وصار يطلق عليها اسم المدارس تجاوزًا[٣] . وكان مما يعيق الدراسة في كثير من هذه المدارس عدم ثبات مواردها المالية . ومع ذلك فقد أسهمت في دفع العجلة العلمية والرقي بها في مكة .

**الأربطـــة :** جمع رباط ، وهي مساكن خيرية أنشئت لسكن المنقطعين للعبادة والعلم وللفقراء والمساكين من الناس ، وتعتمد في مواردها على الأوقاف كالمدارس ، حيث تبنى وتؤثث ويلحق بها مكتبات ثم تؤمن مصاريف صيانتها وتشغيلها ونظافتها وقسم من تغذية سكانها أحيانًا مما يوقف عليها من

---

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٠ – ٨١ ، والنهروالي : الإعلام ، ص ٣٥٠ – ٣٥٣ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١١٣ – ١١٥ ، ١٣٣ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٣) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨١ . وعن مزيد من التفاصيل انظر: وثيقة حجة وقف داود باشا رقم ٣٥٩ المحفظة رقم ٥٤ ، دار الوثائق القومية ، الأوراق ١ – ٤٧ ، والحربي : نظام الحكم ، ص٢٩٦–٢٩٩ ، وعبد المجيد : التنظيمات الإدارية ، ص٤١٤–٤١٨ ، ٣٩٣–٣٩٤ ، ومعروف : مدارس مكة ، ص ٩ – ٢٧ .

المصالح ، وتقام فيها قاعة للمحاضرات ، ويلحق بها كتاتيب[١] .

والأصل في تسميتها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [٢] فهي في الأساس الأماكن التي يرابط فيها للجهاد في سبيل الله ، وكانت تبنى في الثغور بمحاذاة العدو ، ثم حولت من المرابطة الجهادية إلى المرابطة العبادية والعلمية اعتباراً من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولم تعد إقامتها في الثغور الحربية فقط ، وإنما في كافة المدن الإسلامية .

وقد جاءت وظيفة الأربطة التعليمية من إقامة كثير من العلماء وطلبة العلم فيها ، خاصة في مكة في مواسم الحج[٣] ، وخلال القرن العاشر الهجري كان لابن حجر الهيتمي خلاوي في الأربطة يقيم فيها تلاميذه خلال الموسم[٤] . وممن أقام في الأربطة في أثناء زيارته لمكة الشيخ عمر الشماع[٥] . فكان اجتماع أهل العلم في الأربطة في جو أسري واستفادتهم من المكتبات فيها

---

(١) الشافعي : الرباط في مكة ، ص ٥ – ١١ ، وعبد المجيد : التنظيمات الإدارية ، ص ٣٤٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية (٢٠٠) .

(٣) عبد المجيد : التنظيمات في مكة ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ، ص ٥١٤ ، ٧٧٦ .

(٥) عمر الشماع : عالم محدث حلبي شافعي المذهب ولد سنة ٨٨٢ هـ ، درس على علماء حلب ومنهم أبو بكر الحبشي ، وفي مصر كجلال الدين السيوطي ، ومكة ومنهم عبد العزيز بن فهد ، وكان رفيقاً لابنه جار الله محمد بن فهد . وقد زاد شيوخه على ثلاثمائة شيخ ، منهم من أجازه إجازة خاصة ومنهم من أجازه إجازة عامة . رحل إلى مكة ثلاث مرات وصحب في آخرها الشيخ محمد بن عراق . كان الشيخ عمر يعمل بتوظيف أموال له عن طريق المضاربة . له مؤلفات كثيرة ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يقبل الهدايا ولا يتولى الوظائف والمناصب . توفي في حلب سنة ٩٣٦ هـ . ووصف بأنه محافظ على السنة واقتفاء أثر السلف الصالح ، وكان أعلم العلماء بعلم الحديث وطرقه . الغزي : الكواكب السائرة ، ج٢، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ، و الشماع : عيون الأخبار ، ورقة ٢٢ . .

مدعاة لنشاطهم في التأليف وفي إلقاء المحاضرات .

وقد عرفت مكة نوعًا من السكن الخيري الذي كان يخصص لاستقبال فئات من الحجاج ، وهي الرباع التي أقامتها بطون من قريش وظلت محل استفادة إلى أن طغى غيرها من المباني عليها[١] . أما الأربطة فقد بُدئ بإنشائها في مكة سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤ م برباط السدرة ، وقد أدى هذا المبنى دوره الخيري حتى سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م التي أمر فيها السلطان المملوكي قايتباي ببناء رباط ومدرسة باسمه ، فبنى الرباط الجديد مكان رباط السدرة . وأصبح يُعرف برباط قايتباي ، وقد تمت عمارته سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م .

بلغ عدد الأربطة في مكة مع نهاية العهد المملوكي ثمانون رباطًا ، لكن لم تكن كلها محل استعمال في وقت واحد ، وإنما يحل أحدها محل الآخر كما لُوحظ أو يتوقف بعضها عن العمل شأنها شأن المدارس[٢] .

وفي العهد العثماني ظهر عدد من الأربطة ، واستمر عدد مما أُقيم في العهد المملوكي في أداء دوره حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ، فكان عدد الأربطة في هذا التاريخ ثلاثة وأربعين رباطًا[٣] ، ثم ارتفع إلى مائة وخمسين رباطًا سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م[٤] .

ولم تكن الأربطة خاصة بالرجال فقط ، وإنما جعل عدد منها للنساء ، ومنها في القرن العاشر رباط الشريفة شمسية وعدد غيره ، عرف كل منها برباط النساء[٥] . وكانت تقام فيه تجمعات علمية تتعلم فيها المقيمات على

---

(١) الأزرقي : تاريخ مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) رباط السدرة : يقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام بين باب السلام وباب النبي صلى الله عليه وسلم ، في الرحبة التي بين الحرم والمسعى ، يرجح أن بانيته سيدة هي خالة الخليفة المقتدر بالله العباسي . حسين الشافعي : الرباط في مكة ، ص ٢٢ - ٢٨، وعبد المجيد : التنظيمات ، ص٣٤٥ .

(٣) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧٥ ، ٧٨ .

(٤) سلنامة ولاية الحجاز ، ص ١٨٧ .

(٥) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧٥ ، ٧٨ .

إحدى العالمات[١] .

يتضح مما سبق أنه كان للأربطة إسهام في الحركة العلمية بقدر لا يمكن إنكاره ولا التقليل من شأنه .

**الـزوايـــا :** جمع زاوية ، والزاوية من البيت ركنه ، وهي منشآت أقيمت ملحقة بالمساجد في البداية وخصصت للإقامة المؤقتة للقادمين إلى مكة للعبادة والعلم ، وخاصة للمتصوفين . ويتولى إدارة الزوايا والنشاط التعبدي والعلمي فيها شيخ مدى حياته ، ثم يحـل محلـه أحـد تلاميذه ، وهي كالمدارس والربط تعتمد في مواردها على الأوقاف ، وتقدم لروادها مساعدات مالية وعينية لكنها مقطوعـة[٢] .

وقد ظهرت الزوايا في مكة في أواخر القرن السادس الهجري[٣] ، ولكن لم يشتـهر ذكرها في الحياة العامة حتى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري حيث لم يذكرها الفاسي ضمن المعالم المعروفة في مكة[٤] ، وألمح إلى بعضها آل فهد في مؤلفاتهم[٥] .

أما في العهد العثماني ، ونتيجة تشجيع العثمانيين على التصوف ، فقد زادت أعداد الزوايا ، حتى عد منها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ثماني عشرة زاوية[٦] . وقد تصدى العلماء في مكة في القرن العاشر للظاهر من الممارسات غير المشروعة لأتباع الطرق ، فمنعوا من ممارسة الذكر

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٥٧ .

(٢) عز الدين : الحركة العلمية ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٣) العجيمي : خبايا الزوايا ، ورقة ٢ .

(٤) ذكر الفاسي ضمن الأماكن التي تُزار في مكة معبد الجنيد فقط . الفاسي : العقد الثمين ، ص ٩٩.

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١ .

(٦) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧٨ – ٧٩ ، والعجيمي : خبايا الزوايا ، الأوراق ٣ – ١٠ .

الجماعي في المسجد الحرام حتى لا يشوشوا على المصلين والطائفين[١] . ومنع قاضي القضاة عالمًا مغربيًا من شرح كتاب التستري الصوفي[٢] ، وسمح له بالتدريس بعد التعهد بعدم التطرق لما لا يفهمه العامة . كما نبه الشيخ ابن حجر الهيتمي في كتابه « كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع » إلى عدم جواز الذكر المصحوب بالمعازف ، وكسر الآلات التي كانوا يعزفون عليها وقت أذكارهم. ورد على الكتاب الذي اعتمدوا عليه في الرخصة بما يصاحب الذكر من سماع وهو كتاب « فرح الأسماع برخص السماع » لأبي المواهب التونسي بما أيد وجهة نظره ، كما شارك في النقاش الفقيه اليمني عبد السلام بن وجيه الدين المعروف بابن الزياد بكتاب عن الموضوع ألفه سنة٩٧٥هـ/١٥٦٧[٣]م مما حد من السلبيات التي أراد غلاة الصوفية إدخالها إلى مكة ، ولم يتلق كل من محمد بن فهد وعمر الشماع اتخاذ الصوفية هيئة خاصة في زيهم ومظهرهم الخارجي بارتياح وعدّا ذلك من الرياء[٤] ، وقد ألف محمد بن فهد كتابًا سماه « بلوغ الأرب في حكم تيجان العرب » سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م .

والذي يهمنا هو الجانب الثقافي للزوايا ، لأنها كانت – وخاصة خلال مواسم الحج – محل إقامة مجانية للقادمين من العلماء وطلاب العلم ، فكانوا يلتقون فيها ويعقدون حلقات دراسية يدرّسون فيها الكتب نفسها التي كانت تدرس في المساجد والمدارس ، ويسمعها متلقون من طلبةالعلم وغيرهم[٥]. على الأساتذة أنفسهم. فقاعات المحاضرات في الزوايا كصالات المؤتمرات في الفنادق في الوقت الحاضر ، وبذلك كان لها إسهام في الحركة العلمية في مكة .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ق ٢ ، ص ٦٥١ .

(٢) التستري : هو سهل بن عبد اللّه أحد كبار مشايخ الصوفية ( ت بين ٢٧٣ ، ٢٩٣ ) ، وعن حيرة مادحي الصوفية عجزهم عن وصف حالهم . انظر : نيكلسون : التصوف ، ص ١٨ .١٥١ – ١٧١.

(٣) كان لابن الزياد ووالده من قبله حوارات مع ابن حجر حول عدة مسائل دينية وهما من أشهر علماء اليمن في ذلك الوقت . العيدروسي : النور السافر ، ص ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ولمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٢ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢١٢ ، والشماع : عيون الأخبار ، ورقة ٥٠ .

(٥) العجيمي : خبايا الزوايا ، ورقة ١٥ ، ٢٠ .

وكثيرًا ما تحولت المجالس الخاصة في بيوت المكيين أو الوافدين في مكة إلى مجالس علم ، فمثلاً قدم جار الله بن فهد على الشريف بركات أمير مكة المعروف بعلو سنده في علم الحديث وأخذ عنه مروياته في مجلسه واستجازه ، ثم ألف جار الله بعد ذلك كتابًا أسماه « غاية الأماني والمسرات لعلو سلطان الحجاز أبي زهير بركات » خرّج فيه الأحاديث التي أخذها عن الشريف ، وذلك سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م[١] . وكان الوزير الكجراتي آصف خان ، الذي قدم إلى مكة لاجئًا مع عائلة السلطان بهادر شاه ، يعقد مجالس علمية في بيته ، ليتلقى العلم على أيدي عدد من الشيوخ ، كما كان يدعو العلماء لقراءة القرآن أو كتب الأذكار لديه ، كابن حجر وابن فهد[٢] .

ومن الاجتماعات العلمية الخاصة اللقاءات التي كان يعقدها العلماء في ضواحي مكة، للتعرف على مناطق شهدت أحداثًا من السيرة، كخروج محمدبن فهد مع ابن عراق إلى جبل حراء ومرورهم بالتنعيم في سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م.

وفي سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م ، صحب ابن فهد أيضًا عددًا من العلماء ، منهم أئمة الشافعية ، إلى جعرانة وتذاكر معهم ما ورد بشأنها من أخبار في السيرة اشتملت على التعريف بفضلها . كما قصد القضاة منى في سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م ، وقضوا فيها عدة أيام للتذاكر والترويح عن النفس بدعوة من ملك التجار[٣] . ومنها لقاء عمر الشماع الحلبي بالشيخ محمد بن عراق في بيته في مكة سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م للأخذ عنه ضمن أعداد من التلاميذ الذين كانوا يقصدون الشيخ للاستعلام أو الاستجازة[٤] .

ومن المظاهر الثقافية في مكة المكتبات ، وعرف منها في القرن العاشر عددٌ كان ملحقًا بالمدارس والأربطة والزوايا ، وكان العلماء المشرفون على هذه

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٠٣ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، وعن ترجمة آصف خان . العيدروسي : النور السافر ، ص ٢١٨ – ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢١٠ – ٢١١ ، و ق ٢ ، ص ٥٠٤ .

(٤) الشماع : عيون الأخبار ، ورقة ٦٦ .

المنشآت يتعهدون الكتب ويصونونها ويعيدون تجليد ما يحتاج منها إلى ذلك[١] .
ولا يقبلون بيعها مهما كان الثمن ، بل ألف محمد بن فهد كتابًا في حماية ما وُقف من الكتب أسماه : « الإسعاف في حماية كتب الأوقاف » ، وصان النهروالي الكتب التي كانت موجودة في مدرسة السلطان قايتباي ورباطه، وجلّدها وحفظها من الضياع ، وقال : إن عددها كان أكبر من هذا ، لكن بددها سوء استخدام الرواد والمستفيدين[٢] ، وقد زادت المكتبات بعد تحويل القبة المجاورة لسقاية العباس المقابلة لبئر زمزم إلى مكان لحفظ الكتب وحُفظت مجموعة أخرى فوق البئر في جانب من الظلة المبنية[٣] .

ومن أقدم وأشهر الأماكن التي تتوافر فيها الكتب : دكاكين الكتبية حول باب السلام في الجهة الشرقية من المسجد الحرام ، ويحيط بهذه الحوانيت عادة عدد من طلاب العلم الذين كانوا يتكسبون من النساخة ، وقد ظل نشاطهم حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، فكان منهم في ذلك الوقت الشيخ أحمد بن محمد الحضراوي[٤] .

وكان في مكة بيمارستان واحد ، لكن لا يعرف هل مورس فيه نشاط تعليمي أو لا ، لكن كان فيه أطباء ، منهم طبيب عالج الشريف أبا نمي بعد إصابته بالحب الإفرنجي سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م[٥] ، وزار مكة وعمل فيها أطباء قدموا إليها من خارجها [٦] ، وكان للشيخ ابن حجر الهيتمي إلمام بعلم الطب ، غير أن دور الشيخ في هذا الجانب العلمي غير معروف[٧] .

وهكذا ، وجدت في مكة كل الأماكن التي تعارف المسلمون على تدارس العلم فيها ، لكن الملتقى الأهم كان في المسجد الحرام الذي جعل دور ما عداه ثانويًا ومحصورًا .

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٥٢ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٥٣ ، ٦٥٨ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٣٣ .

(٣) غازي : إفادة الأنام ، ج ١ ، ص ٥٦٤ .

(٤) كشميري : أحمد الحضراوي ، ص ٥٢ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٢٧ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٠ .

(٦) العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .

(٧) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

**ثانياً - أنواع العلوم الإسلامية ومدى الاهتمام بها في مكة في القرن العاشر الهجري:**

عنيت الثقافة الإسلامية بثلاثة أنواع من العلوم ، هي : العلوم الشرعية، وتشمل علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه ، والعلوم الأدبية والاجتماعية، ومنها النحو والشعر والخطابة والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم العلمية، وأشهر فروعها الطب والفلك والرياضيات والكيمياء[١] .

وعُرف من بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون أنواع أخرى تحتاج إلى جهد في حصر أسمائها فكيف بالاشتغال بها[٢] . لكن الفروع الثلاثة الأولى هي التي كانت مدار البحث والتدارس في كافة المراكز الثقافية في العالم الإسلامي في الحرمين الشريفين والقاهرة ودمشق والعواصم والمدن المهمة في الأقاليم الإسلامية الأخرى كالمغرب واليمن والهند .

وقد حافظت مكة في القرن العاشر الهجري على النوعين الأولين من العلوم ، وهما : العلوم الشرعية والأدبية ، وحظي جانب من العلوم العلمية بالدراسة والاطلاع . ففيما يتعلق بالعلوم الشرعية فإنها علوم نقلية ، وقد حافظ عليها المكيون خلال القرن العاشر كما فعل من قبلهم ، وسلموها إلى من بعدهم بأمانة ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم « نضّر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » وفي رواية « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه »[٣] .

---

(١) الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ ، وشلبي : تاريخ الحضارة ، ص٣٤٦-٣٦٨ .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، أوراق متفرقة ، الحضراوي : عقود الدرر لمن يروم النظر في العلوم المهمات المستظرفات ، ورقة ١٥ - ١٩ .

(٣) الحديث الأول رواه الترمذي وقال عنه : حسن صحيح ، والثاني قال عنه : حديث حسن . وروى الحديث الثاني أبو داود وابن ماجه وأحمد . الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ٩ .

فالكتب التي كانت متداولة في مكة ، وخاصة في علم الحديث ، هي كتب الأئمة السابقين نفسها ، أو شروح أو مختصرات لها تناقلوها شفاهة على شرط أهل الحديث حفاظًا على اتصال السند . ويلاحظ ذلك من الكتب والمؤلفات التي كان يدرسها محمد بن فهد في الحرم ، ومحمد النهروالي ثم ابن أخيه عبد الكريم في المدارس السليمانية ، ومما تلقاه الشيخ عمر الشماع خلال رحلاته إلى مكة[١] .

وقد وعى المكيون الكتب المعروفة وعمموها على قاصديهم من علماء العالم الإسلامي ، وأضافوا إليها ردودًا على قضايا استجدت في زمانهم ، فقهية أو مذهبية أو سياسية ، كما هو الحال في مؤلفات ابن حجر الهيتمي ومحمد بن فهد . وقد كان هذا دورًا أخلصوا في أدائه بلا جدال ، فلم يقفوا موقف المتفرج ويرددوا قول القائل « ما ترك الأول للآخر ليعمله » ، بل ساروا على نهج من قال « ما ترك الأول للآخر ليتم عمله »[٢] .

ولم يبعد النحو والبلاغة عن العلوم السابقة ، حيث اعتمد الناس في دراسة النحو على ما عُهد منذ ظهور هذين المؤلفين ، وهما : متن الأجرومية، وألفية ابن مالك ، وشروحهما[٣] .

وكان للشعر صوت مسموع واهتمام طيب ، يشهد لذلك أولاً : اهتمام أشراف مكة به ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء ، وأكرموا من قال الشعر من مكيين وغيرهم[٤] ، وثانيًا : الاستشهاد بالشعر وإنشاده في كافة المناسبات

---

(١) وأهمها كتب الحديث الستة الصحيحة ، وخاصة صحيح البخاري ، وكتب السيرة والشمائل النبوية ، وكتب المذاهب الفقهية للأئمة الأربعة . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢١٧ ، ٢٤١ ، ق٢ ، ص٦٦٨ ، ٦٦٩ ، والنهروالي : الإعلام ، ص ٣٥٢ .

(٢) الطناحي : الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم ، ص ٢٤ ، ٢٨ ، وعتر : منهج النقد في علم الحديث ، ص ١٩٦ .

(٣) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٢٥٩ ، وعبدالله : ألفية ابن مالك ، ص ٣ ، ٥ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٥٦ ، والعصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

الدينية والحربيـة والاجتماعـية والثقافـية[١] ، وثالثًا : وجود طبقة من الشعراء، منهم ابن العليف الذي ظل شاعر مكة الأول إلى وفاته سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م[٢]، ومحيي الدين العراقي ، وقطب الدين النهروالي الذي كتب الشعر وجمع أشعارًا في مؤلف أهداه لملك المغرب الأقصى[٣] ، وأحمد الفيومي وعبد العزيز الزمزمي وعبد الرحمن بن عبدالله باكثير وعبد القادر الطبري ، وجمهور عريض لا تكاد تمر مناسبـة إلا خلدوها شـعرًا عُرف بالجـودة ورقة الإحسـاس وعذوبـة اللفظ وصدق العاطفة[٤] ، منه قـصـيدة الشـريف بركـات التي قـالها وهو سـجين في مصر ، التي عدها الأدباء[٥] من جيد الشعر :

| | |
|---|---|
| ما يلمع البرق من تلقاء دارهـــم | إلا ولي مدمع بالسـفح هطـــال |
| واللّه لولا قيــود فــي قـــوائمنا | من الجميل وفي الأعناق أغـلال |
| لكـان لـي فــي بلاد اللّــه متســع | وفــي الملـــوك لبانات وآمـــال |
| لي حرمة البيت والجار القديم ومن | أتاكم وكهـــول الحـــي أطفـال |
| أتيتـكم وجلابيـــب الصبا قشـــب | فكيف أرحل عنكم وهي أسمال |

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ق ٢ ، ص ٥٦٨ ، ٧٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٩٨ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٥ . والكتاب هو : التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة .

(٤) المحبي : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، ج ٤ ، ص ٥ ، والردادي : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ، ق ١ ، ص ٧١ .

(٥) نسب الردادي هذه الأبيات في كتاب الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر للشريف أبي نمي ، وأنه قالها حين كان سجينًا في مصر . لكن أبا نمي لم يسجن في مصر والذي سُجن أبوه بركات . وقد قال هذه الأبيات يسترحم بها الغوري ، فهو يظهر حنينه لبلده ثم يعرض بأن القيود التي في قوائمه إنما هي قيود جميل المماليك معهم وأنه لم يلجأ إلى غيرهم من الدول لأنه زار السلطان المملوكي قايتباي وهو شاب وعاش تحت رعايته حتى كبرت سنة وكبر من لقيه في مصر فهو لا يريد أن ينسى الصلات الطيبة التي دامت مدة طويلة وأن هذا هو مانعه الوحيد من التخلي عن الولاء للمماليك ، وهذه الأبيات تؤكد ما سبق شرحه في المدخل . الردادي : الشعر الحجازي ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

قال المحبي يصف إنتاج أدباء الحجاز ، وقسم كبير منهم عاش في النصف الثاني من القرن العاشر ، وكثير منهم مكيون « هذا الباب ( عجائب نبغاء الحجاز ) أعظم ما حوته الجعبة ، وهو باب واسع الأطناب ، والإيجاز فيه أولى من الإطناب فإن قل مدحي في أوصاف أهله نثيرًا ونظيمًا ، فإن فكري يمر بنعتهم فيقف له إجلالاً وتعظيمًا » وقال :

كفى شرفًا قطرًا به أهل مكة    على جسد المجد المؤثل راس

وما الناس إلا هم وليس سواهم    إذا قال رب الناس يا أيها الناس[1]

وكما قال المحبي فإن النثر الأدبي كان محل اهتمام ، فمن الكتب المتداولة طوق الحمامة مثلاً[2] .

وقد وصل الإنتاج الأدبي في مكة ذروته بتشجيع الشريف الحسن ، وذلك لما عُرف حين شرح ظروف عهده ؛ لكن الملاحظ أن الشعر في مطلع القرن العاشر الهجري كان يخدم أغراضًا عامة تتعلق بالواقع العملي للناس ، ومنها أشعار ابن العليف والشريف بركات السابق ذكرها ، ثم اتجه مع نهاية هذا القرن لأغراض ترفيهية أبعد ما تكون عن الهموم السياسية والاهتمامات اليومية[3] ، ربما كنوع من الهروب لأنه لا جدوى من مجابهة القوة العظمى العثمانية في ذلك الوقت .

ومن العلوم التي شهدت تطورًا في مناهجها ، علم التاريخ ، وهو علم أساسي من علوم الثقافة الإسلامية ، عرفه العرب قبل الإسلام بقدر محدود في

---

(١) المحبي : نفحة الريحانة ، ج ٤ ، ص ٥ .

(٢) انظر التعريف بكتاب طوق الحمامة في : محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦١٨-٦٢٣ ، هامش١ .

(٣) ومن ذلك المعميات والألغاز ووصف الألعاب المسلية المبتكرة ، فقد مل الناس لعب الشطرنج فاخترع عبدالقادر الطبري لعبة أخرى على نمطها ووصف طريقة لعبها بقصيدة أوردها ، حيث أعادوا إنعاش هذه الأنشطة واهتموا بها . ولذلك عد شعرهم راقيًا من الناحية الفنية . عبدالقادر الطبري : عيون المسائل ، ص ٢٩ ، ١٠٨ - ١١٢ ، والردادي : الشعر الحجازي ، ج ٢ ، ص ٩٠٤ - ٩١٨ .

ما كانوا يحرصون عليه من حفظ أنسابهم وأيامهم الحربية وبعض أخبار ملوكهم ، كما في اليمن وجنوب العراق والشام ، وبعد الإسلام اهتم المسلمون بالتاريخ لعدة أسباب . في مقدمتها : حفظ أخبار الفتوح لمعرفة أيها فتح سلمًا وأيها فتح حربًا ، لأنه يتوقف على تلك المعرفة تقسيم الأقاليم وتقدير الخراج أو العشور عليها ، ثم اهتموا بجمع أخبار السيرة النبوية وحافظوا على أنساب العرب ، لأنهم يطبقون قول الرسول صلى الله عليه وسلم « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » ، ولأجل تقسيم الغنائم ، كما سمح الخلفاء بترديد كثير من أخبار الماضين لشرح قصص القرآن والتعلم من سير الملوك، وأدى اهتمامهم برواة الأحاديث إلى اتجاههم للتأليف في التراجم ، فكان هذا الفرع التاريخي أغنى الفروع التي عنى بها المؤرخون المسلمون ، فلا يكاد يخلو قرن من أكثر من شخص حفظوا أخبار أعيانه من جميع فئات المجتمع[١] .
ومما ساعد على تطور علم التاريخ الإسلامي تأثره بالجهود التي بذلت في تطوير علم الحديث فلم يقتصر المؤرخون على الاهتمام بجمع الخبر ونقد الرواة وإنما طبقوا المنهج النقدي للمحدثين على علم التاريخ ، كتحري الصدق والدقة والعدالة ، ولكن ليس بالتزام المحدثين نفسه ، فكان يُقال : هذا محدث وهذا إخباري ، وقد يجمع بين الصفتين مثل ابن اسحق ؛ لذلك نجد أن علماء المسلمين يستفتحون مؤلفاتهم في التاريخ بالتعريف بهذا العلم وبيان أهميته وهي العظة والعبرة[٢] .

ومن شواهد تحري العلماء الذين عنوا بكتابة التاريخ الصدق والدقة في معلوماتهم ، أنهم كانوا يتبادلون أخبار الأحداث ، كما هو الحال بين علماء الحجاز ومصر والشام . ومنهم الجزيري والنهروالي وابن فهد وابن طولون[٣].

---

(١) الخربوطلي : الحضارة العربية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٧ .

(٢) موافي : منهج النقد التاريخي ، ص ٢٦٠ - ٢٨٠ .

(٣) كان المؤرخون يتبادلون مع كل من عبد العزيز بن فهد ومحمد بن فهد وابن العليف المعلومات و الأخبار التي كانت تحدث في منطقة كل منهم . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٣، ١٥٩ ، ١٩١، محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٣٤ وغيرها، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٨ ، والجزيري: الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

وقد ألف المؤرخون المسلمون بمناهج مختلفة، كالمنهج الحولي والموضوعي، وارتقى التأليف في التاريخ من حيث الموضوعات فشملت أخبارهم إلى جانب النواحي السياسية النواحي الحضارية أيضًا، كالتاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وهو ما يفخر الأوروبيون الآن بنسبته إلى أنفسهم . وقد بلغ هذا النوع من التأليف التاريخي ذروته في القرن التاسع الهجري ، حيث ظهرت الموسوعات التاريخية في مصر والشام[١] ، ويمثلها في مكة آل فهد والفاسي على سبيل المثال . وقد غطى آل فهد[٢] تاريخ مكة حتى قرب نهاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، حيث استجاز جار الله محمد بن فهد والده في كتابة غاية المرام[٣] ، ليتولى هو تأليف نيل المنى بعد ذلك إلى سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م[٤] .

وقد تواصل عمل المؤرخين في مكة في القرن العاشر، فغطوا أحداثًا مهمة نقلت إلينا صورة جيدة عن مستجدات هذا العصر ومعالم مكة فيه، ومنهم جمال الدين بن ظهيرة وكتابه على مناهج تواريخ المدن الذي حظيت مكة بنصيب وافر منه[٥] ، ومنهم أيضًا المؤرخ قطب الدين النهروالي الذي عاد بمناهجه في كتابة التاريخ إلى التسلسل الموضوعي وليس بالطريقة الحولية، وذلك في كتابيه البرق اليماني في الفتح العثماني، والإعلام بأعلام البلد الحرام، والمطلع على التقسيم المنهجي لكتاب الإعلام يلاحظ أنه مُقسّم إلى أبواب وفصول، ونظمت معلوماته بصورة لا تختلف إلا اختلافات يسيرة عن

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب العربي ، ص ٥٤٦ .

(٢) عن آل فهد عمر بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١١ – ١٩ ، والرشيد : بنو فهد مؤرخو مكة ، ص

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٦ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٨٠٧ .

(٥) كشميري : الحضراوي ، ص ٨٣ – ٨٥ .

التقسيمات المنهجية الحديثة(١) . فخرج بذلك عن مناهج مؤرخي القرن التاسع التي اعتمدت على التاريخ الحولي والتراجم ، فلم يكتب النهروالي بالمنهج الحولي إلا كتابه التذكرة ، ولكن للإنصاف فإن سابقيه غطوا الجوانب والموضوعات الحضارية بشكل أوفى ، وكانوا أقرب إلى هموم الناس وحياتهم العامة ، ولم يكمل ما سكت عنه قلم محمد بن فهد إلا الجزيري في الدرر الفرائد(٢). واستكمل الكتابة التاريخية عبد الكريم النهروالي ابن أخ صاحب الإعلام ، إلى نهاية القرن العاشر ، فأضاف معلومات مهمة في كتابه إعلام العلماء الأعلام ؛ الذي اختصر فيه كتاب عمه المذكور ، وزاد فيه ما جدّ من أحداث بعد وفاة عمه ، خاصة فيما يتعلق بالمنشآت العمرانية العثمانية في مكة(٣). وهناك نشأة السلافة في منشآت الخلافة . ويبدو من خلال هذا الكتاب التحول إلى الاهتمام بالجوانب التنظيمية المتحضرة إداريًا في إمارة الأشراف، وأنها معروفة لديهم بمقابل محاولة العثمانيين حصر سلطة الأشراف في البوادي . وللأسف الشديد فإن كتابه الذي ترجم فيه للشريف الحسن بن أبي نمي فُقد ، وإلا لاستكملت حلقة التاريخ للقرن العاشر تمامًا(٤) . ولكن مختصرات من هذا الكتاب دوّنها ابنه علي في مؤلفاته والعصامي في سمط النجوم العوالي .

وجاءت مؤلفات ابن حجر الهيتمي في التاريخ مهمة في السيرة وتاريخ الخلفاء الراشدين والتراجم ، التي كان أقربها لعهده شيوخه الثلاثة الذين ترجم لهم في معجمه . أما أحداث عصره فقد كانت كتاباته عنها أشبه بالمصادر

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣ .

(٢) انتهى كتاب نيل المنى لمحمد بن فهد سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م ، واستمر الجزيري بعده في الكتابة إلى سنة ٩٧٦هـ / ١٥م . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٨٠٣ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، الأجزاء الثلاثة .

(٣) القطبي : إعلام العلماء ، صفحات متفرقة .

(٤) عبد القادر الطبري : نشأة السلافة ، أوراق متفرقة . وكل المؤلفات السابقة من المصادر الأساسية لهذا البحث .

الوثائقية ، أي أنه لم يقصد بها كتابة التاريخ ، وإنما أراد بها الرد على ما جاء في عصره من أمور خطيرة ، فأظهرها بصدق ورد عليها بحماسة وإفحام، كالنشاط الشيعي والصوفي وإصلاح الكعبة المشرفة والتصدي لرغبة العثمانيين في إبعاد الأشراف أمراء مكة عن زمام السلطة في المدن المقدسة ، فكانت كتابات ابن حجر خير شاهد على عصره في مكة ، ومصدراً لتاريخهاالحضاري الذي افتقدناه بتوقف محمد بن فهد عن الكتابة ، غطت مؤلفات ابن حجر إلى سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م وهي سنة وفاته[١] .

وقد اقتضى أسلوب العصر استعمال المحسنات البديعية لكنها لم تبلغ حدّاً ممجوجًا من التكلف ، بل جاءت سهلة اللغة سلسة التعبير ، وإن لم تخل من التعبيرات المكية لدى ابن فهد[٢] . هذا بالنسبة للمؤلفات في التاريخ ، أما باقي النثر الأدبي فقد غلبت عليه الصناعة وتكلف البديع ، لأنه كان يُعد من صفات الكمال في العهد العثماني[٣].

وبذلك فإن علم التاريخ في مكة في القرن العاشر ظل على نشاطه الذي عهد له في الثقافة الإسلامية ، وعادت المنهجية فيه لدى النهروالي للأخذ بمنهج لم يكن جديداً لكن اتضح أنه الأمثل ، وقد تطور لما هو عليه في الكتابة التاريخية الحديثة . وظل للاهتمام بالتراجم نفس الاهتمام المعهود لدى المؤرخين المسلمين وعمت تراجم المكيين حتى علماء الدولة العثمانية لكن طغى التوجه الصوفي على كثير من التراجم فعمت فيها أخبار الخوارق وبعدت عن واقع الحياة العامة إلى حد ما[٤] .

وأما العلوم العلمية فقد اختص من بينها بالعناية علم الفلك ، وكان يُعرف

---

(١) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ١٤٧ .

(٢) من التعبيرات المكية لدى محمد بن فهد قوله « بترة » ويقصد بها العمود المقام عليه البناء وهو تعبير دارج لدى المكيين . وقوله « طفنا وسعينا وفكينا الإحرام » ويقصد التحلل من الإحرام . وقوله «سكت أنينه » أي أنه لم يعد قادراً حتى على التأوه . وقول عبد العزيز بن فهد « سكت ما له حس » أي أنه لم يعد يسمع له صوت . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٢٦ ، ٦٣٧ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٠ .

(٣) في هذا الكتاب نماذج للإنشاء الذي ساد في هذا العصر ، انظر مثلاً : صياغة وإنشاء الرسائل الرسمية . عبد القادر الطبري : عيون المسائل ، ص ٣٣ ، ٥٢ .

(٤) ومنها كتابات الشلي والعجيمي وقد نقلوا عن بعض من بالغوا في وصف المعجزات وسرد التنبؤات ومنهم مثلاً : البكري : نصرة أهل الإيمان ، ص ١٥٦ ، ١٧٠ ، وقد علق محقق الكتاب الدكتور يوسف الثقفي على ذلك كما في ص ١٧٤ .

بعلم الهيئة[١] لما له من أهمية في تحديد أوقات الصلاة واتجاهات القبلة والسفر وتحديد مواقيت الحج قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [٢] وقد مهروا فيه مهارة جعلتهم سادة الملاحة وقادة البشرية فيها في مطلع القرن العاشر الهجري[٣]، والمكيون كانوا ملتقى ثقافة العصر[٤]، حيث عمل به العالم الشلي الذي درس الاسطرلاب[٥] واستخدمه لمعرفة ظل الزوال ، وله رسالة فيه ، وكان له اهتمام بالحساب[٦] . ومن مهام الفلكيين في مكة تحديد أوقات الصلاة وقد أقاموا مزولتين في الحرم إحداهما على بئر زمزم والأخرى أمام باب السلام[٧] . وكان العلم الثاني الذي حظي بالتفات المسلمين دائمًا هو علم الطب وتدارسه سنة أيضًا ، وكانت العطارة ومهنة صناعة الدواء من الأعشاب مهنة رائجة وهي ذات صلة وثيقة بالطب[٨] ، وذكر عدد من الأطباء في مكة منهم علاء الدين الشيرازي[٩] ، وزار مكة الطبيب المصري المشهور داود الأنطاكي[١٠] وقد عالج أبا نمي من مرض الحب الإفرنجي[١٠] .

---

(١) علم الهيئة : هو علم تعيين أشكال الأفلاك وحصر أوضاعها وحركات الكواكب السماوية . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٨٩ ، ٩٠٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٨٩) .

(٣) ماهر : البحرية الإسلامية ، ص ١٢٧ ، ٢٤١ ، ورمضان : العالم الإسلامي ، ص ٣٧، ٣٨

(٤) من أشهر الملاحين العرب في القرن العاشر الملاح أحمد بن ماجد وله مؤلفات فاقت في أهميتها ما كتبه من سبقه أو عاصره . انظر : بابكور : حزام الأمن ، ص ٧٤ ، ٧٩ . .

(٥) الاسطرلاب : آلة فلكية لها عدة أنواع تستخدم في معرفة أحوال النجوم والاتجاهات ومنها اتجاه القبلة وعرض البلاد ، عُرفت منذ عهد اليونان وطورها المسلمون وقالوا أن سبب إزدهار علم الهيئة لديهم هو حاجتهم للسفر لأداء فريضة الحج وما ذكرناه من تحديد اتجاه القبلة . ماهر : البحرية الإسلامية، ص ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، وقداح : أفريقيا ، ص ١٦١ .

(٦) المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ .

(٧) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٩٩ .

(٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٩١٧ ، ٩١٩ .

(٩) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٠ .

(١٠) داود الأنطاكي : هو عالم مصري درس العلوم الإسلامية وبرع فيها كلها لكنه بذل عناية وأحرز تقدمًا في الطب ، كان يُقارن نفسه بابن سينا وابن دانيال ، له مؤلفات كثيرة ، منها مثلاً : تذكرة الإخوان في طب الأبدان وعدد من اختصارات وشروح مؤلفات ابن سينا ، لقي مضايقة في مصر فلجأ إلى مكة فأكرمه الشريف حسن بن أبي نمي . كان الطبيب داود شاعرًا وأديبًا ، وقد أتمّ كل إنجازاته على الرغم من أنه كان أعمى لا يُبصر ، توفي سنة ١٠٠٩ هـ/١٦٠٠م . ابن معصوم : سلافة العصر، ص ٤٢٨ ، ٤٣٠ . والحب الافرنجي هو مرض الزهري . انظر : محمد بن فهد : نيل المنى ، ق١ ، ص ١٦٣ ، هامش (١) .

وكان بمكة بيمارستان لم يُعرف مدى دوره العملي[١] . وللشيخ ابن حجر اطلاع على علم الطب وإن لم يشتهر بصفته طبيبًا أو معلمًا للطب[٢] . ودرس النهروالي الطب في المدرسة السليمانية[٣] .

وذكر أن شخصًا تعاطى علم السيمياء وعلم الزايرجة[٤] وانتفع به فئة من الناس ، لكنها لم تكن دراسات سائدة ، ولم تلق حماسة ولا ترحيبًا[٥] .

والمعروف أن أغراض العلوم الإسلامية وأهدافها تنحصر في التوصّل إلى فكرة مبتكرة ، أو إكمال عمل لم يتمه مؤلفه الأصلي ، أو شرح مستغلق ، أو اختصار مطول دون إخلال بالمعنى ، أو جمع متفرق ، أو ترتيب مختلط ، أو تصحيح خطأ[٦] ، وقد استوفى العمل العلمي في القرن العاشر كل هذه الأغراض ، فأضاف إلى كتب الفقه ما سهل تطبيق القواعد الشرعية على مستجدات العصر ، ولكن كانت أعظم إضافاته في الأدب والتاريخ . كما ظهرت مؤلفات في بقية الأغراض ، قام بتأليفها علماء مكة ، ومنهم ابن حجر الهيتمي وابن فهد والطبري والنهروالي .

**ثالثًا - واجبات المعلم والمتعلم وامتيازاتهما :**

إن طلب العلم في الإسلام فريضة ، لأنه الطريق الوحيد للتفقه في الدين ؛ لذلك فإن أول واجبات المعلم والمتعلم أن يرتقيا عن الأغراض الدنيوية في تدارسهما للعلم[٧] . ويفترض في المعلم إكرام طلابه والرفق بهم ، والحرص

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٢٧ .

(٢) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٥٢ .

(٤) السيمياء والزايرجة : أنشطة علمية يغلب عليها الاعتماد على القوة النفسية لا الصناعة العملية ، وتدخل فيها الطلسمات وما إليها . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٩٢٤ ، ٩٣٦ ، ٩٤٢ ، ٩٧٦ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٦٣ ، والشلي : السنا الباهر ، ورقة ١٥٠ .

(٦) الحضراوي : عقود الدرر ، الورقة ١ ، ٢ .

(٧) الكافيجي : التيسير ، ص ٢٧١ .

على مصالحهم والصبر على قلة انتظامهم ، وعليه التدرج في تأديبهم وألاّ يقسو فيه حتى لا ينفرهم ، وأن يراعي الفروق الفردية بينهم ، فيثني على المحسن ولا يحسد النابغ منهم ، ويسأل عمن غاب عنهم ، وينظر في أسئلتهم الأول فالأول ، هذا بخصوص علاقته بطلابه . أما فيما يتعلق بشخصه فكان على المعلم المسلم أن يحضر درسه على طهارة وبمظهر لائق ، ويبدأ الدرس بالصلاة ، ويفتتح بحمدالله ، ويصلي ويسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يجلس في وقار دون أن يكثر من حركة اليدين أو التفات العينين ، مما يقلل من هيبته ويشتت انتباه طلابه ، وعليه أن يختار مكانًا يقصده فيه الطلاب ، فإن العلم يؤتى ولا يأتي ، على أن يكون المكان متسعًا كافيًا لجلوس مجموعته بارتياح . وعلى المعلم ألاّ يمتنع عن تعليم طالب شكًا في نيته ، وأن يعرف أن التعليم فرض كفاية فإن لم يوجد غيره أصبح تدريس هذا العلم واجبًا عليه ، لأن امتناع جميع القادرين عن التعليم يؤثمهم جميعًا[١] .

وأما الامتيازات التي للشيخ فهي معنوية ومادية ، فالمعنوية : أن مكانة العلماء عالية ، فهم ورثة الأنبياء، وقال المفسرون إنهم هم المقصودون من قوله تعالى: ﴿ أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [٢] وبقوله : ﴿ يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٣]، وأما الميزات المادية للعلماء فهم الفرع الثالث من أهل الحل والعقد ، ففي إمارة الأشراف كان الطرف الأول أسرةالأشراف الحاكمة ثم باقي الأشراف، ويشكل ممثلو الدول الخارجية الحاكمةالطرف الثاني، وأماالطرف الثالث فهم العلماء[٤]. ولا يخفى دور ابن ظهيرة فيما مرّ سابقًا من أحداث مطلع القرن العاشر

---

(١) الكافيجي : التيسير ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٣) سورة المجادلة ، الآية ١١ .

(٤) العصامي : سمط النجوم ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

الهجري ، وقد كانوا يقومون بدور السفراء فوق العادة في المهام الدبلوماسية كرحلات النهروالي للعثمانيين[١] . وكان للعلماء أيضًا دور فعال في خدمة المجتمع ، ومن أمثلة العلماء العاملين الشيخ محمد بن عراق والشيخ ابن حجر الهيتمي ، فكان دور العلماء في الإصلاح الاجتماعي والإرشاد والتحدث عن تطلعات عامة الناس أمام السلطات كدور وسائل الإعلام في العصر الحاضر . وهم من يتولى القضاء والإشراف على الأوقاف وهي وظائف ذات صلة بالنواحي المالية ، مما أعطى لهذين المنصبين أهمية مضاعفة . كما كان العلماء يشغلون وظائف إقامة الشعائر الدينية كالخطابة والأذان ، ويتولى قسم منهم صيانة المسجد الحرام وإرشاد الحجاج[٢] .

وقد اعتبر العثمانيون العلماء جند دعاء ، بمقابل جندهم جند السلاح، فكانوا يكلفون عدداً من أهل العلم بعقد جلسات ذكر في الحرمين الشريفين حين خروج الحملات العسكرية في عهد السلطان سليمان القانوني بقراءة القرآن والدعاء للمجاهدين[٣] .

وكان التدريس في المسجد الحرام دون مقابل ما لم تكلف بها العلماء جهة من الجهات، لكن باقي الوظائف كالقضاء ونحوه والتدريس في المدارس فكان بمقابل مادي . كما كان يؤمّن لشيوخ المدارس السكن والمساعدات العينية والمقطوعة[٤] .

وأما واجبات طلاب العلم فيأتي في أولها ضرورة أخذه العلم عن شيوخ كملت أهليتهم وظهرت ديانتهم ، فالعلم دين ولا بد للإنسان أن يحتاط لدينه فيتحقق من معرفة شهرة وصيانة من يقصده . وعلى الطالب أن يحترم شيخه،

---

(١) النهروالي : التذكرة ، الأوراق ٥ ، ٤٥ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٧ ، ٩٦ ، والسباعي : تاريخ مكة ، ص ٣٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٥٧ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ .

(٤) سيرد بيان الجوانب المالية في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

ويجلس في حضرته بأدب ولا يلح عليه في السؤال . وأن يحرص على حضور الدرس ، وألاّ يدخل على شيخه إلا بعد أن يؤذن له ، ويجلس حيث ينتهي المجلس إلا أن يفسح له ، وعليه الجلوس حاضر الذهن خاليًا من المشاغل ، وأن يبكر في طلب العلم لبركة البكور ، إلا أن يكون لدى شيخه شاغل .

وقد أعطيت لطالب العلم امتيازات معنوية ، منها ما نراه فيما حض عليه الشيوخ من الاهتمام بطلابهم واجتذابهم للعلم وعدم تنفيرهم ، ومنها اهتمام المجتمع والأهل بإنجازات طلاب العلم ، كما لوحظ من الاحتفالات التي تقام لحافظ القرآن الطفل فكيف بغيره ، وأما الامتيازات المادية ، فهي قبولهم للعمل في الوظائف الكتابية الحكومية والتجارية ، ومنها توفير أماكن الدراسة والإقامة لهم ، وإمدادهم برواتب ومعونات عينية لمساعدتهم على التفرغ للعلم، كما لوحظ في أنظمة المدارس والأربطة والزوايا .

ولم تكن واجبات المعلمين والمتعلمين ثقيلة ولا شاقة التنفيذ ، بل يقتضيها الذوق السليم في كل تعامل ، وأما المميزات التي للشيوخ وهي بلا شك تنتظر من يكمل دراسته من الطلاب ، فهي امتيازات ترفع صاحبها لأعلى مكانة في المجتمع ، وتضعه في مصاف أصحاب السلطة . وقد يحدث إخلال بما ذُكر من المفروضات ، لكننا هنا نقرر القاعدة لا الخروج عليها ، وقد كان الالتزام بالقاعدة في القرن العاشر جيداً .

### رابعًا - تقويم الحصيلة العلمية لطالب العلم :

اتضح أن هدف تدارس العلم في الإسلام هو التفقه في الدين ، وأن على الطالب أن يتثبت مما يتلقاه ومن مقدرة من يتلقاه عنهم . كما أن على الطالب

---

(١) الكافيجي : التيسير ، ص ٢٧٩ - ٢٨٤ .

إثبات حصوله على درجة عالية من العلم تؤهله للانخراط في سلك العلماء فيما بعد . لذلك أوجد المسلمون طرقًا يعرف بها المستوى العلمي للشيوخ ، وما حققه الطالب من العلم في مرحلة من المراحل ، وهي أن يكتب كل طالب علمٍ الكتب أو الأحاديث التي قرأها على كل شيخ ، ويأخذ توقيع شيخه على صحة ما كتب، وأنه يسمح لهذا الطالب بتعليم ما أخذه عنه ، لأنه بلغ درجة عالية من الفهم في هذا العلم تؤهله لذلك . وقد وضح مما سبق أن الكتب الأساسية لكل علم من العلوم النقلية كان معروفًا ومتفقًا عليه[١] ، فمتى ما ذكر الكتاب والشيخ الذي قرئ عليه تحددت مكانة الطالب العلمية في مجال ما .

ولهذه الشهادات من العلماء لطلابهم صور شتى ، كان يؤخذ بها في البداية في علم « مصطلح الحديث » أو علم « الحديث رواية »[٢] ، ثم أصبح الطلاب يستأذنون شيوخهم حتى في كتب العلوم الأخرى[٣] .

ففي علم الحديث كان هناك ما يعرف بتحمل الحديث ، أي أخذه عن الشيوخ بكيفيات مخصوصة، ثم الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة الأداء، وهو إثبات قدرة الطالب على رواية الحديث ، فكان يقرأ على الشيوخ ، ثم يسمحون له بالرواية هو بدوره فيما عرف بالإجازة[٤] ، وكان طالب الحديث يكتب الأحاديث بصور شتى، عرفت بالجوامع والمسانيد والمعاجم والمستخرجات[٥] . وفيها يكتب الطالب ما تلقاه من الأحاديث على أعلى شيوخ عصره سندًا لتعرف منزلته هو بدوره، وأشهر ما عرف في القرن العاشر المعاجم، وقد تعرف بالفهارس[٦] .

---

(١) وتظهر تراجم العلماء المسلمين طريقة تقييم الطلاب بكل وضوح كما في ترجمة ابن حجر الهيثمي وهو من رجال القرن العاشر الهجري . انظر : لمياء شافعي : ابن حجر الهيثمي ، ص ١٠٠ ، ١١٠.

(٢) الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ٥ ، ١٥ .

(٣) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

(٤) الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٦٠ ، ١٦٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٦) لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٤١٨ .

وهناك أيضًا شكل آخر من التعريف بجهد الطالب العلمي وهو « الثبت » وفيه يكتب الطالب ما قرأه أو سمعه على شيخ في مجلس ويكتب فيه أسماء من حضر ذلك المجلس فتكون كالإثبات للطالب بالسماع لوجود شهود معه[١] .

وهكذا ، حرص المسلمون على حفظ العلم وصيانته من الضياع أو التحريف ، أو أن يدخله ما ليس منه ، كما حفظوا للعلماء مكانتهم وحقوقهم بإيجاد طرق تبرز مبلغ علمهم وحرصهم على التوسع في طلبه ، وهي كتابة مرويات وشيوخ كل منهم في خطاب أو كتاب يكون حجة لهم . كما أعانت هذه الطريقة طالب العلم على حسن اختيار من يأخذ علومه عليه من الشيوخ ، بأن عرفته على أفضل الشيوخ في علم من العلوم فيقصده ، ويكتب الطلاب بعد ذلك شيوخهم فتكون حجة وشهادة لهم بما وصلوا إليه من مرتبة علمية ، تتحدد بناءً على من لقيه هذا الطالب من الشيوخ ، ومكانتهم العلمية ، وما قرأه عليهم .

---

(١) الكتاني : فهرس الفهارس والأثبات ، ج ١ ، ص ٦٨ .

# المبحث الثاني

# الحركة العلمية

دل الاستعراض السابق لنظم التعليم على أن للثقافة الإسلامية ثلاث مراحل : المرحلة الأولية : تنتهي بحفظ القرآن ، وهي مرحلة مهمّة ، لأنها تقابل الاحتياجات الأساسية للفرد في المجتمع المسلم فقد اصطُلح على أن تعلم القراءة والكتابة والسباحة والرماية هي الحد الأدنى للثقافة الإسلامية[١] ، وهو مستوى من التأهيل يهيئ الفرد لتولي الوظائف الكتابية الحكومية أو التجارية، أو للاندراج للتمرين في أي تعليم مهني كان يحكمه نظام الطوائف وينظم قواعده وأساسياته[٢] .

أما من رغب في مواصلة التخصص العلمي والتفرغ له ، فإنه ينتقل إلى المرحلة الثانية : يتلقى فيها العلم على شيوخ مدينته ثم قطره ، وقد شارك في هذه المرحلة حتى السيدات على نطاق ضيق وبعضهن في القرن العاشر ، ومتى ما فرغ الطالب من القراءة على الشيوخ المحليين وأجازوه في أوليات العلوم خاصة الشرعية والنحوية، فإنه ينتقل إلى المرحلة الثالثة: وتتميز بخروج الطالب المسلم عن نطاق المحلية ، وإسهامه في إيجاد تيار ثقافي يعم العالم الإسلامي، ليأخذ عن أشهر شيوخ عصره ، خاصة في علم الحديث . ولكن الحركة العلمية والثقافية الإسلامية لم تكن محصورة في تحركات طلاب العلم وحدهم ، وإنما كان التبادل الثقافي بين المسلمين يتم من خلال تنقلاتهم وترحالهم بين أرجاء العالم الإسلامي ، التي كانوا يقومون بها لأغراض شتى ، مما كان يثري التيار العلمي ويؤكد الوحدة الثقافية الإسلامية ، وتعود كثرة الرحلات التي اعتاد أن يقوم بها المسلمون إلى عدة أسباب ، منها :

---

(١) الخربوطلي : الحضارة العربية ، ص ٢٢٨ .

(٢) الكردي : التاريخ القديم ، ج ٦ ، ص ٢١٥ .

**أولاً :** الرحلة في طلب الحديث[١] ، حيث كان المسلمون يحرصون على أخذ الحديث عن أعلى الشيوخ سنداً أي أقربهم في تسلسل الرواية من الرسول صلى الله عليه وسلم [٢] . فقد عدّ عليه الصلاة والسلام الحرص على السند سنة وإجراءً احترازيًا : « لئلا يقول من شاء ما شاء » [٣].

وتبدأ رحلة الطلاب داخل أقطارهم ، ثم تتسع دائرة تحركاتهم لتشمل المراكز الاسلامية ، كالحرمين والشام ومصر ، وكانت الرحلات داخل الحجاز مهمّة لأنها تُعرّف بأماكن ورد ذكرها في السيرة النبوية ؛ لذلك حرص على القيام بها الحجازيون وغيرهم .

**ثانياً :** أداء فريضة الحج ، وقد يجتمع فيها السبب السابق وهو لقاء العلماء ، لكن كان الكثيرون من مثقفي المسلمين يقدمون للحج أكثر من مرة حتى بعد أن يطول باعهم في العلم ويحققوا مركزًا ممتازًا لا يدانيه مركز غيرهم ، كابن أبي السرور البكري والكيزواني[٤] . فمكة مركز ثقافي يجذب إليه المشتغلون بالعلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي وذلك لكثرة من يرد إليها من العلماء وما يتوفر فيها من الكتب العلمية ولما يقدم من مساعدات لطلبة العلم التي توفر لهم حياة بسيطة وتعينهم على مواصلة الدرس لسدها قسم من متطلبات الحياة[٥] .

---

(١) الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٦٨ .

(٢) الإسناد : هو ذكر تسلسل رواة الحديث وله طرق مختلفة منها المسلسل . السخاوي : فتح المغيث ، ص ٥٣-٥٨ ، وصالح : علوم الحديث ، ص ٢٤٩ .

(٣) الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٨١، والقاسمي : قواعد التحديث ، ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، والفاداني : تشنيف الأسماع ، ص ٢٨٠ - ٢٨٤ .

(٤) الكيزواني : عالم شاعر متصوف اسمه علي بن أحمد الحموي ، توفي سنة ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م . الغزي : الكواكب السائرة ، ج ٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٤ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٢٢ ، والخفاجي : ريحانة الألباء ، ص ٣١٣٢ ، وطاشكندي زاده : الشقائق النعمانية ، ص ٣٢٥ .

(٥) سالم : المؤرخون ، ص ٢٩ ، ٣٢ .

**ثالثـًا :** الدعوة إلى الإسلام ونشره في أصقاع لم يبلغها[١] .

**رابعـًا :** الفرار من ضغوط سياسية أو اقتصادية أو تنافسية ، كقدوم ابن حجر إلى مكة . وقد كانت مكة دائمًا ملجأ للفارين من كافة الضغوط ، فعدا ابن حجر مرّ ذكر الأنطاكي وهناك غيرهم من السياسيين[٢] .

**خامسًا :** ممارسة التجارة [٣].

**سادسًا :** باستدعائهم من دول إسلامية للعمل معلمين أو قضاة ، فكثيراً ما كانت هذه الدول تطلب علماء من الحرمين أو الأزهر للعمل لديها في تلك الوظائف[٤] .

**سابعًا :** القيام بدور المبعوثين والسفراء فوق العادة بين الدول الإسلامية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها رحلات ابن العراق وابن العليف ورحلات النهروالي[٥] .

وقد كان لهذه الرحلات آثار مهمّة للغاية علميًا ودينيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وحضاريًا ؛ وبذلك فإن الطالب في المرحلة الثالثة من مراحل تحصيله للعلم إنما يستفيد ويفيد منافع أخرى ، فعلميًا لا يخرج الطالب لأخذ الحديث إلا وهو في مرحلة متقدمة من العلم ، فهو في الواقع يتدارس ويدرس في الوقت نفسه ، لأنه يأخذ عمن هو أعلى منه ويفيد من هو دونه ، أو قد يأخذ عن شيخ حديثًا يكون سنده عاليًا فيه ، ويأخذ شيخه عنه حديثًا آخر يكون قد وصل إليه

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ، ص ٣٩٠ ، ٤٢٤.

(٢) محمود : الإسلام والثقافة ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٦٢ ، ٧١، وملياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ، ص ٥٧ ، وعن السياسيين ، الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص١٧.

(٣) الحداد : المدخل إلى تاريخ الاسلام في الشرق الأقصى ، ص ٦٢ وما يليها .

(٤) الغنيمي : حركة المد الإسلامي ، ص ١٦١ ، ١٧٢ .

(٥) مرت أخبار رحلة ابن العليف وابن عراق فيما سبق . وأما رحلات النهروالي فانظر : النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٩ ، ٢٨ ، والتذكرة ، الأوراق ٢٣٧ ، ٢٥٨ .

عن طريق لم يبلغ هذا الشيخ[١] .

وهكذا ، فإن الراحل في طلب العلم ينقل علمه حيثما حلّ ، ومن أمثلة الرحلات العلمية لطلب الحديث في القرن العاشر رحلات جار اللّه محمد بن فهد ، فقد قصد مصر في سنة ٩١١هـ / ١٥٠٦م ، والشام في سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، ويلاحظ أنهما سنتان شهدتا اضطرابات سياسية في المنطقة ، وفي المرة الأولى التي أراد فيها الخروج إلى مصر كان الطاعون منتشراً فيها ، لكن لم تثنيه تلك الصعوبات عن مقصده أو تفت في عضده[٢] .

وكذلك الحال بالنسبة لرحلات الحج ، ولنأخذ على ذلك مثالاً من القرن العاشر ، الشيخ عمر الشماع الحلبي الذي تكرر قدومه إلى مكة على الرغم من تصريحه بأنه أخذ الحديث عن مسندي العصر منذ رحلته الأولى ، ولكنه ظل يفيد ويستفيد علميّاً في رحلاته المتكررة للحج . وكذلك قدم ابن أبي السرور البكري ، ومثله كثير من العلماء[٣] .

أما الدعوة إلى الإسلام ، فقد أدت رحلات الدعاة والتجار وبعض الفارين من الضغوط المختلفة إلى إنعاش الحركة العلمية ، وتقوية ترسيخ جذور الإسلام في مناطق كان قد بلغها قبل وصول الرحالة ، أو إيصاله ونشره في مناطق لم يبلغها[٤] . فقد نشرت هذه الفئات الإسلام في مناطق لم يكن قد وصلها في وسط وغرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، فالدعاة تغلغلوا في شرق ووسط

---

(١) الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٨١ ، ١٩٥ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٨٠ ، ٢٢٠ .

(٣) الغزي : الكواكب السائرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٤) أحمد : المسلمون في أفغانستان ، ص ٥١ ، والمسلمون في غينيا ، ص ١٢٢ .

وغرب أفريقيا[١] ، والتجار قصدوا الهند والصين والجزر الأندونيسية ، ولم يتوقف نشاط الدعاة عن العمل حتى عصرنا الحالي سواء بدافع شخصي أو موفدين رسميين[٢] .

ومن أمثلة ذلك في القرن العاشر : دفعت ضغوط البرتغاليين وسوء الأحوال السياسية في غرب الهند ووسطها أيضًا[٣] ، وخاصة على كجرات ، كثيرًا من أهلها إما إلى اللجوء إلى مكة ، فأحدثوا فيها حركة علمية قوية بتعهد المدارس التي أنشأتها حكومتهم في مكة من قبل ، وبطلب إلقاء الدروس وتلقي العلوم على الشيوخ في الحرم ، وعقد المجالس الخاصة ، وغير ذلك ، وإما التوغل شرقًا، فكثر ترددهم على إندونيسيا . فثبت الإسلام في المناطق التي كان قد بلغها، وانتعشت الحركة العلمية فيها ، كما نشروا الدين الحنيف في مناطق لم يكن قد بلغها من قبل ، كجزيرة آشي وبعض مناطق في جزر الفلبيين وماليزيا[٤] . وقد قويت صلات هؤلاء المسلمين بمكة بعد ذلك ، وكانوا يقدمون إليها حجاجًا وطلاب علم.

وتُظهر الآثار السياسية للرحلات أن كثيرًا من رحلات الدعاة - وأغلبهم كان يخرج من مكة - التي يلقى أصحابها استجابة ، تتحول إلى حركات سياسية تنشأ عنها دول إسلامية[٥] ، وهذه تجد في الكيان الإسلامي الكبير

---

(١) الغنيمي : حركة المد الإسلامي ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، محمود : الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ، ص٢٤ ، ٣٤ ، ٥٥ وما يليها ، والنقيرة : درر التجار ، ص ١٤١ .

(٢) العبودي : شهر في غرب أفريقيا ، ص ٢٧ .

(٣) مسعود الندوي : تاريخ الدعوة ، ص ١٩ ، ٦٤ .

(٤) الحداد : المدخل إلى تاريخ الاسلام ، ص ١٠٠ .

(٥) أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص ٢١٥ ، وعبد القادر : « البحر الأحمر طريقًا للدعوة إلى الإسلام » ، ص٧١ .

مقصداً لها ، ويهمها أن تكون عضواً في المجتمع الدولي الإسلامي ، فكانت كل مملكة تطلب من الخليفة تقليداً لسلاطينها بالحكم ، سواء في أفريقيا أو آسيا، أو تطلب الحماية أو المساعدة العسكرية[١] .

ويُقال أن رحلة موسى منسى إلى الحج في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م كانت سبباً في تنبه اوروبا إلى غنى افريقيا بالذهب ، وتطلعهم لاستعمارها ، لكثرة ما أنفقه من ذهب وهو في طريقه إلى مكة[٢] .

ولرحلات الحج وتنقلات التجار آثار اقتصادية مهمّة فلولا رحلات التجارة الإقليمية واستمرار الاتصالات بأفريقيا وآسيا لتدهورت الأحوال الاقتصادية في مكة خاصة ، ولانقطعت صلات الأقاليم الإسلامية في هاتين القارتين فيما بينهما ، لأن بُعد الشقة بين هذه المناطق وأوروبا ، واقتصار النشاط التجاري على البرتغاليين في القرن العاشر ، ما كان ليغطي ويستهلك كل إنتاج الشرق . وأما رحلات الحج فقد أنعشت الاقتصاد حيثما مرت . هذا على المستوى الجماعي، أما الترحال الفردي لطلب العلم فيكفي للدلالة على أهميته معرفة عائدات الدول من السياحة في هذه الأيام والسياحة العلمية والعلاجية على وجه الخصوص .

والآثار الاجتماعية والحضارية أكثر من أن تُحصى ؛ لأن الاحتكاك بين الشعوب هو الطور الاجتماعي الأول ، وليس أدل على أهميته من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [٣] . والتبادل الحضاري الفني والعمراني ظاهرة محسوسة ، لا تتأتى إلا بالالتقاء والمعايشة . فمثلاً : طوّر

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، ودياب : لمحات من التاريخ الأفريقي ، ص٦١ .

(٢) الغنيمي : حركة المد الإسلامي ، ص ٩٩ ، ١٠١ ، وعوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى ، ص٢٠٠ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

شخص قادم حرفة الصياغة في مكة بمادة جديدة[١] ، وعُرفت القباب في مكة بقدوم العثمانيين ، وكذلك أنواع الملابس والأطعمة [٢] .

وبعد : فقد كره النظام العلمي الإسلامي الجمود وحبذ الحركة ، فوضع من أساسياته ضرورة اللقاءات بين أهل العلم في دوائر شملت الحي وعمت المدينة فالاقليم ، ثم غطّت العالم الإسلامي كله ، بل كسبت له مناطق جديدة تربط بين الجميع فيها وحدة دينية ثقافية لغوية ، لأن لغة الإسلام هي اللغة العربية ، وأصبحت الأمة الإسلامية أمة واحدة ، لم تضرها الفرقة القومية ولا السياسية . وذلك ما تظهره كتب التراجم عن الحالة الثقافية في مكة خلال القرن العاشر الهجري ، حيث تظهر كتابات العيدروسي في النور السافر والغزي في الكواكب السائرة وطاشكبرى زاده في الشقائق النعمانية مدى التلاحم والوحدة في المنهجية والعملية التعليمية بين المسلمين وكان مركزها مكة بسبب الحج وقد أدى دخولها تحت حكم العثمانيين في عهد قوة دولتهم إلى تسهيل هذا التواصل وتعميقه في العالم الإسلامي السني خاصة[٣] ، لكن التشجيع العثماني للتصوف والإغداق على أهله خرج بالزهد عن حقيقته وحوله إلى تواكل في أحيان كثيرة ، كما أثر على الفكر فشغل الناس بالمعجزات والخوارق مما ترك آثاراً سلبية على بعض نواحي الحياة الفكرية .

---

(١) ددة : الرسالة المقامية ، ورقة ٦١ .

(٢) تأثر محمد بن فهد وعمر الشماع بزي العلماء العثمانيين لفترة من الوقت ، كما عُرف في مكة أنواع من الأطعمة كالأوز وحلوى اللوز وغيرها من الأصناف التي عرفها المطبخ المكي إضافة إلى ما كان غنى به من السابق . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢١٢ ، والشماع : عيون الأخبار ، ورقة ٦٦.

(٣) لم ترد أي ترجمة لعالم من المناطق الشيعية في القرن العاشر وما بعده في كتاب ناجي معروف : عروبة العلماء ، ص ٤٧٧ .

# الفصل الرابع
# المنشآت والعمران
# في مكة المكرمة

المبحث الأول - العمارة في الكعبة المشرفة والحرم الشريف .

المبحث الثاني - المنشآت المائية و منشآت المصالح المرسلة .

المبحث الثالث - المنشآت التعليمية والمباني الموقوفة عليها وعلى منشآت المصالح المرسلة.

قام العثمانيون منذ امتداد نفوذهم إلى مكة حتى نهاية القرن العاشر الهجري بحركة عمرانية نشطة ، منها ترميم الكعبة المشرفة ، وتجديد عمارة أروقة المسجد الحرام ، بالإضافة إلى عدد من مشاريع الخدمات العامة ، كإيجاد مصادر إضافية للمياه في مكة ، والعمل على تسهيل توزيعها ، وإقامة مؤسسات تعليمية تتكون من منشآت عمرانية يمارس فيها التعليم ، وأخرى استثمارية يُصرف ريعها على نفقات ومستلزمات العملية التعليمية وغيرها مما عُد من فضائلهم [١]، كما سيتضح من مباحث هذا الفصل .

---

(١) المقدسي : قلائد العقيان ، ورقة ٣٧ ، والحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص ١٢٦ – ١٣٢ .

# المبحث الأول

## العمارة في الكعبة المشرفة والحرم الشريف

عمرت الكعبة المشرفة مرات قليلة قبل الإسلام نسبة إلى تاريخها الطويل[(١)] . وبعد ظهور الدين الإسلامي حُفظ بناؤها دون تغيير، إلى أن اقتضت الحاجة إعادة عمارتها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، بعدما لحق بمبناها من تلفيات نتجت عن الصدامات التي حدثت بين الدولة الأموية وعبدالله بن الزبير في مكة[(٢)] . فكانت ملابسات هذه المحنة وما تلاها من تبعات دافعًا جديدًا لزيادة حرص المسلمين على عدم القيام بأي عمل عمراني لا تتطلبه ضرورة فنية ملحة ، صونًا لبيت الله العتيق من أن يكون مفخرة للسياسيين أو عرضة لتوجهاتهم المختلفة[(٣)] . فلم تجدد عمارة الكعبة إلا بعد أن انهار أغلب جدرانها في القرن الحادي عشر الهجري .

وقد حُفظ بناء الكعبة الشريفة خلال هذه المدة الطويلة بعمليات صيانة وترميم، كانت لا تتجاوز النطاق المطلوب للخلل الحادث[(٤)]. وقد أسهم العثمانيون في إصلاح وترميم الكعبة خلال القرن العاشر الهجري بعد أن دخلت مكة تحت حكمهم .

---

(١) أُختلف في عدد مرات بناء البيت قبل الإسلام ، وقال ابن كثير في تفسيره : إن مرات بناء الكعبة الموثوق من مصادر أخبارها ثلاث : هي بناء إبراهيم – عليه السلام – وبناء قريش ثم بناء ابن الزبير الآتي ذكره ، وهو بعد الإسلام . وأما ما جاء من أخبار بناء الكعبة غير هذه المرات الثلاث فهي اسرائيليات لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها . ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٦٩ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة، ص ١٤ ، ١٨ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٢٠٥ ، ٣٥٥ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة ، ص١٩ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، ص ٢٠٤ ، ٢١٨ ، وابن حجر الهيتمي : المناهل العذبة ، ورقة ٩ .

(٤) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٤٩ ، ١٥١ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة ، ص ٢٢٤ .

وعلى الرغم من أنه كـان يُراعى دائمًـا ألا يُشـرع في أي من الأعـمـال العمرانية المهمّة في الكعبة إلا بعد شرح المبررات والتوضيح بأنها لحاجة ضرورية ، كما حدث في الترميمات التي حدثت في مطلع القرن التاسع الهجري[١] فإن العمارة العثمانية فيها كانت تجابه بتحفظات واعتراضات أشد من سابقاتها ، ويعود السبب في ذلك إلى أن طول عمر البناء استوجب التوسع في العمل ، مما ظن خارجًا عن الحاجة . إضافة إلى أن العثمانيين استهلوا حكمهم لمكة بعمل إنشائي في الحرم الشريف ، خدم هدفًا يهم دولتهم بالدرجة الأولى، وليس عامة المسلمين ، وهو تعمير وتوسعة مقام الحنفي[٢] مذهب الدولة العثمانية الرسمي مما فسر بالدعاية لها[٣] . مما جعل كل عمل عمراني عثماني في الحرم خلال القرن العاشر يُقابل بحذر وتساؤل . كما أن تشجيع العثمانيين للتصوف زاد من نشاط غلاة الصوفية في مكة ، وقد كانت لهؤلاء نظرة غير واقعية تجاه الأعمال الإنشائية في الكعبة، ملخصها أن البنية الشريفة محفوظة بما لا حاجة معه إلى التعرض لبنائها بتعمير أو صيانة[٤] . ووجد تيار ضئيل استفاد من الخلاف ، وقد اتخذ توجهًا مناقضًا للسابق تمامًا ، صدر من فئة ممن لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، كانوا يرجون منفعة مادية تستميلهم وتسترضيهم ، أو لمجرد اتباع مبدأ : خالف تُعرف[٥] . لذلك كانت كل عملية ترميم في الكعبة تسبق باجتماعات تتضمن مناقشات ومحاضرات، يوضح فيها

---

(١) ابن حجر الهيتمي : المناهل العذبة ، ورقة ٣ .

(٢) مقام الحنفي : كانت الصلوات في المسجد الحرام تقام لكل مذهب من المذاهب الأربعة على حدة ، ولكل مذهب إمام يقف تحت ظلة تخصه ، فكان مقام الشافعي مقابلاً لباب الكعبة ، والمقام الحنفي في شمال الكعبة ، والمقامان الآخران في الجهتين الأخريين . باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص٢٢٤ - ٢٣٩ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١ - ٤٥ .

(٤) ابن حجر الهيتمي : المناهل العذبة ، ورقة ٢ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٩٤ .

المعتدلون من العلماء[١] الحكم الشرعي لخاصة الناس فضلاً عن عامتهم[٢].

ويبدو أن العثمانيين من جانبهم كانوا مقتنعين بعدم الإقدام على أي إصلاح في الكعبة دون النظر في الوجه الشرعي لذلك ، وبطلب مسبق من المسئولين في مكة ، وتقدير من الفنيين المختصين . كما أنهم سمحوا بالحوار والمباحثات العلنية الموسعة قبل الشروع في التنفيذ[٣] .

وكان أول أعمال الترميم والإصلاح للكعبة في العهد العثماني سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م[٤] بعد أن هطلت أمطار غزيرة[٥] أظهرت تلفًا في السقف، كان ناتجًا عن كسر في إحدى العوارض الخشبية ، مما تطلب من المسئولين عن شئون الحرم إبلاغ سنجق جدة الذي رفع بدوره إلى أمير أمراء مصر، فبعث مهندسين اكتفوا في هذه المرحلة بحشو السقف وتدعيم العارضة بطوق من حديد ثبتوه بالجبس ، ومع ذلك أظهر السادن تخوفه في البداية من أن تكون الإصلاحات قد تجاوزت حدود اللزوم[٦] .

وبعد عامين جُدِّد الميزاب وأُصلح الجدار الموالي له ، منعًا لتسرب مياه الأمطار إلى جوف الكعبة[٧] . لكن قاضي مكة العثماني مُنع في سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م من إصلاح رخام الأرضية وقسم من الجدران ومن تسمير الأسطوانة الموالية للميزاب لِمَا ظَهر من عدم وجود ما يوجب ذلك[٨] . وقد

---

(١) وصف المقدسي رافضي الإصلاح للكعبة بأنهم غوغاء عامة دأبهم دأب أهل الجهالة الذين يعصبون على الضلالة . المقدسي : قلائد العقيان ، ورقة ٣٨ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٩٠ ، ٩٢ .

(٣) ابن حجر الهيتمي : المناهل العذبة ، ورقة ٢ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٩٣ ، ٩٦ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٦) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٩٢ ، ١٧٨ .

(٧) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٨) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٢٢ .

استُبدل بالميزاب آخر مصفح بالذهب ، وحفظ القديم في إستنبول ثم جُدّد الباب بآخر سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م وصُفّح بالفضة المطلية بالذهب ، فلم تحدث له أي تلفيات في الحريق الذي نشب فيه في العام التالي خلال عملية تبخيره ، بل أزيلت آثار الحريق بإعادة التصفيح ثم أعيد الباب إلى مكانه[١] .

لكن خسفًا شديدًا عاد إلى الظهور مجددًا في سقف الكعبة سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م لتفاقم الخراب السابق ، بانكسار عارضة خشبية ثانية وميلان أخرى عن موضعها إلى الأسفل ، مما زاد في دخول مياه الأمطار عبر هذه التشققات إلى جوف الكعبة، وخُشي أن يؤدي التلف إلى انهيار السطح، وأن يؤثر على الجدران أيضًا . وبدا أن الإصلاح سيحتاج إلى أعمال عمرانية موسعة ، وخشية من تزايد تيار المعارضة ضد الأعمال الإنشائية في الكعبة في مكة فقد طُلب إذن خاص من السلطان تحاشيًا لحساسية الموقف . وبعد عرض الموضوع على علماء إستنبول أصدر المفتي أبو السعود أفندي فتوى بمشروعية القيام بما يتطلبه بناء الكعبة من أعمال الصيانة والترميم في حدود الضرورة . فقدم فريق عمل بمعداته للبدء في العمل . ولكن حدث ما كان متوقعًا من معارضة ، حيث شاعت الأحاديث بين العامة أن لا ضرورة لما يُزمع الإقدام عليه من التوسع في أعمال البناء في الكعبة ، وأن من وافقهم من العلماء إنما خاف الفتنة فانقاد لممثلي السلطة . وعلى الرغم من أن المسئول عن التنفيذ قدم بإذن السلطان ، وكان يحمل فتوى شرعية كما سلف ، إلا أنه آثر أن يطرح القضية على بساط البحث في مكة أيضًا . فعقد اجتماعين حضرهما كبار العلماء من مكيين وغيرهم ، أعقبهما تلخيص لما تم فيهما ، وعرض لنتائجهما، تضمنته محاضرة ألقاها الشيخ أبو السرور البكري في المسجد الحرام ، ثم تصدى الشيخ ابن حجر الهيتمي لتوضيح الموقف بالتفصيل في مؤلف سماه :

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٩١ ، والسنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

« المناهل العذبة في إصلاح ما وهى وتشعث من الكعبة » ، وقد تضمن إثبات مشروعية اتخاذ اللازم لبناء الكعبة في حدود الضرورة . فتم فعلاً الاكتفاء بتجديد السّقف وترميم جانب من الجدار ، ثم أعيد تصفيح باب الكعبة بالفضة المموهة بالذهب ، وكان التصفيح السابق قد زال بفعل عوامل الطبيعة والأيدي العابثة[١] .

وفي عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م تمّ تركيب قفل جديد لباب الكعبة ، وقد أعاد السلطان مراد تصفيح الباب مرة أخرى سنة ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م ضمن عمارة الحرم الشريف[٢] .

وبعد انتهاء تجديد السقف في سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ركبت قناديل للكعبة ، ذكر السنجاري أنها أول قناديل أرسلت إليها في العهد العثماني[٣] ، ويبدو أن السنجاري يقصد أنها أول قناديل تُرسل من قبل سلاطين آل عثمان ، حيث ثبت أن القبطان خير الدين بربروسا أرسل لها قنديلاً سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م[٤] . وقد بعث السلطان مراد الثالث قناديل أخرى في سنتي ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م و ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م[٥] .

وفي سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م تم ترميم حِجْر إسماعيل بعد تفكك بعض أحجاره[٦] وجُدد رصف المطاف في نفس العام ضمن ترميمات الكعبة أيضًا ،

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٩٣ – ٩٩ ، وابن حجر الهيتمي : المناهل العذبة ، ورقة ٩ ، والشرنبلالي : إسعاد آل عثمان ، ورقة ٢ – ٤ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١، ص ٩٩ ، ووثيقة رقم ١٠١ ، ودفتر مهمة رقم ٢٨ ، ص ٩٦-٩٧ .

(٣) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٥٢ .

(٥) القطبي : إعلام العلماء الأعلام ، ص ٥٩ .

(٦) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

ثم أُعيدت محاولة رصفه في سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م لتغيير لون الملاط الموضوع بين الحجارة ليصبح مماثلاً لها في اللون ، مما عرّض هذا العمل لموجة من الانتقادات ، لأنه لم يكن هناك موجب يستدعي القيام بهذا الإجراء(١) . فتأخرت عملية الرصف إلى سنة ٩٩٤هـ / ١٥٨٥(٢) .

وفي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م صدر الأمر برصف المطاف بالرخام بدلاً من الحجارة (٣) ، ونقلت الأحجار لعمل دائرة أخرى حوله ، شملت المناطق المحيطة بالمقام الحنفي ومصلى الشريف . كما مُدّت أربعة ممرات من الدائر إلى كل من باب السلام وباب الصفا وباب العمرة وباب الحزورة ، وقد أُنجز المشروع سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م(٤) .

وقد ظلت بحوث العلماء ومناقشاتهم التي دارت في القرن العاشر بخصوص الاصلاح في الكعبة قياساً لما تطلبه مبناها من ترميمات بعد ذلك ، كأعمال سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م(٥) .

وفي سنة ١٠٣٩هـ / ١٦٢٩م تسببت السيول في سقوط بعض جُدران الكعبة ، وعند محاولة إصلاح ما تهدم ثارت تساؤلات كان مدارها حول شرعية استكمال هدم ما ظل قائمًا من الجدران ، خاصة الركن الحامل للحجر الأسود والباب . كما أراد شريف مكة أن يعمر الكعبة من كنزها وبدون تدخل من الدولة العثمانية ، فعقد اجتماعًا دُعي له كبار العلماء ، وتوصلوا فيه إلى

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ج ٢، ص ٩٢٥ ، والنهروالي : الأعلام ، ص ٩٣ .

(٢) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ص ١١٦ .

(٣) وثيقة رقم ١٩١ من دفتر المهمة رقم ٦٩ ، ص ٣٤٨ من مركز أبحاث الحج بمكة . ووثيقة رقم ١٩٤ من دفتر المهمة رقم ٧١ ، ص ٤٦ ، مركز أبحاث الحج بمكة .

(٤) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٧٠ .

(٥) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٥١ .

ضرورة تولي الدولة تجديد عمارة الكعبة وعلى نفقتها . وظل الخلاف قائمًا حول نقل الحجر الأسود ، ولكن الضرورة الفنية تطلبت إعادة البناء كاملاً ، لأن الركن كان حاملاً لثقل الباب وفي تحميله على البناء المتداعي خطورة .

وقد اكتمل تجديد عمارة الكعبة سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م في عهد السلطان مراد الرابع[١] . ومنذ ذلك التاريخ اهتم وُلاة الأمر من المسلمين بترميم وإصلاح الكعبة الشريفة حتى وقتنا الحاضر في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز[٢] .

أما المسجد الحرام فقد بُني وطُورت عمارته ، وأخذ في توسعته منذ عهد الخلفاء الراشدين[٣] . ثم توالت بعد ذلك أعمال التوسعة والتحسين في التصميم والمواد المستخدمة في البناء في عهد كل من عبدالله بن الزبير والأمويين ثم العباسيين[٤] . فكانت عمارة المهدي العباسي التي تمت سنة ١٦٩هـ /٧٨٥م جميلة الطراز محكمة الصنعة ، استخدمت فيها أرقى خامات البناء كالرخام والخشب الهندي . كما كانت هذه العمارة أطول العمارات عمرًا فقد دام قسم كبير منها إلى النصف الثاني من القرن العاشر الهجري . وقد زيدت مساحة الحرم بعدها ، لكن دون أن يحدث تغيير فيها ، لأن التوسعة تمت بإضافة زيادتي دار الندوة وباب إبراهيم اللتين قام بهما كل من الخليفتين العباسيين : المعتضد ثم المقتدر في عامي ٢٨١هـ/٨٩٤م و ٣٠٦هـ/ ٩١٨م[٥] .

---

(١) ابن علان : إنباء المؤيد الجليل ، الأوراق ٣ ، ٦ .

(٢) حسين باسلامة : تاريخ الكعبة المعظمة ، دراسة وتحقيق وتعليق يوسف الثقفي ، وقد أضاف المحقق ملحقين بالكتاب ، الأول عن : تغيير سقف الكعبة وترميمها في سنة ١٣٧٧هـ والثاني عن : عناية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بالكعبة في سنة ١٤١٧هـ ، الصفحات من ٤٦٧ .

(٣) الأزرقي : تاريخ مكة ، ج ٢ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١١، ١٦.

(٤) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٧ ، وعباس : قصة التوسعة ، ص ١٩١ ، ١٩٣.

(٥) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٨ ، ٦٩ .

وقد ساعدت أعمال الصيانة والإصلاح التي قام بها حكام مكة بعد العباسيين ، في الحفاظ على العمارة العباسية وابقائها أطول فترة ممكنة . ومن أهم الترميمات التي أجريت للحرم الشريف ما قام به السلطان برقوق المملوكي في مطلع القرن التاسع الهجري بعد أن التهم حريق بناء الرواق الجنوبي كاملاً، مما أدى إلى عمارته من جديد ، وتم الفراغ من ذلك في سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م . وفي آخر عهد المماليك بنى قايتباي منارة [١]، وعمّر الغوري باب إبراهيم ، وقام بكثير من أعمال الصيانة في الحرم [٢] .

وقد أبدى العثمانيون اهتمامًا بالأعمال الانشائية في المسجد الحرام بمجرد امتداد نفوذهم إلى مكة ، وكمظهر تأكيدي لبسط حكمهم عليها استعيض به عن الحضور العسكري والإداري ، إذ أرسل السلطان سليم بعد ضم الحجاز إليه ومع أول قافلة حج تخرج من مصر في العهد العثماني سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م لجنة ترأسها خازنداره الأمير مصلح الدين ، وكلفه بالإشراف على أعمال خيرية ، أهمها توزيع مساعدات مالية وعينية خصصها للمحتاجين ، كما طلب تنفيذ بعض منشآت في الحرم ، منها تجديد مقام الحنفي كما أشير إلى ذلك سابقًا ، وإضافة حنفية لسقيا ماء زمزم أقيمت إلى جانب عدد من الحنفيات كانت موجودة من قبل . وقد عارض العلماء في مكة تحويل المقام إلى مبنى وتوسعته ، لأنه يشغل قسمًا من المسجد الحرام ويضيق المطاف ، لكن نُفِّذ المشروع بناءً على فتوى بعض علماء الحنفية[٣] مما كان له أثره على مواقف العلماء تجاه الأنشطة العمرانية العثمانية في البداية . وربما كان هذا هوالدافع الذي حدا بالعثمانيين إلى عدم الإقدام على أي عمل إنشائي بعد ذلك دون حاجة ، حتى في المسجد الحرام وليس في الكعبة المشرفة فقط .

---

(١) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٦٩ - ٧٥ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩٩ ، ٢٠١ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١ - ٤٢ ، ٧٤ ، ٨١ .

وكان من أشهر سلاطين الدولة العثمانية الذين بادروا بالتعمير والإصلاح في الحرم الشريف : السلطان سليمان القانوني ، حيث حظيت مكة بصفة عامة والحرم بصفة خاصة باهتماماته ، وكان من أبرز الإصلاحات في عهده : قيامه في عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م بإعادة بناء منارتي باب علي وباب العمرة بعد أن آلتا إلى التردي والانهيار ، وبناء باب السلام ، وتجديد سقف الرواق الموالي له إلى مدرسة السلطان قايتباي أي الرواق الشرقي من باب السلام إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يعرف بباب القفص . وقد تم العمل بإشراف هندسي شارك فيه مصريون ومكيون . وفي العام نفسه تم تنظيف الحرم من آثار ومخلفات السيول ، وأعيد فرشه بالبطحاء ، وهي مهام كانت تترك للمحسنين من التجار وغيرهم عادة ، خاصة في أوقات الاضطرابات ، كما حدث في مطلع القرن العاشر الهجري(١) .

وتواصل العمل فاستكمل في سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م تجديد أساطين المطاف بأساطين نحاسية أقيمت على قاعدة حجرية مربعة(٢) . ثم أعيد تثبيت ما وقع منها في سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م (٣) ، وبُني اثنان منها بالحجر ، وقد حملت هذه الأساطين أوتاراً من الخشب مصفحة بالرصاص ، لتعليق قناديل الاضاءة . ورمم في هذا العام أيضاً المقام المالكي والحنبلي (٤) .

وفي عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م رُمّمت بئر زمزم ، وعُمل لفوهتها دائر مذهب، وبيضت ظُلة المؤذنين فوقها من الداخل والخارج(٥) .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، وعبدالعزيز بن فهد : بلوغ القرى ، أوراق متفرقة ، والطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) قال أوليا جلبي في رحلته إنها من فوهات مدافع القتال لكن لم يشر المعاصرون إلى ذلك . جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٣٥ ، والجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٥٦ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

(٤) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، ورفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

وفي سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤ تم تغيير المنبر الخشبي بمنبر جديد أُرسل من مصر وسُلِّم المنبر السابق للخطباء ليستفيدوا من أخشابه على العادة التي كانت متبعة(١) .

وفي سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م قام قاضي مكة العثماني بفرش الحرم بالبطحاء مجدداً(٢) . وكان من المقرر تجديد البطحاء كل ثلاث سنوات على أن تستوفى مصاريفها من موارد ميناء جدة ، لكن الذي حدث أنها ما كانت تغير إلا بأمر مخصوص في كل مرة(٣) .

وبدأت في سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م مجموعة من المشاريع العمرانية في مكة، كلف بها خوشكلدي سنجق جدة(٤) ، وقد خص المسجد الحرام منها عدة مهام ، منها : إعادة بناء مقام الحنفي لتصغير مساحته ، وجعله على دورين ليتسع المطاف كما كان في السابق . ثم ترميم المقامات الأخرى ، واستبدل الدائر الخاص ببئر زمزم مجدداً في سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، وجعل سطحها مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف تعلوه قبة من الرصاص(٥) . وقد كانت هناك مزولتان في الحرم ،إحداهما على بئر زمزم ، والثانية مقابلة لباب السلام(٦) . وقد تقرر تخصيص سكن للميقاتي الذي كان يعمل بهما في سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م(٧). وبنى خوشكلدي أيضاً مخزنين في زيادة دار الندوة على يسار النازل من باب سويقة سنة ٩٤٩هـ/١٥٤٢م ، لحفظ الاحتياجات اللازمة

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٧٥٢ .

(٣) وثيقة رقم ١٥٩ من دفتر المهمة رقم ٤٧ ، ص ٢٦٢ ، مركز أبحاث الحج في مكة .

(٤) منها سدود في الأبطح وفي عرفة وقرب جبل حراء لصد السيول عن مكة إلى جانب المجاري ومصارف السيول الأخرى المذكورة . غباشي : المنشآت المائية ، ص ٢٨٩ .

(٥) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ومحمد الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ص٩٨ .

(٦) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٩٩ .

(٧) وثيقة رقم ٨ من دفتر المهمة رقم ٢ ، ص ١٤٦ من مركز أبحاث الحج .

للإضاءة ومعدات الصيانة والنظافة إلى جانب المخازن التي كانت موجودة في باب إبراهيم وإلى جانب قبة العباس شرق المسجد الحرام ، ووسع المسعى بهدم ما كان به من مقاعد ومصاطب للباعة[١] .

وفي سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧ م نُقِّلت الحجارة التي كانت تغطي أرضيات من المسجد الحرام بالنورة ، وشُدّت بعض الأعمدة بالرصاص ورُمِّم ما لحقها من خراب[٢] .

وفي سنة ٩٥٩هـ /١٥٥١م تم تجديد باب السلام بإعادة بنائه ، ورُمِّم معه مقام إبراهيم في العام نفسه [٣] . وأصلحت أبواب أخرى ، واستكمل رصف الأروقة بالجص[٤] في سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م [٥]. ثم استبدل بالمنبر الخشبي آخر رخامي في سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م[٦] كان مثار إعجاب واصفيه على مدى القرون[٧]. وبعد أن شرع السلطان سليمان في بناء مدارسه في الركن الشمالي

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٥١ ، والجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) محمد الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ص ٦٥ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٩٣ ، وعلي دده : رسالة مقامية ، ورقة ٤٤ ، ومحمد طاهر الكردي : مقام إبراهيم ، ص ١٢٩ .

(٤) الجص : هو مادة من مواد البناء تستعمل لطلاء الأبنية من الداخل والخارج ، وتستحضر من الحجارة بتعريضها لحرارة عالية ثم سحقها وإعادة عجنها وتشكيلها . عباس : التوسعة الكبرى ، ص ١٧٨ .

(٥) النهروالي : الإعلام ، ص ٩٣ .

(٦) محمد الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ص ٧٤ . وذكر السنجاري انه سنة ٩٥٦ هـ ، ولكنه تاريخ مخالف لما كتب على المنبر نفسه . السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ، ورفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٧) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٤٣ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٠٥ . ٢٠٦. وقد ظل المنبر في الحرم حتى تحطم في أحداث شغب سنة ١٤٠٠هـ ، وقد احتفظ بأجزاء منه في قبو الحرم ، واستعيض عنه في الوقت الحاضر بمنبر خشبي متنقل . السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص٣٠٩ – ٣١٠ ، والحجبي : إعلام الأنام ، ص ٧٦ ، وعباس : قصة التوسعة ، ص ٢٠٤ .

الشـرقي للحـرم ، بنى في وسطـها منارة اكتـملت في سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م، فكانت آخـر منشـآت السلطان سليـمان في الحـرم التي ظلت تتـوالى حتى قرب وفاته سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م [١].

ومع نهاية فترة حكم السلطان سليم الثاني وبداية تولي مراد الثالث ، تم أهم مشروع عمراني في المسجد الحرام في العهد العثماني ، وليس في القرن العاشر فـقط ، وهو تجديد بناء جميع الأروقة . لا سيما أن ترميـمات سنتي ٩٣١هـ / ١٥٢٤م و ٩٥٩ هـ / ١٥٥١م في القسم الشرقي ضَـعُفت ، فـعـاد الرواق إلى الميلان باتجاه الكعبة مما أدى إلى اهتمام المسئولين عن الحرم في مكة بحفظ الجدران من الانهيار بدعائم خشبية ، إضافة إلى أن مياه الأمطار كانت تتخلل سقوف الأروقة التي كانت من خشب مزدوج ، فتآكلت واجهتها وأطرافها وأصبح داخلها مأوى للحمام والحشرات[٢] ، فـصدر أمر السلطان سليم بتجديد بناء الأروقة سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ، وتم تكليف المهندس المعمار سنان[٣] بوضع مـخطط للحرم ، على أن يُراعى فيه تلافي المشاكل السـابقة ، فَجُعل السـقف على هيئة قبب لكيلا تتأثر بالأمطار ، كما تم رفع الأبواب عن مستوى الأرض بدرجات تمنع دخول المياه إذا كانت كميات الأمطار في حدود المعدل المعتاد[٤] .

وأشرف على تنفيذ المشروع أمير أمراء مصر سنان باشا[٥] والذي طلب

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧٤ وثيقة من دفتر المهمة رقم ١٢ ، ص ٤٣٨ في مركز أبحاث الحج .

(٣) المعمار سنان : أحد أعظم المهندسين المعماريين الذين يعتز بهم الأتراك . ولد سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م في الأناضول . أظهر موهبة معمارية منذ نعومة أظفاره ودرس في مدرسة أولاد الأعاجم التي يُلحق بها الجند التابعين للإنكشارية ، تخصص في النجارة . له إنجازات عظيمة في الدولة العثمانية ، ستة منها في مكة . توفي سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م . حرب : العثمانيون والحضارة ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، والمصري : معجم الدولة العثمانية ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ .

(٤) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، وحرب : العثمانيون ، ص ٢٢٧ .

(٥) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٥ .

تولية كيخيا إسكندر باشا حاكمًا في جدة بهدف تقوية مركزه في الحجاز، وبهدف الإشراف المباشر على سير العمل في عمارة المسجد الحرام وما صحبها من أعمال إنشائية أخرى في مكة عامة . وشارك في الإشراف الفني المهندس محمد ، وهو جاوش في الديوان العالي في إستنبول . وكلف بالنظر على المشروع من مكة القاضي حسين المالكي[١] .

وقد بدأ الهدم من الرواق الشرقي الأكثر تلفًا ، ثم وضع حجر الأساس للبناء في احتفال حضرة المسئولون والأعيان . وفي سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م، وبعد أن أُنجز بناء الرواقين الشرقي والشمالي ، توفي السلطان سليم الثاني، فأمر خليفته مراد الثالث بمواصلة المشروع ، إلى أن تمت العمارة في السقف بانتهاء عمل القبب في سنة ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م[٢] .

وقد جلبت معدات العمل ومستلزماته من كل من مصر والشام وإستنبول وقبرص ، واستعين بفنيين من الشام إلى جانب من ذُكر أنهم أسهموا من مصر وإستنبول .

وكان العاملون حريصين على انجاز المشروع بإتقان وعلى وجه السرعة، ومن ذلك مثلاً إعادة استخدام الخامات الممتازة التي كانت بحالة جيدة من مواد البناء المستعملة في العمارة السابقة بعد تأخر وصول المواد الجديدة أو تلف قسم منها[٣] . ومن أمثلة المواد التي أعيد استخدامها :الأعمدة الرخامية

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٥ - ٣٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

(٣) الكوبانز : الوثائق العثمانية الخاصة بنشاط حركة البناء والترميم في مكة والمدينة ، بحث أجرته جامعة نيويورك ، ترجمة محمد بن موسى أحمد من مركز البحوث في مكة المكرمة ، ص ٥ ، ووثيقة من دفتر المهمة رقم ٢١ ، ص ٢٠٤ ، ودفتر رقم ٢٢ ، ص ١٤٩ ، مصدرها : مركز أبحاث الحج بمكة .

الباقية من العمارة العباسية التي جرى توزيعها بين الأعمدة الحجرية الجديدة التي كان لا بد من انشائها لحمل القبب[١] .

أما أرضية الأروقة فقد كان نصيبها من الاصلاح والترميم في عهد السلطان مراد الثالث عندما أصدر أمره بفرش أرضيتها بالرخام[٢] .

وعندما اجتاح سيل عام ٩٨٣هـ / ١٥٧٥م الحرم الشريف فكر المعماريون في تصريف مياه السيول ، ومنعها من التسرّب والتأثير على الحرم، أو على الأقل التخفيف من أضرارها وتلفيّاتها ، فقاموا ببناء المجاري خارج الحرم من الجهة الجنوبية ، ووجهوا مجراها إلى المسفلة بسواتر خشبية وحجرية[٣]، أما في الجهة الشمالية حيث سيول جبل قعيقعان فحفروا سرداباً امتد من أسفل باب زيادة إلى باب إبراهيم في الغرب ومنه إلى المسفلة، وكان الذي فكر في إنشاء السرداب يحمل رتبة أمير آخور، فَنُسب إليه ثم حُرِّفَ إلى بير ياخور[٤]. وكان خوشكلدي قد أقام حواجز في المعلاة لمنع مياه الأمطار من الاتجاه إلى الحرم،ضمن مشروعاته التي نفذها في مكةسنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م[٥]. وقد كان لهذه المشاريع أثرها في تصريف السيول الناجمة عن المعدل العادي

---

(١) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٠١ ، ١٠٦ .

(٢) ورد بأن أول من فرش أرضية المسجد الحرام بالرخام هو السلطان عبد الحميد الأول سنة ١١٤٠ هـ وأنه كان قبل ذلك طبطابا وربما يقصد الجص ، لكن ورد أن السلطان مراداً الثالث أصدر أمراً بفرش المسجد الحرام بالرخام وربما تعذر تنفيذ الأمر أو نفذ ثم زال بفعل الزمن فلم يجدد الترخيم . باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٧٢ ، ووثيقة من دفتر المهمة رقم ٣٣ ، ص ١ ، مركز أبحاث الحج .

(٣) وثيقة من دفتر المهمة رقم ٢٩ ، ص ١٣٦ ، مركز أبحاث الحج . وأقيم سد حجري في مكان آخر سنة ٩٨٧هـ ، وثيقة رقم ١٣٦ ، دفتر المهمة رقم ٣٦ ، ص ٢٩٥ .

(٤) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

للأمطار ، مما استوجب طلب إعادة عمارتها وجرف الأتربة من أمام درج أبواب الحرم[١] . ولكن على الرغم من هذه الأعمال الجليلة والتي استمرت حتى نهاية القرن العاشر الهجري ، فإنها لم تكن كافية لمنع آثار السيول الكبيرة التي تفوق المعدّل ، فكانت لا تلبث أن تعود فتملأ الحرم بين حين وآخر[٢] .

والجدير بالذكر أن العثمانيين لم يزيدوا في مساحة الحرم[٣] ، وظل عدد من الأبواب على عمارته السابقة التي تمت في أزمنة مختلفة[٤] .

أما الأبواب التي شملها الإصلاح والتجديد في العهد العثماني فهي باب الداودية ، وكان إنشاؤه مع المدرسة سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م[٥] ، ثم بابا السلام والسليمانية وقد بنيا في سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م و ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م[٦] ، وجدد باقي الأبواب ، ومنها باب علي ، وباب الصفا الذي عد بناؤه تحفة معمارية عملت من الرخام فأعيد تركيبها في العمارة الحديثة[٧] .

أما المنائر فإن ثلاثًا منها عُمرت في عهد السلطان سليمان القانوني ،

---

(١) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ملحق رقم ٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٦ ، ونجيم : البيئة الطبيعية ، ص٢٣٨ .

(٣) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٧٦ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٩٧ ، ٢٠٤ ، وفيها مساحة المسجد الحرام قبل العمارة العثمانية مباشرة ، وعراق : موسوعة مكة ، ص ٦٨ .

(٤) اعتمد باسلامة في كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام على التواريخ المكتوبة على كل باب ، فحدد زمن بنائها . باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١١٤ .

(٥) لم يكن على باب الداودية تاريخ ، والذي يبدو أنه بني في وقت بناء مدرسته ورباطه اللذين نسب إليهما الباب وذلك سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م . وثيقة وقف داود باشا رقم ٣٥٩ محفظة رقم ٥٤ دار الوثائق القومية القاهرة .

(٦) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٣ .

(٧) عباس : التوسعة الكبرى ، ص ١٠١ .

وهي : منارة باب علي ومنارة باب العمرة ومنارة المدارس السليمانية ، ولم يُقَمْ مع العمارة التي تمت في عهد السلطان مراد إلا منارة باب السلام في سنة ٩٨٣هـ / ١٥٧٥م[١].

وفي عهد السلطان مراد الثالث تمت تكملة عمارة الحرم وترخيم المطاف ، وعمل الممرّات وإعادة تصفيح باب الكعبة[٢] . ثمّ توالت أعمال الإصلاح والصيانة والتحسين في الحرم إلى نهاية العهد العثماني في مطلع القرن الثالث عشر الهجري . ومن ذلك إزالة قبتي سقاية العباس وقبة الزيت السابق ذكرهما[٣] ، وكانت قبة الزيت قد حولت إلى مكتبة حفظ فيها عدد من الكتب[٤] .

وعندما شرعت المملكة العربية السعودية في توسعة الحرم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري رممت العمارة العثمانية التي أقيمت في القرن العاشر ، ولم يهدم منها إلا ما كان متداخلاً مع التوسعة الجديدة[٥] .

وقد صحب عمارة المسجد الحرام في القرن العاشر ترميمات وتجديدات في مساجد ومآثر أخرى في مكة ، أشرفت على تنفيذها الهيئات نفسها التي

---

(١) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢١٥ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٤٢، ولكن عمارة باب علي بنيت حسب ما ذكر محمد بن فهد سنة ٩٣١هـ ، لا كما ذكر باسلامة سنة ٩٧٠هـ .

(٢) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٣) أزيلتا في عهد السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد سنة ١٣٠٠هـ أو ١٣٠١هـ لأنهما كانتا تحجبان رؤية الكعبة ، كما أن السيول أتلفت ما بداخلهما من كتب . غازي : افادة الأنام ، ج ١ ، الأوراق ٥٧د .

(٤) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٣٤ .

(٥) عباس : التوسعة الكبرى ، ص ٢٤١ .

كانت تقوم بالعمل في الحرم ؛ ومن ذلك إعادة ترميم مسجد الراية[١] ومساجد أخرى في المشاعر ، وبنيت قبة الوحي ومولد السيدة فاطمة وضريح السيدة خديجة رضي اللّه عنهما[٢] .

وهكذا حفظت الترميمات التي عملت للكعبة في القرن العاشر بناءها لأكثر من نصف قرن من الزمان ، وأما عمارة الحرم فقد اكتملت وأخذت شكلها النهائي الذي بقي حتى نهاية العهد العثماني ، ولم تهمل بقية المآثر في مكة ، مما يمكن معه وصف النشاط العمراني للمنشآت الدينية بالإتقان والمتانة .

---

(١) مسجد الراية : في الغزة مقابل شعب عامر . البلادي : فضائل مكة ، ص ٢٣٤ ، وانظر تعريفه ص١٨١ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٤٧١ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص٦٨ . ٦٩ .

مولد السيدة فاطمة أو بيت السيدة خديجة في حي القشاشية في سوق الصوغ ، وقد حول مدرسة بنات . مولد الرسول ﷺ حول إلى مكتبة مكة المكرمة التابعة للأوقاف . البلادي : فضائل مكة ، ص٢٣٣ .

# المبحث الثاني
# المنشآت المائية و منشآت المصالح المرسلة

تقع مكة جغرافيًا ضمن النطاق الصحراوي الأكثر جفافًا في العالم ، لذلك فإن معدل هطول الأمطار السنوي عليها قليل[١] . وهي نموذج للأمطار الصحراوية التي عرفت بالتباين الشديد في كمياتها وأوقات نزولها من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى آخر . فهي إما أن تكون فجائية وذات كثافة عالية قد تتسبب في حدوث فيضانات عنيفة على شكل سيول جارفة ، يزيد من حدتها طبيعة الجبال الصخرية الصماء القليلة النفاذية والعارية من الغطاء النباتي الكثيف . وإمّا تتوقف فلا تهطل إلا يومًا واحدًا في السنة أو لعدة أيام لكن بكميات قليلة جدًا[٢]. ومع ما اتصفت به طبيعة الأمطار من عدم الانتظام والقلة فإنها كانت المصدر الوحيد للمياه في مكة[٣] . وتستفيد منها إما مباشرة باحتجاز جزء محدود من مياه السيول في برك[٤] أو صهاريج[٥] مبنية لتستخدم في مواسم الحج وأوقات الأزمات . وإما مياها جوفية تستخرج من الآبار

---

(١) رجب : الحجاز ، دراسة إيكولوجية ، ص ٦٣ .

(٢) نجيم : البيئة الطبيعية ، ص ٢٢١ – ٢٤٨ ، وكوشك : زمزم ، ص ٧٠ ، ٨٥ – ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٤) بلغ عدد البرك حول مكة في القرون الثلاثة الهجرية الأولى أربع عشرة بركة ، وكان عددها في القرن الحادي عشر إحدى عشرة بركة . الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٥ ، ملحق ٣ ، والأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ – ٢٣٢ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٥) ألحقت بكل العمائر الضخمة التي أعدت لتستخدم مجمعات سكنية خيرية صهاريج ، منها مثلاً المباني الموجودة في شارع السويقة من الشامية أو في شارع الدريبة من الحي نفسه ، ومنها ما كان في منازل التجار أو التكايا . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٧٦ ، وأوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٥٣ ، والوثائق رقم ٩٢ ، ٩١ ، ٨٤ ، الصفحات ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ من دفتر مسقفات السلطان سليمان ، المصدر : إدارة أوقاف مكة .

والعيون، وهي عرضة للشح والنضوب دائمًا ، للأسباب الطبيعية هذه أو لزيادة استهلاك المخزون الجوفي في الأوقات التي يكثر فيها الوافدون إلى مكة[١] . لذلك كانت إقامة المنشآت المائية من المشاريع الحيوية التي تطلبت جهودًا جبارة متواصلة قام بها المسلمون حكومات وأفرادًا [٢]، من أجل توفير المياه للبلد الأمين والوافدين إليه في موسم الحج .

وقد أسهم العثمانيون خلال القرن العاشر بأعمال إنشائية مائية ضخمة ومهمّة لإيجاد حل جذري للحد من أزمات نقص المياه التي كان يتكرر حدوثها على فترات زمنية تتقارب أحيانًا وتتباعد أخرى .

ويتضح من استعراض تطور مشاريع المياه في مكةأهمية دور العثمانيين، ومقدار الخدمة التي قدموها في مجال توفير المياه لمكة . ففي الجاهلية وصدر الإسلام كان الحصول على المياه الجوفية يتم عن طريق الآبار[٣] . وأهمها بئر زمزم التي تفجرت في مكة عندما كانت واديًا قاحلاً ، سقيا لذرية نبي اللّه إبراهيم عليهم السلام ، فاجتذب وجود البئر أقوامًا عمر بهم المكان . ولزمزم فضائل عظيمة ، فماؤها لما شُرِبَ له[٤] . ومن ذلك أنها كانت سقيا لمكة دائمًا في أوقات كان يشح الماء في غيرها فيها[٥] .

ووجدت حول مكة آبار أخرى منذ عهود سحيقة[٦]، ثم زاد عدد الآبار فيها

---

(١) نجيم : البيئة الطبيعية ، ص ٣٧٧ ، وغباشي : المنشآت المائية ، ص ٥٣ .

(٢) الزواوي : بغية الراغبين ، ص ٥ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ٥٦ ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ٤٩ ، وابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص٢٥٤ ، ٢٦١ .

(٥) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٦ .

(٦) أرجعت الآبار في ضواحي مكة إلى بدء الخليقة ومنها كُر آدم . الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص٢١٤.

بعد أن طُمرت زمزم لعدة قرون ، إلى أن أعيد حفرها قبل البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بفترة لا تتجاوز قرنًا من زمان[١] .

وقد بلغ عدد الآبار في مكة في وقت من الأوقات ثلاثمائة وخمسين بئـرًا[٢] .

وكان الأمويون[٣] أول من أجرى إلى مكة مياه العيون ، بأن مدوا مواسير من الرصاص ، من العيون الموجودة داخل حدود الحرم وأوصلوها إلى برك بُنيت في مناطق مختلفة في مكة ، وعُملت خزانات لتجتمع فيها المياه لحين الحاجة[٤] .

وفي بداية العهد العباسي حدثت أزمة حادة من أزمات نقص المياه في مكة ، فتطوعت السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد برعاية مشروع للعمل على توفيرأكبر كمية ممكنة من المياه خدمة لأهل البلدالحرام وقاصديه[٥]، وقد كان المشروع على مرحلتين : الأولى ، إعادة تشغيل الشبكة السابقة والاستفادة من المصادر المعروفة لكنها لم تعد كافية لسد الحاجة المطلوبة . ثم المرحلة الثانية وهي إجراء المياه من مناطق توافرها حتى لو في الحل، وجلبها إلى الحرم لأول مرة[٦] . وقد كان واديي حنين ونعمان من أكثر المناطق التي يوجد بها مخزون جيد للمياه ، مما أدى إلى عمل شبكة جديدة من القنوات عُرفت بالدبولة[٧] جمع فرعها الأول عيون وادي حنين ويربو عددها

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٤٢ – ٤٨ .

(٢) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٢ نقلاً عن الفاسي .

(٣) كان خالد القسري والي مكة في عهد سليمان بن عبدالملك هو أول من أوصل المياه إلى الحرم في أنابيب من الرصاص ، الفاكهي : تاريخ مكة ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، والزواوي : بغية الراغبين ، ص ٥ .

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

(٦) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ، والنهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٧) الدبولة : هي قنوات حجرية تجري فيها المياه من العيون إلى داخل مكة ، فهي عبارة عن نفق ينحدر انحدارًا طفيفًا مع اتجاه مجرى الوادي ، أي أن سريان المياه فيها يتم وفق الانحدار الطبيعي =

على عشرة[١] ، تتجه إلى مكة لتصب في بركة أنشئت لها في المعلاة ، ثم مدت بعد عهد عين زبيدة إلى ثلاث مناطق حول الحرم لتيسير وصول الماء إلى كل الأحياء وتنتهي بأسفل مكة[٢] . وأما الفرع الثاني من الشبكة فقد كان عبارة عن مجموعة أخرى من القنوات ( الدبولة ) ، كان بعضها ينقل مياه عيون وادي نعمان والآخر متصل بشحاحيذ[٣] بنيت تحت كل منطقة في هذا الوادي كانت مظنة لتجمع المياه خلال موسم الأمطار [٤]، ثم مرت القنوات إلى عرفة ومزدلفة، وتنتهي في بئر عظيمة في منى عُرفت ببئر زبيدة لتجمع فيها المياه ، وكان مجرى الماء من عرفة إلى منى يمر عبر المفجر ، وهو المعروف بالعزيزية في الوقت الحاضر[٥] .

---

= ويتراوح عرضها من ٦٠ – ١٠٠ سم وارتفاعها ١٠٠ سم تقريبًا بينما يصل عمقها أحيانًا إلى ٣٠ مترًا تحت سطح الأرض ، وتصل مياهها إلى أماكن مخصصة في مكة شيدت فيها خزانات في كل حي تسمى بازانات مفردها بازان نسبة إلى كبير المهندسين الذي أنشأ هذا العمل في سنة ٧٢٦ هـ، واسمه جوبان بازان . نجيم : البيئة الطبيعية ، ص ٤٠٧ ، وغباشي : المنشآت المائية ، ص ٢٢–٣٠.

(١) العيون هي : المشاش والميمونة والزعفران والبرود والصرفة أو الطارقي وثقبة والخريبات . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ – ٩٢٥ ، والزواوي : بغية الراغبين ، ص ٦ – ٧ .

(٢) حفر الخليفة المأمون العباسي بركًا في مكة لإيصال الماء إلى أحيائها التي حول الحرم وإيصالها إلى أسفلها . فكان عدد البرك خمسًا ، نقل الماء إليها من بركة زبيدة التي في المعلاة في المحل المعروف بالجعفرية إلى بركة في البطحاء ، أي شعب علي ، وبركة عند الصفا ، وبركة عند الحناطين بجانب باب إبراهيم ، وبركة في سكة الثنية ويظن أنها آخر سوق الصغير ، وبركة عند سوق الحطب وهو الهجلة ، ثم إلى أسفل مكة إلى الماجل . الزواوي : بغية الراغبين ، ص ٩٨ .

(٣) الشحاحيذ : هي عبارة عن برك تحفر أسفل كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار ، ثم عملت منها قنوات مبنية توصل الماء المتجمع من الأمطار إلى مجرى العين الأصلي فيبدو وكأن كل مجرى أو شحاذ عينًا تمد العين الرئيسية وتغذيها بالمياه . النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٨ . وغباشي : المنشآت المائية ، ص ٣١٨ .

(٤) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ – ٩٢٥ .

(٥) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ ، والفاكهي : أخبار مكة ، ج ٤ ، ص ٩٦ .

وقد عُرف مشروع الري هذا بشقيه بعين زبيدة اصطلاحًا[١] ، ويُعرف الجزء الحامل للمياه من وادي نعمان إلى المشاعر بعين عرفة أحيانًا ، ويقصد بذلك العين المستفاد من مائها في عرفة والمشاعر ، تمييزًا لها عن شبكة عين حنين التي كانت تحمل الماء إلى مكة[٢] . وقد قيل إن زبيدة وقفت بمشروع نقل مياه وادي نعمان قبل أن تصل به إلى مكة اضطرارًا لا اختيارًا لأسباب طبيعية ، وهي اعتراض كتلة ضخمة من الحجر الصخري للمجرى الذي كان يزمع إنشاؤه[٣] . أو ربما يكون سبب توقف إصلاح ممرّ العين هو توافر المياه اللازمة للأهالي في تلك الفترة .

غير أن شبكة عين زبيدة ما كانت لتدوم أهم مصدر لإمداد مكة بالماء لفترة طويلة ، لولا تعهدها بأعمال الصيانة والتعمير والاصلاح بصفة مستمرة من قبل كل قادر على ذلك من المسلمين[٤] . ومن أشهر التحسينات التي أدخلت على الشبكة الإضافة التي قام بها الأمير بازان ، لأنها أدت إلى زيادة كميات المياه المحتفظ بها ، وسهلت الوصول إليها ، وذلك سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م[٥] .

وقد كانت خدمات العثمانيين في مجال توفير المياه لمكة مستمرة طوال عهد حكمهم ، ولكن أبرز أعمالهم بهذا الخصوص ذلك الذي تم في القرن العاشر الهجري ، حيث تم ترميم عين زبيدة الموجودة ، وتم إصلاح الجزء الذي توقفت عنده قرب منى ، وتم إيصال ماء عين وادي نعمان إلى أسفل مكة .

---

(١) الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، والزواوي : بغية الراغبين ، ص ٩ ، ١٠ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ، والزواوي : بغية الراغبين ، ص ١٠ ، ١١ .

وقد سلك العثمانيون في خدمة المرافق المائية في مكة ، المسلك نفسه الذي سلكه العباسيون قبلهم حيث أصلحوا وعمروا المصادر الموجودة ، كما أوصلوا مصادرإضافية فأضافوا حلقة مهمّة في سلسلة خدمات المياه في مكة.

ففي إطار تحسين المصادر الموجودة نجد أن العثمانيين بدأوا بتشجيع الجهود الفردية لصيانة وترميم قنوات عين حنين وغيرها، بعد أن شحّت مياهها سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م بعد فترة من الجفاف ، فأشرف الشيخ محمد بن عراق على إعادة إجرائها بتنظيف القنوات وترميمها ، فكافأته الدولة العثمانية بمبلغ مالي تعويضًا له عما صرفه ، وبخطاب شكر على ما أنجزه من عمل ، ولتظهر ثقتها فيه كلفته بالإشراف على إنارة المسجد الحرام وبطحه والاستمرار في عمارة العين ، كما طلبت منه صيانة بعض المآثر في المدينة المنورة ، وهي عمارة تربة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، والعين التي بجوارها[١] .

وفي سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م قام التاجر بيري الرومي بتجديد عمارة إحدى بركتي المعلاة وتبييض الثانية ، وهي البرك المسبلة التي كان ينتفع بها الحجاج خلال الموسم ، وقد تكلف العمل فيها أربعة آلاف دينار[٢] . ثم عمّر المحسنون أيضًا بركة ماجن في جنوب مكة سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م[٣] .

وقد أبدى العثمانيون اهتمامًا بتيسير وصول الماء إلى الناس في مكة منذ وصول نفوذهم إليها ، فقد أضاف مصلح الدين مندوب السلطان سليم حنفية لزيادة الموجود منها في الحرم بجانب بئر زمزم . واعتبارًا من سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م أصبح الإشراف على مشاريع المياه من مهام السنجق في جدة ، حيث قام حسين الرومي في هذا العام بتنظيف وترميم القنوات ،

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٤٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٥٦٤ .

مما خفف من حدة أزمة المياه حتى هطول أمطار سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م [١] . لكن شهدت سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م جفافًا شديدًا أدى إلى نضوب كثير من الآبار حتى في الضواحي[٢]، فصدر أمر السلطان العثماني في سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م بتعيين مصطفى الرومي مشرفًا على منشآت السلطان في الحرم ، ومن ذلك صيانة وتعمير قنوات المياه في مكة ، فقام بفتح مواضع في الدبولة في المعلاة لتيسير حصول الناس على الماء منها ، بناء على طلب منهم وبإذن من الشريف .

كما رفع فتحات البازانات لكيلا تدخلها السيول فتطمرها ، ورمم الباقي.

وفي سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م بعث السلطان سليمان عشرة عبيد زوجهم لعشر إماء وجعل مصطفى الرومي مشرفًا عليهم في تنفيذ مهمتين ، الأولى : تنظيف المسعى ، والثانية : عمل صيانة دورية لصيانة شبكات قنوات المياه في مكة والمشاعر . وقد استمر عملهم حتى نهاية القرن العاشر[٣] . وعلى الرغم من أن مصطفى قد توفي في سنة ٩٣٧هـ /١٥٣٠ فإنهم حافظوا على تعليماته[٤]. فلم تتجدد أزمة المياه إلا مع فترة الجفاف الشديد التي بدأت في سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م الذي أدى إلى توقف عين حنين وقلة جريان عين عرفة . ولم تجد كل الجهود في إعادة إجرائها ، لذلك قام سنجق جدة بزيادة الاعتماد على

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٧٦ ، ٤١٣ – ٤١٤ ، ٤٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٥٠ ، ٥٠٦ – ٥٠٧ ، والجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ٨٢٧ .

(٣) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ٨٢٧ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١١١ ، وقد ظلت خدمة الحرم موكولة إلى مجموعة من الأشخاص عرفوا بالأغوات ، إلى نهاية العهد العثماني، وبقي بعضهم بعده لفترة طويلة ، وكان لهم نظام خاص يقسمهم إلى مراتب وتصلهم مرتبات من أوقاف تحبس عليهم ، وكان لهم الحق في ممارسة الأعمال الحرة وتنمية دخولهم . زين العابدين : الكعبة والحج ، ص١٨٨ – ١٨٩.

(٤) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤١ . وقد زادهم السلطان مراد الثالث في عامي ٩٨٦ هـ و ٩٨٨ هـ مائتين وخمسة عبيد آخرين . الوثيقة رقم ١٢٨ دفتر المهمة رقم ٣٥ ، ص ٢١٠ ، والوثيقة رقم ١٤٦ دفتر المهمة رقم ٤٣ ، ص ٦٨ .

الآبار ، فأمر بنزحها وتعميقها وركب عليها السواني ، ولم يقتصر على الموجود منها في مكة وإنما شملت عنايته الآبار الموجودة في الضواحي ، كآبار الزاهر والجوخي في طريق العمرة ، وآبار العسيلات في المنحنى ، والآبار الموجودة فوق المعلاة ، فكانت المياه تحمل على الدواب إلى مكة ، وتملأ بها برك الحجاج، فلا تكاد تكفيهم لأيام قليلة ، مما اضطر الناس إلى شراء الماء فزاد سعره بدرجة كبيرة ، إضافة إلى تأثير ارتفاع درجة الحرارة مما أدى إلى تفاقم الوضع[١] .

وقد فكر المسؤولون العثمانيون في مكة في إيصال عين عرفة إلى مكة، لأنها كانت الوحيدة التي استمرت في الجريان ، فتبنّى قاضي مكة العثماني الدراسة التي قام بها ابن عوض الميقاتي الخاصة بتاريخ القنوات التي عملتها زبيدة ، فرمّم القسم الموجود منها إلى العقبة الصخرية قرب منى ثم توقف عن الاستمرار في العمل[٢] . ولكن كان لدى المعماريين العثمانيين العاملين في مشاريع الحرم اقتناع بإمكان إيصال الماء إلى مكة ، فكتب السنجق للسلطان بالحالة[٣] ، مما جعله يوفد مبعوثًا رسميًا من قبله يشغل منصب دفتردار عرب عجم في سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م مع قافلة الحج الشامي ، للكشف على مصادر المياه في الحجاز على دروب الحج وفي مكة[٤] ، وقد نبهه الشريف إلى صعوبة المهمة لكن المسئولين العثمانيين استنتجوا من المحاولة السابقة أن قنوات المياه ممدودة إلى مكة ، وأن كل المطلوب هو إصلاحها وإعادة تشغيلها ، وقد وُضعت تقديرات مبدئية للتكاليف ولزمن الإنجاز بناء على هذا الاعتقاد ، فبادرت ابنة السلطان سليمان القانوني باحتضان المشروع، وتحملت تكاليفه

---

(١) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ – ٩٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠٦ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤١ – ٣٤٢ .

(٤) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ١٠٠٦ – ١٠٠٩ .

أسوة بالسيدة زبيدة . وقد رشح إبراهيم المهمندار دفتر دار مصر السابق لتنفيذ المهمة في سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م[١] .

وكالمتبع دائمًا فقد أصلح إبراهيم مصادر الماء الموجودة حلاً مؤقتًا ، ثم شرع في إحضار معدات العمل والخبراء من كل من مصر واليمن والحجاز والشام ، وسخر لأعمال الحفر عددًا كبيرًا من العبيد ، كما استعان بالأعراب في مهام مختلفة كالمشاركة في أعمال الحفر أو إحضار الخامات المتوافرة في الحجاز التي تطلبتها مراحل العمل المختلفة كالحطب والأغذية ودواب النقل وغيرها[٢] .

وقد أظهرت أعمال الحفر القنوات التي أقيمت من وادي نعمان إلى المشاعر حتى وصلت بها إلى بئر زبيدة في منى حسب الخطة المرسومة ، وأُجرى إليها الماء وسط احتفالات شعبية ورسمية كبيرة . غير أن إكمال القسم الباقي من المشروع وهو إيصال الماء إلى مكة لم يكن بالسهولة ذاتها، إذ اتضح للعاملين أنه لم يسبق بناء قنوات من منى إلى مكة ، فكان يتعين شق قنوات جديدة في الصخور الصلدة العالية التي تتكون منها المنطقة ، وكانت سببًا في توقف العمل فيما سبق . وقد تم للعثمانيين التغلب على هذه العقبة بتعريض الصخور للحرارة العالية بإشعال الحطب عليها طوال الليل فتلين النيران صلابة الحجر وتسهل تكسيره وشق القنوات فيه صباحًا . وقد بذل في سبيل إيصال الماء إلى مكة أموال طائلة ، واستغرق العمل فيها ما يزيد على عشر سنوات ، توفي في أثنائها المشرف إبراهيم في سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، فعين عوضه قاسم[٣] والي جدة بصفة مؤقتة ، حتى قدم المشرف الجديد وهو محمد

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣٦ - ١٠٤٨ ، والنهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٣ .

(٢) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ١٠٩٨ - ١١٠١ ، والنهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٣) الأمير قاسم : كان من المماليك السلطانية ، خرج مع الوزير علي باشا وكان سرواجًا له ، كانت أولى وظائفه في الحجاز أنه عين آغا في المدينة المنورة بعد عزل دلوبيري ، ثم عين سنجقًا ثم واليًا في جدة. النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

أكمكجي[١] لكنه تـوفي أيضًا . فعين مرة أخرى قاسم والي جدة ، وأشرف على العمل القاضي المالكي لمدة خمسة أشهر ، فأتم العمل خلالها ، وملئت برك المعلاة من عين عرفة في سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م إلى جانب عين حنين ، فعمّت الفرحـة والاحتفالات[٢] ، وتلقى حسين المشرف الأخير على العمارة وشريف مكـة خطابات شكر وإنعامات من السلطان[٣] ، لأن الشريف شارك في الإشـراف وفي الإمدادات المطلوبة للعمل من عمال محليين ومؤن وخبرة فنية محلية[٤] .

وكانت المرحلة الأخيرة من المنشآت المائية في مكة هي إيصال المياه إلى أحياء مكة حيث تم بناء مقسم للماء في الأبطح ، ثم مُررت القنوات إلى المدعى ومنها إلى شمال المسجد الحرام ثم إلى السوق الصغير فباب إبراهيم ومنه إلى بركة ماجد في المسفلة [٥]، فتمت بذلك الاستفادة من مصادر المياه الممكن إيصالها إلى مكة[٦] .

وقد جرت دراسات ومحاولات للاستفادة من مياه عين حدا أيضًا ، سواء في مكة أو جدة[٧] ، لكن يبدو أنه كانت هناك عقبات طبيعية لم تتح تنفيذ المشروع . وقد تابعت الإدارة العثمانية في إستنبول مراحل العمل مباشرة، واتخذت كل التدابير لتوفير مستلزماتـه الفنية والمادية ، كما شاركت في الإدارة باستعمال أساليب الترغيب والترهيب، فعاقبت المسيء وأثابت المحسن،

---

(١) محمد أكمكجي : أكمكجي أي الخباز ،وهو لقب الموظف الذي بعثته الدولة للإشراف على عمارة العين في مكة بعد وفاة المشرف السابق عليها . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٠٠٧ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٩ .

(٣) الوثيقة رقم ٧٢ و ٨٠ ، دفتر المهمة رقم ١٩ و ٢٠ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥د ، مركز أبحاث الحج .

(٤) الوثيقة رقم ٣٧ ، ٣٩ ، دفتر المهمة رقم ٦ ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(٥) بركة ماجد : يطلق عليها بركة ماجل نسبة إلى مكان تجمع المياه فيها حسب ما هو معروف لغويًا أو قد يطلق عليها بركة ماجن نسبة إلى باب كان في سور مكة في تلك الجهة وقد حرف العوام الاسم إلى بركة ماجد وهو ما تعرف به المنطقة حاليًا . الأزرقي : أخبار مكة ، ص ٢٣٢ ، وعبدالعزيز بن فهد : غاية المرام ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، والسباعي : تاريخ مكة ، ص ٤٦٤ .

(٦) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٧ ، والوثيقة رقم ٧٣ دفتر المهمة رقم ١٩ ، ص ١٣٥د .

(٧) الوثيقة رقم ٨٤ ، ٨٥د دفتر المهمة رقم ٢٣ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

لحث الجميع على الاجتهاد وحسن الأداء[١] ، ثم استمرت في تعهد أعمال الصيانة طوال القرن العاشر الهجري كما في السنوات ٩٨٨هـ / ١٥٨٠ م و ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م[٢] . وأبرز الإضافات بعد هذا القرن هو زيادة عدد بازانات المياه حتى بلغ عددها عشرة في نهاية العهد العثماني ، وقد أقيمت لحفظ المياه في أحياء مختلفة في مكة[٣] .

ولكن موضوع المياه في البلد الحرام مرتبط بالعوامل الجغرافية والمناخية، فالعامل الأول فيه هو معدل هطول الأمطار فإذا قلّت فإن الأزمات لا تلبث أن تتجدد ، فقد حدث جفاف شديد بعد سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م عاد فيه الناس إلى الاعتماد على السقيا من زمزم[٤] . أما في الأحوال العادية فإن منشآت العين كانت تحمل المياه لكل أحياء مكة ، وظلت تحظى بصيانة ورعاية دائمة ، واسمها ما زال إلى الوقت الحاضر ، وقد أوجدت لها الحكومة السعودية إدارة خاصة ، وحين ألحقت بها عيون وادي فاطمة ووحدت رعايتها مع العيون التي جلبت إلى جدة ، أصبح يطلق عليها اسم : عين زبيدة والعزيزية[٥] . لكن

---

(١) الوثيقة رقم ٨٦ دفتر المهمة رقم ٢٥ ، ص ٤ ، عن تعيين أحد الحجازيين رئيسًا للحجارين ، لأنه عمل في العين مدة عشر سنوات ، وصرف له راتب شهري من واردات جدة . وقد سبق ذكر الثناء الذي حظي به شريف مكة والقاضي حسين المالكي .

(٢) الوثائق أرقام ١٣٩ . ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٤٣ ، ١٦١ من دفاتر المهمة أرقام ٤٠ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ ، الصفحات ١٤٥ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٥١ عن السنوات ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٩٠هـ ، والغباشي : المنشآت المائية ، ص ١٦١ ، ١٦٣ .

(٣) الغباشي : المنشآت ، ص ٤٥ ، وأونال: دراسة توفير المياه المعدة من قبل مركز الحج ، ص ٤١ ، ٤٣، والمقدسي : قلائد العقيان ، ورقة ٥٦ .

(٤) أُضيفت عيون أخرى بعضها حول عرفة والأخرى بالقرب من جعرانة ومع ذلك لم تفي المياه بالحاجة في حالات الجفاف ، علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٥، ٨٦.

(٥) الأنصاري : تاريخ عين العزيزية بجدة ، ص ٣٧ .

الازدهار والتوسع والتقدم العلمي في العصر الراهن أوجد مصدراً جديداً للمياه في مكة، هو : تحلية مياه البحر في محطة أقيمت في الشعيبة ، فاستطاعت تغطية احتياجات الأعداد الكبيرة من الحجاج والسكان مؤخراً[١] ، والدراسات لتحسين منشآت المياه وصيانة المتوفر منها لا زالت مستمرة[٢] .

أما منشآت المصالح المرسلة التي أقيمت في القرن العاشر فإن أهمها ما كان ذا صلة بموضوع تيسير وصول الماء إلى الناس ، وخاصة من أجل خدمة الحجاج ، وهو ما عُرف بالأسبلة والمياضئ والحمامات . وفي القرن العاشر أُنشئ عدد كبير من الأسبلة ، وزودت بمياه من العيون أو بحفر آبار قريبة منها ، كما استمرت صيانة الأسبلة التي كانت موجودة في مكة قبل القرن العاشر الهجري ، ومنها سبيلاَ السلطان قايتباي ، ويوجد أحدهما في رباطه والثاني في المروة قرب نهاية المسعى، وسبيل ابن الزمن وسبيل ابن مزهر . وقد مد لها السلطان سليم الثاني قنوات مياه من العيون سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م[٣] ، ولا زالت شبكة توزيع مياه العيون في مكة محل اهتمام ودراسة إلى مطلع القرن الخامس عشر الهجري أي نهاية القرن العشرين الميلادي[٤] . وظلّت هذه الأسبلة في حالة جيدة حتى بعد منتصف القرن الحادي عشر الهجري[٥] .

وفي بداية القرن العاشر الهجري كلّف السلطان سليمان القانوني إبراهيم المهتار بتوزيع ماء زمزم في الحرم بمقابل قدره ثمانون أشرفيا ذهبا في سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م ولم يشر ما إذا كان ذلك التكليف مؤقتا أم مستمرا طوال العام[٦] ، إضافة إلى أن السلطان سليمان أمر ببناء سبيل للماء بالقرب من

---

(١) نجيم : البيئة الطبيعية ، ص ٣٧٣ ، ٣٨١ ، والبلادي : معجم معالم الحجاز ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) أونال : دراسة توفير المياه المعدة من قبل مركز الحج ، ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

(٣) غباشي : المنشآت المائية ، ص ١٦٠ .

(٤) كوشك : زمزم ، ص ١٠١ .

(٥) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٣٦٠ .

باب السلام[١] .

وقام السلطان مراد ببناء سبيلٍ في الصفا ، وحنفية بجوار مدرسة قايتباي ، وأمر ببناء سبيل آخر سنة ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م بالقرب من باب السلام[٢] .

وأما زوجات السلاطين ، فقد أنشأت زوجة السلطان سليمان ، واسمها خُرّم أو روكسلانة[٣] سبيلاً في المسجد الحرام عرف بسبيل الخاصكية[٤] ، وأنشأت سبيلاً آخر في المطعم الخيري الذي أسسته .

وأما صفية زوجة السلطان مراد فقد أنشأت سبيلاً في التنعيم إلى جانب سبيل كان قد أنشأه في المكان نفسه إبراهيم المهمندار وأجرى له الماء من بئر في مكان قريب وعَيّن له قيمًا تصله مخصصات[٥] .

---

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٢ .

(٢) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣١ .

(٣) خُرّم ولقبها روكسلانة أو الضاحكة ،إحدى جواري السلطان سليمان القانوني، أصلها روسية تزوجها ورفع مكانتها ، كان لها دور كبير في سياسة الدولة ، حيث أوعزت بقتل ولي العهد مصطفى ليتولى ابنها سليم ، توفيت سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م ، وكذلك كانت صفية جارية أصلها من البندقية ، زاد نفوذها في عهد ابنها محمد لأنه كان لأمّ السلطان وإذا توفيت فلأقدم زوجات السلطان مكانة في البلاط العثماني، وكثرت بينهن وبين باقي موظفي القصر السلطاني المؤامرات والدسائس إلى أن شكلوا مراكز قوى كانت خطرة على الدولة، وأصبحت أحد العوامل التي أدت إلى تأخرها ، وقد احتد بينهم التنافس الذي كان أحد مظاهره التسابق للمشروعات الخيرية، خاصة في الحرمين الشريفين . يلماز أوزتونا ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٥٥٩ ، ومعجم الدولة العثمانية ٩٦ ، ٩٧ ، و٢٨٦ ، ٢٨٧، و

-Akgunduz : Bilinmeyan Osmanli , p. 319 - 327

(٤) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٢ ، و وثيقة وقفها ، ورقة ٨ .

(٥) القطبي : إعلام العلماء ، ص ٨٢ .

وأنشـأ داود باشا والـي مصـر سـبيلاً بالقرب من مدرسـتـه ، وحفر له بئرًا عُرفت بالداودية[١] ، كمـا بنى قـاضـي العـسكر السـابق الذي جـاور في مكة ، مدفنًا له في المعلاة ، وأنشأ إلى جانبه سبيلاً أجرى لـه الماء من العين في سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م[٢] ، وكان من بين مـهام مـحمد جاويش الديوان العـالي الـذي كان مشرفًا فنيًا على عمارة الحرم إنشاء سبيلين في المعلاة ، أحدهما إلى يمين الصاعد إلى منى ، والثاني إلى يساره[٣] .

وقد كان لأشراف مكة مشاركة في هذا المجال ، فقد بنى الشريف بركات سبيلاً ألحقه بالرباط الذي بناه ، ووفر له الماء من بئر بجانبه أيضًا[٤]. كما عمّر الشريف أبو نمي سبيلاً بجانب مدفنته الذي أنشأه في المعلاة[٥] ، وبنى القاضي حسـين المالـكي سبيلاً في مكـة سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م[٦] . وكان لعـامـة النـاس مشـاركة في هذا المجال ، ونـأخذ على سـبـيل المثال سـبيل آل فـهد الذي كـان موجوداً في سويقة وقد عمروه وأعادوا تشغيله خلال القرن العاشر الهجري[٧] .

وأما الحـمامات فمنها الحـمام الذي عُرف بحمـام النبي صلى الله عليه وسلم ، في سـوق الليل ، وحـمام أنشـأه الوزير محـمد[٨] بالقرب من الشـبيكة ،

---

(١) بئر الداودية : لم يزل في مشروعات توسعة الحرم وظل يعمل إلى سنة ١٤١٢هـ بينما أزيلت الآبار الأخرى كلها . كوشك : زمزم ، ص ٩٦ ، ١٠١ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٢٩ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٧ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٥ .

(٥) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٨٢ .

(٦) العيدروسي : النور السافر ، ص ٢٥٧ .

(٧) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٧ .

(٨) بقي حمام الوزير محمد إلى سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ثم هدم لصالح مشروع توسعة المسجد الحرام وظلت آثار مباني حمام سوق الليل إلى سنة ١٤١٠هـ . غباشي : المنشآت المائية ، ص ٢٨٢ .

وحمام قبله ، وحمام قايتباي ، وقد تراوح النشاط العمراني في المياضئ بين هدم بعض منها وإنشاء أخرى ، إذ أمر السلطان مراد بهدم ما كان منها قريبًا من الحرم ويؤذي المصلين ، ومنها حمام الغوري الذي كان بجانب باب إبراهيم، فإنه استبدل به آخر وبقي منها خمسة حمامات استمرت تعمل إلى القرن الحادي عشر الهجري[١] .

وأما المنشآت الصحية فقد اقتصرت على مستشفى أنشأه الوزير محمد[٢] وربما كان عوضًا من المستشفى المستنصري الذي أغلق في عهد السلطان سليمان ، كما زُودت الاستراحات التي هُيئت خارج الجهة الجنوبية من الحرم ببعض مصاطب للمرضى ، وتم طلب عدد من الأطباء للعمل فيها فوصل اثنان منهم ولم يُحدد مكان عملهم[٣] ، ولم تلبث المباني التي عُملت لاستراحة المرضى أن استخدمت لأغراض أخرى . وفي العصور المتأخرة حُوّل المبنى الذي أُسس باسم الخاصكية إلى مستشفى عُرف بمستشفى الغرباء[٤] .

ومع ما يُبذل من جهود من أجل توفير المياه بمكة المكرمة ، فهناك فترات تمر بها البلاد تكون الأوضاع الجغرافية فيها جيدة ، يسقط فيها كثير من الأمطار مما يسمح بزراعة الحبوب والفواكه ، ويزيد في إعمار البساتين التي

---

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٤ - ٩٥ ، الوثيقة رقم ٩٦ دفتر المهمة رقم ٢٨ ، ص ١٤ عن الموافقة على إنشاء حمام الوزير محمد في مكة وقد بُلغ بها القاضي العثماني في مكة سنة ٩٨٤هـ ، ثم أوقفت مبانيها سنة ٩٩١هـ ، الوثيقة رقم ١٦٧ ، دفتر المهمة رقم ٥١ ، ص ٥٣ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٣١١ - ٣١٣ .

(٣) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣١ ، ودراسة الأحوال الصحية ، ص ١٨ ، وثيقة رقم ٢ ، دفتر مهمة رقم ٢ ، ص ١٤١ .

(٤) دراسة عن الخدمات الصحية في مكة من القرن العاشر حتى بداية العهد السعودي ، مركز أبحاث الحج التابع لجامعة أم القرى ، ص ٢١ .

من أشهرها بستان السلطان سليمان القانوني وبستان زوجته ، وكلاهما في المعلاة ، ومنها بستان القاضي حسين المالكي ، وبستان القائد ريحان ، وغيرهم . ولكن معظم البساتين تصيبها أزمة المياه بين الحين والآخر[١] .

ومن منشآت المصالح أيضًا التكية التي بنتها زوجة السلطان سليمان في المدعى ، وهي مؤسسة خيرية لإيواء أربعين محتاجًا ، وتأمين الغذاء لهم ، وقد ألحقت بها مطبخًا وفرنًا وبئرًا لتأمين الماء[٢] .

---

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٧ – ٩٨ .

(٢) وثيقة وقفها ، ورقة ٨ .

# المبحث الثالث

# المنشآت التعليمية والمباني الموقوفة عليها وعلى منشآت المصالح المرسلة

كان الجانب الثالث الذي خدمته منشآت عمرانية عثمانية وغيرها ، وكان لها من ضمن المنشآت والعمران في مكة خلال القرن العاشر الهجري ما يتعلق بالمنشآت التعليمية مثل المدارس والأربطة والزوايا التي سبق الحديث عنها ، وقد صُمّمت هذه المنشآت لتحقيق الهدف الذي أسست من أجله ، وعلى سبيل المثال : رباط الشريف بركات الذي أُسس في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م في خط الحزامية خلف أجياد ، بني على شكل مجمع سكني يتكون من أربعين وحدة سكنية موزعة على دورين بالتساوي ؛ ويشتمل الدور الأرضي على قاعة كبيرة فيها محراب ، اتخذت مسجدا ، وفي الوقت نفسه قاعة تعليمية . ومعروف قديمًا أن الأربطة تستخدم مقرًا للقاء العلماء ، وقاعات للمحاضرات ودورًا لإقامة الصلاة . ويوجد بالرباط دهليز فيه خلوة للبواب ، تعلوها خلوة أخرى لشيخ الرباط ، وقد أُلحق بالمبنى السبيل الذي ذُكر آنفًا ، وبجانبه بئر لسد حاجة السكان من الماء ، ولا تخفى أهمية هذه البادرة في بلد شحيح الماء كمكة[١] .

ومن المنشآت التعليمية الخاصة بالمدارس ، ومنها المدرسة الداودية[٢] في باب العمرة ، ومدرسة السلطان سليمان التي كانت تتكون من أدوار متعددة ، ويمر أسفل منها ممر يوصل بالحرم من إحدى جهاته وبالشارع العام من الجهة الأخرى ، ويدخل للمدرسة من دهليز به بئر ، وتوجد على جانبه الخلاوي

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٥ .

(٢) وثيقة وقف داود باشا رقم ٣٥٩ ، محفظة ٥٤ ، دار الوثائق القومية ، الأوراق ٤، ٥ .

وهي مطلة على الحرم ، وتتوسطه قاعة محاضرات تعلوها قبة كبيرة[١] . وطلب السلطان مراد أن تكون مدرسته مبنية على تصميم مدرسي وفق ما هو معروف، وعلى أرقى مستوى ، وخصص لبنائها مبلغ ثلاثون ألف أقجة قابلة للزيادة[٢] .

كما نقلت إلينا نماذج من أحد مباني الزوايا ، وهي زاوية المولوية وتقع في منطقة مرتفعة من جبل أبي قبيس تشرف منها على مكة ، وتتكون من حجرات تطل على مساحة مزروعة بالزهور تتوسطها فسقية ماء[٣] .

وقد يتطلب استمرار المؤسسات التعليمية ومؤسسات المصالح المرسلة في أداء عملها نفقات كبيرة للصرف على المتطلبات الضرورية لتشغيلها ، ومن ذلك مرتبات الموظفين والطلاب واعاشتهم ولو بشكل جزئي ، بالاضافة إلى مصروفات التشغيل من إضاءة ونظافة واحتياجات الخدمة والصيانة والترميم، ولهذا أُقيمت منشآت أخرى كانت تُستثمر في أغراض عديدة كالسكن أو التجارة أو الزراعة. تُؤجر أو تُشَغّل ثم يُصرف ريعها على المؤسسات التعليمية والاجتماعية ، وتظل موردًا دائمًا لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه المباني الاستمثارية خدمت أغراضًا خيرية لفئة أخرى من ذوي الدخل المحدود في المجتمع ، فقد كانت المباني السكنية تؤسس كوحدات سكنية تؤجر بمبالغ زهيدة لمن لا يستطيعون تملك منازل تخصهم ، وكذلك الحال بالنسبة للدكاكين والبساتين فإنها توفر فرص عمل لقسم كبير من الناس من صغار التجار والمزراعيين .

وكانت المنشآت الاستثمارية التي تصل منافعها إلى ؤسسات التعليم

---

(١) الوثيقة رقم ٢٠٣ صحيفة ٢٠٢ ، دفتر مسقفات السلطان سليمان ، إدارة أوقاف مكة المكرمة .

(٢) وثيقة رقم ٣٥٤ ، دفتر المهمة رقم ٧ ، أرشيف رئاسة الوزراء بإستنبول .

(٣) أوليا جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٦٥ ، والعجيمي : خبايا الزوايا ، ورقة ١٥ .

والخدمات المرسلة تقام في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي ، كالشام ومصر وتركيا وغيرها[(١)] ، ثم يحمل ريعها إلى ما خصص له ، ومنها ما كان يبنى في مكة ذاتها ، وسيخص هذا المبحث الأوقاف الاستثمارية التي كانت تستثمر في مكة في فترة الحكم العثماني لها خلال القرن العاشر الهجري فقط .

بلغت المباني التي وجدت في مكة في هذه الفترة لأغراض خدمة الأهداف التعليمية والاجتماعية عدداً كبيراً ، كان بعضها قد أُنشئ قبل القرن العاشر الهجري بفترة طويلة ، وبعضها الآخر أنشئ أو اشتري خلال القرن نفسه . فمن المنشآت الاستثمارية التي وجدت قبل القرن العاشر الهجري المباني التي أقامها سلاطين المماليك ، ومنهم السلطان خوشقدم[(٢)] والسلطان قلاوون الكبير[(٣)] والصغير[(٤)] والسلطان الغوري ، فقد بنى باب إبراهيم وجعل علوه قصراً وبجانبه مساكن خيرية[(٥)] .

ولكن أشهر منشآت سلاطين المماليك الاستثمارية الخيرية التي ظلت تؤدي دوراً ملموساً في مكة ، منشآت السلطان قايتباي ، فقد بنى تحت مدرسته عدداً من الخلاوي كانت تؤجر ويستفاد من ريعها ، وكذلك عدداً من الدكاكين حول باب السلام ، ومنازل بُنيت في المروة ، لكن أشهر هذه المباني : الرباع[(٦)]،

---

(١) وثيقة وقف داود باشا ، الأوراق ٥ ، ٦ ، و وثيقة وقف الخاصكية رقم الأوراق ١٢ ، ١٧ .

(٢) دفتر مسقفات السلطان قايتباي ، الوثيقة رقم ٦ ، ص ١٣٦ . منها داران في الشامية قرب باب الباسطية .

(٣) دفتر مسقفات السلطان قايتباي ، الوثيقة رقم ٢ ، ص ١ عمارة في باب السلام .

(٤) دفتر مسقفات السلطان قايتباي ، الوثيقة رقم ٦٢، ص ٣٥ دار في رحبة باب السلام الكبير الخارجية .

(٥) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق ١٩٩ ، ٢٠١ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٩٥ .

(٦) الربع : هو مبنى كبير يطل عادة على الطريق العام ، يخصص الجزء العلوي منه للسكنى ، ويفصل كل سكن عن الآخر ، كما تفصل الحوانيت التي في الجزء السفلي من الربع ، وتؤجر المساكن للأسر الفقيرة وقلما يكون لكل سكن باب مستقل يطل على الطريق ، بل إن للربع مدخلا واحدا للجميع . عبدالرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١١٥ .

دورًا ملموسًا في مكة ، منشآت السلطان قايتباي ، فقد بنى تحت مدرسته عددًا من الخلاوي كانت تؤجر ويستفاد من ريعها ، وكذلك عددًا من الدكاكين حول باب السلام ، ومنازل بُنيت في المروة ، لكن أشهر هذه المباني : الرباع[١]، وهي ربع البزابيز في القرارة ، وربع العزب في المسعى ، وربع الحريرية الذي تحولت شهرته إلى ربع الميضأة يمين الذاهب إلى المروة من حارة القشاشية ، وربع الحمام وكان يُطلق عليه أيضًا ربع الرز في المناطقة في القرارة ، وربع الدشيشة ويسمى أيضًا ربع مغازل في حارة القرارة ، إضافة إلى بناء عمارات كبيرة ، منها ما أطلق عليه اسم القصر المشنشن ، وهو مسكن يتكون من وحدتين منعزلتين ، وتحته عشرة دكاكين ، ويقع قرب المروة أول شارع سويقة من حارة الشامية ، وغير ذلك من المباني التي كانت في باب السلام بفتحتيه المعروفتين بباب السلام الصغير والكبير[٢] .

أما المباني الاستثمارية التي أوجدت في القرن العاشر فقد كان أولها سبع مبانٍ اشتراها سلطان الهند مظفر شاه ، وخصص إيراداتها للصرف على مدرسته التي أسسها في مكة سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م [٣].

---

(٦) الربع : هو مبنى كبير يطل عادة على الطريق العام ، يخصص الجزء العلوي منه للسكنى ، ويفصل كل سكن عن الآخر ، كما تفصل الحوانيت التي في الجزء السفلي من الربع ، وتؤجر المساكن للأسر الفقيرة وقلما يكون لكل سكن باب مستقل يطل على الطريق ، بل إن للربع مدخلا واحدا للجميع . عبدالرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١١٥ .

(٢) دفتر مسقفات قايتباي رقم ٩ ، ودفتر مسقفات السلطان سليمان ، ولكنه يحتوي على كثير من وثائق منشآت قايتباي ، ومصدرهما إدارة الأوقاف في مكة المكرمة .

وكلمة مسقفات تعني العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحوانيت ورباع وخانات وغير ذلك ، وتدر دخلاً هلاليًا أو شهريًا ، ويطلق عليها أيضًا اسم المستغلات الهلالية . ليلى عبد اللطيف : دراسات تاريخية ، ج١ ، ص ٣ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٩ .

سليمان للصرف على مدارسه وأربطته التي بناها بجوار الحرم عدداً من المباني ، منها ما كان في سويقة ومنها ما كان في الجودرية [١] ، وبنى السلطان مراد ثلاث عمارات للصرف على مدرسته وسبيله في الصفا[٢] . وكان دخل تكية زوجة السلطان سليمان (الخاصكية) يأتيها من أوقاف في مكة وأخرى في مصر ؛ فأما التي في مكة فإنها دكاكين ألحقت بالتكية وبستان ومبنى إلى جانب رباطها[٣] . وكانت هناك مبانٍ تتبع الوزير محمد و داود باشا[٤] . وظل وقف العباس على نشاطه أيضاً[٥] ، وكما أسهم أشراف مكة في المؤسسات التعليمية فإنهم أقاموا أيضاً مشاريع استثمارية ، منها وقف أبي نمي ، ومنه دار تحتها سبعة عشر دكاناً في شارع الغزة في شعب عامر[٦] وحوش الكباريتي بمحلة جياد[٧]، وداران في القرارة وأربع دور في باب العمرة وحوش في النقا وقهوة بزقاق المجزرة ونصف وجبة ماء من عين السدرة وربع

---

(١) دفتر مسقفات السلطان سليمان في إدارة أوقاف مكة المكرمة ، الوثائق رقم ١٨٢ ، ١٩٣ ، ص ٩١ ، ٧٦ على سبيل المثال .

(٢) القطبي : اعلام العلماء ، ص ١٥٥ .

(٣) وثيقة وقفها ، ورقة ٨ وهو ستة حوانيت وداران متلاصقتان بجوار الميناء في جدة ودار بقرب الصفا يحدها المسعى ، ورقة ١٩ .

(٤) دفتر مسقفات السلطان سليمان ، وثيقة رقم ٨٧ ، ص ٧ و ٢٥ و ٤٩ ، وهي مكونة من دكاكين ودور في سويقة في الشامية . ووثيقة رقم ١٤٣ ، ص ٦٣ له ربع ودار بجانبه في حارة الشامية أيضاً .

(٥) وثيقة رقم ٢٦ ، صحيفة ١٣ ويقع بين باب النبي ﷺ وباب العباس على يمين الذاهب إلى المروة ، ودكان ودار إلى جانب رباط العباس . دفتر مسقفات السلطان سليمان ، إدارة الأوقاف في مكة المكرمة . وكان المشرف عليه إلى نهاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري العالم محمد بن فهد : تحفة الناس ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٦) صك المحكمة الشرعية بمكة رقم ١٥٨٩/ س .

(٧) صك المحكمة الشرعية بمكة رقم ٧٣ ، صحيفة ١٠٢ .

وتسعة دكاكين في الجودرية ودكاكين في باب العمرة وثمانية دكاكين في الغزة وغيرها كثير[١] . وكان للأشراف نشاط عمراني خاص ، حيث أعاد الشريف بناء دار الحكم ، وهو مقر إقامته ، المعروف بدار السعادة ، وبنى إلى جانبه منزلاً لابنه[٢] .

وقد قامت كل المنشآت العمرانية في مكة سواء منها المؤسسات التعليمية أو الاجتماعية والمباني الاستثمارية المحولة لها ، على نظام الوقف الاسلامي الذي خدم أغراضًا شتى ذات أهداف سامية[٣] ، قدمت أجلّ الخدمات للمجتمع الإسلامي عامة ، ولمكة خاصة ، ليس في القرن العاشر فقط ولكن على الدوام . فالمنشآت السالف ذكرها قد ظلت تعمل في مكة حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ولم تُزَلْ إلا لغرض أسمى هو توسعة الحرم المكي الشريف . وبعضها ما زال مستمرًا في أداء رسالته [٤].

---

(١) صك المحكمة الشرعية بمكة رقم ٦٥/٢ . وعن حوش الكباريتي : دراسة صكوك الأوقاف الخيرية بمكة المكرمة ، إعداد : ناصر المحيميد ، ص ٥٢ . تفضل على الباحثة بالصكوك الثلاثة الأخيرة ، الناظر على وقف الشريف أبي نمي أ/د. حسن محمد باجودة : أستاذ في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى مختص في دراسة الأدب العربي ، وكرس اهتمامه للدراسات الأدبية في القرآن الكريم . تخرج من جامعة لندن عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م . له أعمال مطبوعة بلغ عددها مائة وسبعة أعمال ، وله تحت الطبع تسعة عشر عملاً . وقد تكرم بالنبذة الموجزة عن سيرته الذاتية نفع الله به وجعله قدوة .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٤٥٤ ، ٤٦١ .

(٣) عن تعريف الوقف وأهميته نشير إلى دراسات ندوة : مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية ، مكة المكرمة ، ١٨ – ١٩ شوال سنة ١٤٢٠هـ ومنها بحوث كل من :

- الدرويش : الوقف ومشروعيته وأهميته الحضارية ، ص ٦ – ١٤ .
- المعيلي : دور الوقف في العملية التعليمية ، ص ٤ – ٨ ، ١٢ – ٣٠ .
- السدلان : أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات ، ص ٢٦ – ٣٢ .
- المغربي : الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم ، ص ١٢ ، ١٧ ، ٢٨ – ٦٠ .

(٤) ومن ذلك مثلاً : وقف أبي نمي السابق ذكره .

والجدير بالذكر أن الناحية الخططية لمكة لم تتغير كثيرًا ، حيث ظلت مساحتها وامتدادها وأسماء الأحياء فيها بالوضع نفسه الذي كانت عليه في القرن التاسع الهجري ، ويبدو أن السبب في ذلك هو الرغبة في البقاء في المناطق المحيطة بالمسجد الحرام ، للحرص على أن يصله قاصدوه دون مشقة، فكانت المنشآت تقام في المناطق غير المبنية أو تستبدل بها أخرى ، لأنها قد مضى على بنائها فترات طويلة واحتاج الأمر إلى تجديدها ، وكذلك الحال بالنسبة للأودية والمدن التابعة لها إداريًا[1] .

يتضح مما سبق ضخامة واستمرارية المشاريع الإنشائية العمرانية في مكة ، وتعدد الأغراض التي قامت لأجلها ، فهي إما لخدمة وصيانة مباني المقدسات ، وإما لأهداف تعليمية أو اجتماعية وخيرية ، وأهمها مشاريع المياه ، مما عاد نفعه على المكيين والحجاج بل على المسلمين كافة . وقد طبعت هذه المباني مكة بطابع عثماني ، كما تطلب تنفيذها وجود طبقة من العاملين العثمانيين بأعداد كبيرة ومن مستويات مختلفة ، مما قوى النفوذ العثماني السلمي في مكة ، ونفى فكرة سطحية وجودهم ، واقتصار علاقتهم بمكة على ما كانوا يبعثونه لأهلها من مساعدات ، على ألا يزيد حضورهم على ذكر أسماء سلاطينهم والدعاء لهم في المنابر ، كما هو شائع .

---

(١) عن الأحياء في مكة انظر : محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٧٣ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص١٣٣ ، وعن امتدادها انظر : محمد بن فهد : حسن القرى في أودية أم القرى ، ص ٢٧ - ٣٤ .

# الفصل الخامس
# الأحوال الاقتصادية في مكة المكرمة

المبحث الأول - المقررات الأميرية المالية والعينية.

المبحث الثاني - الصناعة والزراعة والتجارة والموارد المحلية الأخرى .

# المبحث الأول
# المقررات الأميرية المالية والعينية

من المعروف أن دخل المصادر الاقتصادية في مكة قليل وغير ثابت المعدل، وذلك نتيجة للعوامل الجغرافية والدينية المؤثرة على التاريخ المكي دائمًا .

ففي العهد العثماني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أدت الأزمات البيئية واضطرابات الوضع السياسي الداخلي في الحجاز خصوصًا ، والإقليمي في المناطق ذات الصلات التجارية القوية به عمومًا ، إلى زيادة تذبذب عائدات الدخل المحلي . لكن تقوية النفوذ العثماني في هذه المناطق أعاد إليها شيئًا من الاستقرار ، وساعدت مضاعفة مقادير المبرات العثمانية وغيرها لأهل الحرمين على تخفيف حدة الأزمات المالية فيهما مع نهاية هذا القرن ، حيث إن التحسن كان تدريجيًا مواكبًا لبقية الأحداث .

يُقصد بالمقررات الأميرية هنا كل المساعدات الحكومية المالية والعينية التي قُدمت إلى مكة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري ، وقد كانت تقدم من العثمانيين وغيرهم . وما تاريخ هذه الحقبة من أنشطة البر الإسلامية في مكة إلا حلقة من سلسلة أخبار جانب مهم من علاقات المسلمين الدولية والفردية بالمدن المقدسة وأهلها .

### المساعدات الأميرية غير العثمانية :

أدى تطور العلاقات بين الدول في العالم الإسلامي خلال القرن العاشر الهجري إلى زيادة المساعدات المقدمة من كل منها إلى مكة أكثر من المعهود

عادة . وذلك يأتي استمرارًا للنشاط الخيري أولاً ومظهرًا من مظاهر التنافس أو التقارب فيما بينها ثانيًا ، على النحو الذي كان متعارفًا عليه بينها لحقبة طويلة من التاريخ الإسلامي[١] .

فبعد امتداد الحكم العثماني إلى مكة ، سمح العثمانيون للقوى التي أظهرت رغبة في التقرب إليهم بممارسة أعمالها الخيرية بحرية ، ومنها عدد من سلطنات وإمارات في الهند وشرق أفريقيا والخليج العربي .

ولقد عُرفت الصلات بين مكة وممالك الهند الإسلامية بقوتها وقدمها[٢] ، إلا أن تطور الأحداث السياسية الداخلية في شبه القارة الهندية، وضغط الخطر البرتغالي الخارجي[٣] ، دفع إمارة الكجرات إلى مضاعفة العمل على كسب الرأي العام الإسلامي إلى جانبها ، خاصة في مكة ملتقى المسلمين الأول ويشمل ذلك ممثلي الدولة العثمانية القوية المتولية لزعامة العالم الإسلامي .

ففي سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م أي بمجرد امتداد النفوذ العثماني إلى مكة، استأنف السلطان الكجراتي مظفر شاه نشاط بلاده الخيري في مكة بعد توقف لفترة من الزمن[٤] ، وقد زادت مساعداته بتضاعف كبير ، حيث ارتفعت من خمسة آلاف دينار في عام ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م إلى ستين ألف دينارٍ في العام التالي ٩٢٥هـ / ١٥١٩م بين عينية ونقدية . وقد صُرفت الإسهامات الخيرية الكجراتية هذه في عدد من الخدمات التي تمس أكثر الجوانب أهمية في مكة،

---

(١) انظر التمهيد ص ٨ ، ٩ .

(٢) الطرازي : التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ، ج ١ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٣) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٣ ، ٧٣ .

وهي إقامة المؤسسات الثقافية والهبات الفردية وصيانة مصادر وشبكات المياه في مكة كما في سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م[١] .

ثم توقفت المساعدات إلى حين ، بسبب وفاة السلطان مظفر شاه سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م[٢] لتعود أقوى مما كانت في عهد ابنه وخليفته السلطان بهادر شاه ، إذ بعث في سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م مبلغًا كبيرًا من المال ، جُعل عن عدة سنوات ، فكان ما خص الشريف وحده مائة ألف دينار[٣] .

لكن أعلى معدل لما قدمه الكجراتيون من مبرات كان مع تصاعد تأزم الموقف في بلادهم بسبب الخلافات بينهم وبين حكومة دهلي ، التي اضطرت عائلة السلطان بهادر شاه إلى اللجوء إلى مكة، حيث قدموا بحرًا وبصحبتهم ثلاثمائة وخمسون صندوقًا تفاوتت مقادير وقِيَم محتوياتها ، وتعددت أصنافها من أموال ومجوهرات وتحف ثمينة، قدموها للسلطان سليمان القانوني، وطلبوا منه المساعدة ضد أعدائهم من الهنود والبرتغاليين في الهند، مما كان سببًا من أسباب خروج حملة سليمان الخادم سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م . كما قبل لجوء الكجراتيين إلى مكة فأظهروا مدى ثرائهم الواسع ، حتى إن أسعار الذهب انخفضت في الأسواق في الوقت الذي كانوا يهيئون فيه أماكن إقامتهم[٤] .

وقد تقرب الكجراتيون إلى كافة فئات المجتمع في مكة ، وظهر السخاء في عطائهم للفقراء طول مدة إقامتهم ، وخصصوا رواتب كبيرة للعلماء مقابل

---

(١) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٣٠ ، ١٣٨ .

(٢) الحسني : نزهة الخواطر ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٤١ ، ٤٤٤ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص٣٢٦ .

دروس كلفوهم بتدريسها في المدرسة التي أنشأها سلطانهم مظفر شاه أو في الحرم ، أو في اجتماعات وندوات وجلسات ذكر كانوا يعقدونها في بيوتهم . كما أقاموا حفلات وولائم على مستوى راق من الضيافة والحفاوة ، ودعوا إليها كبار الشخصيات في مكة كالمسئولين العثمانيين والقضاة والعلماء والتجار . كما تبادلوا مع الشريف الزيارات والهدايا والأعطيات . وقد دام نشاطهم طوال مدة لجوئهم إلى مكة في الفترة من سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م إلى سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م . ثم غادروها إثر عودة حملة سليمان باشا من الهند التي اتضحت بعدها السياسة العثمانية تجاه الموقف في تلك البلاد[١] ، على الرغم من تجاوب الرأي العام في مكة مع قضية الكجراتيين الذي عبروا عنه بقصائد شعرية ومؤلفات بعثوا بها إلى سلاطينهم[٢] .

ولكن مبرات الكجراتيين استمرت بعد ذلك ، حيث أرسل السلطان محمود[٣] سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢ م بضائع بيعت في مكة بحوالي أربعة آلاف دينار من الذهب وحفر بثمنها آبار في رابغ وخليص قريبًا من الطريق التي يسلكها الحجاج بين مكة والمدينة[٤] .

وقد كان لمملكة المغول في دهلي أعمال خيرية في مكة أيضًا ، كانت تقوم

---

(١) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٧٨٥ ، ٧٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) السلطان محمود : ولي إمارة كجرات سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م بعد مقتل بهادر شاه ، وهو ابن أخيه، حكم إلى سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م . ذكر أوزتونا أنه هو الذي طلب المساعدة من السلطان سليمان القانوني، لكن الحملة كان يجري الإعداد لها منذ استصراخ بهادر شاه وقبل أن يلي هو السلطة . العيدروسي : النور السافر ، ص ١٩٠ ، ٢٢٦ ، ويلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢٧ ، الحسني : نزهة الخواطر ، ص ٣٢٧ وقال : ولي سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

بها في الوقت نفسه الذي كان فيه الكجراتيون يمارسون نشاطهم ، ففي سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م وزع وكيل الصدقة الدهلوية في مكة الشيخ شوفان بن بيسق شيخ الفراشين[١] في الحرم مبالغ مالية قدرت بعشرة آلاف دينار ، ولكن تقبل المكيين للصلات المغولية لم يكن بدرجة تقبلهم لما كان للكجراتيين[٢] .

وقد دامت المساعدات والصلات بين مسلمي الهند ومكة طوال العهد العثماني ، لكنها طبعت بطابع فردي في آخر العهد العثماني ، ربما بسبب وضع الهند السياسي[٣] .

ومن شرق أفريقيا تلقى شريف مكة مساعدات في سنة ٩٣٩ هـ/١٥٣٢م من إمارة عدل[٤] التي تزعمت الجهاد ضد المسيحيين في الحبشة ، كانت عبارة عن تحف وعنبر وعدد من العبيد ، كان من بينهم جارية قيل إنها ابنة أحد ملوك الأعداء ، كما خصص جزء من هذه المساعدات لإقامة أوقاف في المدينة المنورة[٥] .

---

(١) شوفان بن بيسق : شيخ الفراشين في الحرم ، وهم من يتولون أمر الفرش ونحوه . وآل بيسق أسرة دمشقية الأصل ، قدم جدهم في مطلع القرن التاسع الهجري ، وحين كان أمير آخور بيسق يتولى عمارة الحرم بعد احتراقه، لقب الطفل الذي ولد لشيخ الفراشين باسم الأمير ، ولي بيسق مشيخة الفراشين سنة ٨١٩هـ بعد تنازل خاله له عنها ، ثم ولي أمانة الزيت والشمع الخاص بالحرم بعد وفاة متوليها ، ورث أولاده بعده وظائفه ، وظلت فيهم إلى منتصف القرن العاشر الهجري . السخاوي : الضوء اللامع ، مج ٣، ج ٦ ، ص ٣٢١، والسنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٤٤٦ ، محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٧٤ .

(٢) قال محمد بن فهد : « سلطان المغل محمد بن همايون صاحب دلي وإنه من ذرية تمرلنك الطاغية » ، نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ .

(٣) الزواوي : بغية الراغبين ، ص ٢٤ – ٢٥ ، وباسلامة : تاريخ المسجد الحرام ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٤) عرفت في الفصل الثالث من هذه الدراسة ، ص ١٥٦ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٥٥ .

ومن الخليج العربي بعثت حكومةجزيرة اللار[١] مساعدات مالية ، بلغ مقدارها أربعة آلاف دينارذهبًا، قدم بها أحد قضاتهم سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٧م[٢]، كما قدم أحد سلاطين العجم مبلغًا ماليًا في سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م قدره سبعة عشر مثقالاً من الذهب ليدعى له في خطبة يوم عرفة[٣] .

ومن إمارات الخليج التي كانت تقدم مبرات لمكة منذ مطلع القرن العاشر الهجري، إمارة القطيف والحسا، بزعامة شيوخها من بني جبر، وقد تكرر وفود زعماء منهم لأداء فريضة الحج، كان آخرهم مقرن بن جبر الذي لقي مصرعه في طريق عودته إلى بلاده سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م على أيدي البرتغاليين . وقد كان لمساعداتهم أثر كبير في فترات الصراع بين أبناء محمد بن بركات في مطلع القرن العاشر، وفي وقت الأزمات الاقتصادية التي اجتاحت مكة في السنوات الأولى من الحكم العثماني لها[٤] .

ثم نشّطت إمارة البصرة بعد ذلك العلاقات الخليجية بمكة ، فقدم أميرها الشيخ راشد بن مغامس سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م وسنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م ، فكان قدومهم ينعش الحركة التجارية في أسواق مكة ، إلا أنه لم تتحدد أعمالهم الخيرية بالتفصيل [٥].

وقد شكلت هذه المساعدات ، إلى جانب ما كان يقدمه العثمانيون الذين تتبعهم مكة سياسيًا ، موردًا ماليًا انتفعت به فئة من المكيين لفترات محدودة، كما سيأتي .

---

(١) جزيرة اللار: جزيرة كبيرة قرب سيراف وهي من بلاد العجم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥،ص٧.

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٥٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٠١ ، ٤٢١ ، وابن فرج : السلاح والعدة ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٥) محمد بن فهدد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ق ٢ ، ص ٦٦٣ .

## المساعدات العثمانية :

لوحظ تزايد الحركة الخيرية العثمانية في مكة منذ بداية ظهور قوة دولتهم في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، حتى فاقت غيرها كمية وانتظامًا ، وقد حملت اسم « الصرة » .

**فالصرة** : هي مصطلح تاريخي عرفت به المساعدات العثمانية منذ بدء نشوئها . وقد كانت ترسل من إستنبول إلى المدن المقدسة ، برفقة قافلة الحج الشامي[١] ، وكان يطلق عليها اسم « الصرة الرومية » تمييزًا لها عن غيرها من المساعدات التي كانت تصل إلى مكة[٢] .

وقد اقتصرت الصرة على مبالغ مالية فقط موضوعة في صرر مختومة بكميات محددة ، أخذ مقدارها في الزيادة إلى أن بلغت ثمانية وعشرين ألف دينار قبل دخول مكة تحت الحكم العثماني مباشرة[٣] .

وكان هدف العثمانيين من تقديم هذه المبرات خيريًا ، قُصد منه مساعدة أهل الحرمين وجيرانهما ماديًا ، والإسهام في الحركة التعليمية ومجال الخدمات العامة ، كما أنها حققت معاني سياسية ، لأنها شكلت البداية العملية والخطوة الأولى لاتجاه العثمانيين إلى زعامة العالم الإسلامي، ويبدو ذلك من تاريخ تطور إرسال الإعانات الذي يبدأ عادة بالخلاف حول المؤسس لنظام المساعدات العثمانية المنتظمة لأهل المدن المقدسة ، والمرجح أنه السلطان بايزيد الأول ، لأن

---

(١) Atalar : Surre, Humayun , p. 1-3.

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٩ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧ .

(٣) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

قوة الدولة العثمانية بلغت في عهده حداً أهلّها للدخول في محيط علاقات الدول الإسلامية الكبرى ، التي كان من أبرز مجالاتها المشاركة في العناية بشئون المسلمين ومقدساتهم . وقد أعاد السلطان محمد جلبي بن بايزيد الأول الاستقرار إلى دولته ورد لها هيبتها بعد أن كادت تعصف بها الفتن ، فلم يكن أدل على ذلك من عودتها إلى متابعة سياسة خارجية نشطة ، كان منها استئناف ما انقطع من إرسال المساعدات للحرمين ، وجعلها تخرج بصفة دورية بأن وقف عليها منطقة باليق حصار . وتم في عهد مراد الثاني توسعة التعريف بأعمال البر العثمانية ، والعمل على لفت الأنظار إليها من الأوساط العامة في مكة .

أما محمد الثاني فقد أكسب النشاط الخيري العثماني صفة رسمية ، بأن أرفق مع مبراته التي خصّ بها أهل الحرمين من غنائم فتح القسطنطينية، خطابات بالبشرى والعلم بالمرفقات إلى حكام الجهتين السياسيتين الحاكمتين لمكة ، وهما : دولة المماليك في مصر، وإمارة الأشراف في مكة . واستطاع بايزيد الثاني أن يحصل على موافقة مملوكية بالعمل على تسهيل مرور المساعدات إلى مكة عبر مصر ذاتها . ثم تدخل السلطان سليم الأول بعد ذلك حتى في كيفية التوزيع ، فأراد تعديل حصة الشريف التي اعتاد الحصول عليها وهي الثلث مما كان يرد إلى مكة من مساعدات . وأخيراً ، كان الهدف الأهم من تحرك العثمانيين ضد المماليك هو : تولي حماية المقدسات الإسلامية مما كان يتهددها من الأخطار الخارجية ، وخدمتها بعدما تعرضت له منطقتها من تدهور اقتصادي[١] .

---

(١) انظر التمهيد لهذه الدراسة ص ٤٠ ، ٤٩ .

وقد وضع السلطان سليم أسس وقواعد رعاية المدن المقدسة بمجرد وصول النفوذ العثماني إلى الحجاز ، وبدأ في تنفيذها قبل أن يغادر مصر عائدًا إلى إستنبول سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م ، حيث شارك في احتفالات خروج أول قافلة حج تقصد مكة في العهد العثماني[١] ، بما تحمله من مساعدات فاقت ما كان يقدمه العثمانيون في السابق أضعافًا[٢] .

وقد قدمت الدولة خدمات عامة للمدن المقدسة ، وشاركت في الإشراف على تنفيذها مباشرة ، ببعث موظفين من العاصمة، أو بالاعتماد على ولاتها في مصر وجدة ، مخالفة بذلك ما عُرفت بـه روح العصر عامة وأنظمة الحكم العثماني خاصة ، من قصر التدخل المركزي الحكومي في شئون ولايات الدولة على متطلبات الدفاع الخارجي ، وحفظ الحقوق والنظام والأمن الداخلي ، مع الاكتفاء بوضع الإطار العام للإدارة المالية ، وبتقرير ما تتطلبه المناطق المختلفة من مشاريع حيوية وتنموية معتمدة على اللامركزية في التنفيذ ، والإشراف والمتابعة التي تركتها لولاة الأقاليم ، على أن يغطوا نفقاتها مع باقي الاحتياجات الإنتاجية بموارد ولاياتهم ، بما يكفل تحقيق ازدهارها ، ثم يرفعوا ما تبقى بعد ذلك من الواردات للخزانة العامة للدولة[٣] .

فما كانت تقدمه الدولة العثمانية وتشرف عليه من أنشطة ومشاريع في الحرمين ، كان يُعد انطلاقًا من المفهوم السابق خارج نطاق اختصاصها ، وهي إنما تقوم به بوصفه عملاً خيريًا تتبرع به لخدمة المدن المقدسة وأهلها ، وقد شمل عملها الجوانب التالية :

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ج ٣ ، ص١٤٥٣، ١٤٦٥ .

**أولاً** - وضع نظام إداري ومالي للحجاز يتناسب مع قدسيته وقلة موارده وحالته السياسية[١] ، وخلاصته أن الدولة استقطعت جزءًا من واردات الحجاز وأبقت جزءًا منها لإمارة الأشراف ، وخدمت المدن المقدسة بالاعتماد على موارد ولاياتها الأخرى ، مما حقق نمو وتحسين المنطقة ، وقلل من نفوذ الأشراف السياسي والعسكري .

**ثانيـًا** - إقامة مشروعات عمرانية وتعليمية وغيرها ، مع التكفل بصيانتها وتشغيلها بصرف رواتب موظفيها وتأمين المعدات والأدوات الضرورية للعمل فيها[٢]. إلى جانب العناية بالمشاعر المقدسة ، وبطرق الحج من أماكن انطلاق قوافل الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

**ثالثـًا** - تقديم جميع احتياجات الحرمين الشريفين من مالية وعينية .

**رابعًا** - تخصيص إعانات للمحتاجين من أهل المدن المدينتين المقدستين.

ولقد وفر العثمانيون الأموال اللازمة لسد مصروفات ونفقات هذه الخدمات من عدة مصادر، أهمها : واردات كل من مصر والشام وتركيا واليمن والحجاز، إما من خزائنها مباشرة ، وإما من أوقاف حبست على الحرمين فيها[٣] . بالإضافة إلى إمدادات أخرى مقطوعة اعتاد السلاطين وكبار الشخصيات في الدولة تقديمها على دفعات ، وفي أوقات غير محددة ، لدفع متطلبات مشاريع طارئة كعمارة المسجد الحرام ، أو مشاريع المياه أو في مناسبات تخص الدولة كتقديم مبرات وصدقات طلبًا للدعاء من المكيين في حالات خروج حملات

---

(١) الصواف : العلاقات الحجازية ، ص ٤٥ - ٤٧ و الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) انظر الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٦ ، ج ٢ ، ص ٩٦١ - ٩٦٢ .

Shaw : The Financial , p . 378 .

للحرب، أو وفاة شخصية مهمّة[١] .

ولم يحدد العثمانيون سقفًا أو نهاية لصلاتهم التي كانوا يبعثون بها إلى المدن المقدسة ، فتنامت على مدى العهد العثماني كله ، لكن أهم وأكبر المقررات العثمانية كانت في فترة حكمهم للحجاز خلال القرن العاشر الهجري . وقد بدأت بما خصصه السلطان سليم حال وجوده في مصر .

وفيما يلي بيان بالمخصصات العثمانية لمكة من كل مورد من الموارد السابقة على حدة :

## المخصصات العثمانية في عهد السلطان سليم :

أولاً – المقررات من واردات الولايات : أقر السلطان سليم النظام المملوكي المالي في الحجاز ، فأبقى لإمارة مكة كل واردات الحجاز ما عدا نصف جمرك جدة وقسمًا من واردات جمرك ينبع ، وما دون الألف من تركات من مات ولم يكن له وارث ، ومبالغ مالية وتقدمات عينية تدفع لأمراء الحج وموظفيهم تقدمها إمارة مكة في ينبع ومكة وجدة والعلا كل عام[٢] . وقرر شراء كميات من القمح من الخزانة المصرية ونقلها إلى الحجاز ، لتوزع في الحرمين الشريفين مستهلاً بذلك المساعدات العينية العثمانية[٣] ، وقد بقيت هذه

---

(١) بعث السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٠ هـ مبلغًا ماليًا وزع صدقة بعد وفاة والدته والأمثلة على ذلك كثيرة . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٧٨ .

(٢) تم تفصيل شرحها في الفصل الثاني .

(٣) ذكر السنجاري أن هذا أول حب يرسل إلى مكة ، وربما كان يقصد في العهد العثماني، لأن المساعدات العينية من الحبوب كانت تصل إلى مكة من مصر واليمن ، ومن ذلك ما كان يبعث في العهد الأيوبي وأشهره ما أرسله السلطان صلاح الدين الأيوبي لشريف مكة بعد أن أقر إبقاء إمارة الأشراف، ولكنه منع أخذ المكوس من الحجاج، وأعاد المذهب السني إلى الحجاز، وعوض الأشراف عن ذلك بكميات من القمح كان يرسلها سنويًا. وأورد شو: أن السلطان سليم كان يبعث أربعين ألف إردب ==

المساعدة تقدم من الخزانة المصرية إلى نهاية العهد العثماني[١] . وبقيت أيضًا المخصصات العينية التي كانت ترسل إلى مكة منذ العهد المملوكي ، كما صرف السلطان سليم على الحرمين باقي واردات مصر التي كان من المفروض أن ترفع للدولة ، ونصف جائزة السلطان من حلوان تعيين والي مصر[٢] . واستمر صرف المبلغ الذي كان يبعث به العثمانيون إلى الحرمين قبل امتداد الحكم العثماني إليهما ، ومقداره ثمانية وعشرون ألف دينار ، لكن تقرر إخراجها من مصر وليس من إستنبول ، وهي المعروفة بالصرة الرومية[٣] ، وقد ظلت تُعرف كذلك للتفريق بينها وبين ما كان يُبعث من مبرات أخرى من مصر [٤] .

ثانيًا - الأوقاف : ظلت حصيلة الأوقاف التي خصصت للحرمين الشريفين قبل الحكم العثماني ترسل إليهما من كل من مصر والشام وتركيا والحجاز . وقد حملت أوقاف المماليك أسماء كانت تعرف بها ، ومنها في مصر: الحكمي والمستجد والذخيرة ، وفي الشام : البرج والغارية وغيرهما . وقد

---

= من القمح كان يشتريها من الخزانة المصرية ، لكن ما وصل إلى الحجاز كان سبعة آلاف إردب فقط . السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ .

- Shaw : The Financial , p . 378 .

السباعي : تاريخ مكة ، ص ٢٢٤ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٠ .

(١) الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٤٣ .

- Shaw : The Financial , p . 378 .

(٢) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٧٩ ، والماوي : العلاقات الاقتصادية ، ص ٦٥ .

(٣) كانت المساعدات المالية العثمانية ترسل إلى مكة مع قافلة الحج الشامي من إستنبول ، وقد زاد انتظام وصولها في عهد السلطان قايتباي ثم الغوري المملوكيين . عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٠ مثلاً .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣٢ ، والسنجاري: منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، والحربي : نظم الحكم ، ص ٢٤٥ .

شهدت مردودات الأوقاف في الشام انتعاشًا في بداية حكم العثمانيين[١] .

وأضاف السلطان سليم أوقافًا جديدة ، قرر بعضها في مصر وبعضها في مكة ، ومنها : حمام في سوق الليل ، وعدد من البيوت اشتريت بألف دينار كان أحدها في الصفا[٢] .

ثالثًا – المساعدات المقطوعة : قدم السلطان سليم عددًا من الهبات المقطوعة بسبب الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت الحجاز في بداية الحكم العثماني ، ومنها : أربعمائة حمل دقيق أرسلها سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م من مصر. وقدم خاير بك أمير أمراء مصر مائة إردب أخرى من القمح أيضًا سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م ، وألفًا وأربعمائة إردب عرضها لتباع في الأسواق فتساعد في تحسين الأسعار[٣] . كما شارك القبطان سلمان الريس ووالي جدة قاسم الشرواني والشريف بركات بمبالغ مالية ، كان أكبرها ما قدمه سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م وكان مقداره ستمائة دينار ، ولم يُغن كل ذلك عن مشاركة التجار في الجهود الخيرية بإسهامات مختلفة[٤] .

## المخصصات العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني :

أبقى السلطان سليمان على الكثير مما قرره والده ، وأجرى تعديلاً على الباقي ، فأوقف صرف بعض ما كان قد تقرر وأضاف غيره ، فأصبحت المقررات كالتالي :

أولاً – المقررات من واردات الولايات : شملت التعديلات التي تمت

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٢ ، ٤٠ . Shaw : The Financial , p. 388 - 392

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٥ ، ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٢٠٦ .

فـي عهـد السلطان سليمـان في مـوارد المسـاعدات من هذا الجانب خـفض حصة الشريف من واردات جـمرك جدة في الفترة من سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١م إلى سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١ م بنسب متفاوتة ، ثم أعيدت إلى النصف كما كانت في السـابق[١] .

وكـان السلطان سليم الأول قد أبقى كل حـصة الدولة من واردات مصـر للصرف على الحرمين ، لكن السلطان سليمان اكتفى بتخصيص المتحصل من الجـوالي، وهي الضـرائب التي كـانت تؤخـذ من أهـل الذمـة في كل من مصـر والشـام للحـرمين ، فـاسـتـفـاد بذلك من واردات الشـام أيضًـا ، وأقـر بـاقي المخصصات المالية التي حددها والده من خزانة مصر وحلوان تولية واليها[٢] .

ومن المبالغ المالية السنوية التي كانت تبعث إلى مكة في هذه الفـترة من باقي المسئولين في الدولة ، ألف دينار من ولي العـهـد سليم بن سليمـان[٣] ، وألف دينار من الصـدر الأعظم إبراهيم بـاشـا ثم مـحـمـد صـوقللي باشـا ومصدرها استنبول[٤] ، كـمـا قـرر إبراهيم باشـا ، إرسـال كـميـات سنوية من القـمح باسـمـه ، وزعت في عـامي ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م و ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م على قوائم توزيع المساعدات السنوية الأخرى نفسها القادمة مع الصرة[٥] .

وقـد أصبـحت ترد من اليـمن مـسـاعـدات إلى الحـرمين بصـفـة رسـمـيـة ، اعتبـارًا من سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٩ م برفقة قافلة الحج ، واستمرت إلى ما بعد

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٠٩ .

(٣) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١١٩ ، وقـال : ٨٠٠ دينار، بينما ذكر النهروالي في الإعـلام أنها ألف دينار .

(٤) النهروالي : الإعلام ، ص ٣١٢ ، والسنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

وقد أصبحت ترد من اليمن مساعدات إلى الحرمين بصفة رسمية ، اعتبارًا من سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ م برفقة قافلة الحج ، واستمرت إلى ما بعد القرن العاشر الهجري(١) .

ثانيًا - الأوقاف : كانت إضافات السلطان سليمان في هذا الجانب من المساعدات كبيرة جدًا ، فقد أضاف أوقافًا جديدة لزيادة مصروفات كسوة الكعبة ، لعدم وفاء أوقافها السابقة باحتياجاتها(٢) . كما ضاعف مقادير القمح المرسلة إلى المدن المقدسة بإقامة أوقاف جديدة . فأصبحت أوقاف السلطان سليم تعطي ثلاثة آلاف إردب قمح ، وأوقاف السلطان سليمان تعطي مثلها(٣) . كما وقف مناطق في الشام ومكة للصرف على منشآته الثقافية في مكة(٤) . وفي سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م وقف مناطق لمساعدة الحجاج المنقطعين الذين يرافقون قافلة الحج المصري ، عُرفت بسحابة الحجاج(٥) .

كما اشترى ستين عبدًا زوجهم بمثلهم من الجواري ، ووقفهم للعمل في نظافة المسعى، وصيانة شبكة مياه العيون في مكة، ووكل أمر إدارة عملهم إلى المسئول عن تنفيذ عمليات الصيانة والتعمير التي أمر بها في الحرم، وقد ظل نسل هؤلاء العبيد يعملون فيما كلفوا به إلى نهاية القرن العاشر الهجري(٦) .

وبلغ نشاط حركة الوقف على أيدي كبار الشخصيات درجة عالية، ومن أشهر ما وقفوه في مصر ومكة من المنشآت والأراضي الزراعية : أوقاف الخاصكية زوجة السلطان سليمان، وأم ولي عهده سليم الثاني، في مكة، وكانت عبارة عن مؤسسة خيرية ، شملت رباطًا يتسع لإقامة أربعين شخصًا ، ألحقت

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢١ ، ١٢٨ وقد انقطع سنة ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩ م قدوم محمل من اليمن .

(٢) الإسحاقي : أخبار الأول ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٦٩ ، ١٧٥ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٣٥ .

(٤) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١١٤ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٢٧ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٣٢ ، ٨٣٣ .

(٦) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١١١ .

به دشيشة لتقديم الطعام للنزلاء ، وكانت تُشغل ويصرف عليها من ريع أراضٍ وُقفت بمصر ، ترسل حصيلتها من القمح للدشيشة ، وخصص لنقلها سفينتان تحملها إلى حواصل موقوفة في جدة[١] .

كما وُقفت دور ودكاكين وبستان في المعلاة في مكة ، وقد ظلت المنشآت قائمة إلى سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م وإن اختلفت أغراض استخدامها[٢] .

ومن الشخصيات التي أقامت مشروعات وقفية مهمّة في مكة : الوزير الأعظم محمد صوقللي باشا[٣] ، وولاة مصر ، ومنهم : داود باشا الذي أنشأالمدرسة الداودية في باب العمرة في مكة ، وكان يصرف على تشغيلهامن أوقاف في مصر ومكة[٤] ، واسكندر باشا . وقد بلغت الأراضي التي وقفها في مصر مساحات واسعة[٥]، وعلي باشا السبكي[٥] ، ومنهم : الشريف أبو نمي شريف مكة الذي بنى منشآت عمرانية عديدة موقوفة في مكة ، منها وقف أقامه في باب دريبة سنة٩٤٦هـ/١٥٣٩م وأوقاف أخرى[٦]. ونميت أوقاف الحرمين في الشام وتركيا فكانت تصل إيراداتها بصحبة قافلة الحج الشامي سنويّاً[٧].

ثالثًا – المساعدات المقطوعة : قدمت في عهد السلطان سليمان إنعامات مقطوعة ضخمة المقادير ، متعددة المصادر ، كان أهمها ما صرف على

---

(١) حجة وقف والدة السلاطين ، رقم ٣٢٨٠ ، تاريخ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة ، ورقة ١٩ .

(٢) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٣١١ – ٣١٣ .

(٤) حجة وقف داود باشا ، دار الوثائق القومية ، وثيقة رقم ٣٥٩ ، محفظة ٥٤ ، ورقة ٣ – ٥ ، ٢٢ .

(٥) عامر : وثائق وقف إسكندر باشا ، ص ٨٦٥ – ٩٣٧ ، وثيقة رقم ٩١٩ ، أوقاف قديم ، وثيقة رقم ٩١٨، أوقاف قديم ، والإسحاقي : أخبار الأول ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٨٠٠ – ٨٠٢ ، وحجج وقفه المذكورة سابقًا .

(٧) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٤٣١ ، والإسحاقي : أخبار الأول ، ص ٢٢٦ .

المشروعات الإنشائية في مكة ، وهي مشروعات : ترميم المسجد الحرام ، والإصلاحات في المشاعر، والمنشآت الثقافية، ومشاريع المياه والخدمات العامة. ومن ذلك مثلاً المبلغ الذي بعث به السلطان سليمان في سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م وهو ثمانون أشرفي ذهب لعمل سقاية من ماء زمزم في الحرم ، ومقدار من الحب وصل سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م أرسلته زوجة السلطان سليمان أم ابنه مصطفى ، وقد وزع على قوائم المبرة السلطانية المبعوثة من مصر[١]. وقدمت ابنة السلطان سليمان تكلفة إيصال عين عرفة إلى مكة ، وقد أرادت أن يبقى لها من الذكر ما بقي لزبيدة العباسية ، فصرفت مبالغ مالية كبيرة ، قدمتها على دفعات على مدى عشر سنوات ، إلى أن تم إيصال الماء من عرفات إلى المعلاة[٢] وغيرها .

ومن المسئولين الذين شاركوا في الأعمال الخيرية في مكة ، من الولايات المختلفة ، وموظفيهم في عهد السلطان سليمان : القبطان سلمان الريس ووالي طرابلس وخيرالدين بربروسا والي الجزائر وسليمان الخادم ومحمود والي اليمن وعدد من أمراء الصعيد من قبائل الهوارة[٣] في مصر وشريف مكة وجانم الحمزاوي وإبراهيم المهمندار وعدد من المسئولين العثمانيين المتقاعدين الذين كانوا يؤثرون الإقامة في مكة طوعًا أو كانوا ينفون إليها، كما في عامي ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م و ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م و قدم التجار إسهامات عديدة[٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٤٢٥ ، ق ٢ ، ص ٨٠٦ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٢ - ٣٥٠ .

(٣) عشائر الهوارة : قبائل بدوية جاءت من تونس في القرن العاشر الهجري ، وتوطنوا في صعيد مصر ، كانوا مستقلين ذاتيًا ولهم تعيينات ورواتب من الدولة العثمانية لكنهم انقسموا إلى قسمين متنافسين أحدهما في الوجه القبلي والآخر في الوجه البحري وكان هذا الأخير أكثر ميلاً للتعاون مع الحكومة لأنه كان أضعف من الآخر . ويبدو أن نشاطهم المكثف في مكة كان نبعًا من تلك الدوافع إلى جانب الدوافع الدينية بطبيعة الحال . الدمرداش : الدرة المصونة ، ص ٥٧ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٧٧ - ٤٧٥ ، ق ٢ ، ص ٥٥٥ - ٧٩٦ .

## المخصصات العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني :

تواصلت مساعدات العثمانيين لمكة في كل النواحي الثلاث السابقة كالآتي :

أولاً – واردات الولايات : أبقى السلطان سليم الثاني ما كان مخصصاً للحرمين على سابق عهده ، بما في ذلك ما خصصه هو في أثناء ولايته للعهد بالإضافة لما أصبح يقدمه ولي العهد الجديد وهو ألف دينار سنوياً[١] .

ثانيًا – الأوقاف : ضاعف السلطان سليم الثاني الحب المرسل إلى الحرمين ، وخصص خمسمائة إردب للفقراء المنقطعين في جده ، ومثلها في ينبع ، فصرفت لفترة ثم أوقف صرفها لأسباب إدارية[٢] .

كما وقف سفنًا لحمل الحبوب إلى الحجاز ، لأن أجورالشحن كانت مرتفعة للغاية ، وقد تزايدت السفن الموقوفة إلى أن بلغ عدد سفن أسطول الدولة الذي خصصته لنقل الحبوب خلال القرن الحادي عشر الهجري : اثنتي عشرة الهجري اثنى عشر سفينة[٣] .

وكانت أوقاف رجال عهد السلطان سليم الثاني تشمل ما وقفه والي اليمن سنان باشا على المصالح التي وقف عليها في مكة والمشاعر وطرق ، الحج وكانت عبارة عن قرى ومصالح مصر[٤] .

ثالثًا – المبالغ المقطوعة ، تكفلت الدولة في عهد السلطان سليم الثاني

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٥٧ ، ٣٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحات نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٢ . -Shaw : The Financial , p. 388 - 392 .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٤٤٥ ، و الإعلام ، ص ٣٦٥، والإسحاقي : أخبار الأول ، ص ٢٢٦ .

بمصاريف عمارة قسم كبير من المسجد الحرام ، وتم إيصال شبكة قنوات مياه عين عرفة إلى الأحياء المحيطة بالحرم ، من الأبطح إلى المسفلة مروراً بالشامية في شمال المسجد[١] . وقدم ولاة اليمن مبالغ مالية وزعت في مكة في وقت مرورهم بها وهم في طريقهم إلى مقر عملهم . ومنهم عثمان باشا ، وسنان باشا وشارك سنان في خدمة الحرم برصف الدائرة المحيطة بالمطاف بالحجارة المنحوتة ، وبحفر بئر في التنعيم خارج مكة سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م [٢].

## المخصصات العثمانية في عهد السلطان مراد الثالث :

زاد السلطان مراد ومعاصروه إضافات أخرى في كل فرع من الفروع الثلاثة السابقة وهي :

أولاً – واردات الولايات : قرر السلطان مراد في سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م بعث مبلغ ثلاثة آلاف دينار ذهب من إستنبول إلى أهل الحرمين سنويّا كانت تصل مع قافلة الحج الشامي، وسماها الرومية الجديدة، إلى جانب ما خصصه السلطان سليم من المبالغ المرسلة من مصر ، فأصبحت تعرف منذ ذلك الحين بالرومية القديمة، كما أبقى السلطان مراد المبلغ الذي كان يبعث به في أثناء ولايته للعهد[٣].

ثانيًا – الأوقاف : وقف السلطان مراد مدرسة وسبيلاً في مكة ، وأقام للصرف عليهما أوقافًا في مصر[٤] ، ضمت إدارة قسم منها لإدارة أوقاف أسلافه وأنشأ لقسم آخر من أوقافه إدارة مستقلة أطلق عليها اسم: الأوقاف المرادية[٥] ، لأنه علم أن جده خصص ثلاثة آلاف إردب قمح للحرمين ، وفعل

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

(٣) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٥) Shaw : The Financial , p. 399 .

والده مثل جده ، فأراد أن يحذو حذوهما ، ويقدم ثلاثة آلاف إردب أخرى ، لكن أوقافه لم تدرّ هذه الكمية . وكانت له أوقاف في الشام أيضًا(١) .

وشارك كبار الشخصيات في عهده في إقامة أوقاف جديدة ، ومنهم زوجته الخاصكية صفية ، أم ولي عهده محمد ، التي وقفت في مكة سبيلاً وبئرًا في التنعيم ، ووقفت للصرف عليها أراضي في مصر(٢) سميت بأوقاف الخاصكية الجديدة(٣) . ويبدو أن أوقاف زوجة السلطان سليمان السابق ذكرها أصبحت تعرف بالخاصكية القديمة ، وقد سلمت إدارتها في البداية إلى رجال من الفرق العسكرية المعروفة بأوجاق العزاب ، بينما كان باقي الأوقاف تحت إشراف الإنكشارية فكانوا يعملون على إدارتها وصيانتها وتنميتها بالتأجير والاستثمار(٤) ، ثم أحيلت مسئولية إدارة هذه الأوقاف من أيدي العسكريين إلى نظار مدنيين ، اعتبارًا من سنة ١١٠١هـ / ١٦٨٩م ، بسبب ما شاع عنهم من فساد(٥) .

وقد نمّى حسن باشا أوقاف الحرمين في اليمن ، وأصبحت ترسل مع قافلة الحج اليمني سنويًا ، وخصصت للفقراء من أهل العلم . كما قدم مساعدات مقطوعة لأهل مكة في أثناء مروره بها وهو في طريقه إلى مقر عمله في اليمن ، سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م(٦) .

وهكذا ، فإن المقررات المالية من واردات الولايات والأوقاف كانت تزاد في عهد كل سلطان من السلاطين الأربعة الذين حكموا خلال القرن العاشر الهجري ، وقد بلغت الأوقاف التي حُبست في مصر في هذه الفترة على

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٢ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١١٩ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٨٧ .

(٣) الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٥٦ .

(٤) الوثائق رقم ١٠١ ، ١١١ ، ٤٩٤ ، سجل ٣٢ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٧٩هـ ، والوثيقتين رقم ٧٨، ٤٤٤ ، سجل ٣٥ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٨١هـ .

(٥) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧ .

(٦) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٠٧ .

الحرمين الشريفين أكثر من نصف الأوقاف التي أضيفت فيما بعد طوال العهدالعثماني. وقد نُظمت الأوقاف العثمانية في مجموعات إدارية ، فكان ما ذكرناه منها يدخل تحت الأسماء التالية :

١ - **وقف الدشيشة الكبرى:** وهو وقف كان مخصصًا منذ عهد المماليك، ويضم أوقاف السلطانين : جقمق وقايتباي ، والأمراء والخوندات، وأضيف إليها أوقاف السلطانين العثمانيين : سليم الأول وسليمان القانوني ، فكان يرسل المتحصل منها والمقرر إرساله إلى الحرمين في سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م عشرة آلاف إردب من الحبوب ، وأضاف إليها السلطان مراد أوقافًا جديدة ، أعطت ستة آلاف إردب أخرى .

٢ - **وقف الدشيشة الصغرى:** في سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م أضاف السلطان مراد وقفه المستقل ، فقدم عوائد مالية وعينية أخرى ، وسمي بالمرادية كما سبق. فكان ريعه حين إنشائه ٤٢٥،٠٠٠ بارة و ٢٠٠٠ إردب حبوب ثم تضاعفت بعد ذلك .

**٣ - وقف الحرمين ويضم أوقاف زوجة السلطان مراد وغيرها:**

ثم أضيفت بعد القرن العاشر الهجري أوقاف أخرى هي : المحمدية والأحمدية[١] . وقد ظلت الأوقاف تؤدي دورها إلى عهد محمد علي باشا (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م - ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م) الذي أصدر أمرًا بحلها ، على أن يعوض عن مردوداتها بأموال من خزانة مصر ، عمل بها تكيتان إحداهما في المدينة المنورة والثانية في مكة المكرمة، كانتان تقدمان دشيشة وخبزًا للفقراء[٢].

وليس من السهل حصر ما كان يستخلص من الأوقاف في كل من :

---

(١) -Shaw : The Financial , p. 399 - 400 .

(٢) رفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة المعظمة ، ص ٣٢١ .

تركيا[١] والشام والحجاز .

أما المبالغ المالية التي قررها السلطان سليم فقد بلغت ٢٠٠,٠٠٠ دوكًا ثم ارتفعت في سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م إلى ٥٦٠,٠٠٠ بارة ، وفي نهاية القرن العاشر الهجري ، في سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م بالتحديد ، وصلت إلى مبلغ ١,٣٢٧,٠٤٠ بارة ، فكانت نسبة الزيادة بين الرقمين الأخيرين ١٣٦٪ .

وكان المبلغ المالي المقرر إرساله من إستنبول مع قافلة الحج الشامي في سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م ٦٠,٢٢٨ قطعة ذهبية ، وقد ظل مقدارها ثابتًا إلى سنة ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م[٢] .

وكانت الأموال المخصصة للمدن المقدسة من واردات الولايات والأوقاف تجمع من مصادرها المختلفة سنويًا ، فما كان منها من واردات الحجاز أو من الأوقاف فيه ، فإنه يصرف مباشرة من قبل الولاة في جدة ، أو نظار الأوقاف بإشراف القضاة والمحتسبين . وأما المتحصل من كل إقليم من الأقاليم الأخرى من مقررات مالية ومخصصات عينية ، فكان يعرف بالصرة ، وينسب إلى المنطقة القادم منها ، فيقال الصرة المصرية والصرة الشامية والصرة اليمنية، وتبعث الصرر إلى الحرمين مع قوافل الحج القادمة من هذه المناطق في كل عام . وقد اختصت قافلة الحج المصري بنقل أغلب المساعدات العينية ، نظرًا لوجود الأوقاف التي كانت تحمل منها الحبوب وغيرها في مصر من قبل العهد العثماني ، ولقربها نسبيًا وسهولة اتصالها بالحجاز بحرًا ، ولخبرة إدارييها القديمة في شئون الحجاز ، مما كان سببًا في إبقاء العثمانيين على الصلات الإدارية والمالية لها بالحجاز ، وللميزات السابقة كان لمصر نوع من الإشراف على باقي الولايات العثمانية الشرقية الأخرى ، وهي الشام والحبشة واليمن[٣].

---

(١) دولاب الحرمين : كانت هناك هيئة لنظارة الأوقاف في تركيا وخصصت مؤسسة خيرية لتشغيل وتنمية أوقاف الحرمين عرفت بدولاب الحرمين . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص

(٢) -Ibid. p. 379 , 388, & Faroqhi , Pilgrims, P. 80 - 84 .

(٣) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٤٢٩ – ٤٥٢ .

وهكذا ، فإن اسم الصرة كان يطلق في بدء إرسال العثمانيين المساعدات للمدن المقدسة على : الأموال الموضوعة في أكياس خاصة ، زنة كل منها ستة وعشرون جرامًا ، تساوي خمسين ألف أقجة ، أو ما يعادل دولارًا واحدًا فقط[١] ، ثم أصبح الاسم بعد دخول الحجاز تحت الحكم العثماني مصطلحًا يطلق على المقررات المالية والعينية الدائمة ، التي كانت تبعث بها الدولة العثمانية سنويًا إلى الحرمين ، للصرف على احتياجاتهما المختلفة ، وعلى مساعدة المحتاجين من أهلهما[١] .

وكانت المساعدات توزع بعد استقبال قوافل الحج رسميًا ، كل منها على حدة ، خلال الموسم ، إما بعد الحج ، وإما قبله ، بحسب الظروف ، إذ ليس هناك تاريخ محدد للصرف ولا مكان ثابت ، فقد تصرف في الحرم أو في مدرسة قايتباي بالنسبة للأموال ، وأما الحبوب فقد تفرق من مخازنها التي كانت تستأجر لها في إحدى وكالات قايتباي في الحناطين (محل بيع الحبوب)، أو في الحرم الشريف[٢] .

وفي عهد السلطان سليم الأول أي بداية الحكم العثماني ، قدم إلى مكة خازنداره الأمير مصلح الدين ، وفي معيته قاضيان من آل الجيعان[٣] في مصر، وهم من ذوي الخبرة المالية الطويلة في العهد المملوكي ، فأقروا الجهات المتولية للصرف وأوجهه ، ثم أرسل أمير أمراء مصر بعد ذلك مراقبًا من قبله لحضور عمليات التوزيع ، والاطلاع عن كثب على طريقة سيرها ، فاتخذ إجراءات وعمل تعديلات مؤقتة ودائمة توقى بها العديد من السلبيات التي طرأت ، فتحددت القواعد التي سار عليها توزيع الصرر في العهد العثماني فيما بعد ، حيث شكلت لجنة للإشراف على صرف الإعانات وإيصالها إلى مستحقيها[٤] ، وتتكون هذه اللجنة من مندوبين يمثلون كل جهات النفوذ في

---

(١) -Atalar: Surre-i Humayun,p.1-3, & Otmanboluk: Surre, 20-23.

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ق ٢ ، صفحات متفرقة منها ص ٥٠ – ٥٣ ، ٩٨ ، ٢٦٤ .

(٣) آل الجيعان : أسرة عمل أبناؤها في القضاء وتولوا وظائف مالية منها ديوان الجيش وكتابة الخزانة في الدولة المملوكية وقد خدموها مائة وعشرين سنة كانت نهايتهم على يد خاير بك أمير امراء مصر سنة ٩٢٨هـ ، بعد أن سخط على أحدهم . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ – ٤٥٥ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٢ – ٣٣ ، ٥٠ – ٥١ ، ١٦٢ .

مكـــة ، وهم : إمارة مكة والقاضي العثماني والوالي في جدة ، وأمراء الحج وشيخ الحرم وموظفون ماليون ، في مقدمتهم أمناء الصرة والصرافون والعديد من الكتاب المعينين من قِبَل كل جهة على حدة[١] .

## أوجه صرف الصرر :

١ - **مخصصات الأشراف:** أكرم العثمانيون الأشراف عامة ، وأشراف مكة خاصة ، معنويًا وماديًا ، فخصصوا لهم رواتب كبيرة ثابتة ، وهي مخصصات لكل من :

أ - الشريف أمير مكة: ألغى العثمانيون بعد امتداد حكمهم إلى الحجاز قاعدة حصول الشريف على ثلث المساعدات الحكومية التي كانت ترسل إلى مكة[٢]. وعوضوه عن ذلك راتبًا قدره خمسمائة دينار ، ونصف مايخص السلطان من حلوان تولية ولاة مصر ، وعدد من الخلع والهدايا السنوية له ولنائبه ، إلى جانب ما كان ينوبه من الموارد الحجازية[٣] ، على تراوح في نسبتها خلال القرن العاشر الهجري[٤] .

ب - تعيينات الأشراف : هي مخصصات عينية من القمح كانت تصرف لعدد من شخصيات الأشراف كأمراء مكة المعزولين عن الشرافة أو المتنحين عنها ، ومبالغ مالية كانت تستقطع من الخزانة الإرسالية للسلطان ، أو بفرض ضريبة على بعض الأوقاف[٥] .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) جارشلي : أمراء مكة ، ٦١ - ٦٢ ، والحربي : نظم الحكم ، ص ٢٢٧ - ٢٣٧ ،

-Atalar : Surre - i Humayun, p. 59 .

(٣) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٠٠ .

(٥) -Shaw : The Financial , p. 384 - 385 .

**٢ - رواتب الموظفين:** وهم مجموعات منهم :

أ - القضاة : وفي مقدمتهم قاضي مكة العثماني ، ويحصل على مخصص مالي سنوي من واردات جمرك جدة ، وعلى كميات من القمح كانت تسلم له من الصرة ، وكان لنوابه من قضاة المذاهب الأربعة من المكيين مخصصات في الصرة ، وفي نهاية القرن العاشر الهجري خصصت مرتبات للمفتين أيضاً[١] .

ب - العلماء : المكلفون بوظائف تعليمية وغيرها كلفتهم بها الدولة للتدريس في الحرم الشريف ، أو في المؤسسات التعليمية الأخرى كمدارس السلطان سليمان أو السلطان مراد .

جـ - موظفو الحرم : سواء من الإداريين كشيخ الحرم ، أو موظفي إقامة شعائر الدين وهم المؤذنون والخطباء أو المؤقتين وموظفي أعمال الصيانة والنظافة من الفراشين والسقائين والوقادين والبوابين ، وقد استعيض عن هذه المجموعة الأخيرة أو عن معظمها تدريجيًا بالعبيد الخصيان فكانت تخصص لهم أوقاف تصلهم رواتب منها أيضاً .

د - الموظفون العثمانيون : من إداريين ومحتسبين وكتاب وغيرهم ، وكان هؤلاء يحصلون على رواتبهم من رسوم يفرضونها على الجهات التي يعملون معها ، أو من موارد جمرك جدة ، أو من مخصصات في الصرة . وهناك مجموعة من الموظفين العثمانيين المتقاعدين أو المنفيين الذين كانوا يعيشون في مكة وتصلهم رواتبهم ضمن الصرر أيضاً[٢] .

هـ - رواتب شيوخ القبائل : المقيمين على طول طرق الحج المعروفين

---

(١) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٣١ .

(٢) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٤٥٩ .

بأهل الدرك ، وهم المكلفون بالمشاركة في حراسة قوافل الحج وبحماية وصيانة مصادر المياه على طرقها(١) .

و – الجند : صدر أمر السلطان سليم بألاّ يصرف للعسكريين رواتبهم من الصرر السنوية المرسلة(٢) ، وإنما يحصلون عليها من واردات مصر ضمن رواتب فرقهم التابعين لها . لكن عدل عن ذلك وأصبحت رواتب الجند ترسل مع الصرر ، مما كان سببًا في رفع أرقام الصرر(٣) ، كانت الرواتب كلها عبارة عن مبالغ نقدية ، ومخصصات عينية بعضها من القمح ، بالإضافة إلى هدايا كانت تسمى الخلع وهي قطع من ملابس التشريفات والمناسبات كالقفاطين والجبب ، يكلف بتسليمها موظفون مخصوصون يعرفون بأغوات القفطان(٤) . وتختلف مقادير الرواتب بطبيعة الحال باختلاف مركز وأهمية عمل من صرفت له ، ولكنها عمومًا ليست كبيرة ، بما في ذلك رواتب القضاة ، ويلمس ذلك من التعليق الذي قاله سنان باشا بعد أن حضر وليمة دعاه إليها حسين المالكي القاضي وناظر الحرم وهو : « لقد صرفت علينا في يوم واحد أكثر من مخصصاتنا لك في عدة أعوام »(٥) .

**٣ - الاحتياجات العينية للحرم :**

أ – كسوة الكعبة : بُدئ في كسوة الكعبة -كما جاء في بعض الروايات- منذ عهد نبي الله إسماعيل عليه السلام ، وبقيت محل اهتمام فردي من عامة العرب وخاصتهم إلى العهد الإسلامي(٦) ، فأصبح أمر الكسوة مسندًا

---

(١) الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٨١ – ٣١٥ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٠٢ – ١٤٢٧ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٦ .

(٣) -Shaw : The Financial , p . .

(٤) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٦٣ – ٦٥ .

(٥) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٥١ .

(٦) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٣٢ – ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ – ٢٥٩ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة ، ص ٢٨٩ – ٢٩٥ ، والشيبي : إعلام الأنام ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

إلى الدولة الإسلامية ، مما منح كل دولة إسلامية تولت هذه المهمة شرفًا مزيدًا، وجعل مركزها محل تطلع وتنافس من الدول الأخرى[١] .

وقد انتقلت صناعة الكسوة إلى مصر منذ أن مد الظاهر بيبرس نفوذها إلى الحرمين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٢] ، وبعد أن دخل السلطان سليم مصر انتقل أمر إعداد كسوة الكعبة إلى العثمانيين ، لكنهم أبقوا خروجها من مصر ، فظلت كذلك طوال العهد العثماني الأول ، وقد أنفذها السلطان سليم بعد دخوله إلى مصر في موعدها ، وحضر الاحتفال السنوي بخروجها في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م [٣]. ووقف لها وقفًا لأجل تزيينها بخطوط الذهب والفضة[٤].

كانت الكسوة الخارجية للكعبة تصنع من أرقى خامات الحرير والقطن والكتان ، ويجري العمل فيها لعدة أشهر ، وقد زاد السلطان سليم في تحسينها ، فأصبح يستخدم في نسج الجامات والحزام وستارة الباب خيوط الذهب بعد أن كانت بالحرير الأصفر فقط في السابق . أما الكسوة الداخلية فكانت من حرير أحمر ، ويجري إعدادها وإخراجها من إستنبول ، ولم يكن لها وقت محدد للتغيير ، فكانت تستبدل أحيانًا عند جلوس سلطان جديد ، أو كل خمسة عشر عامًا ، وقد تدوم أكثر من دلك ، ويجري بعثها حين تغييرها مع قافلة الحج الشامي[٥] .

---

(١) باسلامة : تاريخ الكعبة ، ص ٢٩٦ – ٣٢٢ ، وزين العابدين : الكعبة والحج ، ص ١٦٠ – ١٦٤ .

(٢) الدقن : كسوة الكعبة ، ص ٤٥ – ٤٨ ، والشيبي : إعلام الأنام ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، والمؤذن : كسوة الكعبة ، ص ١٣٦ – ١٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢١٤ . Shaw : The Financial, p. 385 .
وقد أصبحت الكسوة تنسج في مكة منذ سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م في عهد الملك عبد العزيز آل سعود ، وقد أنشئ أول مصنع لها في أجياد ثم نقل إلى جرول وأخيرًا إلى أم الجود . عراقي : موسوعة مكة المكرمة ، ص٣٤٧ – ٣٦١ .

(٥) المؤذن : كسوة الكعبة ، ص ١٩٠ – ١٩١ ، ٣٤٠ .

وقد وُقفت على كسوة الكعبة ثلاث قرى في ضواحي القاهرة في مصر منذ العهد المملوكي، ثم زادها السلطان سليمان القانوني قرى أخرى[١] يقدم ريعها لدار الكسوة ، لتشتري الخامات النفيسة المستخدمة في نسيج الكسوة، وكانت توزن قبل أن تسلم للعاملين ، ثم يُعاد وزنها بعد الانتهاء من العمل، للتأكد من استعمال كل الخامات [٢]. وبعد الاحتفال بخروج الكسوة تنقل إلى مكة براً مع قافلة الحج المصري، ويجري استبدالها بالقديمة يوم عيد الأضحى، ثم تقدم إلى آل الشيبي سدنة بيت الله الحرام للتصرف فيها بالبيع والإهداء، واستمرت أوقاف الكسوة إلى أن ضمها والي مصر محمد علي باشا إلى أملاك الدولة ، وأصبحت الحكومة المصرية تتكفل بتكاليف الكسوة من وارداتها[٣] ، مما جدد تأثير العوامل السياسية على إخراجها[٤] .

وقد كساها السلطان سليمان القانوني في سنة نيف وعشرين وتسعمائة وسنة أربعين وسنة ستين أو تسع وخمسين وتسعمائة هجرية[٥] .

وكان العثمانيون يقدمون كسوة لمآثر أخرى في مكة ، كضريح السيدة خديجة رضي الله عنها في المعلاة ، وقد كسي سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م و ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م ، فهي بذلك ليست سنوية[٦] . أما مقام إبراهيم فقد كان

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ١٠٤ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٦٩ ، ١٧٥، وباسلامة : تاريخ الكعبة، ص ٣٢٢ . وكان يشرف عليها عسكريون أيضاً . وثيقة رقم ٤٩٤ ، سجل ٣٢ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٧٩هـ

(٢) المؤذن : كسوة الكعبة ، ص ٢٤٠ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ .

-Shaw : The Financial , p . 386 .

(٣) رفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، و المؤذن : كسوة الكعبة ، ص ١٩٦ ، ٢٠٥ .

(٤) الدقن : كسوة الكعبة ، ص ١٠٧ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٩٩ .

(٦) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٣ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٤٣ ، ١٥٨ .

يكسى سنويًا بكسوة مطرزة تشبه ستارة باب الكعبة[١] ، ولم تحدد ماهية الكسوة تمامًا ولا مصدر أموالها[٢] ، ولكن احتفل بخروجها في بداية العهد العثماني ضمن احتفالات خروج قوافل الحج[٣] .

ومما كان يقدم سنويًا ويستقطع من مصاريف قافلة الحج أو إيرادات أوقاف كسوة الكعبة في مصر ، طيب الكعبة ، ومنه عطر الورد وماؤه والعنبر والمسك وشمع إضاءة داخل الكعبة ، وقد بلغ مقدار ما صرف على هذه المواد سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م خمسمائة وخمسين نصف فضة جديدة . كما أخذ من هذا الوقف مبالغ للصرف على العاملين في نقلها ، بعد أن خفض عددهم في البداية ، وأنفق ما كان مخصصًا لهم من أموال الدولة على مستلزمات الكعبة[٤] . وكان قسم من المتطلبات يبعث من إستنبول كباقي الطيب والبخور والشمع ، ومنه الحبال اللازمة لربط أستار الكعبة[٥] . وقد أبقى العثمانيون على تسليم كسوة الكعبة القديمة للسدنة من آل الشيبي[٦] . ثم أصبحت الكسوة تبعث من إستنبول بعد القرن العاشر الهجري[٧] .

ب – أثاث الحرم ومتطلبات الإضاءة والنظافة والصيانة فيه : ومن ذلك الحصر والمفارش والقناديل والشمع والزيت والمكاتل والمجارف وغيرها[٨] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ، والقطبي : إعلام العلماء ، ص ١٤٣ .

(٢) ددة : الرسالة المقامية ، الأوراق ، ١ . ١٣ ، ٢٦ ، ٣٩ – ٤٠ ، وباسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ووثيقة رقم ٣٠٠ ، سجل ٣٢ ، محكمة الباب العالي ، سنة٩٧٩ هـ .

(٥) المؤذن : كسوة الكعبة ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٦) القطبي : إعلام العلماء ، ص ٦٤ .

(٧) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٨١٨ – ٨١٩ .

(٨) -Shaw : The Financial , p. 393 .

وكانت هذه المستلزمات تُحفظ في قبة الفراشين في الحرم أو في المخازن الأخرى التي بناها العثمانيون لهذا الغرض ، وهي مخزن في الجانب الشرقي من الحرم باتجاه باب الصفا كان مبنيًا إلى جانب سقاية العباس وإثنان في باب زيادة وإثنان آخران في باب إبراهيم[١] .

٤ - **مصاريف** تشغيل وصيانة المشاريع التعليمية والخيرية ومشاريع الخدمات العامة ، كصيانة مصادر المياه والحمامات ، وتأتي من أوقاف مخصصة لها ، سواء في مكة أو خارجها ، كما سبق شرحه في موضعه .

٥ - **المساعدات** للمستحقين في مكة ، وهي مالية وعينية أيضًا ، وخصصت لمجموعتين من المكيين . الأولى : أهل العلم من العلماء الذين يعملون بالتدريس في الحرم تطوعًا ، فلم ينلهم ما خصص من مرتبات العلماء العاملين بتكليف من الدولة ، ولعامة طلاب العلم الذين يعيشون في المؤسسات التعليمية أو يتلقون تعليمهم في الحرم ، وهذه المنح الدراسية خصصت لهم مقابل انصرافهم للعلم ، وانشغالهم عن الكسب من عمل محدد . والثانية : من أطلق عليهم في بداية العهد العثماني اسم العامة ، وقصد بهم ذوو الدخل المحدود من الأسر المكية ممن ليس لهم مصدر دخل ثابت أو حرفة ، فكانوا يعيشون في مستوى اجتماعي دون المتوسط . وقد استثني من المستحقين للحصول على رواتب من الصرة : كل من التجار والسوقة ، وقد عُرف هؤلاء الأخيرون في المصادر المعاصرة بأنهم أهل الحرف الذين يعملون في الأسواق من غير التجار، كالصرافيين والخبازين والسمانين، وقيل : هم كل من يمارس عملاً خارج القطاع الحكومي[٣]. وكان العسكر من المستثنين أيضًا في البداية كما سلف ، ولكن أعيد بعث مخصصاتهم ضمنها فيما بعد .

---

(١) باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٩٧ .

(٢) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٦ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٠٢ .

(٣) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

وقد قامت لجنة صرف الصرة التي قدمت في عهد السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م بتحديد المستحقين للمساعدات في مكة مبدئيّا ، بعمل إحصاء لمن تنطبق عليهم الشروط ، وقد بلغ عددهم في ذلك العام اثنا عشر ألف نفس ، سجلت في دفاتر الصرة ، وهي كشوفات جعلت مرجعًا تفرق بموجبه المساعدات في السنوات التالية ، من الصرر ومما يرد من هبات مقطوعة خلال العام[١] .

وكان يجري تحديث هذه الدفاتر بين فترة وأخرى ، كما في سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م ، وفي إحصاء ذلك العام بلغ عدد المستحقين أربعة عشر ألف نفس ، وفي سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م وسنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م كانوا ستّا وثلاثين ألف نفس[٢] . ويلاحظ تزايد الأعداد ، لأن الناس كانوا يكاتبون أو يقصدون إستنبول والقاهرة لإضافة أسمائهم وأسماء من يلوذون بهم [٣]، كما قصد مكة كثير من الزهاد والمتعبدين الأتراك ، ووفد إليها أيضًا أعداد من اللاجئين من نواحي أخرى[٤] . وكان الناس يسعون لتسجيل أسمائهم في دفاتر الصرر القادمة من كل مكان ، للحصول على مرتبات من كل منها[٥] .

وقد اختلفت مقادير الصرة المرسلة من عام إلى آخر، لعدة عوامل، منها :

١ - اختلاف دخل الأوقاف زيادة ونقصانًا بحسب ظروف الإنتاج الزراعي .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٥٠ ، ٤٠٧ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٧٧ ، ق ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٣) محمد بن فهد : الجواهر الحسان ، ورقة ١١٨ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ ، ٥٣٠ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٠٦٨ .

٢ - تأثر كميات القمح المشتراة من الخزانة المصرية ، تبعًا لسعره في السوق ، وقد فكروا في شراء القمح من مكة ، ولكن أسعاره في مصر كانت أدنى دائمًا .

٣ - اختلاف أسعار النقل والتخزين ، فقد تقل أجرة وسائل النقل من الدواب والسفن وقد ترتفع ، فلم يصل من القمح الذي بعثه السلطان سليم لأهل مكة إلا خمسة آلاف إردب من الآلاف السبعة المقررة ، لأن الفين منها بيعت وصرف ثمنها على النقل والتخزين في جدة ومكة ، وما بقي بعد ذلك من نقد وزع مع الحب . وفي سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م كانت الجمال ضعيفة وقليلة ، مما رفع أسعار النقل إلى خمسين دينارًا للجمل ، وجعل أمير الحج يسلم نقل قمح المساعدات إلى متعهد ، بعد أن كان من صميم اختصاصه[١] .

٤ - الحوادث والكوارث الطبيعية : ومنها تعرض سفن نقل الحبوب للغرق أو القرصنة أو السطو والسرقة ، كما في عامي ٩٢٥هـ/١٥١٩م و٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م وفيهما نهب أعراب لام قافلة الحج الشامي . وفي سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م هاجموا قافلة الحج المصري ، وأخذوا مائتي جمل كانت تحمل زيت الحرم[٢] . وقد يتعرض إنتاج القمح للنقص ، بسبب الكوارث الطبيعية كالجراد أو الجفاف ، أو التلف[٣] .

٥ - سوء الإدارة : فكثيرًا ما كان نظار الأوقاف يهملون أمر العناية بها، ولا يكترثون بالمنشآت الوقفية ولا يتعهدونها بالإصلاح والصيانة والتحسين والتنمية ، ولم تكن تراعى متطلبات رعاية الأراضي الزراعية وخدمتها بما

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفساهما .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٠٢ . Faroqhi : Pilgrim , p. 86.

يحسن إنتاجها ويزيده ، كإقامة السدود والجسور وغير ذلك . كما كان القباطنة يهملون أمر العناية بالسفن الناقلة للحبوب ، ويحملونها فوق طاقتها ، أو يبحرون بها في ظروف غير ملائمة ، مما يؤدي إلى غرقها(١) ، كما في سنوات ٩٦١-٩٦٣هـ/ ١٥٥٣- ١٥٥٥م .

**٦- الفساد:** وضح مما سبق ضخامة ما كانت تقدمه الدولة العثمانية من أموال تستخلصها من أموالها العامة ، أو من الأوقاف ، أو من ممتلكات كبار الشخصيات(٢) ، وتقدمها للصرف على متطلبات الحرمين الشريفين ، وخاصة من مصر ، إلى حد أن تزايد نفقات الحرمين كان في نظر بعض الباحثين، ومنهم من يمثل وجهة النظر الإسلامية ، سببًا في تدهور حالة مصر الاقتصادية ، وتدني مستوى المعيشة فيها(٣) .

لكن الملاحظ أن المدن المقدسة ظلت على حالها ، لم يطرأ عليها أو على أهلها تبدل بحجم الصرف الحكومي والفردي الذي قرر لها ، وظل تأثير المساعدات السنوية الحكومية وقتيًا ، خاصة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، فمثلاً في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م كانت شوارع مكة مليئة باللاجئين الجوعى القادمين من البراري ، مما اضطر الشيخ أحمد الزبيدي إلى جمع تبرعات من التجار والموسرين في مكة ، لشراء أطعمة قدمها لهم(٤) ،

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٦٩ - ٨٧٠ .

(٢) قيل إن النفقات التي خصصت للحرمين أصبحت أكبر المصاريف في الدولة ، ولا يفوقها إلا ما قررته للصرف على حفظ الأمن القومي من نفقات الحروب على الجبهة الأوربية .

Faroqhi : Pilgrim , p. 89 - 90 .

(٣) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٣ ، ص ١٤٥٩ ، والماوي : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٩٤ ، و الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩١٠ ، ٩٤٣ ، ١٠٠٨ ، ١٠٣٧ .

وتكرر الوضع نفسه في سنة ٩٦٢ هـ/١٥٥٤م [١]. ورفع قسم من علماء مكة شكواهم إلى السلطان سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م لأجل النظر في وضعهم [٢]. وقد دام عدم التناسب هذا بين المصروف والمردود إلى نهاية العهد العثماني ، فالمساعدات تضاعفت إلى خمسمائة في المائة لكن لم يصل منها إلى الحرمين إلا واحد في المائة ، ويعود السبب في ذلك إلى الفساد الناتج عن تلاعب فئة من المماليك ومن الجند العثماني الذين سيطروا على الأوضاع في مصر وغيرها[٣].

وفي الحجاز حدثت تقصيرات وتجاوزات أيضًا حتى عرّضت نسبة الواحد في المائة من المساعدات للنقص ، ومن ذلك أن اللجان التي حددت المحتاجين لم تقم بعملها بكفاية ، فلم يخصص في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م نصيب فيما ورد من القمح لبعض العلماء وطلبة العلم ، مع أنهم من المستحقين له . وقبض على أكثر من والٍ في جدة بتهمة التلاعب في الأموال العامة ، حتى ما خصّ السلطان منها ، ولم تقل تجاوزات موظفي الشريف عن غيرها[٤] . كما لم يقتصر التعدي على الجهات الرسمية، فقط بل إن أطماع الأفراد تعدّت على أقل القليل الباقي، فكثير من العاطلين آثروا الإقامة في المدن المقدسة ، وقام آخرون بتحايلات للحصول على أكثر مما يستحقون ، كالاستحواذ على أكثر من خلوة في الأربطة ، أو استخدامها لغير الغرض الذي خصصت له ، باتخاذها مستودعات وبيع مياه الأسبلة في حالات أزمات المياه ، بينما هي مخصصة

---

(١) الجزيري : الدرر ، ج ٢ ، ص ٩٤٣ ، ٩٤٤ .

(٢) محمد بن فهد : الجواهر الحسان ، ورقة ١١٦ ، ١١٨ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٣ ، وجارشلي : أمراء مكة ، ص ٢٧ ، والبكري : كشف الكربة ، ص٢٩٢ – ٢٩٥ ، وابن طولون : نقد الطالب ، ص ٧ ، ٩ .

Shaw : The Financial , p . 397 , 417, Faroqhi : Pilgrims, p.156 .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢د ، ٣د مثلاً ، والجواهر الحسان ، الأوراق ١١٦، ١١٨ .

لعامة الناس[١] . وقد قال المقدسي : « لو صرفت " المساعدات " في وجهها لاستغنى الفقراء بتلك الأماكن وربما يصرف على العسكر والمحامل المعدة لحفظ الحاج وكسوة الكعبة وقلاع الطريق »[٢] .

ومع كل التجاوزات السابقة ، فقد ساعدت زيادة مقادير المساعدات، خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري – ومع تحسن مصادر الدخل المحلي – على سد قسم من احتياجات من يتقاضون رواتب ثابتة، كالمدرسين التابعين للدولة ، فعبروا عن رضاهم بمخصصاتهم من القمح ، وقالوا إنها تكفيهم من العام للعام[٣] . وكان المحتاجون من المكيين يرتفقون ولو وقتيًا بما يقدم لهم من مبرات[٤] .

وساعدت المشاريع المختلفة التي نفذتها الدولة في مكة على إيجاد مجالات عمل كثيرة ، مما حسّن الحالة الاقتصادية في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري[٥]، وأسهم في تخفيف المعاناة التي كانت كثيراً ما تحدث ، نتيجة لتدهور مصادر الدخل المحلي الأخرى .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤١٥ .

(٢) المقدسي : قلائد العقيان ، ورقة ٣٤ .

(٣) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٦ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٦٢ ، ٢٥١، ٣٤٠ ، والجزيري: الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص٩٨٠.

(٥) النهروالي : الإعلام ، ص ٣٤٦ .

# المبحث الثاني

## الصناعة والزراعة والتجارة والموارد المحلية الأخرى

تشكل الزراعة والصناعة والتجارة إلى جانب الرعي والصيد وأعمال الحج أهم موارد الحجاز المالية، وقد عرف دخلها تقلبات حادة خلال فترة الحكم العثماني في القرن العاشر الهجري ، مما كان سببًا في التصاعد المتوالي -الذي سبق ذكره- في كميات المقررات الأميرية والمساعدات الحكومية ، لكنها كانت وقتية التأثير ، حيث تكررحدوث أزمات وموجات من الغلاء دامت من سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ٩٢٦هـ - على سبيل المثال - واضطر الناس إلى القنوت في الصلوات في الحرم لمدة شهر كامل لرفع النازلة ، وقد أوقف الدعاء اتباعًا للسنة وليس لانجلاء الأزمة[١] .

وفي سنوات ٩٤٦هـ/١٥٣٩م - ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ، ٩٦٠هـ/١٥٥٢م - ٩٧٠هـ/١٥٦٢م حدثت أزمات أخرى دامت إلى قرب نهاية عهد السلطان سليم الثاني تقريبًا . ففي سنة ٩٦٩هـ/١٥٦١م شهد الحجاز غلاء ومحْلاً في البادية ، واضطر بعض الناس إلى أكل لحم بغل[٢] .

ويعود نقص الموارد المحلية ، وانتشار العوز والحاجة ، إلى عوامل داخلية وخارجية :

**العوامل الداخلية :** تعود إلى ثلاثة أسباب ، الأول منها يتعلق بالكوارث الطبيعية المألوف تكرارها في التاريخ الحجازي دائمًا ، ومن أهم ما حدث منها في هذه الفترة التاريخية ندرة أو وفرة الأمطار . فقد عم الحجاز جفاف في أغلب سنواتها ، كما في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م[٣] ، وفي الفترة من

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٥ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ ، ٩١٠ ، ٩٤٤ ، ٩٧١ ، ١٠٠٨ ، ١٠٣٧ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٤ .

٩٤٦هـ/١٥٣٩م إلى ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م [١] ، وسنة ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م . كما اجتاحت السيول المزروعات والمراعي ورافقها هجمات للجراد ، وفي سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م على سبيل المثال ، مما أدى إلى تلف المزروعات[٢] .

وتكررت حوادث غرق السفن الحاملة للبضائع أو للمساعدات العينية أو احتياجات أمير الحج ، ومن هذه حوادث الغرق في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م [٣]، ثم في السنوات من ٩٦١هـ / ١٥٥٣م إلى ٩٦٣ هـ/١٥٥٥م، أي لثلاث سنوات على التوالي ، وكلها بفعل العواصف[٤] .

والسبب الثاني في نقص الموارد ، وحدوث الأزمات ، يختص بالأخطاء الإدارية والمالية في إمارة الأشراف ، ومنها إصدار سكة جديدة للنقود سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م لم تراع في أوزانها المصلحة العامة ، وهناك التزوير للعملة والاحتكار والتحجير[٥] وما سبقت الإشارة إليه من الفساد الذي أدى إلى عدم وصول المساعدات إلى مستحقيها .

أما السبب الثالث في سوء الأحوال الاقتصادية ، وتكرر موجات الغلاء ، فهو خاص بالفتن والاضطرابات الناجمة عن سخط الأعراب ، فقد واصل أعراب لام هجماتهم على قوافل الحجاج الشامية والمصرية كما في سنتي ٩٢٤هـ/١٥١٨م و ٩٢٥هـ/١٥١٩م ، وهاجموا المدينة المنورة وقطعوا النخيل حولها . وكثرت اصطدامات شريف مكة بأمراء الحج ، وببعض القبائل الحجازية كأهل حلى وجيزان وأعراب بجيلة[٦] .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٠٢ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٦٣ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١١٢٤ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٠٢ ، ٧٦ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٧٠ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٦٥ ، ٨٥ - ١١٣ ، ٢٨٩ - ٣٢٥ ، ق ٢ ، ص ٧١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ .

وهناك عامل داخلي استجد في هذه الفترة وهو زيادة أعداد السكان في مكة ، مما أرهق مواردها ، وزاد أزمات نقص المياه فيها حدة[١] .

أما **العوامل الخارجية** : فمن أهمها : الاضطرابات في الأقاليم ذات الصلات التجارية الإقليمية الوثيقة بالحجاز ، وهي التجارة التي عليها قوام الحياة الاقتصادية في مكة ، وأهم هذه الأقاليم : الشام[٢] ومصر[٣] وشرق أفريقيا واليمن والهند[٤] .

ففي مصر استمر التدهور الاقتصادي والإداري الذي كان سائداً فيها طوال القرن التاسع الهجري إلى بداية العهد العثماني ، ولم يأخذ في التحسن إلا بعد وضع قانون نامه مصر سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، وزاد في سوء أحوالها حركات التمرد التي قامت فيها ضد الحكم العثماني، ورفض كثير من الإداريين المماليك التعاون مع العثمانيين[٥] . ولم تكن الشام أحسن حالاً من مصر من حيث التدهور الاقتصادي وحركات التمرد[٦] ، كما أن وجود أعداد كبيرة من الجند العثماني في الإقليمين كان مدعاة لعموم الغلاء ونقص المؤن فيهما ، خاصة مع اضطراب الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ، وتعرض السفن الإسلامية لتعديات السفن الأوروبية من رودس وإسبانيا . وأدى غياب سلطة قوية عن منطقة حوض البحر الأحمر إلى عموم الفوضى الداخلية في شرق

---

(١) النهروالي : الإعلام ، ص ٢٩٣ ، ٣٤٠ - ٣٤١ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٢٤ ، ١٠٠٧.

(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٤٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ١١٢ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ج ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ ، ٣٧ ، ٦١.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٦٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥.

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٩ ، ١٨٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، والعيدروسي : النور السافر ، ص٢٤١ ، ٣٣١ ، وقاسم : الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر ، ص ٢٢٣ - ٢٣٩ .

(٥) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٨٣ - ١٢٥ ، وإبراهيم : الأزمات ، ص ٢٨١ .

(٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق٢ ، ص ٨٩ ، ١١٢ .

أفريقيا واليمن ، فتعرضت الملاحة في البحر الأحمر أيضًا للقرصنة من فئات خارجة عن الطاعة من باقي عسكر حملة سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م المملوكية في اليمن ، حيث استقرت فرقة من الجند في ميناء صعدة اليمني ، وعاشت على سلب السفن والاستيلاء على حمولاتها ، وقام المهرة[(١)] وغيرهم بأعمال قرصنة مماثلة، كما ساد خلاف بين التجار المكيين والزعماء المحليين في دهلك ومصوع، أفضى إلى قتال بين الجانبين، قتل فيه عدد من التجار، وعاد بعضهم مفلسًا[(٢)].

ولم تكن الحالة في الهند مستقرة داخليًا فالزعامات الهندية كانت في نزاع دائم وحروب مستمرة حتى تردت الأوضاع هناك ، وسارت من سيئ إلى أسوأ ، ومن ذلك مثلاً الوضع في كجرات الذي انتهى بالقضاء عليها وضمها إلى مملكة دهلي[(٣)] .

وكان العدوان البرتغالي الصليبي الأخطر في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي ، فقد أوجدوا لهم نفوذًا على سواحل أفريقيا والخليج العربي والهند ، وتوغلوا إلى الشرق الأقصى ، وتدخلوا في شئون الحبشة ، وكانت لهم اتصالات بسواحل جنوب شبه الجزيرة ، وكان هدفهم إغلاق البحر الأحمر واستكمال السيطرة عليه ، واحتكار تجارة الشرق .

وقد وصلت تعدياتهم ذروتها في البحر الأحمر وسواحل جنوب شبه الجزيرة في الفترة من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، إذ أخذوا كثيرًا من السفن الإسلامية غصبًا[(٤)] ، وأغرقوها أو حرقوها وقتلوا أهلها بعد أن عذبوهم ، مما سبب خسائر فادحة ، ولكن على الرغم من ذلك فإن البرتغاليين

---

(١) المهرة : منطقة بين حضرموت وعمان خرجت قبائل تنتسب إليها وكان لها دور في الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر حيث استولت على جزيرة سقطرة المواجهة لعدن سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م وهاجمت موانيء البحر الأحمر في مطلع القرن العاشر . محمد بن فهد : نيل المنى ، ق١ ، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٧٤ ، ١٢٢ .

(٣) العيدروسي : النور السافر ، ص ٢١٣ .

(٤) -Peters : Mecca, p. 210 - 218.

لم يتمكنوا من إغلاق البحر الأحمر ووقف الملاحة فيه كلية ، فحتى في ذروة تحركاتهم العدوانية فإن معدل السفن الواصلة إلى جدة استمر كما كان قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، فما كان تحول طرق التجارة إلا جزئيًا ، لأن التبادل التجاري بين آسيا وأفريقيا ظل قائمًا ، فالفوضى المحلية كانت أشد أثرًا على التجارة من التحركات البرتغالية التي ضخمها الأوروبيون ، لكنها على أية حال كانت سببًا غير مباشر للفوضى المحلية[١] .

ولانشغال العثمانيين في بداية عهدهم باستراتيجيتهم الحربية التي انتهجوها، وهي تركيز ثقلهم العسكري على الجبهة الغربية الأوروبية برًا وبحرًا، والجبهة الشرقية الصفوية، فقد أوكلوا أمر الجبهة الجنوبية لمصر وأشراف مكة، مما جعل الحملات التي خرجت لمواجهة تطورات الموقف في البحر الأحمر إلى سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م تشكّل عبئًا على مكة ، لما سببته لها من ضيق اقتصادي ، فالتحركات التي قام بها الشريف بركات وولاة جدة اعتمدت على ما توافر في السوق المحلية في مكة من مؤن ، وهي لا تكاد تكفي أهلها ، مما رفع الأسعار علاوة على ما كانت عليه ، وأما حملة سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م فقد تسببت في قحط شديد حتى قيل « سنة سلمان »[٢] .

وقد استفاد العثمانيون من هذه التجارب ، فأصبحت الحملات التي قصدت اليمن اعتبارًا من سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م أكثر إعدادًا وتنظيمًا ، وراعى قادتهاأحوال الحجاز وحرمته، فلم يحصلوا منه إلا على ما يفترَض في الشريف أن يقدمه لهم من مؤن كضيافة ، أو أن يوفره لهم من المواد الضرورية كالمياه

---

(١) روبير ملنتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وعبدالرحيم : النشاط التجاري في البحر الأحمر ، ص ٢٤١ ، ٢٥٦ ، وهريدي علي : الحجازيون وحياتهم الاقتصادية ، ص٦٧ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٨٣ ، والحمداني ، طارق : تجارة البصرة الداخلية والعوامل المؤثرة فيها ، مجلة الدارة ، ع ١ ، س ١٠ ، ١٤٠٤هـ ، ص ١٦٥ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٣ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

والوقود ودواب النقل بمعداتها ، أما القسم الزائد من المعدات على ما يفترض تقديمه من الشريف فكان يؤخذ شراء أو بالإيجار ، بل إن القادة المتوجهين إلى اليمن كانوا يتنافسون في القيام بأعمال خيرية في مكة من أوقاف أو مشاركات في مشاريع الحرم وغيره كما لوحظ ، ومع ذلك فإن مرور أعداد كبيرة من الجند برّاً كان يرهق أرياف الحجاز ، ويستهلك المراعي على طول الطريق إلى اليمن(١) ، ومنها حملة سليمان باشا الخادم وحملة سنان باشا .

وفي الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري، اتجهت الأحوال الاقتصادية في الحجاز عامة ، ومكة خاصة ، إلى التحسن ، وذلك لاستقرار أحوال ولايات الدولة العثمانية الشرقية(٢) بعد تنظيمها إداريّاً، وزيادة السيطرة العسكرية عليها بدءًا بالشام ومصر ، ثم العراق فالجزائر وكل الشمال الأفريقي ، ثم اليمن والحبشة وقسم من شرق شبه الجزيرة العربية ، مما جعل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر يصبحان تحت النفوذ العثماني ، ففتحت طرق الحج والتجارة فيهما ، وأصبح للعثمانيين في فترة قوتهم هذه وجود محسوس في المحيط الهندي امتد إلى البنغال وإندونيسيا(٣) .

ثم خفت حدة العمليات العسكرية فاستقرت الأحوال في المنطقة عامة، وانتعشت التجارة فيها تحت المظلة العثمانية(٤) ، والحجاز واسطة العقد فيها دائمًا(٥) . وكان ضغط البرتغاليين على الهند قد دفع التجار المسلمين إلى

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٤٩ .

(٢) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٦١ ، ٩٦٢ .

(٣) أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ومانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص٢٣٩ .

(٤) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، وسليمان : الموانئ المصرية في العهد العثماني ، ص ٣٢ .

(٥) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣٨ .

التحرك شرقًا ، وتعمق النفوذ العثماني في قلب أفريقيا وغربها ، فانتشر الإسلام في بقاع لم يبلغها من قبل ، فزادت أعداد الحجاج ، خاصة مع التسهيلات التي قدمها العثمانيون في هذه الفترة ، فوجدت أسواق تجارية جديدة ومصادر غنية للسلع[١] .

وأدت زيادة المشروعات العثمانية في المجالات المختلفة في مكة إلى إنعاش كل مصادر الدخل المحلي ، بما فيها إيجاد فرص عمل للأيدي العاملة والقوى البشرية بكل فئاتها ، وزيادة استخدام للخامات المحلية . وقد سبق أن التوسع في إقامة المشاريع كان ابتداءً من الستينات من القرن العاشر بمشروعات توفير المياه طويلة الأجل ، ثم توالت بعد ذلك الإضافات ، وأهمها مشروعات الأوقاف على الحرمين التي أقيمت من قبل كبار الشخصيات ، كولاة مصر مثلاً الذين أنشأوا مبراتهم في مكة ومصر ، وقد نفذ معظمها في النصف الثاني من القرن العاشر ، وكانت المساعدات قد تضاعفت عمومًا في هذه الفترة .

وهكذا خضعت مصادر الدخل المحلي في مكة جميعها لتأثير العوامل الداخلية والخارجية ، فأصبح دخلها في النصف الأول من القرن العاشر الهجري لا يكاد يكفي أهلها ، ثم انتعشت بعد ذلك حتى تحقق للحجاز كله مستوى اقتصادي ممتاز مع نهاية هذا القرن .

وباستعرض حالة هذه المصادر في الفترة محل البحث ، بدءًا بالأهم فالمهم ، يلاحظ أن الصناعة تأتي في البداية، فهي أقل المصادر دخلاً وانتشارًا، وذلك لقلة الخامات المحلية ، ولعزوف أغلب الحجازيين – خاصة أهل البادية – عن العمل الحرفي ، لأسباب قبلية ، ولأن العمل بها شاق وقليل المردود ، نظرًا لبدائيتها ، ولما تلقاه من منافسة خارجية ، فالحجاز ، ومكة بالذات ، ملتقى

---

(١) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣٩ ، وسليمان : الموانئ المصرية ، ص ٢٤٤ .

لأرفع مستوى الصناعات في العالم في ذلك الوقت ، مما يزاحم الإنتاج المحلي، ويحد الحاجة إليه ، فلا يوجد إقبال على الحصر المحلية - مثلاً - في الوقت الذي تغرق فيه السوق بالسجاد الشرقي بكافة أنواعه . ومع ذلك فقد وجد في مكة إنتاج صناعي لم يكن عنه غنى في الحياة اليومية ، تمثّل في الصناعات التقليدية التي كانت تمارس منذ عهود سحيقة ، كإنتاج السلع التموينية والمستلزمات الغذائية التي تقوم على الإنتاج الزراعي والحيواني، كعصر الزيوت وطحن الحبوب وتجفيف التمور والأسماك ، واستخراج منتجات الألبان ودباغة الجلود . ويعد مجال إعداد الطعام حرفة مهمّة إذا عرفنا كثرة الاحتفالات والمواسم الدينية في مكة ، وأهمها الحج . وهناك صناعة المعدات الخفيفة والأدوات ، كأدوات ركوب الدواب والأدوات الزراعية والآنية ومعدات البناء ، ومنها مصانع النورة ، وقد كان أحدها مقامًا خلف بستان شيخ الحرم في المعلاة[١]. وهناك أيضًا صناعة الأثاث والمفروشات البسيطة المعتمدة على الخامات المتوافرة ، كالفخار والحصر والزنابيل وأدوات النظافة ، ومن الحرف المعروفة والمنتشرة : حياكة الملابس وصياغة الحلي[٢] .

وعلى الرغم من عدم إمكان تطوير الصناعات القائمة ، أو إدخال صناعات جديدة ، فإن الإنتاج الصناعي في القرن العاشر كان مطلوبًا للغاية ، فقد قدم الشريف كميات من معدات ركوب الخيل للحملات المارة بالحجاز إلى اليمن والحبشة ، كما أنعشت المشاريع العمرانية كثيرًا من الصناعات الأخرى ، وزادت البساتين بعد مشاريع العيون ، وكثرت الحاجة إلى المعدات الزراعية .

---

(١) وتستخرج من النوارية بعد التنعيم في مكة وظلت صناعتها مزدهرة إلى مطلع القرن الخامس عشر الهجري ثم أخذت في الأفول . عراقي : موسوعة مكة ، ص ١٣٤ .

(٢) كان للخياطة ودباغة الجلود والصياغة اهتمام خاص في الحجاز، وقد لقيت تقبلاً جيدًا خارجه ، وكذلك يبدو من مؤلفات آل فهد : غنى المطبخ المكي وتنوع الأصناف التي يقدمها . عبد المجيد : التنظيمات ، ص٤٩٩ ، وددة : الرسالة المقامية ص ٤١ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧٥ .

ويأتي في المرتبة الثانية من مصادر الدخل المحلي : الرعي والزراعة والصيد ، وهي أكثر المصادر عرضة للتقلب ، فإنتاجها على قلته بسبب البيئة الصحراوية ، فهو أيضًا كثيرًا ما ينخفض أو ينعدم بحسب الأحوال المناخية، لكن في الظروف المعتدلة والعادية تكون المراعي جيدة ، وتسمح بتربية ثروة حيوانية وفيرة ، ويصبح الرعي حينها عملاً حيويًا ، ومصدر دخل عاليًا في تلك الفترة(١) ، فخيول شبه الجزيرة العربية غنية عن التعريف ، وكانت مطلوبة للحروب – فالجيش العثماني يفخر بامتلاك أكبر عدد منها (٢)– وللمواصلات عامة ، وقد زادت الحاجة إليها في فترة هذا البحث بسبب ما كان يقدمه الأشراف للحملات العثمانية ، وللحملات التي كانوا يقومون بها هم أنفسهم في الحجاز وغيره من مناطق شبه الجزيرة . ومن الدواب الأخرى المهمة المستعملة لأغراض النقل ، الإبل والحمير والبغال ، وقد ترتفع أسعار إيجارات الجمال أو بيعها إلى مبالغ كبيرة ، وزاد من أهميتها خلال موسم الحج استخدامها في نقل حبوب المساعدات من جدة وينبع إلى مكة والمدينة بالنسبة للواصلة بحرًا، وبعضها كان ينقل برًا ويشارك في نقله أعراب شمال الحجاز(٣) . وكان البدو يستخدمون دوابهم في نقل المياه إلى مكة من الضواحي القريبة في حالة جفاف مياه العيون أو قلتها ، وهو عمل في غاية الأهمية في مواسم الحج ، ويدر دخلاً عاليًا ، نظرًا لحاجة الناس والدواب إلى المياه(٤) .

وقد تبلغ قطعان الماشية من الماعز والشياه أعدادًا كبيرة ، تصل إلى الآلاف، ويقوم الأعراب بتربيتها في البوادي حول مكة، كعرفات والجعرانة مثلاً.

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١١٢ .

(٢) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١١٧١ ، ١١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠٧ .

ويدل على ضخامة الثروة الحيوانية ما كان يكسبه الأشراف في حالات إغارتهم التأديبية على بعض القبائل[١] .

وهناك ثروة من الطيور والحيوانات البرية أيضًا كالغزلان كان الأشراف يمارسون هواية صيدها بالطيور الجارحة ، فكان الشريف أبو نمي يشرف على إطعام طيوره بنفسه حتى في موسم الحج في منى كما حدث في سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م[٢] .

ولا شك أن الثروة السمكية وغيرها مما يستخرج من البحار كاليسر[٣] والصدف ، كانت محل استفادة على نطاق واسع ، فالأسماك تباع على طرق الحج وفي مكة ، طازجة أو مجففة .

وحول مكة أودية وواحات تكثر فيها الزراعة ، بسبب توافر المياه الجوفية من السيول أو الآبار أو العيون ، وأهمها وأقربها إلى مكة وادي مر الظهران وحدا والجموم وسولة والزيما وغيرها ، وتزرع فيها أشجار النخيل والخضراوات وبعض الفواكه كالبطيخ والشمام، وكان بعضه يزرع اعتمادًا على مياه الأمطار وبقايا السيول[٤] . ويصل إلى مكة من مخاليفها الأبعد -كالطائف- الفواكه، ومنها التوت والتين والعنب والرمان والخوخ وغيرها[٥] . أما مدينة مكة ذاتها فالأصل فيها أنها وادٍ غير ذي زرع ، لكن الحاجة إلى حفر الآبار الكثيرة وإلى إقامة البرك والصهاريج لجمع مياه الأمطار ، وأخيرًا إيصال مياه العيون من

---

(١) في سنة ٩٣٥ هـ -مثلاً- «غزا الشريف عرب سبيع من لام ، وكسب عشرين فرسًا ، وحوالي عشرة آلاف رأس من الأغنام ، وبيع الكسب في المسعى ، وفي سنة ٩٤٤هـ غزا مطير وحرب ، وكسب نحو مائة من الخيل وآلافًا من الغنم ». محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٣ ، ق ٢ ، ص ٧٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٢٨ ، ق ٢ ، ص ٧١٨ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٩٠٢ .

(٣) الشماع : عيون الأخبار ، ج ٢ ، ورقة ٨ .

(٤) محمد بن فهد : حسن القرى في أودية أم القرى ، ص ٢٤ و ١٨٧ ، ونيل المنى : ق ١ ، ص٢٥٦ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٥٧ ، وتحفة اللطائف في فضل الطائف ، ص ١٥ ، ٢٥ .

وادي حنين ووادي نعمان للاستفادة منها في مواسم الحج كل ذلك كان يترك فائضًا من المياه في باقي أوقات السنة[١] ، خاصـة في أوقـات نزول الأمطار ، مما يسّر زراعة عدد من البساتين، بلغت حوالي الثمانية في فترتنا التاريخية .

وقد انتشرت في أحياء مكة وضواحيها كالمعلاة والمعابدة والمسفلة وطريق المعابدة إلى منى والزاهر[٢] . وزرع في عرفة عدد من البساتين،كان عددها سنة ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨م أكثر من خمسة[٣] ، لكن أزيل بعضها سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م لأنها ضيقت مكان وقوف الحجاج، وكانت هي والأشجار البرية مأوى للصوص؛ لأنهم يختبئون فيها ليهاجموا منها الحجاج، ويفرّون إليها حين مطاردتهم . ولكن بعض البساتين كان يستخدم استراحات للحجاج ، كبستان الزاهر والبساتين المجاورة لبرك الحجاج في المعلاة والزاهر ، وقد بلغ عددها في القرن السابع عشر خمسة عشر بستانًا ، خاص وعام ، وكان من حاصلاتها البلح والليمون واللارنج والنبق والعناب ، وأجمل ما فيها النباتات العطرية مثل الورد والرياحين[٤] .

وكما ذُكر فإن وفرة الإنتاج الزراعي والحيواني كان مرهونًا بظروف البيئة واستقرار الأحوال العامة ، فإذا عم الجفاف أو الجوائح والفتن تنتكس الزراعة والرعي فتقع المجاعات وتقل المؤن .

وتظل التجارة دائمًا أهم مصادر الدخل في مكة ، ومع ذلك فهي بأنواعها

---

(١) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٣ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، الأوراق : ٨ ، ١٠ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٥٧ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢٢ ، ٤٥١ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٧٧٨ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ .

(٤) قال أوليا جلبي : إن ماء الورد والبخور في مكة لا مثيل له في الربع المسكون من العالم . جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٧٤ .

الثلاثة ، المحلية والإقليمية والعالمية ، عرضة للتقلبات أيضًا ، ولم يقتصر عمل العثمانيين على تحسين الوضع المعيشي في مكة على المساعدات ، بل إنهم حاولوا إنعاش التجارة الإقليمية ، فأرسل خاير أمير أمراء مصر في سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م ألفًا وأربعمائة إردب من القمح ، لتباع في الأسواق بأسعار مخفضة خلال الأزمة الاقتصادية في بداية العهد العثماني[١] . لكن النشاط التجاري عاد إلى الارتفاع بمعدل ممتاز ، بعد زيادة تقوية النفوذ العثماني في المناطق التي استولى عليها العثمانيون في آسيا وأفريقيا ، فعادت الصلات بين مصر والشام وشرق أفريقيا ، وأصبحت قافلة الحج اليمنية السنوية تقدم حاملة المتاجر والمساعدات من الأوقاف في اليمن ، اعتبارًا من سنة ٩٤٩ هـ / ١٥٤٢م[٢] . وتدفقت على مكة المتاجر من الأرياف الحجازية حولها، وكما وضح من قبل ، فإن التجارة المحلية والإقليمية كانت الحل العملي للأزمات الاقتصادية في مكة .

وبانحسار الإرهاب البرتغالي خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، اتخذت التجارة العالمية معدلها الطبيعي الذي كانت عليه قبل أن ينفرد البحر الأحمر بنقل التجارة العالمية في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، فعادت مكة سوقًا تجارية مهمة لتبادل السلع القادمة من شرق آسيا وغربها ، ومن شمال وشرق ووسط أفريقيا ، فلم يحدث أن انقطع ورود السفن في مواسم الرياح خاصة الموسم الهندي[٣] فكان عدد منها يتعرض لاعتداء البرتغاليين ويضر البعض الآخر لدفع إتاوات لكن الملاحة لم تتوقف أو تركد بحسب ما ورد في كل المصادر المعاصرة المكية واليمنية

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٨٥ .

(٢) النهرواني : ابتهاج الإنسان والزمان ، الأوراق ١٦ - ٢٠ .

(٣) الموسم الهندي : هو الفترة التي تكون الرياح الموسمية فيها مواتية لقدوم السفن من الهند إلى البحر الأحمر . ششة : جدة ، ص ٩٢ - ٩٨ .

والمصرية والهندية ، والدراسات الوثائقية أيضًا[١] . وقد عقد السلاطين العثمانيون معاهدات الامتيازات الأجنبية مع الإيطاليين والفرنسيين ثم الانجليز، فكانت في صالح البلاد العثمانية حال قوتها في القرن السادس عشر الميلادي ، كما يدل على استمرار التجارة مع أوروبا أيضًا[٢] . مما أدى إلى جعل معدل التبادل التجاري في موانئ البحر الأحمر[٣] والبحر الأبيض[٤]

---

(١) ذكرت وثائق المحاكم المصرية أن صلات التجار في السودان والقاهرة والاسكندرية ومكة وجدة وغيرها كانت قوية وأنهم كانوا يعملون بشكل فردي أو يكونون شركات فيما بينهم ويتاجرون في أنواع مختلفة من البضائع منها الحبوب كالقمح والأرز والأقمشة كالمخمل الملون والحبرة السوداء والحرير والمعاطف العجرية والفوط الشحري والشاش والفضة الحجر والكحل واللاك والأهم من ذلك البهارات ، ومنها الفلفل وحب الهال وجوزة الطيب والزنجبيل ، وهناك النيل واللُّبان الشحري والنوشادر وماء الورد وغير ذلك .

- الوثيقة رقم ٢ ، سجل ٢ ، محكمة القسمة العربية ، سنة ٩٧٣هـ ، ص ٤١٩ .
- الوثيقة رقم ٦٨٠ ، سجل ٢ ، محكمة القسمة العربية ، سنة ٩٧٤هـ ، ص ٤١٩ .
- الوثيقة رقم ٧٠٩ ، سجل ٢ ، محكمة القسمة العربية ، سنة ٩٧٤هـ ، ص ٤٣٩ .
- الوثيقة رقم ٤٦٣ ، سجل ٣ ، محكمة القسمة العربية ، سنة ٩٧٧هـ ، ص ٢٦٣ .
- الوثيقة رقم ٣١ ، سجل ٣٣ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٧٩ هـ ، ص ٧ .
- الوثيقة رقم ١٩ ، سجل ٣٣ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٦٦هـ ، ص ٦ .
- الوثيقة رقم ٧٦٠ ، سجل ٣٣ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٧٩ هـ ، ص ٦ .
- الوثيقة رقم ٩٤٧ ، سجل ٤ ، محكمة القسمة العسكرية ، سنة ٩٦٩ هـ ، ص ٤٤١ - ٤٤٣ .
- الوثيقة رقم ١١٤٥ ، سجل ٤٥٦ ، محكمة الصالحية النجمية ، سنة ٩٧٩ هـ ، ص ٢٧٩ .

(٢) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٧٣٤ - ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، وعبد الغني : أوضح الاشارات ، ص١٨ ، والملواني : تحفة الأحباب ، مقدمة التحقيق .

(٣) سليمان : الموانيء المصرية ، ص ٢٦٥ ، وهريدي : شؤون الحرمين ، ص ٣٠٩ ذكر بأن عدد السفن التي كانت تضل إلى جدة سنويًا خلال القرن الحادي عشر كان ألف قطعة سنويًا .

(٤) قابل مندوب برتغالي البابا في روما وأعلمه أن ٤و٥ مليون رطل من البهار كانت تصل إلى الاسكندرية سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م عن طريق البحر الأحمر . هريدي : الحجازيون في الاسكندرية ، ص ٧٣ ، و .-Pesco : Jeddah , p. 90 .

وفي سنة ٩٧٢هـ/١٥٦٤م قُدر دخل جمرك جدة بمائة وخمسون ألف دوكان وكانت تدخلها أربعون إلى خمسون سفينة تجارية كبيرة أي أضعاف ما كان يدخلها في مطلع القرن .

.Hakluyt : The Principal Navigations. V.Z. p. 360 .

مرتفعًا ويشكل مصدرًا مهمّا بل من أهم مصادر الدخل للدولة(١) . وفي مكة كان انتعاش التجارة باديًا عليها ومؤثرًا في مظهرها وعلى نشاط أهلها ، حتى غدا لافتًا للنظر في القرن الحادي عشر الهجري(٢) .

وأما مواسم الحج فهي أوقات عبادة وعلم ، ومواسم عمل أيضًا بما ينفتح خلالها من مجالات واسعة لممارسة الكثير من المهن التي تقدم الخدمات للحجاج خلال إقامتهم في مكة ، ومنها مهنة الطوافة(٣) ، وهي مهنة إرشاد الحجاج لأداء مناسك الحج ، والعمل على توفير احتياجاتهم ونقلهم وإقامتهم في المشاعر ، وقد شهدت طفرة في العهد العثماني ، خاصة في القرن العاشر، بسبب كثرة الوافدين من كبار المسئولين والشخصيات المكلفة بأداء أعمال في مكة ، أو ممن كان يمر بها من القادة في طريقهم إلى اليمن والهند أو ممن كان يفد لأداء فريضة الحج فقط أو المجاورة في مكة مختارًا أو منفيّا لكن لا يلاحظ إطلاق اسم المطوفين على من كانوا يتولون مهمة الإرشاد والخدمة للحجاج، وإنما ظلت في أيدي العلماء يقومون بها تطوعًا وتوددًا للوافدين من الشخصيات ، فيكرمونهم بمكافآت ، تعبيرًا عن امتنانهم ، وطلبًا لدعائهم ، يكون مقدارها على قدر المعطي مركزًا وسماحة(٤) .

---

(١) سليمان : الموانئ المصرية في العصر العثماني ، ص ٢٦٥ .

(٢) جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، وهريدي : شؤون الحرمين ، ص ٣٩ .

(٣) كان القاضي العثماني ميرزا مخدوم هو أول من قرر معلومًا لمن يتولون إرشاد الحجاج ، وكان يشترط عليهم تقديمه مسبقًا . علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٩٠ .

(٤) مثل موقف الشيخ محمد النهروالي مع كثير من كبار الشخصيات العثمانية التي تفد إلى مكة . النهروالي : البرق اليماني ، صفحات متفرقة . وعن الطوافة وتطورها انظر: الحربي : نظم الحكم ، ص ٢١٠ ، ٢١٢ ، وشاهين : خدمات الحج في الحجاز ، ص ٢٧٣ ، وعراقي : الطوافة والمطوفون ، ص ٦ .

وموسم الحج فرصة لإنعاش كل مصادر الدخل الأخرى ، لزيادة الطلب على كل ما يحتاج إليه الناس في حياتهم اليومية ، كالمنتوجات الزراعية والحيوانية والصناعية ، من مأكل ومشرب ومسكن ، ومن دواب للركوب ومعداتها وغير ذلك سواء كان من الإنتاج المحلي أو مما يتوافر في مكة من سلع تجارية عالمية يتنافس الحجاج على اقتنائها ، كهدايا أو يحملونها كسلع تجارية ، وقد اختص الحجاز بمحصول اقتصادي كان يكثر الطلب عليه وتتفرد بأجود إنتاجه جبال الحجاز وهو : دهن البيلسان وشجره ، الذي كان يؤخذ شتلات تزرع في الأقاليم الأخرى[١] . فمواسم الحج تفوق أكبر المعارض التجارية العالمية الحديثة ، لأنها عفوية ، ولسلعها صفة التجدد والتنوع والدوام والوفرة والندرة والنفاسة[٢] . وقد زاد اتساعها خلال القرن العاشر بسبب زيادة انتشار الإسلام كما سبق ، حيث أصبحت الصلات الإسلامية تمتد من إندونيسيا شرقًا إلى سواحل غرب أفريقيا ، ومن حدود روسيا شمالاً إلى المحيط الهندي ووسط أفريقيا جنوبًا[٣] .

وهكذا ، مرت بموارد الدخل المحلي في مكة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر فترتان امتدت الأولى من بداية دخول الحجاز تحت النفوذ العثماني إلى الستينات من القرن العاشر ، عانت فيها المنطقة من انخفاض في الموارد بسبب العوامل البيئية والسياسية ، كان بعضها مألوفًا ومتكررًا ، ونتج بعضها الآخر عن مستجدات أشيرَ إليها ، لكن ما خصصه العثمانيون من مساعدات لأهل الحرمين كانوا يزيدونها باطراد ، وما قاموا به من تحركات

---

(١) داراكة : طرق الحج الشامي ، ص ٢٧١ – ٢٧٩ ، وصبري : مرآة الحرمين ، ج ٢ ، ص ٢١٧ – ٢١٨، والعياشي : ماء الموائد ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٢) الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٧٦، ٢٨٠. -Faroqhi : Pilgrims , p. 168 ، 170

(٣) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣١٦، ٣١٨ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٥٨٥-٥٨٦ .

عسكرية داخلية وخارجية على جبهات دولتهم الأربع ، أعادت استقرارًا نسبيًا إلى كثير من المناطق ذات الصلة بالحجاز ، ووثقت علاقاته بأقاليم كان ارتباطه بها في حكم الضعيف كإندونيسيا[١] ، مما أنعش الاقتصاد المحلي فتحسنت موارده ، وتحقق لإمارة مكة قدر من الازدهار ، تميز به الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وقد ظلت معدلات حركة التجارة العالمية عالية في البحر الأحمر وجدة مركزها الأكبر بعد أن منع العثمانيون السفن غير الإسلامية من الإبحار أبعد منها حماية الحرمين فكانت تفد إليها المتاجر ثم تصدر عنهاإلى أن تم افتتاح قناة السويس سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٨م فدخلت المنطقة في طور جديد له سماته الخاصة[٢] .

---

(١) كثر قدوم وفود من إندونيسيا في عهد السلطان سليمان القانوني إلى مكة ، وقويت الصلات التجارية بعد تسلط البرتغاليين على الهند ، الحداد : المدخل إلى التاريخ الإسلامي في الشرق الأقصى ، ص٣٩٠، ٣٩١ .

(٢) الأنصاري : تاريخ مدينة جدة ، ص ٦٤٧ .

# الفصل السادس
# الحياة الاجتماعيـــة

المبحث الأول - التركيبة السكانية .

المبحث الثاني - فئات السكان والعلاقات بينها .

# المبحث الأول

# التركيبة السكانية

ترك عاملا البيئة والقدسية الدينية أثرهما على الحياة الاجتماعية في مكة، فطبعاها بطابع خاص دائمًا ، من عدة نواحي ، منها : التركيبة السكانية وما انقسمت إليه من فئات ، والعلاقات التي ربطت بينها . لكن كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ السياسي المكي سمات اجتماعية خاصة ميزتها .

وقد وضعت أسس ملامح الحياة الاجتماعية في مكة في فترة حكم العثمانيين لها من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

ولقد أدت الخلفية الدينية[١] إلى جعل التركيبة السكانية في مكة تتألف من عناصر متعددة ، كانت في تلك الفترة التاريخية كالآتي :

**أولاً - القبائل الحجازية :**

وتشكل العنصر الأول عدديًا ، وفي مقدمتهم قبيلة قريش ، وأشهر المنحدرين منهم أسر الأشراف ، وأبرزهم الأسرة الحاكمة في مكة في ذلك الوقت . وهناك فروع من قبائل أخرى كقبيلة حرب ، الذين كانت أدراكهم تمتد إلى حدود وادي فاطمة أو مر الظهران ، كما كان يعرف قديمًا [٢] ، ومنهم قسم من قبائل بني إبراهيم[٣] ، وقد نزحوا إلى هذا الوادي في القرن العاشر

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعتاب بن أسيد حين ولاه مكة بعد فتحها سنة ٨ هـ : « أتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيرًا » يقولها ثلاثًا . وقالوا : كان أهل مكة فيما مضى يلقون فيقال لهم : يا أهل الله وهذا من أهل الله . وفي حديث قدسي : « أنا الله ذو بكة أهلها خيري ، وجيران بيتي وعمارها وزوارها وفدي وأضيافي وفي كنفي وأماني ضامنون على في ذمتي وجواري » . الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٣ .

(٢) الجزيري : الدرر افرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٤٧ .

(٣) البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ج ١ ، ص ١٠ .

الهجري بعد خلافاتهم مع أشراف مكة[١] . وكان بنو جميل يعيشون حول عرفات[٢] .

وقد عاش قسم من هذه القبائل حياة ريفية أو بدوية في ضواحي مكة وبواديها المجاورة ، أما في مدينة مكة فقد استقرت جماعات من القبائل العربية مارسوا حياة أقرب إلى الريفية وعرفوا بـ « عريب الدار »[٣] فكانوا يقيمون في أحياء ، منها : جرول وشعب عامر والمعابدة وما بعد بركة ماجد في المسفلة ، ومنهم من أقام في منى[٤] ، حتى إن الطابع الريفي كان ملحوظًا في مكة ، وبدا أثره واضحًا في بعض أحيائها مقارنة بالحياة في المدينة المنورة[٥] .

ومن الأسر الحجازية التي عاشت حياة حضارية في مكة ، وأسهمت في الحياة العامة : أسر الأشراف أمراء مكة ، وآل الفاسي ، وآل فهد وهم من بني محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وآل الشيبي سدنة الكعبة ، وآل ظهيرة وهم قرشيون[٦] من غير بني هاشم[٧] ، وغيرهم كثير ، وكثيرًا ما كانت الأسر أو الأفراد من المكيين ترحل إلى خارج الحجاز من الأشراف أو العلماء

---

(١) الأصل أن بني إبراهيم من الأعراب الذين يقطنون ينبع . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤٢٠، ١٤٢٣ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٩٦ ، ١٣٠ ، ومحمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٨٨ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٤٤ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٧٦ .

(٥) العياشي : ماء الموائد ، ج ١ ، ص ٢٧٥ ، ٣٠٢ .

(٦) أبو الخير : نشر النور والزهر ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ١٨١ ، والشيبي الحجبي : إعلام الأنام ، ص٣٩ ، ٤٩ .

(٧) بنو هاشم : فرع من قريش وليسوا قبيلة وحدهم كما صنفوا في بعض الدراسات ومنها : الزهراني : التاريخ السياسي والحضاري لمكة ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٥ .

أو عامة الناس ، لأسباب دعوية علمية أو سياسية أو اقتصادية .

وقد كان للكثير من المكيين المهاجرين مشاركات مهمة في الحياة العامة حيث حلوا ، لأنهم كانوا يلقون اهتمامًا ورعاية لقدومهم من الأرض المقدسة، خاصة إذا كانوا أشرافًا ، حتى إن كثيرًا منهم أسس دولاً وأوصل الإسلام إلى مناطق لم تبلغها الفتوحات[١] .

وقد يعود إلى مكة أفراد أو أسر – ممن كانوا قد خرجوا منها – بعد غياب قد يطول لقرون أو يقصر لمواسم ، فكان منهم من يعود بمنافع علمية أو مالية ، أما من طالت غيبتهم فإنهم كانوا يقدمون وقد اصطبغوا بصبغة الأماكن التي عاشوا فيها ، وكوّنوا لهم ارتباطات راسخة مع أهلها ، ومن هؤلاء العائدين في القرن العاشر : عائلة النهروالي[٢] مثلاً ، وقسم من آل فهد[٣] ، وفي قرون تالية : آل الحضراوي وآل الخطيب وغيرهم ، وكلهم قرشيو الأصل[٤] .

كما غادر مكة في بداية الحكم العثماني مجموعات من أهلها إلى الهند وإلى مصر ، ومنهم عدد من التجار[٥] ، ووفدت إليها مجموعات من أعراب

---

(١) الحداد : المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى ، ص ١١٣ ، ١٧١ ، ومعروف : عروبة العلماء ، ص ١٤ ، ١٧ ، ومحيي الدين : مشيخة العبد اللاب ، ص ٣٩ ، ٨٠ ، ومحمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص ٥٣ ، ٦٥ ، وزكي : الإسلام في شرق أفريقيا ، ص ٩١ ، ١٠٠ .

(٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١١ ، ١٨ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٥٩ .

(٤) عبد الجبار : سير وتراجم ، ص ٣٨ ، ٢٩٣ . وكثيرًا ما كانت تثار تساؤلات حول صحة نسب هؤلاء العائدين وتؤلف في ذلك الرسائل خاصة إذا كانوا ينتسبون إلى أسر الأشراف . محمد بن فهد : القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف ، الأوراق ٨ ، ١١ ، وهريدي : الحجازيون في الاسكندرية ، ص ٦٧ ، ٩٥ ، وإبراهيم : الأزمات الاجتماعية ، ص ٢٤١ ، ٢٤٤ .

(٥) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٥٩ .

البوادي المحيطة بها تحت ضغط المجاعات والأوبئة التي كانت كثيراً ما تؤدي إلى حركة هجرات وتنقلات بين السكان [١] .

## ثانيًا - سكان مكة من المسلمين من أصول غير حجازية[٢] :

وهؤلاء قدموا من كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، لأسباب دينية غالبًا، وفي مقدمتها أداء فريضة الحج أو تدارس العلم[٣] ، أو لدوافع سياسية حيث ظلت مكة ملجأً للمنفيين السياسيين أو الفارين من الاضطهاد في بلدانهم [٤] ، أو من الإداريين والعسكريين أو المتقاعدين والمنفيين من العثمانيين أنفسهم [٥] ، ومن الناس من كان يقدم لأغراض اقتصادية ، فمكة سوق عالمية كما ذُكر سابقًا .

ولا تلبث جماعات الوافدين أن تندمج في المجتمع المكي ، وتنصهر مختلطة فيما بين بعضها البعض ، فتتأثر بالطابع العام له ، وتؤثر فيه سلبًا أو إيجابًا بحسب مستوى القادمين وسبب قدومهم وتوجهاتهم ، فمنهم من أثرى الحركة الفكرية وقاد حركة إصلاح اجتماعية أزالت بدعًا ودعت إلى خير[٦] ،

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ص ٩٠ ، ١١٢ .

(٢) سماهم عدد من الباحثين بالمجاورين والجوار كما يلاحظ من الحديث المذكور في بداية هذا الفصل عام لكل من عاش في مكة وقصره على فئة يحرم الفئات الأخرى من هذا الشرف العظيم ، وقد استخدمه مؤلفو التراجم في كتب التراث بقولهم جاور فلان ويقصدون بذلك انه انضم إلى من كان مقيمًا أصلاً في مكة ولم يختصوا الوافدين به فقط ، ومن الدراسات التي خصت هذه الفئة بصفة الجوار مثلاً الزهراني : التاريخ السياسي ، ج ٢ ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، وطلاس : الثورة العربية ، ص٩٨ .

(٣) الجاسر : أشهر رحلات الحج ، ص ١١ .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٧٥٧ ، ١٧٦٣ ، والعيدروسي : النور السافر ، ص٢١٨ .

(٥) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٣ ، ص ١٤٥٩ .

(٦) الجاسر : في رحاب الحرمين ، رحلة العياشي ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومن هذه النماذج في بداية الحكم العثماني الشيخ محمد بن عراق والشيخ أحمد بن حجر الهيتمي ، وقد أقاما إقامة دائمة في مكة ، والشيخ الكيزواني والشيخ ابن أبي السرور البكري اللذان أقاما لفترات متقطعة ، وممن كان له صلات قوية بالمسئولين الأتراك آل النهروالي[١] .

وهنـاك وافدون للعمـل الإداري والإنشائي مـن العثمانيين ، أما كبار الشخصيات التـي لجـأت إلـى مكـة لأسباب سياسية كالهنـود والتونسيين والمسئولين العثمانيين المنفيين أو الراغبين في الانقطاع للعبادة ، فقد طوروا الحياة الاجتماعية في مكة ، وأدخلوا إليها عادات وحرفًا راقية ، وأسهموا في تخفيف الأزمة الاقتصادية في بداية العهد العثماني ، ومنهم عائلة سلطان كجرات وقضاة العسكرمن العثمانيين وغيرهم [٢]. بينما شكلت مجموعات أخرى من القادمين عبئًا على المدينة المقدسة ، ومنهم : مدّعو الزهد من العثمانيين وغيرهم ، واللاجئون من الاضطرابات السياسية أو المذهبية في بلادهم ، كالهنود والأحباش واليمنيين ، وقد أمر السلطان سليمان القانوني باتخاذ إجراءات لمنعهم من الإقامة في الحرم أو حوله ، وأن توجد ملاجيء للمرضى منهم ، وأن يُعاد القادرون من بينهم إلى بلادهم[٢] .

## ثالثًا - الأرقاء والمحررون :

كان في مكة شريحة من السكان قدم أفرادها الأرقاء للعمل في مجالات شتى ، وقد نال كثير منهم حريته ، وشاركوا في الحياة العامة ، حتى بلغت

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٢٨ ..

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ ، وجاء في عدد من الوثائق الأمر بترحيل المغول القادمين من الهند ومنع باقي الحجاج من الإقامة في مكة وبناء البيوت المتواضعة فيها ومعاقبة من يتسبب منهم في تلويث المسجد الحرام ، وثيقة رقم ١٣٠/٣٥/٢٩٢ سنة ٩٨٦ ، ووثيقة رقم ١٤٤/٤٣/٥٤ سنة ٩٨٨هـ ، ووثيقة رقم ١٦٩/٥٨/٢٦٠ سنة ٩٩٣هـ . وثائق تركية مصدرها مركز أبحاث الحج بمكة المكرمة .

أعداد كبيرة منهم مكانة مرموقة . وقد استُقدمت الغالبية العظمى منهم من قبَل الأشراف أمراء مكة للعمل في خدمتهم ، إما في الأعمال الخاصة ، وإما في الوظائف الرسمية في الإمارة ، في المجال العسكري والإداري ، بالنظام نفسه الذي كان معمولاً به في الدولتين المملوكية والعثمانية ، فكانت إدارة الجند التابع للشريف من هؤلاء العبيد تسند لأحدهم ، ويكون قد نال حريته بالعتق، فيعرف بالقائد ، وقد عمل عدد من هؤلاء القادة العاملين في الخدمة العسكرية في مناصب كبيرة ، فمنهم نواب الشرف في حكم المدن والولاة فيها أي مدراء الشرطة ، وكان نائب الشريف في المدن يعرف بالحاكم ، ومدير الشرطة يعرف بالوالي .

لكن الملاحظ أن مجموعات العبيد الذين كانوا يحيون حياة عشائرية ، قد اختفت مع قلة الاعتماد على التنافس بين أسر الأشراف في السيطرة على الحجاز منذ مطلع القرن التاسع الهجري ، فاختفى من الحياة العامة في الحجاز أمثال مجموعات القادة العمرة والحميضات[١] ، وانحصر دور مجموعات العبيد العتقاء في المدن الرئيسية .

وكان الرقيق العاملون في خدمة الأشراف في القرن العاشر الهجري من جنسيات مختلفة ، فمنهم الأتراك ومنهم الأحباش ومنهم أوربيون من أسرى المعارك البرية البحرية التي كانت تدور بين العثمانيين والأوروبيين في تلك الفترة[٢] ، وكانوا يعملون حرسًا خاصًا للشريف ، وقد كان منهم فرقتين دب بينهما التنافس عرفتا بالجزل والسحرت، وتتمركز مقر قيادة كل منهما في أجياد والشبيكة[٣] . وتتراوح أعداد جند الشريف النظاميين من العبيد بين

(١) عن تعريف القادة والعمرة والحميضات انظر التمهيد ، ص ٦ ، ٧ .

(2) Vida: A Portuguese Pilgrim, p. 293, 294 .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٢٨ ، ق ٢ ، ص ٦١٨ ، وعبد القادر الطبري : نشأة السلافة ، ورقة ١١٦ . وكان للأحباش مكانة في مكة اعترافًا بفضلهم في بداية الدعوة الإسلامية ولإعجاب المكيين بسجاياهم ومحاسنهم . قاضي خان : الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، الأوراق ٥٣ ، ٥٧ مثلاً .

خمسمائة إلى ستمائة جندي[١] . وقد عمد الشريف إلى هذا التنوع في القطاع العسكري المكون من العبيد وسمح بنشوء التنافس بينهم كنوع من توازن القوى الذي يستطيع استغلاله لصالحه إذا دعت الحاجة كما يُلاحظ من سير الأحداث مما كان من عوامل اشعال الفتن والاضطرابات أحيانًا .

واعتمد التجار على الرقيق في الأعمال التجارية ، فكانوا يبعثونهم مندوبين عنهم إلى الجهات المختلفة لعقد الصفقات التجارية ، وكثيرًا ما استقل النابهون منهم بمؤسسات يديرون فيها أعمالاً خاصة بهم بعد نيل حريتهم[٢] .

واستعانت الأسر أيضًا بالإماء في الأعمال المنزلية ، فكنّ يعاملن معاملة حسنة وتظل رعايتهن حتى الوفاة ، وإن لم يمنع ذلك بعض الناس من الاستعانة بالعمالة الوافدة من الزنوج ، على النحو الذي ما زال مستمرّا حتى الوقت الحالي[٣] .

ومن هنا تكاثرت أعداد الرقيق ، واستطاع قسم كبير منهم الحصول على حريته في ظل تعاليم الإسلام السمحة ، ومما رفع نسبتهم في العهد العثماني كثرة من كان يوهب منهم للخدمة في الحرم الشريف ، حتى أصبحوا يشكلون رابطة فيما بينهم تعمل بنظام خاص ، واشتهر أغلبهم بالغنى بسبب ما كان يصلهم من عوائد المناطق الموقوفة عليهم ، ومنهم في القرن العاشر الهجري المجموعة التي وقفها السلطان سليمان القانوني على نظافة المسعى وصيانة شبكة قنوات المياه في مكة ، وقد ظل نسلهم معروفًا إلى نهاية هذا القرن[٤] .

---

(١) جارشلي : أمراء مكة ، ص ٣٨ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦١٨ .

(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٤٤٥ .

(٤) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١١١ ، وباسلامة : تاريخ الكعبة المعظمة ، ص ٤٣٤ .

وبذلك نجد أن مكة شهدت في بداية الحكم العثماني موجة جديدة من الحركة والتنقلات البشرية ، منها وإليها ، مما غيّر في التركيبة السكانية ، وزاد في عددها باطّراد ، على مدى الفترة المؤرخ لها . ثم استمر التنوع البشري في مكة في تجدده ، وظل سمة عرف بها سكانها[١] دامت إلى ظهور الأنظمة العالمية الحديثة خلال القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي .

---

(١) غازي : نظم الدرر ، ورقة ٦٦ ، ونشر الدرر ، ورقة ١٧ ، والدهلوي : نثر المآثر ، ورقة ٥ ، ٦ .

# المبحث الثاني
# فئات السكان والعلاقات بينها

في ظل عولمة إسلامية عادلة انصهر كل المكيين في بوتقة واحدة، يفترض أن تسود فيها المساواة، لذلك انقسم الناس في مكة إلى فئات – وليس طبقات[١] – بحكم ما يزاولونه من أعمال ، وأهم فئات السكان في مكة :

## أولاً – الموظفون الحكوميون :

وهم قسمان ، القسم الأول يتبع إمارة مكة ، وعلى رأسها الشريف أمير مكة وأعوانه من أسرته وغيرها، وقد لقوا إكرامًا معنويًا على المستويين الشعبي والرسمي . وأما رجال الحكم الآخرون في الإمارة فهم من كل عناصر السكان الأخرى ، حيث عمل الحجازيون والوافدون في الوظائف الكتابية والمالية، فمنصب وزير الشريف المسئول المالي كان يتولاه المدنيون. أما العسكريون، فإلى جانب الجند النظامي من العبيد ، فإن الشريف كان يستعين بالمكيين والقبائل في حالات خروجه في مهام عسكرية أو حملات تأديبية في الحجاز وخارجه ، ثم يسرحون بعد انتهائها، بعد صرف مكافآت لهم ومتطلبات التجهيز للسفر والقتال[٢] .

والقسم الثاني : الموظفون العثمانيون ، وعلى رأسهم الوالي في جدة ، ومن يتبعه من موظفين ماليين وجند وغيرهم ، والقاضي العثماني ، والهيئة

---

(١) قال الشناوي : إن الدولة العثمانية دولة طبقية ، لأناس فيها امتيازات اختصوا بها على آخرين ، لكن إطلاق اسم طبقي على فئات الناس في الدولة العثمانية يوحي بأن الحالة فيها كما كانت في المجتمع الإقطاعي الأوروبي ، وهذا لا ينطبق على الواقع إطلاقًا ، وهذا ما وضح في كتاب أوزوتونا عن التاريخ العثماني . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ويلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

(٢) عبد القادر الطبري : نشأة السلافة ، الأوراق ٨٠ ، ١٢٢ .

التابعة له من القضاة الذين ينوبون عنه وهم من المكيين ، والمحتسبون ، وهناك شيخ الحرم وغيرهم ، وكانت للموظفين العثمانيين ، المتقاعدين الذين كانوا يقيمون في مكة ، كلمة مسموعة وأمر نافذ ، ويلقون معاملة خاصة من الشريف وسدنة البيت[١] .

## ثانيًا - أهل العلم :

وهم الطلاب المنصرفون للتحصيل ، والعلماء ، ومنهم من يعمل بالتدريس في المدارس السلطانية ، أو يكلف بإلقاء دروس في الحرم لقاء رواتب محددة ، ومنهم من يعمل تطوعًا في التدريس ، أو يعمل في إقامة شعائر الدين ، وكانوا يمثلون عامة الناس أمام السلطة ، ويقومون بدور الوسيط المعبر عن الرأي العام ، والموصل لوجهات النظر المتعددة ؛ ولكن أخذ هذا الدور في التقلص بسبب اتجاه العثمانيين لعدم تعيين العلماء المكيين في وظائف إقامة شعائر الدين وغيرها ، وتفضيلهم للعثمانيين خاصة ، مما حدّ من حضور أمثال ابن عراق وابن حجر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، ولم يكن أمام العلماء في مكة إلا اتباع أسلوب النهروالي والطبري وباكثير في تهدئة الأحوال بين أطراف السلطة ، وفي عرض المطالب العامة[٢] .

## ثالثًا - الحرفيون :

وفي مقدمتهم التجار والصرافون والصاغة ، وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى ، وكانوا يعرفون بأهل السوق . ويمكن أن يندرج بينهم المحترفون للزراعة والرعي وما ماثل ذلك ، وهم من الأعراب في الضواحي والبوادي ،

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ق ٢ ، ص ٩٧٩ ، ٨٠٢ .

(٢) القطبي : إعلام العلماء ، ص ١١٤ - ١١٥ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .

وتمثل حرفهم جانبًا حيويًا في خدمة المجتمع من حيث توفير الغذاء ووسائل النقل مثلاً[١] .

## رابعًا - العامة :

وهم العمال والأجراء وغيرهم ممن لا يعرف لهم مصدر دخل محدد ، أو غير القادرين على العمل ، وقد قدرت أعدادهم في شبه إحصاء رسمي من قبل المسئولين عن توزيع المساعدات العثمانية[٢] .

ويلاحظ أن فئات السكان في العهد العثماني لم تتغير عن العهد المملوكي، لكن زادت أعداد موظفي الدولة واتسعت مهام عملهم ، وحدثت عملية استبدال تدريجية لهيئة العلماء العاملين في الوظائف التعليمية الحكومية أو وظائف إقامة شعائر الدين ، حيث جرى تعيين علماء عثمانيين ، بدلاً ممن شغلوا هذه الوظائف لمدد طويلة من الأسر التي كانت تعيش في مكة قبل العهد العثماني[٣]. وبرزت أسماء التجار وزاد نشاطهم وعلت مكانتهم في هذه الفترة . وقد شارك عامة المكيين أفواج من الزهاد قصدوا مكة وأقاموا فيها[٤] بسبب تشجيع العثمانيين على التصوف[٥] .

ويبدو التأثير البيئي والديني واضحًا في العلاقات العملية والأسرية والعامة بين فئات المجتمع على النحو التالي :

فمن الناحية العملية نجد أن البيئة أدت إلى سيادة العلاقات القبلية بين القبائل الحجازية في المناطق المحيطة بمكة ، والروابط بين بادية وحاضرة مكة

---

(١) محمد بن فهد : حسن القرى ، ص ٤٥ ، ١٨٧ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٠٣ .

(٣) من الأسر القليلة التي ظلت محتفظة بوظائفها آل الزمزمي الذين تولوا خدمة بئر زمزم بتفويض من العباسيين الذين كانت لهم السقاية من قبل الإسلام ولكن أصبح يطلق عليهم آل الريس . غازي : إفادة الأنام ، ج ١ ، ورقة ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٠٢ .

(٥) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٥٩ .

غاية في الأهمية من الناحية الاقتصادية ، فإلى جانب تحقيق الأمن الغذائي اليومي للمكيين فإن كثيراً من المزارع في الأودية والواحات المختلفة كوادي مر وحدا وهدّة بني جابر كانت إما مملوكة للأشراف ، وإما أنهم وقفوها ويشرفون على إدارتها ، أو أنها كانت مملوكة لشخصيات من المكيين كالقضاة(١) .

ويعمل البدو في النقل والمواصلات فيؤمنون المياه لمكة في حالات الجفاف، ويقدمون إعانات ملموسة للعاملين في مشاريع المياه عامة ، ويلجأ أهل الأرياف والبادية إلى مكة في حالات القحط والأوبئة، كما في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م وسنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م(٢) .

وترتبط الحياة العملية لمعظم الحضر من سكان مدينة مكة ، بالحرم الشريف ، سواء بالعمل فيه مباشرة أو بالإقامة في المناطق المحيطة به حيث تتجمع كثافة سكانية كبيرة حوله من الأهالي والحجاج .

وقد أدى المسجد الحرام رسالة المساجد في الإسلام عامة ، فهو مقر تعبدي ، وإداري ، وتعليمي ، واجتماعي ؛ ولذلك قصده المكيون للعبادة وطلب العلم ، وأصبح مكان عمل لكثير منهم ، حيث يمارسون وظائفهم في إقامة شعائر الدين أو أعمال النظافة والصيانة والحراسة وحفظ الأمن ، أو خدمة الحجاج والمعتمرين وإرشادهم ، كما كان الحرم مقرّاً لأعمال حكومية دورية كالاجتماع السنوي للمسئولين في مكة من ممثلي طرفي السلطتين الحاكمتين ، ومن يفد مع قوافل الحجاج من موظفين وفي مقدمتهم أمراء الحج لقراءة المراسيم المبعوثة لإقرار الأحوال العامة في الحجاز أو تعديلها .

وظلت جلسات القضاة تعقد في باب زيادة من المسجد الحرام حتى نهاية

---

(١) محمد بن فهد : حسن القرى ، ص ٤٥ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٩٢ .

النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، ثم نقلت بعد ذلك إلى محاكم خاصة بها . واتخذ العلماء المسجد الحرام قاعة ندوات ناقشوا فيها قضايا عامة ، منها مثلاً مسلك جنود حملة سلمان الريس سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥ م ، وقضية الخلاف حول ترميم الكعبة .

وهناك جلسات حكومية طارئة أقيمت في المسجد الحرام ، ومنها جلوس سليمان الخادم في الحرم لتلقي شكاوى الناس وظلاماتهم سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، وجلسات الذكر التي كانت تعقد للدعاء للسلطان في حالة خروجه في حملات حربية ، وقد كانت تعقد بتكليف من الدولة ، وتتكرر يوميًا لمدد محددة .

والمسجد مجمع تعليمي حوى المراحل التعليمية كلها بما يعادل المرحلة التمهيدية إلى ما بعد مراحل الدراسات العليا في علوم الشريعة واللغة والفلك والطب ، فليس بمستغرب أن تتجمع مجموعات من صغار التلاميذ يستذكرون دروسهم في جانب ، أو أن يُرى مؤتمر علمي يضم كبار علماء العالم الإسلامي يعقد جلساته في جانب آخر ، للنقاش حول قضية علمية أو عامة تهم المجتمع المحلي أو الإسلامي عامة كقضية تجديد عمارة الكعبة أو اللقاءات التي كان يعقدها قادة الحملات كسليمان باشا الخادم .

كما كان العلماء يكلفون بوظائف عديدة ، كانوا يتولونها وفقًا لأعراف اعتمدت على الكفاية والخبرة الشخصية والأسرية في مجال من المجالات ، بطريقة أقرب إلى الترشيح والاستحقاق الذي يؤيده التوارث في أسر معينة، فالزمزمة والفراشة وظائف ظلت أكثر من مائة عام في الأسرة نفسها .

ومن أكبر مميزات علاقات العمل في داخل الحرم الشريف أنها قربت بين العاملين فيها على الرغم من تباعد التخصصات ، كما أوجدت احتكاكًا بعامة المتعبدين من المسلمين فقام العلماء بدور إرشادي توجيهي نفع المجتمع ، كما كانوا حلقة وصل بين كافة الفئات كما ذُكر . وكانت خطبة الجمعة بمثابة النشرة

الرسمية للدولة يعلن فيها رسميًا تولية وانتصارات السلاطين ووفاتهم ، وكل المستجدات التي يراد إبلاغها للناس[١] . ويظهر تلاحم المكيين في الحرم بعد تعرضه لاجتياح السيول ، حيث يخرج كل قادر من جميع الفئات للمشاركة في أعمال إزالة المخلفات ، ويبذلون كل جهد مالي وجسدي إلى أن تعاد إقامة الصلوات ويستأنف الطائفين والعاكفون والركع السجود عباداتهم[٢] .

وقد ارتبطت أعمال الحرفيين وحياتهم الشخصية بالحرم أيضًا ، فلا غرو أن يحتل المسجد الحرام خططيًا قلب المدينة المقدسة ، وتحيط به الأحياء الراقية ؛ ولذلك فإن العلماء والتجار كانوا أعيان البلد الممثلين لأهله والناطقين باسمهم لدى السلطات الحاكمة جميعًا ، وغالبًا ما كانوا مسموعي الكلمة ، وتجد مقترحاتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم رحابة صدر واستجابة ، وقد قدم ابن حجر الهيتمي والنهروالي والقطبي نموذجًا طيبًا في هذه الفترة ، ومن التجار ذكر بيرى باشا والخواجا بخشي .

لكن من الملاحظ في بداية العهد العثماني أن الدولة أخلت إلى حد ما بأعراف تولية العلماء والقضاة للوظائف في الحرم ، وأهم جانب من ذلك هو إلغاء الترشيح وأحقية الخبرة ، واستعاضت عن ذلك بالتعيين المباشر لكل ملتمس لأي وظيفة من المكيين ، ثم استعاضت عنهم بعلماء أتراك وافدين[٣] ، مما أوجد بلبلة واحتكاكات ومنافسة بين العلماء في مكة ، ومما زاد الوضع مرارة أن بعض المتولين الجدد كانوا من الذين لم يمض على وجودهم في مكة فترة طويلة ، ولا علم لهم بأحوالها ولا بأوضاع أهلها ، كما أنهم لم يحاولوا

---

(١) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٨ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ق ٢ ، صفحات متفرقة ، وقد استشرى ذلك في القرن الحادي عشر الهجري فأصبحت الوظائف تعطى نظير مقابل مادي . العياشي : ماء الموائد ، ج ١ ، ص ٢٨٨ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٨٩ ، ١٩١ .

التقرب إلى الأهالي أو استمالة الرأي العام إليهم ، بل على العكس فإنهم صدوا من قصدهم للسلام عليهم ، وتعاملوا مع الأعراب بقسوة[١] ، وربما يعود ذلك لأسباب سياسية حيث أرادوا الحد من نفوذ العلماء كما حدوا من نفوذ غيرهم ، أو للطبيعة المستعلية للأتراك التي لا ينكرونها هم أنفسهم[٢] ، ولذلك نجد أن علاقات العمل بين السلطات العثمانية وباقي الفئات سادتها الفوقية، وأخذت تنشأ بين الطرفين هوة أعطت الفرصة لبعض الوصوليين للجري خلف الكسب المادي والوظائف المختلفة ، سواء كانوا يستحقونها أو لا يستحقونها ، وقد نتج عن ذلك اتصاف علاقات العثمانيين بالمكيين بالشكلية ، والاقتصار على الصلات والعلاقات الرسمية ، كالولائم العامة وحفلات الاستقبالات العملية[٣] .

وقد ربطت بين فئات السكان علاقات أسرية قوية ، كانت تظهر من ارتباط الأسر من أي فئة بغيرها برباط المصاهرة ، بل إن هذه الرابطة جمعت بين المكيين والعلماء من مصر والهند ، لكن هناك من كان لا يحبذ الارتباط بالغرباء[٤] . كما عرف في مكة زواج المسيار وانتشر التسري بالجواري[٥] . وكانت حفلات الزواج تدوم لعدة أيام ، وتبدأ بحفل عقد القران ، ومن مظاهره الخروج بالثريات والشمع إلى الحرم ، حيث يعقد للعروسين وتوزع الحلوى والمشروبات على الحاضرين ، ثم تخرج سيدة من قبل أهل كل من العروسين لابلاغ الناس الدعوة لحضور حفل الزفاف ، فتقدم لها هدايا من المدعوين بالمناسبة ، كانت عبارة عن مبالغ نقدية تسمى اللصق ، وعلى الرغم مما فيها

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٤٣٦ ، ق ٢ ، ص ٦٩١ ، ٧٨٨ .

(٢) يلماز أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ ، والشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧٦٠ .

(٥) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .

من جرح مشاعر غير القادرين ، فإنها تشكل مشاركة في الأفراح وتكلفتها من الجميع ، وتشبه باقي مظاهر الأفراح في كثير من الجوانب ، حتى الأسماء ، ما يتم حاليّا في أمثال هذه المناسبات ، فمثلاً تسمى إحدى ليالي الفرح بالغمرة ، وكذلك ما زال بعض الناس يقيمون « صيوان » أمام منازلهم لجلوس المدعوين للحفل ، ويظهر الناس ابتهاجهم بالغناء وبعض الحركات التوقيعية ، ومنها ما يسمى لعب العيري ، لكن للأسف ليس هناك ما يدل على صفة هذا اللعب ، كما ينشد الشعر أحيانًا أو تقام ألعاب فروسية ، كما في حفل زفاف أخي شريف مكة(١) . وتعمل للنساء « فازة » لجلوسهم ، وتقدم أطعمة ، كثير من أسمائها ما زال معروفًا ، أما كيفيتها فليست معروفة ، وينتهي الاحتفال بزفة العروسين ، وكان المهر في المتوسط مائتي مثقال ذهبًا . وقد استجدت بعض مظاهر في حفلات الزفاف في العهد العثماني ، منها : عرض ما أعد للعروسين من فرش وغيره للناس للفرجة والتهنئة ، كما ظهرت أنواع جديدة من الأطعمة لم تعرف في السابق . ومنها اللوز المغلف بالسكر ، وربما كان هو نفسه المعتاد تقديمه في الأعياد إلى أيامنا هذه(٢) .

وللمرأة مشاركة في الحياة العامة في حدود الضوابط الإسلامية . فكانت هناك طائفة من السيدات تلقين تعليمًا دينيّا ، وخاصة من كن منهن من أسر عرف فيها عدد من العلماء كآل الطبري ، وشجع ابن فهد ابنته على العلم، فاصطحبها معه إلى بعض المجالس العلمية ، وسجل حضورها ، إذ يأخذ بسماع الصغير بعض أهل العلم(٣) . وكان لزوجات الشريف صلات اجتماعية قوية ، ومن ذلك حضور الناس للسلام عليهن ، وتدخلهن في حل بعض القضايا لمن يقصد مساعدتهن(٤) .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٧١٩ ، ق ١ ، ص ١٧٣ ، ١٨٢ .
(٣) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٣٤ ، ٧١ ، ٢١٦ . والقاسمي : قواعد التحديث ، ص ٢١٨ .
(٤) المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٩٣ .

وعملت سيدات في مجالات مختلفة ، منها إدارة أربطة النساء والحمامات العامة والمقاهي . وكن يحضرن المناسبات العامة ، كاحتفالات قدوم المحمل والأعياد والأفراح ، ويشاركن بالزغاريد والطبول .

لكن مع قدوم العثمانيين ، أخذت مشاركات المرأةالعامة في التقلص، وقد بدأ القضاة العثمانيون بذلك في مصر ثم في الحجاز ، وزاد التشدد مع الزمن(١) .

ويلقى الأطفال في الأسر المكية تربية إسلامية ، تبدأ باختيار الاسم واللقب والكنية للذكور والإناث وفقًا للسنة النبوية المطهرة ، وكل ألقاب الذكور تضاف إلى لفظة الدين مثل شرف الدين وسيف الدين وبرهان الدين . والمكيون كغيرهم يفضلون خلفة الذكور ويغبطون من يولدون له . وتقام الاحتفالات بمولد الأطفال وتوزع الأطعمة على المعارف كالزلابية .

ويعنى الآباء بتعليم صغارهم ، فيبعثون بهم إلى الكتاتيب منذ نعومة أظفارهم . ومن الحفلات التشجيعية للصغار ، حفلات للسبوع والختان ، وعادة يشرك فيها أكثر من طفل ، خاصة من أطفال الأتباع كأبناء العبيد ، ولهذه الحفلات مراسمها وزفتها وأطعمتها الخاصة . ويحتفل أيضًا بإتمام الصغار لحفظ كتاب الله العزيز .

ومما استجد في العهد العثماني وأصبح مألوفًا : الاحتفال بالختم في الحرم ، والسماح للحفاظ الجدد بإمامة الناس في صلاة التراويح في رمضان تشجيعًا لهم .

وللعوائل أنشطة ترفيهية ، فبالإضافة إلى المشاركة في الاحتفالات تقوم الأسر برحلات ، إما بغرض ديني كزيارة المسجد النبوي في المدينة المنورة

---

(١) جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٧٧ .

أو الاعتمار من جعرانة وقضاء أيام فيها ، وإما يرحلون إلى جدة أو الطائف أو الوديان والواحات الزراعية حول مكة ، كوادي مر والمضيق وسولة ونخلة لقضاء أشهر الصيف فيها[١] .

والعلاقات الأسرية في مكة قوية ، وإن حدث خلاف عائلي فإن وجهاء المجتمع والعلماء يتدخلون لإصلاح ذات البين ، وللتذكير بالحفاظ على صلات الرحم ، كموقف زوجة الشريف من خلاف ابنة القاضي ابن ظهيرة ووالدها ، وموقف ابن حجر من الشجار الذي نشب بين العالم محمد بن فهد وأخيه[٢] .

وللحرم في الحياة الأسرية موقع مماثل للحياة العملية ، فمن الحرم تبدأ احتفالات المناسبات السعيدة كالأعياد ، وفيه يعقد قران الأزواج ، وإليه يحمل المواليد حديثو الولادة ، وإليه يقدم الناس في نصف شعبان ، وفي شهر ربيع الأول للاحتفال بالمولد النبوي ، وقد كان هناك من قال : إن المولد بدعة ، منذ ذلك الحين ، لكن الاحتفالات استمرت وتوسع فيها أصحاب المذاهب الصوفية . وكذلك كان الناس يلجأون إلى الحرم في أحزانهم ، فيشيعون منه موتاهم ويقرأون القنوت في حالات الخوف والكوارث والنوازل .

ومن العلامات العامة بين فئات الناس المختلفة في مكة، اجتماعات العلماء والمسئولين والأشراف والتجار في رحلات لزيارة المواقع الأثرية والمشاعر كغار

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ ، ٥٢٢ .

(٢) حدث شجار بين محمد بن فهد وأخيه عبد القادر عم خبره في مكة ، واهتم به الناس ، لما لآل فهد من مكانة علمية ، وتدخل ابن حجر للإصلاح بين الأخوين . انظر : محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ٢ ، ص ٧١٣ ، ٧٨١ ، وابن حجر : أسنى المطالب في صلة الأرحام والأقارب ، المقدمة ، وقد تساءلت الكاتبة لمياء شافعي : ابن حجر ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، عن شخصية المتشاجرين وأنه لم يعلم تشاجر أحد من الأشراف أو الأمراء في تلك الفترة . ولكن ذكر ابن فهد تدخل ابن حجر والنهروالي في قضية خلافه مع أخيه وبذلك فالأرجح أنهم هم من عناهم ابن حجر في مؤلفه هذا .

ثور وغار حراء ومنى وجعرانة . كما كانت مجموعات من الأصدقاء يخرجون إلى الوديان والضواحي للنزهة والترويح عن النفس ، فكانوا يقضون وقتهم في التعريف بالمكان إن كان من المآثر الدينية ، ويمارسون ألعاب الفروسية وتطيير الحمام ولعب الشطرنج ، وينشدون الشعر والغناء والخطو الإيقاعي. لكن لقاءات المسئولين العثمانيين غلب عليها الطابع الرسمي العملي[١] .

وكان لكل حارة شيخ يختاره أهلها ، ويقوم بدور كبير في التعريف بأهل حارته ومساعدة المحتاج منهم ، والأهم من ذلك الإسهام في حماية منطقته ، وهو عمل ضروري في تلك الفترة من التاريخ ، التي كانت كثيراً ما تشهد قلاقل وفتناً ، ويظهر فيها اللصوص والمجرمون ، مما يستوجب تجمع عدد من فتيان الحارة حول شيخهم ليساعدوه في عمله الإنساني الاجتماعي هذا[٢]، لكن هذا التجمع قد يؤدي إلى تكتل وتعصب يخرج عن الحد المطلوب منه ، فيصبح دوره سلبيّا ، لأنه يفضي إلى منازعات ومنافسات بين أهالي الحارات المختلفة ، فكان كثيراً ما يسيء إلى الناس بدلاً من أن يخدمهم ، ومن ذلك مثلاً نزاعات أهل فوق وأهل أسفل التي شهدتها مكة خلال القرن العاشر الهجري[٣] . واستمرت الخلافات بين الحارتين في مكة والطائف إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري .

ومن المظاهر الاجتماعية التي استجدت في العهد العثماني: التوسع في إنشاء المقاهي ، ورخص في شرب القهوة بعد التشدد في منعها ، فقد عُرف البن في مطلع هذا القرن العاشر في اليمن، وبدأ العلماء في شربه، ليساعدهم

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤ ، ٥٢٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ . وقد عم اجتماع الناس وممارسة الخطوات الإيقاعية أو ما يعبر عنه بالرقص ، سواء في الحفلات العامة ، أو بالكيفية التي كانت تمارس في أذكار متعصبي الصوفية ، حتى ألف ابن حجر كتاباً نهى فيه عن الإغراق في أمثال تلك الممارسات ونهى عن التهاون فيها . ابن حجر : كف الرعاع ، ص ٦٧ ، ١١٢ .

(٢) وهو على ما يبدو نظام مأخوذ مما عرف بالفتوة . الشناوي : الدولة العثمانية ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ٦٣ .

(٣) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

على السهر والعبادة [١] . ثم استخدمه آخرون في حفلات مسراتهم ، وأنشأوا له أماكن خاصة خلطوا فيها عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، مما أثار غيرة فئات من أهل العلم وتطرق شكهم إلى القول بحرمة البن وضرره للإنسان ، ودارت مناقشات ومساجلات وحوارات بعضها أدبي : شعري ونثري ، وبعضها تطور فيه الخلاف إلى الاقتتال[٢] .

وتدخلت السلطة في العهد المملوكي فطورًا تؤيد هذا الفريق وطورًا تناصر ذاك ، ثم انتهى الأمر بعد دخول العثمانيين بفترة ، حيث استمرت المداولات إلى نهاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، إلى القول بحل القهوة وتحريم الكفتة والقات[٣] .

كما سمحوا بإنشاء مقاهي على أن يزال منها مظاهر الفساد ومخالفات الشريعة[٤] . وقد عمّ استعمال القهوة ، وكثرت أماكن شربها في مكة ، خاصة في أوقات الحج[٥] .

---

(١) القهوة : من الإقهاء وهو الكراهية أو من الإقها وهو الإقعاد من أقهى الرجل عن الشيء أي قعد عنه وكرهه ، ومنه سميت الخمر قهوة لأنها تقهى أي تكره الطعام أو تقعد عنه ، فكذلك ينطبق هذا القول على قهوة البن لأنها تقعد عن النوم ، وهي وضعت في الأصل لإذهابه لما يترتب عليه من قيام الليل المطلوب شرعًا . الجزيري : عمدة الصفوة في حل القهوة ، ورقة ٥ ، ٧ ، وعبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢١٠.

(٢) العيدروسي : النور السافر ، ص ١٢٤ ، والجزيري : المصدر السابق ، ورقة ١٠ ، ١٢ .

(٣) الكفتة والقات هي أنواع من الأعشاب المخدرة . ابن حجر : الفتاوى الكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ – ٢٣٤، ولمياء شافعي : ابن حجر ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٤) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٢٧٨ ، لكن مع الاستمرار في الاعتقاد في ضررها في البداية ص ٤٩ ، والوثيقة رقم ٣٨ دفتر المهمة رقم ٧ ، سنة ٩٧٥هـ .

(٥) جلبي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٧٢ ، قال : إنها كانت سبعين مقهى في وقت زيارته لمكة خلال القرن الحادي عشر الهجري .

لكن أكثر ما يظهر في الحياة الاجتماعية في مكة في هذه الفترة من التاريخ هو : انتشار الغلو في التصوف ، الداعي إلى التواكل وتعميمه ، فقد كثرت الزوايا وتضاعف عددها[١] ، وقصد الصوفية المسجد الحرام جماعات يرددون أدعيتهم آناء الليل وأطراف النهار[٢] . ولم يقتصر التأثر بهم على عامة الناس ، وإنما تأثر بهم الخاصة أيضًا ، فتبعوهم في تجمعاتهم وقلدوا ملبسهم وضعف اهتمامهم بالحياةالعامة[٣]، بل بدا أثر هذا التوجه حتى في كتاباتهم وفكرهم ، فأصبحت المؤلفات التاريخية مليئة بأخبار الخوارق والكرامات[٤] وتدعو إلى الانزواء وإيثار العزلة والسلبية ، مما كان له دور كبير في السكون والاستسلام الذي مارسته شريحة من المكيين فيما بعد . ولم تكن الروابط الاجتماعية قوية بين المكيين فقط ولكنها كانت وثيقة جدًا بكل العالم الإسلامي بسبب الرحلات التي مر معنا ذكرها وأهمها قدوم المسلمين لأداء فريضة الحج ، فإذا كانت فئة قليلة من المكيين تحتك بالعالم الخارجي حال سفرها فإن ممثلين عن كل المسلمين كانوا يقدمون حجاجًا إلى مكة حاملين خبراتهم وتجاربهم مما جعل المجتمع المكي على احتكاك دائم وقوي بالمجتمعات الإسلامية المختلفة مما ظهر أثره في كافة جوانب الحياة ومنها الاجتماعية[٥] .

وهكذا تميزت الحياة الاجتماعية في مكة باحتفاظها بكثير من مظاهرها العامة ، لأنها إسلامية الطابع ، واقتصرت التحولات على إعادة توزيع في التركيبة السكانية مع تزايد أعداد الساكنين ، وبالأخص بين فئات المسئولين والعلماء العثمانيين واللاجئين من الأماكن المختلفة ، وتغيرت قواعد تولية

---

(١) العجيمي : خبايا الزوايا ، الأوراق ٢ ، ١٠ ، وعلي الطبري : الأرج المسكي ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ٣٥٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ .

(٣) شماع : عيون الأخبار ، ج ١ ، ورقة ٩٠ ، ٩٢ .

(٤) الشلي : السنا الباهر ، ورقة ٢٢٠ مثلاً ، وعقود الدرر ، الأوراق ١٠ ، ١٥ .

(٥) مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية ، ص ١٨٩ ، ١٩١ .

الوظائف في الحرم الشريف ، فتوسعوا في إسناد أمر نظافة وصيانة الحرم إلى مجموعة من العبيد عرفوا بالأغوات . وأصبح قضاة مكة من العثمانيين أيضًا ، ثم برزت إلى جانب وظائف القضاء وظائف المفتين ، وقد خصصت لهم رواتب قرب نهاية القرن مما أظهر في الساحة مجموعة من العلماء كآل النهروالي في مكة ، وأنهى دور آخرين كآل ظهيرة .

وبزيادة عدد القادمين من السكان دخلت مظاهر جديدة في احتفالات الأفراح وختم القرآن ، وظهر ميل إلى زيادة الحد من مشاركات النساء في المناسبات العامة .

وتأثرت طرق اللباس ، وعرفت أنواع جديدة من الأطعمة ، وطرز المباني، حيث أدخل عمل القباب على بناء المسجد الحرام، والمدرسة السليمانية بجانبه ، والأهم من ذلك تأثر الفكر بالاتجاه الصوفي ، وركونه إلى التسليم لدى فئة من الباحثين .

وكان أهم عامل ساعد على إحداث هذه التغيرات الاجتماعية هو زيادة التغلغل السلمي العثماني في مكة ، بكثرة أعداد الموظفين المدنيين من قضاة وإداريين وعلماء ، وقد حمل هؤلاء قدرًا من مظاهر حياتهم ، فعرفت في مكة في جوانب من الاحتفالات واللباس والطعام وبعض نواحي الفكر ، وهي تغيرات بدت محدودة ، ودخلت على نحو تدريجي ، لكنها أفضت فيما بعد إلى سيادة طابع عثماني تميزت به حالة المجتمع في فترة الحكم العثماني لمكة .

# الفصل السابع
# قوافل الحج القادمة إلى مكة

المبحث الأول - إمارة الحج .

المبحث الثاني - طرق وتنظيمات الحج .

نهضت الدولة العثمانية بالواجبات التي ترتبت على تكليفها وتشريفها بمسئولية زعامة العالم الإسلامي ، بأن واصلت الجهاد لنشر الإسلام وعملت على حماية مقدساته ، وقدمت مبرات جليلة لأهل المدن المقدسة وخدمتهم بمشاريع مهمة كما لُوحظ . ولم يُغفل العثمانيون أيضًا واجبهم في إقامة الحج الركن الخامس للإسلام وتيسير السبل إليه . فرعوا قوافل الحجاج التي سلكت الطرق الواقعة في المناطق التابعة للدولة العثمانية برًا وحموا سفنهم بحرًا . وقد تحقق لها قدر ملموس من النجاح في بسط الأمن على الطرق والمشاعر ، كما أوجدت خدمات عديدة في كثير من منازل الحج مع بداية النصف الثاني للقرن العاشر .

وقد أبقى العثمانيون على القواعد والأنظمة التي كانت تسير بموجبها قوافل الحج منذ صدر الإسلام ، فلم يدخلوا عليها إلا تعديلات طفيفة لا تكاد تلمس وكانت في مصلحة سير القوافل ، وتحسين تقديم الخدمات لها

وتقوم أسس العناية بمسير الحجاج وتسهيل أداء المناسك عليهم على ثلاثة دعائم وهي :

**أولاً** : إيجاد هيئة تتولى الإعداد والإشراف والإدارة العامة لشئون القوافل ، منذ التحضير لخروجها إلى عودتها بعد رحلة الحج ، وتعرف بإمارة الحج.

**ثانيًا** : العناية بالطرق التي تسير عليها القوافل القادمة من الجهات المختلفة في الدولة ، من حيث توفير احتياجات الحجيج عليها من مؤن ومياه ووسائل للحماية والراحة .

**ثالثًا** : وضع تنظيمات لرحلة الحج من بداية الإشراف على الإعداد إلى خروج الحجاج وأدائهم لفريضة الحج وعودتهم مرة أخرى[١] . وهي الدعائم التي سيتم بيانها خلال المبحثين التالين .

---

(١) هريدي : شئون الحرمين ، ص ٤٠ ، ٤٤ .

# المبحث الأول

# إمـــارة الحـــج

إمارة الحج : هيئة إدارية مالية عسكرية مهنية اجتماعية، تتولى الإشراف على خدمة ونقل الحجاج من العواصم والحواضر المهمة في الدول الإسلامية ، التي كانت تضم إليها الأماكن المقدسة، وتلي زعامة العالم الإسلامي ، إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، مع التعريج بهم على المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تعود بهم مرة أخرى إلى حيث خرجت[١] .

## نشأة إمارة الحج :

فُرض الحج منذ عهد إبراهيم عليه السلام ، فكان الناس يقدمون إلى مكة سنويًا منذ ذلك الحين قبائلَ وأفرادا ، وكان لقريش قواعد ونظم تلقى بها الحجاج حين وصولهم إلى مكة في الجاهلية ، وعلى الرغم من شوائب الوثنية التي علقت بشعائر الحج ، فإن أصولها حفظت إلى ظهور الإسلام[٢] .

وقد فرض الحج على المسلمين بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة فحج بالمسلمين إلى جانب المشركين في ذلك العام أمير مكة من قبل الدولة الإسلامية ، عتاب بن أسيد ، فكان أول أمير أقام الحج في الإسلام . وفي العام التالي قدمت إلى البلد الأمين أول قافلة حج تصل إليه من خارجه في العهد الإسلامي[٣] . وقد كانت قادمة من العاصمة المدينة المنورة ، وبأمر وإشراف أولي الأمر هناك . وبذلك وُضعت قاعدة مهمة في أنظمة الحكم الإسلامي ، وهي

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢٧٥ ، والرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، ص ٣٢ ، ٣٧ ، والماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ، ١٤٣ .

(٢) دراركة : طرق الحج الشامي ، ص ٣٣ ، ٤٧ ، والأزرقي : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، وعمر : إمارة الحج ، ص ٤٩ ، ٥١ .

أن من أهم واجبات الدولة في الإسلام إقامة شعائر الدين وفي مقدمتها الحج، وكانت العناية تشمل في البداية تيسير سبل الحج ورعاية قاصديه ، وتولي إمامتهم في الحج ، وقيادتهم في أداء المناسك[١] .

ومن هنا نشأت إمرة الحج ، والتزمت بها الدول الإسلامية التي نشأت فيما تلا من العهود ، حيث سار الحكام المسلمون على هدي السلف الصالح في تجهيز القوافل الخاصة بالحج ، لكن اقتصرت مهام الإمرة على الإشراف على النقل والحماية والخدمة .

وقد تعددت قوافل الحجاج القادمة إلى مكة بعد اتساع الدولة الإسلامية ، فكان من أشهر قوافل الحج : قافلة العراق والشام ومصر واليمن ، أما الحجاج القادمون من الأقاليم الأبعد فكانوا يتجمعون في عواصم هذه الأقاليم ويرافقون الخارجين منها[٢] .

**أهميـة إمـرة الحج :**

كانت قوافل الحج عبارة عن مجتمع إنساني متكامل كبير العدد ، يضم فئات كثيرة من البشر مختلفة الألوان واللغات والعادات والمستويات الاجتماعية، تسير مجتمعة لمسافات طويلة ، تستغرق مدة ليست بالقصيرة ، إذ تبلغ حوالي ثلاثة أشهر ، وفي ظروف بيئية صحراوية قاسية حيث لا مؤن ولا ماء ، تجابه فيها أخطار قطاع الطرق والمفسدين ممن يرافقونها ، وما قد يعترضها أيضًا من كوارث طبيعية ، كما كان عليها في سفرها أداء المطلوب من المناسك كالإحرام من المواقيت ومراعاة التوقيت حتى لا يفوتهم موسم الحج . ومن هنا تبرز أهمية دور فريق العمل الذي يتولى نقل الحجاج ، إذ عليهم توفير

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٤٤ ، د١٣٤٥ ، والموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص٦٩.

الاحتياجات اليومية الحيوية لهذا التجمع البشري الكبير المتنقل ، من اعتيادية وطارئة .

فمن واجبهم مثلاً إطعامهم وإيجاد أماكن لنومهم وسكنهم في حالة الوقوف بهم في المنازل ، وإتاحة الفرصة لهم للتزود بما يلزمهم، وعلاج مريضهم، وحل النزاع بين المختلفين منهم ، ومعاقبة الخارجين على القانون من بينهم ، ورد عادية من يتسلل عليهم ، مع مراعاة التودد لهم وحسن معاملتهم حتى لا ينفروهم وإنما يعينوهم على طاعة ربهم[١] . وبذلك نجد أن أبرز مهام هذه الهيئة هو توفير المستلزمات والحاجات الضرورية للحجاج ، والعمل على راحتهم وحمايتهم ، مما يدل على مدى أهمية وضرورة عمل إمارة الحج ، إذ أن رحلة الحج بدون مساعدتهم تصبح شاقة وأكثر خطراً ، نظراً لإمكانات تلك الأزمنة .

**موظفو إمارة الحج :**

تتكون الهيئة المشرفة على نقل الحجاج في كل قافلة من عدد كبير من الموظفين المكلفين بالمهام التي تحتاج إليها جموع الناس المرافقة لهم ، لذلك فإنهم يعملون في تخصصات مختلفة : إدارية ومالية وفنية وغيرها ومنهم :

أمير الحج : من توجيهات الدين الإسلامي ألاّ يخرج ثلاثة في سفر -حتى في الأغراض العادية- إلا يؤمروا أحدهم ، وقد كان الخروج للحج أدعى لتعيين أمير للجماعة الكبيرة المسافرة ، وقد طُبقت هذه القاعدة منذ صدر الإسلام ، حيث عُين أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول أمير للحج في السنة التاسعة للهجرة ، وفي العام التالي قاد القافلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، وتبعه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم .

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٧ ، ١٣٩، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، ٢٦٦.

ومن هنا اكتسب هذا المنصب أهمية وشرفًا ، وحرص على تقلده الأمراء في الدول ، وكان لهم تقدير وإكبار عاليين في المجتمع[١] . ولقد كانت إمارة الحج في البداية إمارة على إقامة الحج ، أي تشمل القيادة في إقامة الشعائر أيضًا ، لكنها اقتصرت على إمارة تسيير الحجيج فقط أي على نقلهم وخدمتهم وحراستهم ، وترك أمر إقامة شعائر الحج للمسئولين في مكة ، وأصبحت إمرة الحج ولاية سياسية وزعامة تدبير لشئون القافلة ليس غير .

ولما لمنصب أمير الحج من أهمية ، فإنه كان لا بد من توافر صفات قيادية مختارة فيه ، منها : « أن يكون مطاعًا ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية » ، وأن يكون عالمًا قويًا أمينًا فاضلاً حسن الخلق قادرًا على اتخاذ القرار الصحيح في المواقف الصعبة ، شديدًا في غير عنف ، لينًا في غير ضعف ، فهو راعٍ ومسئول عن رعيته[٢] .

وكان أمير الحج في العهد المملوكي يختار من أمراء الصناجق[٣] ، وأما في العهد العثماني ، وخاصة في القرن العاشر الهجري ، فقد سلمت إمرة الحج في العامين الأولين لأميرين مدنيين من القضاة ، لكن هجوم الأعراب على قافلة الحج في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، وإقدامهم على سرقة مائتي جمل كانت تحمل حاجات الحرم من زيت وغيره،جعل الإمرة تعود مرة أخرى للعسكريين[٤] . أما أمراء الحج الشامي فكانوا دائمًا عسكريين ، لما كان عليه درب الحج الشامي من اضطرابات سببتها اعتداءات الأعراب .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨، الرشيدي : حسن الصفا ، ص ٨٦ ، ٩٢ .

(٢) الجزيري : الدرر افرائد ، ج ١ ، ص ٢١٨ ، ٢٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢١٨ ، ٢٨٠ ، ٣١٧ .

واعتباراً من سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م أصبح أمير الحج المصري برتبة لواء، أسوة بأمير الحج الشامي، حيث كان من المفترض أن يقدّم الأمير المصري لما للحجاز من تبعية جزئية لمصر(١) . كما ولي الإمرة أمراء الصناجق من شيوخ العرب في مصر(٢) .

وكان تعيين أمير الحج في العهد المملوكي يتم في ربيع الأول من كل عام، حيث يبلغ السلطان من وقع اختياره عليه من الأمراء بالتولية ، خلال احتفالاتهم بالمولد النبوي . فيبدأ الاستعداد مستعيناً بأخصائه وأخلص رجاله(٣) . أما في العهد العثماني فقد كان التعيين يتم بمرسوم من السلطان أيضاً ، ويبلغ للأمراء المعينين بواسطة الولاة ، ثم يقرأ في احتفال يحضره المسئولون(٤) ، لكن الأمير يعين إلى أن يصدر أمر بتعيين غيره ، أي أنه ليس سنوياً مما يعطي الفرصة للأمير ليجري استعداداته على مدار العام ، وليستفيد من تجارب السنين الماضية .

وأما واجبات أمير الحج فهي ترأس فريق العمل المتولي لنقل الحجاج والإشراف على شئون القافلة بما تستوجبه احتياجاتها التي أشيرَ إليها آنفاً.

وهناك واجب آخر يناط بأمراء الحج في الحجاز ، وهو : الإشراف على توزيع المساعدات التي تبعث لأهل الحرمين ضمن اللجنة المتولية لذلك ، والأخطر من ذلك أن أمراء الحج كانوا يكلفون بتنفيذ سياسة الدولة وتمثيلها أمام السلطات في الحجاز ، فكان يعهد إلى أمير الحج بتنفيذ مهام سياسية ومالية وعسكرية يستعين فيها بالقوة المصاحبة له . مما أدى لكثير من

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) عمر : إمارة الحج ، ص ٥٢ ، وموسى : درب الحج المصري ، ص ٦١ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٤) موسى : درب الحج المصري ، ص ٦١ ، ٦٥ .

الاصطدامات بين أمراء الحج والأشراف في مكة في بداية العهد العثماني ، كان أخطرها حادثة سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م التي كلف فيها أمير الحج بعزل الشريف وتولية غيره ، لكن لم تتكرر حوادث ذات بال بعد ذلك إلى نهاية القرن العاشر الهجري[١] .

ومن الموظفين الإداريين في إمارة الحج :الدودار ، وهو مساعد أمير الحج وكاتبه ، وأمير آخور ، وكان مسئولاً عن تأمين ورعاية الدواب الناقلة للقافلة ، ويتبعه عدد من الموظفين ، وقد زادت أهمية عمله في العهد العثماني ، لأن الدولة أوكلت إليه مهمة توفير الجمال وليس قيادتها فقط ، سواء للنقل أو لشحن الحبوب المرسلة لأهل الحرمين .

وبذلك نرى أن العثمانيين طبقوا نظرية توازن القوى حتى في إمارة الحج، حيث لم تعد كل الأمور المالية بيد أمير الحج وحده ، كما كان هناك موظفون ماليون منهم المحاسبون وأمناء الصرر ومأمورو المستودعات ، ومهمتهم كتابة ما يرد من المشتريات للقافلة وتقييد المنصرف ، وهناك كتّاب آخرون استحدث من بينهم منصب جديد في العهد العثماني ، وهي تعيين كاتب من قبل الدولة يعمل محاسبًا ماليًا خصص لمراقبة المصروفات وهو الفرع الثالث في عملية توازن القوى العثمانية ، وذلك اعتباراً من سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م ، فكان يراقب أمير الحج وأمير آخور في تعاملاتهما المالية .

ومن الموظفين العسكريين : فرقة عسكرية كاملة كانت ترافق القافلة يختار جندها من الفرق المختلفة الموجودة في مصر ، وتعمل على حراسة الحجاج المسافرين وعلى حماية ما يصاحب القافلة من أموال للتجار وصرر المساعدات الحكومية[٢] ، ويساعدهم في عملهم : القبائل العربية المقيمة على طول طرق

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٦٩ - ٩١١ .

(٢) عبد اللطيف : الإدارة في مصر ، ص ١٧٥ ، والسيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٢٨٥.

الحج بمقابل تدفعه لهم الحكومة سنويًا . ويعمل في القافلة أيضًا عدد من العلماء ، منهم قاضٍ للفصل في الخصومات، ومؤقتون وفلكيون وأئمة ومؤذنون.

ومن الفنيين والحرفيين المصاحبين للقافلة : طباخون وشعارة وضوئية ونجارون وحدادون ، وعمال يقومون بأعمال مختلفة ، فمنهم الفراشون والسقاؤون وموزعي الطعام ومتعهدو حمل وتسيير وحماية المحمل وغيرهم . وفي العهد العثماني نقص عدد من العمال توفيرًا للنفقات ، لكنه كان عددًا محدودًا[١] .

## مصروفات وموارد إمارة الحج :

تحتاج إمارة الحج في أداء مهام عملها في نقل وخدمة وحراسة الحجاج وإيصال المساعدات العينية لأهل الحرمين ، إلى مصروفات مالية كبيرة للصرف على المشتريات اللازمة من المواد الغذائية لمرافقي القافلة ، وأعلاف للدواب، ولشراء معدات للركوب ولنقل المؤن ، كقرب الماء وسلال الحبوب ، كما يتعين عليها توفير فرش وأواني ، لكن ما يتطلب أموالاً باهظة هو : أجور نقل المساعدات العينية واحتياجات الحرمين ، سواء نقلت على الجمال أو شحنت على السفن من الطور ثم من السويس إلى جدة وينبع والأزلم ، لأن السفن إما مستأجرة تحتاج ، دفع أجرة نقل ، وإما مشتراة وتتطلب مصاريف للصيانة والإصلاح ، وقبل وبعد نقل الحبوب إلى الحجاز يقتضي الأمر خزنها في الموانئ لحين إيصالها إلى الحرمين ، حيث تخزن هناك أيضًا إلى أن تصرف لمستحقيها ، فأنشأت الدولة شونًا في مصر لخزن الحبوب حتى تقل المصاريف السنوية . ومما يتوجب نقله أيضًا : الصرر والمرتبات العينية للأعراب المشاركين في حراسة القوافل[٢] .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٧٥ ، ٣٧٦ ، Faroqhi: Pilgrims, p. 47 و 73

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٢٦٧ ، ج ٢ ، ص ١١٧١ .

وكانت أموال هذه المصروفات توفر من عدة مصادر :

أولها : المبالغ المقدمة من خزانة الدولة ، وكانت في العهد المملوكي أربعة عشر ألفًا وخمسمائة دينار[١] ، وقد رفعت في بداية الحكم العثماني إلى ثمانية عشر ألفًا ومائتي دينار ، وضوعفت المخصصات العينية من الجمال والأقمشة والهدايا التي كانت تقدم في الحجاز وتعرف بالخلع . ولكن في سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٧م نقص من المبلغ أربعة آلاف ومائتا دينار ، وظل كذلك إلى قرب الثمانينات من القرن العاشر الهجري .

وثاني مصادر الأموال المقدمة لأمارة الحج كان عبارة عن ضريبة تفرض على الناس تسمى : رسم الحج[٢] .

والمصدر الثالث كان من الشريف في مكة ، الذي يلزم بتقديم مبلغ مالي لأمير الحج ، قدره ألفا دينار أشرفي حين قدوم القافلة ومائة حين سفرها ، وأن يقدم أيضًا مائتين وسبعين رأسًا من الغنم ، يجهز منها سبعين رأسًا ويقدمها مطبوخة ، حين قدوم القافلة ، ويسلم الباقي حيًا .

ولأمير القافلة حين سفره : هدايا من الأقمشة والأغنام ما يرضيه ويرضي مرافقيه « بقشيشًا » ، وعلى الشريف تقديم ألف من الجمال لنقل حمل أمير الحج الواصل بحرًا من جدة إلى مكة ، وما يزيد على ذلك من الأحمال كان ينقل على جمال أمير الحج ، أو يكترى له على نفقته .

ولأمير الحج ضريبة على الحسبة المأخوذة من الأسواق على طول طرق الحج في الحجاز ، وكان مجموعها ستين دينارًا سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م ، وقد خصصت لمهتار الطشتخانة .

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

وكان المسئول عن الدواب في قافلة الحج يأخذ من أسواق الجمال مبلغ نصف بارة على كل جمل ، ويحصلون مبالغ من العمار بمكة ، ثم نقصت هذه المبالغ بعد وقعة سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م في مكة فقط .

ويقدم أشراف ينبع أربعمائة دينار ذهبًا أي ما يعادل عشرة آلاف بارة، ومائتين وثلاثين رأسًا من الغنم ، يجهزون له ثلاثين رأسًا مشويًا ومائتين تقدم حية ، ومائة عند ذهاب القافلة إلى مكة ومائة عند رجوعها ، ويدفع شريف ينبع لباقي الموظفين مبالغ على سبيل البقشيش أيضًا . وحين عودة القافلة يدفع للأمير ثلاثين دينارًا قد تصل إلى خمسين ، وعشرة أغنام ، وهدايا أخرى لإرضاء باقي الموظفين .

ولأمير الحج على موظفيه أربعة دنانير في كل مائة دينار يحصلون عليها، وكان يكلف موظفيه بشراء حاجات القافلة ، ثم أصبح يشتريها بنفسه حتى لا يتكلف عمولة[١] .

ينطبق النظام الذي ذُكر آنفًا على إمارة الحج المصري ، ولا تختلف إمارتا الحج الشامي واليمني عنه كثيرًا ، إلا من حيث إن إمرة الحج المصري كانت مكلفة بنقل كميات أكبر من المساعدات العينية إلى الحجاز ، وما يتطلبه ذلك من استعدادات[٢] .

وبذلك فإن إمارة الحج هي الإدارة الحكومية المتولية لتهيئة مستلزمات نقل الحجاج والمساعدات للحرمين ، والقائمة على حراسة قوافل الحج والعناية بمرافقيها من كل الأوجه ذهابًا وإيابًا ، تحت إشراف موظف مسئول أمام الدولة هو : أمير الحج .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ١٩٧ ، ٢٢٩ ، وبكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٦٩ ، ١٨١ ، والنهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢١ ، ١٢٢، والنهرواني : ابتهاج الإنسان ، ص ١٨ ، ٢٠ .

# المبحث الثاني
# طرق وتنظيمات الحج

سبق التعريف بإمارة الحج ، وهي الدعامة الأولى التي اعتمدت عليها الحكومات الإسلامية الراعية للأماكن المقدسة في تيسير سبل الحج على المسلمين ، وفيما يلي تعريف بالدعامتين الأخريين ، وهما : العناية بطرق الحج، واتباع تنظيمات سير قوافل الحج إلى أن يؤدي الحجاج المرافقين لها فريضتهم ويعودوا إلى نقاط انطلاقهم .

كانت الدولة الإسلامية المتولية لزعامة العالم الإسلامي تعتني بطرق الحج الواقعة في مناطق نفوذها بحراً وبرّاً ، وذلك بأن توفر الأمن لسالكيها ، وتقدم لهم خدمات حيوية عليها ، أهمها : إيجاد مصادر للمياه وأماكن للاستراحة .

وبعد أن أصبح العثمانيون زعماء للمسلمين في مطلع القرن العاشر الهجري ، كان من نتائج تكثيف جهادهم البحري تأمين الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة بحراً ، حيث أدى فتح رودس ، ومجابهة الإسبان والبرتغاليين في البحر الأبيض المتوسط ، إلى أمن حركة الملاحة بين سواحل تركيا والشام ومصر(١) ، فارتادها الحجاج لرخص أسعار النقل على السفن ، وقصر مدة السفر (٢).

كما فتح الطريق أمام سفن الحجاج القادمة من شمال أفريقيا إلى مصر، بعد أن أصبحت كلمة الأسطول العثماني هي العليا في باقي البحر المتوسط، واستمرت كذلك إلى نهاية القرن العاشر الهجري . وغدا البحر الأحمر بحيرة عثمانية اعتباراً من النصف الثاني من هذا القرن ، واستمر كذلك إلى القرن

---

(١) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) النهروالي : التذكرة ، ورقة ٢٦٠ ، والموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ١٣٨ .

الثالث عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي[(١)] ، مما سهل قدوم حجاج شرق أفريقيا والهند والشرق الأقصى ، كما تزايدت أساطيل الشحن والنقل الحكومي التابعة لإمارة الحج المصري ، التي كانت ترسل قسمًا من المؤن المطلوبة للحجاج والمساعدات العينية لأهل الحرمين بحرًا ، وحمت الدوريات العثمانية سفن الحجاج في المحيط الهندي قرب السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية . فعلى مدى القرن العاشر الهجري كان الأسطول العثماني يجوب البحر الأبيض ، يشاركه أمراء ألوية الإسكندرية والسويس في حماية موانيء الدولة في شمال مصر وشرق البحر الأحمر ، بسفنهم المحملة بالجنود المجهزة بالمدافع ، فكانوا يحمون سفن الذخيرة والخزانة الإرسالية وسفن التجار والحجاج .

وفي سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م رصدت تحركات لسفن برتغالية في البحر الأحمر فرفع المسئولون العثمانيون في الحجاز لأمير أمراء مصر ، وبعد أن أعلم السلطان صدر له أمر ببناء سفن في ميناء السويس ، وأن تجهز بثلاثمائة محارب مزودين بكافة الاحتياجات .

وفي سنة ٩٧٢هـ/١٥٦٤م أرسل شريف مكة إلى السلطان يعلمه باعتداءات على سفن الحجاج قام بها البرتغاليون في المحيط الهندي ، فجهز أسطولاً آخر من عشر سفن أُعد في السويس أيضًا[(٢)] .

وكان لامتداد الاتصالات البحرية العثمانية إلى إندونيسيا والبنغال وشرق أفريقيا أثره في إيجاد حضور إسلامي في البحار الشرقية طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

---

(١) الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٢) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٣٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، وسليمان : الموانئ المصرية ، ص٣٦ .

وبعد أن يتجمع الحجاج القادمون بحرًا في جدة ، تنقلهم القوافل إلى مكة عبر طريق معبد أنشئت عليه استراحات وقلاع للحراسة ، وأهم الاستراحات كانت في بحرة وجدة ، وأما القلاع فكانت قلعة جدة أهم القلاع في المنطقة، ولم تحدد تواريخ القلاع الأخرى الموجودة ، لكن على أية حال فإن أمن الطريق بين مكة وجدة كان يتوقف على شريف مكة ، ويلاحظ ذلك في سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥م فإنه حين سخط على قائد الحملة التي قدمت في هذه السنة ترك حماية الطريق فعمه السلب والنهب ، لكن الأمن عاد واستقر إلى درجة مرضية بعد ذلك بفترة وجيزة [١] .

وقد ارتبطت الأماكن المقدسة في الحجاز بالعالم الإسلامي بمجموعة من الطرق البرية ، وهي مسارات تعارف المسافرون على سلوكها تفاديًا للعوائق التضاريسية والعدوانية ، كان بعضها قديمًا يعود لما قبل الإسلام ، مثل طريق الشام واليمن ، والبعض الآخر مرت عليه فترات انتعشت عليه حركة الحجاج لفترات طويلة ، ثم عادت إلى الخفوت لأسباب سياسية ، وإن لم تتوقف تمامًا ، وهو طريق العراق . ولهذه الدروب مسالك ذات محطات ومناهل مياه معروفة، لكن قد يطرأ على مسارها تعديل طفيف أو كبير فتتحول الحركة من أحدها إلى الآخر لمدد تطول أو تقصر ، ولدواعي تتراوح بين اختلاف تأثير الظواهر الجوية عليها في فصول السنة ، إلى الاعتداءات المسلحة كهجمات الأعراب ، أو اعتداءات الصليبيين الذين توقف بسببهم السفر عبر سيناء ، وتحول إلى طريق عيذاب إلى حين القضاء على الحركة الصليبية[٢] .

---

(١) محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ث ٣٥٧ ، ٣٨٠ ، والشماع : عيون الأخبار ، ج ١ ، ورقة ١٢٥، ١٣٢ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٢٣٢ ، ١٢٣٤ ، وبكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص١٠ ، ١١ ، ودراركة : طرق الحج الشامي ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

أما الحجاج القادمون من باقي أنحاء العالم الإسلامي فإن بعضهم كان يصل إلى الحجاز مباشرة ، بينما يحبذ البعض الآخر - أو أنه يتوجب عليهم - المرور بمراكز في أقاليم الشام والعراق ومصر واليمن ، ثم يصاحبون القوافل الخارجة منها إلى الأراضي المقدسة ، تحت رعاية الدولة الإسلامية الراعية للمقدسات ، والتي غالبًا ما تكون مسيطرة على إقليم أو أكثر من الأقاليم المذكورة[١] .

وبعد أن امتد الحكم العثماني إلى المدن المقدسة في مطلع القرن العاشر الهجري ظلت طرق الحج بتقسيمها السابق ، قسم منها يصل إلى الحجاز مباشرة ، وهي طرق الحسا وعمان وألحق بها طريق العراق[٢] ، فكان الحجاج القادمون عبر هذه الطرق يستفيدون مما كانت تقدمه الحكومة العثمانية على الدروب الحجازية . من التسهيلات والخدمات التي تقدمها الدولة بين المدينتين المقدستين ومشاعر الحج ، حيث ربطت بين أطراف الحجاز عدة طرق عرفت بالطريق السلطاني والطريق الفرعي وطريق الغاير والطريق الشرقي وطريق ينبع البحر[٣] . وكان أهمها في شمال الحجاز ثلاثة : الطريق المار بالساحل ، والطريق المار بتبوك ، والطريق الساحلي الممتد إلى المدينة المنورة لمن أراد المواصلة إلى خارج الحجاز شمالاً[٤] .

وقد قدمت وفود من الحجاج من الحسا في سنتي ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م و ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦م مثلاً ، وأما طريق العراق فعلى الرغم من امتداد الحكم العثماني إلى منطقته ، فإنه لم يحظ برعاية عثمانية ، وظل الحجاج العراقيون يخرجون من البصرة إلى دمشق وينضمون إلى قافلة الحج الشامي من هناك .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٢٣٨ ، ١٣٤٤ ، والبتنوني : الرحلة الحجازية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج ٢، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠. -Peters : The Hajj, p. 144 , 171.

(٣) صبري : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ٢٢٧ .

(٤) دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ٨٩ ، ٩٥ .

وقد خرجت جموع من بغداد سنة ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٤م إلى مكة عبر الطريق العراقي مباشرة برعاية أحد المواطنين ، لكن لم تشجع تلك المحاولة العثمانيين على إعادة فتح الطريق لتسيير قوافل الحجاج عليه ، بحجة تعديات الأعراب في صحارى شمال شبه الجزيرة العربية[١] . لكن يبدو أن السبب في ذلك يعود إلى خشيتهم من الصفويين ، وعدم رغبة الحكومة العثمانية في قدوم أعداد كبيرة منهم براً[٢] ، ويؤيد ذلك القلق الذي ساور ولاة العراق والشام حين قدمت إحدى أميرات البيت الصفوي لأداء فريضة الحج سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، وكيف طلبوا منها إعادة قسم كبير من العسكر المصاحب لها ، وأحاطوها بمراقبة يقظة ، وبمجرد أن لوحظ تخطي أحد أتباعها لحدود اللياقة والشرع ، أعدم فوراً في المدينة المنورة[٣] . وذلك على الرغم من توقيع العثمانيين لمعاهدة هدنة مع الصفويين سنة ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م ، كان من شروطها تسهيل مرور حجاجهم [٤] . وبذلك لم تكن تقدم من العراق قافلة حج إلى مكة بصورة مباشرة[٥] . ولم يكن يقف في عرفات إلا ثلاث امراء للثلاث قوافل الناقلة للحجاج من مصر والشام واليمن[٦] .

وكانت الطرق البرية التي تولى العثمانيون خدمتها ، والإشراف المباشر

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٢٧٥ ، ١٢٩٠ .

(2) -Islam Ansiklopredisi, 396 .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٩١٤ ، ١٩٢٣ .

(٤) فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٤٧ .

(٥) كان الحجاج العراقيون والإيرانيون يصلون من البصرة إلى دمشق ، ليرافقوا قافلة الحج من هناك ، أو يسافرون على مسئوليتهم عبر درب زبيدة بل كان من رد فعل الدولة على معاهدتها مع الصفويين أن تركت حماية طريق الحج من البصرة إلى دمشق لمدة سبع سنوات اعتباراً من سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١١٢٣ ، ويونس : قافلة الحج الشامي ، ص ٥٠ ، ٥٣ ، -Peters : The Hajj, p.172, 173 .

(6) Hakluyt: The Principal Navigations, v 2,p. 356, 357 .

على سير قوافل الحجاج فيها ، هي : طريق الحج الشامي ، وطريق الحج المصري ، وطريق الحج اليمني[١] . ولم يعمل طريق الحج العراقي تحت رعاية الحكومة طول العهد العثماني على الرغم من محاولات الصفويين خدمته بأنفسهم [٢] . ويقصد بالرعاية الحكومية لطرق الحج أن الدولة تتولى عملية إرشاد وحماية وتوفير حاجات الحجاج المرافقين للقوافل الخارجة من هذه الأقاليم المذكورة إلى جانب واجبات إمارة الحج ، وتشمل هذه الرعاية الآتي :

١ - تذليل عقبات الطرق وتمهيدها ، أو تفادي المرور بها .

٢ - سلوك الطرق الخصبة الكثيرة المرعى التي تتوافر فيها مصادر المياه ، وصيانة الموجود منها ، وإيجادها إن عدمت بحفر الآبار وإجراء العيون وبناء البرك .

٣ - المرور بالحجاج على مناطق آهلة ، تتوافر فيها المؤن والحاجات الضرورية .

٤ - إقامة منشآت دفاعية من حصون وقلاع لحماية الحجاج ، وتجهيزها بالجنود والسلاح ، وعدم التهاون في تسليم رواتب الأعراب المشاركين في الحماية .

٥ - عمل استراحات للحجاج ، مثل الخانات والنزل والإيوانات .

---

(١) ذكر الشناوي أن قوافل الحج أربع ، وعدّ قافلة الحج العراقي من بينها ، وهذا صحيح إذا اعتبرنا خدمة العثمانيين للحجاج خلال انتقالهم من البصرة إلى دمشق ، لكن لم تكن هناك قافلة حج حكومية تخرج من العراق إلى مكة مباشرة خلال العهد العثماني . الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٥٧ ، ٥٩ .

(٢) يونس : قافلة الحج الشامي ، ص ٥٠ ، ٥٣ ، والوثيقة رقم ٣٨ دفتر المهمة رقم ٦/ص/٣٥٥ سنة ٩٧٢هـ وقد نص فيها في أمر موجه لوالي البصرة جواباً على طلب تقدم به أهلها بشأن السماح بخروج قافلة حج من البصرة إلى مكة بالقول : « نفيدكم أنه يمنع منعاً باتاً انطلاق قافلة حجاج إلا من طريق القوافل المحددة من الشام ومصر » .

وتأتي أهمية إشراف الحكومة على نقل الحجاج من المشاق والمخاطر التي كانت تحيق بطرق الحج ، حتى قيل إن سالكها مفقود والعائد منها مولود ، وهي متاعب كانت تحدث نتيجة عوامل طبيعية أو بشرية[١] .

والحوادث الناتجة عن عوامل طبيعية متكررة الوقوع لا يمكن وقفها ، ولكن تبذل جهود لجعل أثرها محتملاً ولا يؤدي إلى فقدان في الأرواح والممتلكات ، ومن الصعوبات التي جابهت الحجاج خلال القرن العاشر بفعل عوامل طبيعية عدد من الكوارث الجوية ، وحالات أمراض غامضة عمت بين البشر تارة ، والدواب أخرى .

فقد حدث في سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م وسنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م عطش شديد للحجاج في الوجه والعقبة . وفي سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م كان البرد شديداً ، بينما اشتد الحر في السنوات ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م و ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م و ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م ، وقد رافق ذلك غلاء في المؤن أحياناً ، فمات عدد من الحجاج ، بلغ في إحدى السنوات أربعين شخصاً .

وبعد عقد من الزمن تكررت أزمة الجفاف مرة أخرى ، وامتدت هذه المرة لمدة عشر سنوات من سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م إلى سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م لم يهطل خلالها المطر فشحت المياه ، وانعدمت أعلاف الدواب ، وترك الأعراب منازلهم في تلك المنطقة ، فأصبحت قفراً لا مؤن فيها ولا زاد ولم يحل الاشكال إلا بهطول الأمطار . وعادت أزمة أخرى في الستينات أيضاً عمت فيها مكة هذه المرة .

وفي سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م عم وباء في الجمال ، مات بسببه عدد منها ،

---

(١) دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ٢٤٧ ، ٢٥١ .

فرميت أحمال الحجاج ، وسار بعضهم على الأقدام[١] .

وفي الفترة التي نؤرخ لها كانت هناك إشكالات تعود في أسبابها إلى عوامل بشرية منها الكثير من الحوادث التي أدى إليها الإهمال ، كزيادة أحمال السفن وعدم صيانتها وتحميلها فوق طاقتها ، مما كان سببًا في غرق الحجاج والمؤن التي كانت ترسل بحرًا إلى موانيء الحجاز ليجدها أمراء الحج حين وصولهم إلى الأزلم وجدة كما في سنة ٩٥١هـ / ١٥٤٤م وسنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م إلى سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م . وكان الإهمال في تغذية الجمال والإجحاف في تحميلها وتسييرها هو الذي أدى إلى وفاتها ووقف حركة القوافل أو تأخيرها .

وغالبًا ما كانت الفتن تشتعل خلال موسم الحج ، إما بسبب احتكاك أمير الحج مع أشراف مكة ، كما في سنتي ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م و ٩٥٨هـ / ١٥٥١م ، وإما مع الأعراب المشاركين في الحراسة،ومن ذلك أحداث سنة٩٦٤هـ/١٥٥٦م، وإما بسبب تعديات القبائل المختلفة من الأعراب ، وأشهرهم في القرن العاشر الهجري قبائل لام وبني عقبة الذين كثيرًا ما تعدوا على قوافل الحج المصري والشامي ، ومنها تعديات سنوات ٩٢٦هـ / ١٥١٩م و ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م و ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م . وتقع هذه التعديات عادة إما بدوافع اقتصادية ، فالقحط والمحل المتكرر يعقب الفقر والعوز الذي يدفع المشردين للسرقة ، وإما بدوافع انتقامية لعدم صرف مستحقات القبائل التي تشارك في حماية الحجاج وتعمل على صيانة موارد المياه وتجلب المؤن . وإما بدوافع سياسية كالخلافات بين زعماء العشائر حول مناطق النفوذ أو بينهم وبين أشراف مكة أو ممثلي الدولة كولاة جدة وأمراء الحج[٢] . ويعود السبب في تفاقم الأوضاع إلى الجهل

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨١٨ ، ٨٦٣ ، ٨٧٤ ، وابن إياس : بدائع الزهور، ج ٥ ، ص٢٣٨ ، ٢٦٠ ، وابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٩٠ .

(٢) الجزيري: الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٦٤ ، ٨٥٩ ، ٩٦٠، وابن إياس : بدائع الزهور، ==

بالطرق السليمة للتعامل مع الأعراب ، بالقسوة في عقابهم وترك العناية بتعليمهم وتوجيههم وعدم الإخلاص في مساعدتهم ، فقد اكتفى العثمانيون بتقديم المبالغ النقدية والهدايا العينية نفسها لشيوخهم[١] ضمن ما وفروه من خدمات على الطرق الثلاث التي كانت تحت إدارتهم[٢] ، وهي كالآتي :

## طريق الحج الشامي :

كان الحجاج القادمون من أغلب مناطق الشام والجزيرة وكردستان وأذربيجان وفارس والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وإستنبول يتوافدون إلى مدينة دمشق في الشام ، ومن هناك تتولى إمارة الحج الشامي نقلهم إلى الأماكن المقدسة في الحجاز[٣] في رحلة طولها ألف وخمسمائة كيلو متر ، هي المسافة بين دمشق ومكة، وتستغرق ثلاثة أشهر أو أكثر في الأحوال العادية[٤]. كانت قافلة الحج الشامي تخرج من دمشق وتمر بقرى ومدن واستراحات وحصون أقيمت حول مصادر المياه ، وتسمى منازل قافلة الحج ومناهلها[٥] .

---

== ج ٥ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، وابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ذكر أن الحج الشامي سافر في السنوات ٩٢٧ ، ٩٣٠ هـ على الدرب الغزاوي خوفًا من الأعراب .

(١) تعليق من الشيخ حمد الجاسر على تعديات الأعراب ، هامش رقم (١) ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢، ص ١٢٩٧ .

(٢) عن طريق الحج في نهاية العهد المملوكي ، انظر : السمهودي: خلاصة الوفا ، ص ٤٨٣ ، وعبد المجيد: نظم الحكم في الشام ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٥ .

(٣) الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٠٨ ، وموسى : درب الحجيج ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٤) دراركة : طرق الحج الشامي ، ص ٢٤٧ .

(٥) تشمل مناهل ومنازل الحج أسماء القرى والمدن التي كان يمر بها الحجاج وهم في طريقهم إلى مكة ، منها على سبيل الاختصار في الفترة التي تعنى بها هذه الدراسة: الكسوة ، خان ذي النون ، صنمين ، المزيريب ، المفرق ، البلقاء ، القطراني ، الحسا ، عنيزة ، معان ، بطن الغول ، ذات حج ، تبوك ، الأخيضر ، المعظم ، الأقيرع ، المبرك ، مداين صالح ، العلا ، مطران ، شعب النعام ، هدبة ، وادي القرى ، المدينة المنورة ، بكر : معالم دروب الحجيج ، ص ١٧٢ .

فالقوافل تمر على مواقع ثابتة ، بعضها معروف من قبل الإسلام ، لأن طريق الشام - الحجاز كان أحد طرق التجارة العالمية القديمة[١] ، لكن تغيرت بعض نقاط التوقف في بداية العهد الإسلامي ، ثم ثبتت بعد ذلك فلا تكاد تختلف أسماءالمنازل من قرن إلى آخر إلا نادراً، ولتحول مؤقت في المسار حيث توجد تفرعات للطريق يُسلك أحدها في حالة إغلاق الآخر لأسباب جوية مثلاً[٢].

ولقد عني العثمانيون بطريق الحج الشامي ، لأنه كان يتصل بالعاصمة إستنبول ويسير عليه حجاجها ، لذلك نجد أن المنشآت الدفاعية ومنشآت الخدمات العامة عمت فيه إلى هناك . فكان موقفهم منه كموقف العباسيين من درب العراق زمن الدولة العباسية[٣] .

ومن الإجراءات الدفاعية التي اتخذها العثمانيون على طريق الحج الشامي في فترة هذا البحث التاريخية الآتي :

١ - وحدوا مسار الحجاج في الكرك وهي منطقة تشمل أغلب الأردن الحالية ، وكانت قوافل الحج تعبرها من الحدود السورية إلى شمال الحجاز من ثلاثة دروب ، فركز العثمانيون على طريق واحد منها فقط[٤] ، وتجنبوا غيره ليسهل تركيز الحماية له والحد من تعديات الأعراب عليه ، فلقد عمت الفوضى المنطقة منذ نهاية العهد المملوكي ، وتطلب الأمر من السلطان الغوري تسيير ست حملات لحمل الأعراب في الكرك على الطاعة ، ومنهم قبائل لام الذين تمتد

---

(١) داركة : طريق الحج الشامي ، ص ٣٣ ، ٤٧ .

(٢) من المصادر التي عددت طريق الحج الشامي في فترة هذا البحث : الشماع : عيون الأخبار ، ج ١ ، ج ٢ ، ورقة ٦١ ، ١٢٤ ، النهروالي : التذكرة ، ورقة ١٩٥ ، ١٩٩ ، والجزيري : الدرر الفرائد، ج ٢ ، ص ١٢٥١ ، ١٢٦٦ .

(٣) بكر : ملامح دروب الحجيج ، ص ١٧٠ .

(٤) داركة : طريق الحج الشامي ، ص ٢٦٢ .

منازلهم إلى شمال الحجاز ، فظل طريق الحج الشامي مغلقًا لمدة سبع سنوات من سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م إلى سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ثم أعيد فتحه[١]، لكن تعديات القبائل وخاصة لام لم تنقطع ، بل استمرت إلى بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، ومنها سنوات ٩٢٤هـ / ١٥١٨م و ٩٢٥هـ / ١٥١٩م و٩٦٣هـ / ١٥٥٥م[٢] ، فسهل تحديد مسار القافلة حمايتها ، وظلت التفرعات الأخرى مستخدمة روافد يتدفق عبرها حجاج تلك المناطق ليلحقوا بالقافلة الرئيسة وهي في طريقها إلى الحجاز ، وفي شمال الحجاز سلك الحجاج الطريق التبوكية لأنها أكثر عمرانًا[٣] .

٢ - وفي سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م أعيد فتح طريق الحج الشامي الموصل من رابغ إلى مكة بعد إغلاق دام مدة سبعة وعشرين عامًا ، أي منذ اضطرابات الحجاز في مطلع القرن العاشر الهجري . وهذا الطريق أقصر من غيره لذلك أصبح الحج الشامي يصل قبل موعده بيومين[٤] .

٣ - استمر صرف رواتب رؤساء العشائر ، ويلاحظ أن السلطان سليم أوكل لقبيلة تركمانية حماية طريق الحج الشامي في المنطقة الواقعة من ذي النون إلى صنمين بما فيها القلعة المنشأة في غباغب ، وربما كان ذلك تهديدًا

---

(١) ابن الحمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ . وقد ظن بعض الباحثين أن إعادة فتح الطريق الشامي سنة ٩١٩ هـ إنما هو بداية المحمل أو بداية تسيير قافلة الحج الشامي . الحربي : نظم الحكم ، ص ٢٠٨ ، دراركة : طرق الحج الشامي ، ص٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩ ، ١١ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٧ ، وابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٩٠، ٩٦ ، ١٠٤ .

(٣) دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ٩٥ .

(٤) محمد بن فهد : ق ١ ، ص ٤٢٨ .

منه للقبائل العربية بأن بإمكانه الاعتماد على غيرها في أعمال الحراسة[١] .

٤ - زادت القوات العسكرية المصاحبة للقافلة ، وكثيرًا ما كان ولاة الشام يخرجون في حملات لملاقاة القافلة ومن ذلك مثلاً سنة٩٣٢هـ/١٥٢٥م[٢]، وقد يأخذون رهائن من أقرباء الأعراب لا يطلقونهم إلا بعد عودة القافلة سالمة كما في سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م[٣] .

٥ - زاد العثمانيون من المنشآت الدفاعية ورمموا الموجود منها ، فلقد بنى السلطان سليم الأول قلعة حصينة جميلة المنظر في غباغب ، وقلعة أخرى في المزيريب وعين فيها جنودًا من فرقة المستحفظين وبنى السلطان سليمان قلاعًا في كل من قطران ومعان وذات الحج وتبوك والأخيضر والعلا ، وفي هذه المدينة كانت الدولة تحصل ضريبة مقدارها درهم على كل نخلة ، لأجل الصرف على الجند في قلعتها ، ثم ارتفعت إلى أربعين ألف درهم . وبنى السلطان سليمان قلعتين أخريين في عنيزة وخيبر[٤] ، وأخرى في سبرغ[٥] .

وأما الأعمال التي قام بها العثمانيون لراحة الحجاج وخدمتهم فتشمل :

١ - زيادة الخانات خاصة في المنطقة الموصلة من دمشق إلى إستنبول، حيث بنيت ثلاث قرى إلى الشمال من دمشق ، بني في كل منها خان ، وفي سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م بنى بيري باشا خانات أخرى في طرسوس وفي كادر

---

(١) كان السلطان الغوري قد عاقب القبائل العربية سنة ٩٢٠ هـ بسبب تعديها على الحجاج ، فأوكل حماية الطريق في هذه المنطقة للقبيلة التركمانية ، وقد أبقى السلطان سليم الأول العثماني على ذلك وسلمهم حماية الحصن في تلك المنطقة . ابن حمصي : حوادث الزمان ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٢) الشماع : عيون الأخبار ، ج ٢ ، ورقة ١٠ .

(٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ٢ ، ص ٩٦ .

(٤) الشماع : عيون الأخبار ، ج ٢ ، ورقة ٦٥ ، والنهروالي : التذكرة ، الأوراق ١٩٥ ، ١٩٦ ، و دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ١١٨ ، ١٨٢ ، ١٨٦ .

(٥) غباغب وسبرغ : منزلتين من منازل الحج الشامي ورد ذكرهما في بعض المصادر . دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ٢٩٥ ، ٣٠٢ .

صندوغي ، وزادت الحراسة في كل منها لحماية الصرر والمساعدات المبعوثة من العاصمة . وكان الحجاج يجدون أماكن للراحة في الحصون التي ذُكرت سابقًا(١) .

٢ - وفرت مصادر جديدة للمياه ، بعضها في داخل الحصون السابقة، وشددت الحماية عليها وعلى غيرها ، حتى لا تتعرض لأعمال تخريبية من المفسدين في حالات الفتن . وأقيمت برك تُملأ من الآبار أو من مياه الأمطار ، ومن أمثلة ذلك : البركة والبئر في الأخيضر وقد بنيت عليها قلعة لحفظها من تعديات البدو ، وكان غالب الخانات والحصون السابقة مزودة بآبار(٢) .

٣ - عرف على طريق الحج في بداية العهد العثماني ما أُطلق عليه : الملاقاة وهي أطعمة كانت تجلب إلى تبوك والحسا والزرقاء عند عودة قوافل الحج ، يوزع بعضها على شكل وجبات ساخنة مجانية للحجاج ، ويباع بعضها الآخر بأسعار رمزية،فكان الحجاج يستفيدون منها بعد عناء الرحلة الطويلة(٣).

وبذلك يتضح أن العثمانيين قدموا خدمات كبيرة كان لها آثار مهمة في مقدمتها : بسط قدر من الأمن النسبي دام إلى نهاية القرن العاشر الهجري بعد فترة طويلة من الاضطرابات(٤) .

---

(١) النهروالي : التذكرة ، الأوراق ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، والموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ .

(٢) النهروالي : التذكرة ، الأوراق ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) الشماع : عيون الأخبار ، ج ٢ ، ورقة ١٠ ، ١١ .

(٤) دراركة : طريق الحج الشامي ، ص ٢٦٠ ، لكنه قال : إن من أسباب هذا الاستقرار استحداث الصرة وكما هو معروف فالصرة أو تقديم مقابل للأعراب نظير مشاركتهم في حماية الحجاج كانت قاعدة معروفة منذ بداية عهد دولة المماليك .

## طريق الحج المصري :

يجتمع حجاج مصر وشمال أفريقيا في القاهرة ، وينطلقون منها إلى الأماكن المقدسة بإشراف الدولة[١] ، ويُرجع البعض تاريخ هذا الإشراف إلى عهد الظاهر بيبرس الذي أعاد الزعامة الإسلامية بإحياء الخلافة ، وحقق انتصارات على الصليبيين ، واستطاع إعادة فتح طريق الحج براً من مصر بقدومه لأداء الفريضة بنفسه ، وهذا صحيح بالنسبة لما بعد فترة الحروب الصليبية ، لكن الرعاية الحكومية للحجاج كانت معروفة بشكل أو بآخر منذ صدر الإسلام ، كما سبق .

ولقافلة الحج المصري أهمية تفوق غيرها ، بسبب ما تحمله من مساعدات تجعلها أكثر تعرضاً للخطر وبالتالي بحاجة إلى الحماية ، ولذلك نجد طريقها دُرس بعناية فقُسم إلى أربعة أرباع ، حددت سماتها واتخذت الاحتياطات حيالهـا .

أما المنازل على هذا الطريق فعددها أربع وخمسون منزلة مشهورة[٢] . يمر بها الحجاج ليقيموا بها فترات تتراوح بين ساعات قليلة للتزود بالماء ، وعدة أيام ، فبعضها مناهل للماء فقط ، وبعضها الآخر قرى صغيرة أو مدن كالعقبة[٣] .

وكان من الوسائل الدفاعية التي اعتمدها العثمانيون على الطريق المصري ما يلي :

١ - زيادة الفرقة العسكرية المصاحبة للقافلة والرفع من مستواها مظهراً ومخبراً .

---

(١) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ .

(٣) عدّد كثير من الباحثين أسماء المناهل وعرفوها وأكثرها اختصاراً ، وقد عددها بالكيلومترات ، بكر : الملامح الجغرافية ، ص ٨٢ . ومن المصادر المعاصرة التي قدمت وصفاً لطريق الحج المصري في القرن العاشر . الجزيري والشماع ومنهم الرحالة البرتغالي الذي قدم ضمن العبيد المصاحبين لقافلة الحج سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٥م وقد كان وصفه دقيقاً . انظر :

A Portu Gues Pilgrim , p. 288 .

٢ - استمرار صرف رواتب للأعراب المشاركين في الحراسة على طول الطريق من أسوار القاهرة إلى مشارف مكة ، والعمل على استمالة المناوئين منهم بالترغيب بعد الترهيب ، حيث كان يصرف لزعيم بني عقبة أكبر الرواتب المقررة ، وأصبح لشيخ لام مقرر على القافلة المصرية كما كان له على الشامية . وظل المسالمة من بني عطية يتولون حراسة السفن في البحر الأحمر وهي وظيفة لهم دون غيرهم[١] .

٣ - رُممت الحصون التي كان أنشأها الغوري في كل من عجرود ونخل والعقبة والطور والسويس والقصير وزيدت الحراسة فيها . وفي سنة ٩٦٧هـ / ١٥٥٩م بُني حصن في المويلح وُضع فيه سبعة وأربعون مدفعًا وطبلخانة رومية ، حتى أصبح من أهم موانيء الحجاز ، وأقيمت قلعة في الأزلم وأخرى في ينبع البحر والوجه وينبع وأقيم برج في رابغ[٢] ، وجددت قلعة العريش وذللت عقبات المضايق مثل عقبة أيلة فاتسعت الطرق بعد أن كان عبورها من أشد المشاق[٣] . ولكن عدد الجنود في كل القلاع لم يكن كبيرًا جدًا ، ربما بسبب ما هو معروف عن قلة الموارد خاصة المائية في الحجاز ، حيث يتراوح عدد البلوكات فيها بين ثلاثة وسبعة بلوكات ، ومتوسط عدد الجنود في كل بلوك من خمسة إلى اثني عشر فردًا ، وكلها تابعة لمصر[٤] .

## المنشآت والخدمات التي كانت تقدم لراحة الحجاج :

١ - الاهتمام بمصادر المياه بصيانة الموجود منها وحفر غيرها[٥] ، وقد

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣ ، ص ١٣٦٢ .

(٢) موسى : درب الحج المصري ، ص ٧٠ ، ٨٠ ، وعمر : إمارة الحج في مصر ، ص ٢٤٥ ، ٢٥٨ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ١٠٤ ، وعبد الغني الحنفي : أوضح الإشارات، ص ٥٨-٥٩، ٦٠.

(٤) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ٣١٢ ، والدمرداش : الدرة المصونة ، ص ٢٠٦ ، ٣٣٧ .

(٥) أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٨٢٣ .

عملت الآبار في ثمانية عشر موضعًا على هذا الدرب ، وبنيت برك في ثمانية مواضع ، وقد تفرد العثمانيون بالنظام الذي رعوا به مصادر المياه من بركة الحج في ضواحي القاهرة إلى ساحل البحر الأحمر ، حيث سلموها لمتعهد من العسكريين وأمدوه بمبالغ مالية للصرف على صيانتها وحفظها ، وقد أسفرت جهوده عن نتائج ممتازة ، إذ أدت خدماته الغرض منها في توفير المياه للحجاج في هذه المنطقة[١] .

وفي الحجاز عين ناظر لعين خليص سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م خُصص له راتب وأُمر بالإقامة هناك والعمل في صيانة العين ، فتزوج من أهل المنطقة، ثم أصبح عمل صيانة العين منوطًا بولده بعد وفاته سنة ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م ، وكانت تصرف رواتب للأعراب المكلفين بالحراسة لأجل صيانة مصادر المياه في المنازل الأخرى ، فقد وقف إبراهيم باشا أوقافًا للعناية بآبار الوجه كانت تدر أربعمائة دينار سنويًا ، ومائة دينار أخرى للآبار في العرجا زيدت إلى مائة وستين[٢] .

وقد ظلت الإضافات إلى هذه المصادر تتوالى من حين إلى آخر بحسب الحاجة[٣] .

٢ - إنشاء عدد من الخانات ، منها خان خارج القاهرة وإيوان ومصلى في بركة الحج جُددت سنة نيف وخمسين وتسعمائة ، وأقيمت فيها سوق حوت مستلزمات رحلة الحج ، وخان في عجرود جدد سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، وآخر في نخل وُسع سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م بمال قدمه السلطان، وأقيم سوق أيضًا،

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٣، ص ١٣٢٧ ، ١٨٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٩٧ ، ١٣٩٩ .

(٣) تقدم أحد سكان المدينة إلى السلطان في سنة ١٠٠١هـ بطلب حفر آبار وبناء مساجد في كل المنطقة الواقعة بين جبل صبح والجحفة ، وبين بدر والجحفة ، فاستجاب لطلبه وخصص مبلغ ألف قطعة ذهب لإتمام المشروع ، وكلف به والي مصر ، وثيقة رقم ١٩٣ ، دفتر المهمة رقم ٧٠/ص/١٩٢.

وأصلحت عقبة أيلة سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣ م ، وظل الخان والسوق التي بها عامرين منذ إنشاء الخان في مطلع القرن العاشر الهجري بل خففت العشور فيه في سنة ٩٦٧هـ / ١٥٥٩م إلى نصف العشر . وكان في المويلح خان وآخر في الأزلم تحفظ بهما ودائع الحجاج لحين العودة من الحج . وأصلحت استراحة خليص ، وعملت لها قبة تشرف على البركة ، وبنى الشريف أبو نمي مسجدًا في بدر[١] .

٣ - ومن الإجراءات التي استجدت في العهد العثماني لخدمة الحجاج على الدرب المصري :

أ - سحابة الفقراء[٢] : وهي مساعدات قرر السلطان سليمان تقديمها لفقراء الحجاج الذين يتبعون القافلة منذ سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م، وتشمل جمال الركوب وخيمة كبيرة يجتمعون فيها حين النزول في الاستراحات، وتقدم لهم بعض وجبات الطعام[٣] . وقد كان يتولى شئونها ناظر يشرف على سيرها وعلى مصروفاتها .

ب - الملاقاة : وهي شبيهة بتلك التي ذُكر أنها تقدم لقافلة الحج الشامي ، حيث تقرر تقديم وجبات للحجاج حين قدومهم إلى الأزلم والعقبة ، كما كانت تعرض أطعمة بأسعار رمزية لمن أراد الشراء ، وتقام أسواق في كلا المكانين ، ثم يعود أصحابها برفقة القافلة إلى القاهرة[٥] .

يتضح مما سبق أن الخدمات المقدمة على طريق الحج المصري كانت لا تقلّ عن مثيلتها على طريق الحج الشامي إن لم تتفوّق عليها .

---

(١) موسى : درب الحج المصري ، ص ٨٠ ، ٩٦ ، وعمر : إمارة الحج في مصر العثمانية ، ص ٢١٥ ، ٢٢٥ ، وشاهين : خدمات الحج ، ص ٦١، ٧٤ .

(٢) نسب عمل سحابة الفقراء إلى الوالي : أحمد باشا (٩٩٩-١٠٠٣هـ) وقد عرفنا أن السلطان سليمان هو الذي أمر بإنشائها وربما حسّن هذا الوالي خدمتها . الملواني : تحفة الأحباب ، ص ١٦١ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٤) وثيقة رقم ١٢٩ سجل ٣٣ ، محكمة الباب العالي ، سنة ٩٧٩هـ .

(٥) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٣٧٦ ، موسى : درب الحج ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٦ .

## طريق الحج اليمني :

للحج اليمني عدة مسالك ، وقد أسهم شريف مكة في تقديم بعض الرعاية لهم خلال العهد المملوكي[١] ، وكان الحجاج القادمون من اليمن إلى بداية وصول الحكم العثماني إلى الحجاز قلة ، بسبب الاضطرابات في المنطقة عامة، فكان الكثير منهم يؤثرون القدوم بحرًا خشية من تعديات الأعراب[٢] . وهناك قلة منهم كانت تصل برّا بصحبة أحد الزهاد ، وكانوا يعانون مما يفرض عليهم من مكوس وإتاوات إلى أن يتمكنوا من المرور[٣] .

لكن بعد زيادة النفوذ العثماني في اليمن إثر حملة سليمان باشا الخادم، خاصة على السواحل ، استطاع والي اليمن مصطفى باشا النشار إعادة فتح طريق الحج اليمني بإشراف حكومي اعتبارًا من سنة ٩٤٩هـ / ١٥٤٢م ، فكان الحجاج اليمنيون يرافقهم حجاج إندونيسيا وماليزيا وشرق آسيا والهند يخرجون بصحبة أمير وجند ، وبكل مظاهر السلطنة[٤] . ففي سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م ، صدر أمر السلطان بخروج محمل من اليمن يوصل أموال أوقاف الحرمين في تلك النواحي[٥] . وقد طور مظهر قافلة الحج اليمني بما يلفت الأنظار في سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م ، فكان أمير الحج اليمني اللواء محمد أمير قرية جبلى . وكان بصحبته قاضي محمل شافعي المذهب ، وبصحبتهم أربعون فرسًا مكملة بلبس فاخر ، وحمل معه الأعلام العثمانية والطبول بصحبة الفرقة العسكرية والموسيقية التابعة لها ، أي أن ولاة اليمن حاولوا أن يضاهوا قوافل الحج الشامي والمصري ، ويماثلوهم فيما يقدمونه من خدمات .

---

(١) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٢٠٨ .

(٢) جلال : قوافل الحج ، ص ١٤٨ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، والجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٢٩١ ، ١٢٩٢ .

(٥) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

ولطريق الحج اليمني منازل معروفة ، وله أكثر من مسار ، أحدها جبلي والأخرى ساحلية ، لكن عناية الحكومة خصصت لأحدها ، للأسباب الأمنية السابقة . وكان قد فتح طريق صعدا منذ سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م . وذُكر من الخدمات التي قدمت للحجاج المرافقين للقافلة اليمنية ، مما اختص به العهد العثماني ، تقديم أطعمة للحجاج ، وخيمة للفقراء منهم ، وعمل سقاية لهم، وحملت أكفان للموتى منهم[١] .

وقد قدمت كسوة ومبلغ ثلاثين ديناراً وبعض الزاد إعانة لمن أراد من حجاج اليمن زيارة المسجد النبوي في المدينة المنورة . ومما خدم به الحجاج اليمنيون أيضًا إبطال العشور التي كانت تؤخذ منهم منذ سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، وزاد أمن الطرقات[٢] .

وهكذا استمر العثمانيون في تسيير طرق حجاج الشام ومصر ، وزادوا العناية بحماية الحجاج ، وصيانة وإيجاد مصادر المياه ، وأعادوا تسيير طريق الحج اليمني بعناية حكومية . فاستمرت إلى سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م[٣] ، ثم انقطعت قبل خروج اليمن من الحكم العثماني خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي بفترة وجيزة .

وتميز طريق الحج الشامي بامتداد خدماته إلى العاصمة إستنبول ، بينما تميز الطريق المصري بوجود منشآت مضاعفة للحماية ، وبصلات بحرية ، حيث كان بعض الحجاج يرافقون السفن التي كانت تنقل المساعدات العينية للحرمين. وبذلك نجد أن جهود العثمانيين في خدمة طرق الحج كانت كبيرة ، سواء في المجال الدفاعي أو في مجال الخدمات العامة ، فعرفت طرق الحج

(١) النهرواني : ابتهاج الإنسان والزمان ، الأوراق ١٧ ، ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، الأوراق ٢٠ ، ٢١ .

(٣) علي الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٠٢ .

أمنًا ملحوظًا وهدوءًا نسبيًا خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[١] .

ولم تقتصر إجراءات الخدمات على طرق الحج ، وإنما كانت الدولة تعنى بشكل كبير بالخدمات المقدمة في مكة ، وتصدر توجيهاتها بخصوص أدق التفاصيل[٢] .

أما تنظيمات الحج فقد طورت على مدى مئات السنين ، وروعي في وضعها أدق التفاصيل التي ثبتت الحاجة إليها خلال تلك المدة الطويلة ، فكانت تساعد على تقديم أفضل قدر ممكن من الخدمة والحماية للحجاج .

وكانت تنظيمات الحج تبدأ بما سبقت الإشارة إليه من تفقد للطرق ، وعمل الصيانة للمرافق المختلفة في منازلها قبل الموسم بوقت كاف . وبعد صدور الأوامر بتكليف الأمراء والمسئولين في إمارة الحج كانوا يتولون قيادة الرحلة إلى الأماكن المقدسة ، منفذين أنظمة أخرى تتعلق بالاستعدادات للسفر وتحركات القوافل على الطرق ، وإنجاز الأهداف المتوخاة من قصد الحجاز[٣] .

**استعدادات السفر :**

تبدأ بتكليف المسئولين في إمارة الحج ، فكان السلطان في العهد المملوكي يصدر أمره بتعيين أمير الحج سنويًا خلال احتفالاتهم بالمولد النبوي ،

---

(١) داركة : طرق الحج الشامي ، ص ٢٦٢ ، وبكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٧٢ .

(٢) في سنة ٩٨٥ – ٩٨٦ هـ صدرت أوامر بمنع الأسواق والباعة عند الجمرات ، لأجل الزحام حين الرّمي في منى ، وفي سنة ٩٨٩هـ طلب إقامة سد ذي ثلاثة أبواب في عرفات ، الوثيقة رقم ١٢٠ ، دفتر المهمة رقم ٣٢/ص/١٧٣ ، والوثيقة رقم ١٢٣ ، دفتر المهمة رقم ٣٥ / ص / ٨٠ ، والوثيقة رقم ١٤٢ ، دفتر المهمة رقم ٤٢/ص/٣١ . المصدر مركز أبحاث الحج بمكة .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١١٧١ ، ١١٩٩ ، ج ٣ ، ص ١٣٠٢ .

أما العثمانيون فكانوا يولون الأمير في مصر بصفة دائمة إلى أن يتم تكليف غيره ، على أن تجدد ولايته سنويًا في شهر ربيع الأول أو رجب ، بأمر من السلطان يبلغه له أمير أمراء مصر خلال جلسات ديوان الحكم الكبير في مصر، الذي كان أمير الحج أحد أعضائه[١] . ويحضر جلساته، ليناقش الأوامر الصادرة بخصوص مهام عمله، وليرفع تقريره بعد عودته عن أحوال الرحلة .

وبعد أن يتسلم أمراء الحج المخصصات المالية للرحلة ، كانوا يعلنون عن بدء الاستعدادات للخروج ، بعمل احتفالات في كل من القاهرة ودمشق وإستنبول في شهر رجب أو شعبان ، كان من مظاهرها القيام باستعراضات كبيرة تجوب الميادين والشوارع الرئيسة في هذه المدن ، وتشارك فيها فرق عسكرية ترافقها مجموعات من العروض الفنية ، من بينها بعض من ألعاب القوى والحركات البهلوانية ، وتطلق الألعاب النارية والمفرقعات[٢] ، ويتوسط الموكب جمل يحمل هودجًا ، جعل شعارًا لقوافل الحج، كان يُعرف بالمحمل[٣] .

فالمحمل : هودج خشبي يلبس كسوة مطرزة زيد في زينتها في القرن العاشر فأصبحت من المخيش وتطريزها من فضة وذهب ثبتت فيه قطع من الفضة الخالصة ، ويحمله جمل من سلالة جيدة ضخم الجثة ، اعتني بتربيته طوال العام وبولغ في زينته . ويرمز للمساعدات التي تقدمها الدولة لأهل الحرمين ولعنايتها بتيسير سبل الحج[٤] . ولا يعرف تاريخ البدء به على وجه

---

(١) عبد اللطيف : الإدارة في مصر ، ص ١٤٠ ، ١٤٣ .

(٢) وقد عم إطلاق هذه الألعاب في حال خروج القوافل، وفي مكة ومنى، وحالة عودة الحجاج إلى العواصم: القاهرة وإستنبول، ابتهاجًا بوصولهم ، محمد بن فهد : نيل المنى ، ق ١ ، ص ١٠١ ، أوزوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٨٢٧ ، Faroqhi : Pilgrimes , p. 37 و 40 .

(٣) حلمي : المحمل ، ص ٦ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

التحديد ، لكن الذي لا شك فيه أن المساعدات كانت تبعث لأهل مكة منذ صدر الإسلام ، تعبيراً عن البر بجيران البيت أهل الله[١] . وقد حضر السلطان سليم احتفالات خروج المحمل من القاهرة خلال المدة التي قضاها هناك فأمر بتجديد كسوته وتحسينها وأرسل مساعداته في محمل رومي منفرد صغير الحجم[٢] .

وبعد هذه الخطوة المعلنة لبدء الاستعداد يتجه مسئولو الحج والأفراد لعمل ترتيباتهم، فكان أمراء الحج يستقبلون طوائف العاملين في القافلة فيعقدون معهم اجتماعات قصيرة في بيت الأمير، ويتقدم كل طائفة شيخها،ثم ينصرفون بعد تقديم المرطبات . وبعد ذلك يجري العمل على التجهيزات في اتجاهين :

**الأول** : إيجاد وسائل النقل والحمل ، وأهمها الجمال ، ولها في مصر أهمية خاصة بسبب ما يتطلبه نقل المساعدات العينية من الحبوب واحتياجات الحرم من أعداد كبيرة منها . كما تحتاج ، المؤن ، وأهمها مياه الشرب ، والمرافقون للقافلة من الموظفين إلى أعداد أخرى من الجمال ، وقد كان تحصيل الجمال والعناية بها موكلة لطائفة من الموظفين برئاسة أمير آخور .

أما الحجاج فكانوا يحضرون دوابهم إما شراء وإما استئجاراً ، ثم يرافقون بها القافلة . وتُعد مهمة نقل المساعدات وشحنها مهمة شاقة ومكلفة، حيث كانت تنقل برّاً إلى سواحل البحر الأحمر ، ثم يشحن قسم منها بحراً، ويرسل قسم آخر برّاً إلى الحجاز . لذلك فهي مجال عمل مهم للأعراب في صحارى مصر والحجاز ، ولعمال الموانئ فيهما .

**الثاني** : يحرص أمراء الحج على توفير كل صغيرة وكبيرة من المؤن والإمدادات ، بما فيها كميات من المياه التي قد يحتاج إليها على الطريق ، لأن مناطق سير القوافل مقفرة ، ولا سبيل للحصول على كل الضروريات فيها، ولذلك كانت تحمل الأطعمة وأوانيها والدواب ومعدات ركوبها وأدوات إصلاحها،

---

(١) حلمي : المحمل ، ص ٨ ، ٢٠ .

(٢) البكري : نصرة إهل الإيمان ، ص ١٤٨ .

وكذلك كل الخدمات ، فلا يغفل عن حمل أبسط الاحتياجات بما فيها الأدوية والأكفان للموتى من الفقراء . وتستمر الاستعدادات إلى أن يحل أوان السفر .

**تحركات القوافـــل :**

تخرج قوافل الحج من الاتجاهات المختلفة حوالي منتصف شهر شوال، وكان الالتزام بمواعيد الخروج والعودة أقل تحديداً في العهد العثماني عما كان عليه في زمن المماليك ، وللإعلام عن تحرك القافلة وخروجها ، ولإظهار الاستعدادات والجهود التي بذلتها الدولة في سبيل خدمة الحجاج ، كانت تجري احتفالات أخرى لها الطابع السابق نفسه وربما يفوقه إشهاراً واستعداداً ، تخرج بعده قافلة الحج المصري إلى بركة الحج[١]، وقافلة الحج الشامي إلى الكسوة[٢] في ضواحي كل من القاهرة ودمشق ، ثم تقيم أسبوعاً لتكمل استعداداتها ويتوافد إليها الحجاج . وخلال إقامة أمراء الحج في هذا المنزل تسلم إليهم صرر المساعدات ، وتؤخذ تواقيعهم عليها ، ثم تنطلق القافلة بعد ذلك ويعود مودعوها أدراجهم .

وقد وحد العثمانيون سير الحجاج ، وألغوا ما كان معمولاً به من خروج الحجاج على دفعتين ، تسمى الدفعة الأولى : ركب الحج الأول ، والثانية : ركب المحمل ، وذلك لأغراض أمنية ، حيث تتوحد فيها الفرق العسكرية ولا تنقسم على الركبين .

وبمجرد خروج الحجاج من بوابات المدن التي ينطلقون منها إلى مشارف مكة تكون عليهم حماية عسكرية من رجال القبائل الذين يتولون الحراسة كل في منطقته ، ومن الفرق العسكرية المرافقة[٣] .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٠٢ .

(٢) دراركة : قافلة الحج الشامي ، ص ٧٩ .

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٠٢ . Faroqhi : Pilgrims , p. 55 و 58 .

وبعد انطلاق القوافل في طرقهم عبر الصحارى ، تبدأ عملية التعقيب، وهي سير الجمال في قطار متتابع بترتيب معين يتقدمه أمير الحج والأعيان، وتتوسطه جمال الصرر النقدية وبضائع التجار ، تحيط بها الفرق العسكرية، ويليها المحمل وجمال الكسوة واحتياجات الحرم ، ويأتي في آخر الركب جمال أحمال المؤن وسحابة الفقراء وساقة القافلة .

وللتعقيب عدة فوائد، منها: ضمان قدر متساوٍ من الحماية لكل المرافقين، لأن انفراد جماعات من الحجاج يعرضهم للخطر ويشتت جهود العسكر العاملين على حماية القافلة، كما أن تتابع الجمال يسهل مرورها من العقبات والممرات الضيقة والمسالك الوعرة، وييسر تقديم العون لهم خلالها، إلى أن يجتازوها بسلام دون تدافع أو تزاحم يعرضهم للأذى والحوادث المميتة[١] .

وتواصل القوافل سيرها بوضعها المذكور وتتم عمليات الوقوف للاستراحة أو للتزود بالماء وفق خطة مرتبة ومعدة سلفًا، من حيث المسار الذي تسلكه وعدد ساعات السير والمنازل التي تقف فيها ، فلا تعدل خطط السير إلا لطارئ قد يضطرها لسلوك شعب دون آخر، أو للإسراع أو الإبطاء، أو الوقوف في منزل دون آخر ، بحسب حالة الطريق التي ينقلها إلى أمير الحج المستكشفون الذين يسبقون القافلة، فلا مجال لترك أي أمر للمصادفة أو التخمين ، لأن العواقب تكون وخيمة في تلك الحالات . وإذا اقترب المسافرون من المنازل تسبقهم جموع العمال من فراشين وسقائين وطباخين وضوئية ، لإعداد المعسكر وتهيئته لاستراحة الجميع ، وعادة ما يكون النزول بجوار مناهل ، ليمكن للناس التزود بالمياه التي يحتاجون إليها .

وتختلف الإقامة من منزل لآخر فقد تقتصر على عدد من الساعات ، وقد تطول لعدة أيام ، بحسب حالة المنزلة وحاجة القافلة ، ولكن يجب على المسئولين

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ، ٢٦٦ .

الوقوف بالحجاج في مواقيت الحج لأجل الإحرام ، وعليهم إرشاد مرافقيهم إلى المناسك ، مع إعطائهم الوقت الكافي لإكمالها[١] .

ويكون وصول القوافل إلى مكة عادة في أواخر شهر ذي القعدة وأوائل شهر ذي الحجة ، فتصل متتابعة : المصرية تليها الشامية فاليمنية بفاصل زمني يقارب الأسبوع . وفي بداية العهد العثماني أصبحت استقبالات قوافل الحج تبدأ من عسفان ، فيبعث الشريف ممثلاً إلى هناك ، ليرحب بأمير الحج المصري حال وصوله ، فيظهر الأمير امتنانه للشريف بإكرام ممثله وتقديم الهدايا له وإضافته .

وفي السنين الأولى من حكم العثمانيين كان الشريف يخرج للقاء القافلة في التنعيم ، ثم يرافقها إلى أن تصل معسكرها في الزاهربجانب سبيل الجوخي ، ويفارقها مواصلاً سيره إلى مكة ، بينما يدخل أمير الحج لأداء مناسك العمرة ليلاً .

وفي اليوم التالي يقام استقبال رسمي له في مكة ، فيلقى الشريف ويقدم له مراسيم تجديد تعيينه ، ويقدم له الخلع والهدايا المؤكدة لرضا السلطان ، كما تقدم خلع أخرى لشريك الشريف وعدد من الموظفين كالقضاة ، ويلبسها لهم الأمير بنفسه ، لكن بعد أحداث فتنة سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م أصبح الشريف يخرج في ثلة من فرسانه ، ويلقى الأمير راكبًا ويتسلم منه المراسيم .

وبعد انتهاء المراسم الرسمية يدخل المحمل إلى مكة وسط احتفالات شعبية تماثل التي خرج بها من القاهرة ، ويوضع المحمل بجانب باب السلام، وتقرأ المراسيم في الحطيم ، وهي تتضمن عادة إعادة تعيين الشريف ، وعدداً من التوجيهات بخصوص ما يستجد من الأمور الإدارية المتعلقة بالحجاز .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٣٠٢ ، ١٤٢٨ .

وتجري احتفالات مماثلة لاستقبال قافلة الحج الشامي ، ويوضع محملها على الجانب الآخر لباب السلام ، وتقيم في معسكر في المعلاة إلى جانب بركتي الحج .

وتستقبل القافلة اليمنية أيضًا ، لكن في المسفلة إلى جانب بركة ماجن ، ثم تواصل طريقها إلى معسكر تقيمه في المعلاة[١] .

ويسكن أمراء الحج في المدارس حول الحرم ، مثل مدرسة قايتباي ، أحيانًا ، وأحيانًا أخرى[٢] يظلون في معسكراتهم إلى أن يحل موعد أداء مناسك الحج فيقود الأمراء قوافلهم إلى المشاعر ، متبعين في إقامة الشعائر والمناسك القضاة المتولين لها من المكيين ، مصطحبين معهم محاملهم إلى منى يوم التروية ، ثم إلى عرفات يتقدمها المحمل المصري يتلوه الشامي ، ولا يحدث العكس ولو أدى الأمر إلى القتال ، كما في سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م ، وذلك لما لمصر من نفوذ إداري في الحجاز .

وتوضع المحامل في سفح جبل الرحمة ، حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] . وبعد النفر من عرفات يرسل مبعوثون إلى السلطان في القاهرة ودمشق وإستنبول لنقل بشرى إتمام الحج بسلام ، يُسمون مبشري الحج ، ولهم نظام خاص في توقيت التحرك ، ودواب الركوب ، والعوائد على القبائل والدولة . وتأخر وصولهم يقلق الجميع في كل مكان .

---

(١) النهروالي : البرق اليماني ، ص ١٢٤ .

(٢) ومع أن ذلك مخالف لأوامر السلطان فإنه يحدث أحيانًا فتأتي تعقيبات على المنع . الوثيقة رقم ٦٩ ، دفتر المهمة رقم ١٤/ص/٤١٢ سنة ٩٨٧هـ والوثيقة رقم ١٦٨ ، دفتر المهمة رقم ٥٣ / ص ١٧٢ سنة ٩٩٢هـ ، مركز أبحاث الحج بمكة .

(٣) تدخلت السلطة المركزية في تحديد أماكن نزول كل محمل منعًا للاحتكاك بين المسئولين عن قوافل الحج، وثيقة رقم ١٢٦ ، دفتر المهمة رقم ٣٥/ص/١٥٥ ، والوثيقة رقم ١٥٨ دفتر المهمة رقم ٤٧/ص/٢٤٦ سنة ٩٩٠هـ ، مركز أبحاث الحج بمكة .

وفي منى تستكمل المناسك ، وتجري احتفالات بمناسبة العيد ، يوزع فيها أميـرالحج المصـري أحـيـانًا الحلوى والمرطبـات ، ويجـري إطلاق ألعـاب نارية مبهجة. ويشارك الشريف في احتفالات العيد بعرض عسكري على الخيل، ويتبادل الزيارات مع الأمراء . وقد قدم العثمانيون خدمات للحجاج في المشاعر نفسها فبنوا ثلاثة سدود في عرفات لصد السيول ونظموا الحركة في منى بمنع الباعة من الجلوس في منطقة الجمرات منعًا للازدحام وحفظًا للأمن والنظافة [١] .

وبعد النزول من منى وانتهاء آخر أعمال الحج ، كطواف الإفاضة ثم طواف الوداع ، تغادر القوافل متتابعة إلى بلادها قبل نهاية شهر ذي الحجة[٢] ، لأن إقامتها في مكة لفترة طويلة ترهق الإمكانات المحلية من مؤن ومياه وغيرها[٣] .

وبذلك تكون قوافل الحج والمسئولون المرافقون لها قد أدوا كافة الأعمال المطلوبة منهم في مكة ومنها :

**أولاً :** وهو الأهم أداء فريضة الحج ، وتيسيرها على المسلمين القادمين من مناطق كثيرة من العالم .

**ثانيًا :** إيصال المساعدات لأهل الحرمين ، والمتطلبات الأخرى لهما،

---

(١) الوثيقة رقم ٣١/٤٢/١٤٢ سنة ٩٨٩هـ ، والوثيقة رقم ١٧٣/٣٣/١٢٠ سنة ٩٨٥هـ ، والوثيقة رقم ٨٠/٣٥/١٢٣ سنة ٩٨٦هـ ، مركز أبحاث الحج بمكة .

(٢) الجزيري : الدرر الفرائد ، ص ١٣٠٢ ، ١٤٢٨ .

(٣) وقد كان يتم التعقيب على ترحيل الحجاج بأوامر من العاصمة ترد بصفة دورية ، الوثيقة رقم ١٣٠ ، دفتر المهمة رقم ٣٥/ص/٢٩٢ سنة ٩٨٦ هـ ، والوثيقة رقم ١٤٤ ، دفتر المهمة رقم ٤٣/ص/٥٤ ، سنة ٩٨٨هـ ، والوثيقة رقم ١٦٩ ، دفتر المهمة رقم ٥٨/ص/٢٦٠ ، سنة ٩٩٣هـ ، مركز أبحاث الحج بمكة.

والمشاركة في توزيعها ، حيث أن أمراء الحج وأمناء الصرر والكتّاب التابعين لهم من أعضاء لجان التوزيع ، كما ذُكر .

**ثالثًا** : إثبات نفوذ الدولة وتنفيذ سياستها في الحجاز ، فكل قافلة حج كانت تقدم بقوات عسكرية كبيرة ، وتقيم في الأراضي الحجازية أشهرًا من كل عام ، مما يؤكد سيطرة الدولة وهيبتها ، ويوفر قدرًا جيدًا من الأمان . وإن كان لا يمنع من حدوث تعديات خلال المواسم لأسباب سبقت الإشارة إليها .

**رابعًا** : إظهار جدارة الدولة المتولية لزعامة العالم الإسلامي بمركزها، ببيان حرصها وقدرتها على القيام بواجبها في إقامة شعائر الدين وخاصة الحج ،وأنها يسرت أداءها على المسلمين، مما يوجد لها نفوذًا روحيًا عليهم[١] . كما أن مرافقوا هذه القوافل من سلاطين وشخصيات الدول الإسلامية الأخرى كانوا يعتبرون رحلاتهم إلى الحج وسيلة إعلامية يظهرون من خلالها قوة دولهم وغناها وعظمتها أمام العالم الإسلامي والخارجي ليهابها الناس يقدروها حق قدرها والأمثلة على ذلك كثيرة[٢] .

ثم تعود القوافل إلى نقاط انطلاقها سالكة المسارات التي قدمت منها، ومتبعة أنظمة السير السابقة نفسها ، إلا أن قافلة الحج المصري كانت تقوم بما يُعرف بالدورة ، وهو خروجها من ينبع إلى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي الشريف ، ثم العودة إلى ينبع مرة أخرى لمواصلة السير إلى مصر ، وأما قافلة الشام فكانت تمر بالمدينة مرتين إذا سلكت الطريق التبوكية ، أو تقصدها إذا سلكت غيره ، ولأن قافلة اليمن لا تواصل سيرها إلى المدينة فإنها تقدم للحجاج الذين قدموا برفقتها ويرغبون في الزيارة مساعدات تمكنهم من

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٩٥ ، Faroqhi : Pilgrims , 127 , 145 .

(٢) عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى ، ص ٢٠١ .

ذلك ، وهي مبالغ مالية ومخصصات عينية ، ليتمكنوا من السفر والعودة دون مشقة مادية[١] .

وقد استحدث العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول ما عرف بملاقاة الحجاج ، والسلطان سليمان سحابة الحجاج كما سبق بيانه[٢] . وقد تعهدت السلطات العثمانية أحوال هذه الإعانات المقررة للحجاج بالمراقبة ، فكانت تتابع انتظامها وتوجه بعدم التقصير فيها أو استخدامها في غير ما جعلت له[٣] .

ويظهر الناس أفراحًا مضاعفة بعودة الحجاج سالمين ويقدمون التهاني للفائزين بإكمال حجهم[٢] . وبذلك نجد أن الحج ركن من أركان الدين الإسلامي دافعه ديني محض لكنه يترك منافع اقتصادية واجتماعية وسياسية ، كما أنه عامل من عوامل التقارب والتلاحم بين المسلمين وهو مؤتمر عظيم أسهم في رفع وتعزيز الوحدة الإسلامية المعنوية[٤] .

وهكذا يتضح أن العثمانيين في فترة توليهم لحكم الحجاز في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بذلوا جهودًا كبيرة في سبيل تسهيل أداء فريضة الحج على المسلمين ، فعملوا على استمرار الرعاية التي كانت تقدم للحجاج منذ مئات السنين وبالوتيرة السابقة نفسها ، فأبقوا على إمارة الحج وهي الهيئة الرسمية المكونة من موظفين حكوميين كانوا مسئولين عن رعاية القوافل المتوجهة إلى الأماكن المقدسة أولاً . وعلى عمليات صيانة وتحسين

---

(١) النهرواني : ابتهاج الانسان والزمان ، ورقة ١٦ ، ١٨ .

(٢) وثيقة رقم ٢٢ ، دفتر المهمة رقم ٥/ص/٣٥٨ ، سنة ٩٧٣هـ ، وثيقة رقم ١ دفتر المهمة رقم ١/ص/١٤٣ ، سنة ٩٦١هـ ، مركز أبحاث الحج بمكة .

(٣) الدمرداش : الدرة المصانة ، ص ٥٨ .

(٤) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص٥٦١ ، ٥٦٤ .

شبكات الطرق الموصلة إلى الحجاز والمتفرعة داخله ثانيًا . وعلى النظم المعمول بها في الإشراف على حركة الحجاج إلى أن يؤدوا مناسكهم ويعودوا سالمين ثالثًا . وذلك حرصًا من الدولة العثمانية على تقديم أفضل قدر من الحماية والخدمة لقاصدي الأماكن المقدسة طوال الموسم .

وقد لوحظ إدخال عدة تحسينات على الأنظمة والخدمات ، كسحابة الفقراء والملاقاة السلطانية ، وتعزيز الحماية بزيادة أعداد وقوة الفرق العسكرية المرافقة للقوافل ، وإقامة عدة منشآت دفاعية جديدة ، فتحقق قدر نسبي من الأمن على الطرق .

كما طـورت خدمات توفير المياه وحماية مواردها ، مما ساعد في تخفيف حدة الأزمات التي حدثت في أوقات الجفاف التي مرت بالحجاز في هذه الفترة .

وقام العثمانيون بإعادة فتح الطريق اليمني ، خدمة لشرائح أخرى من الوافدين من المسلمين ، وتيسرت رحلة الحج لهم ، مما يدل على أن الدولة تمكنت من إنجاز أهم أهدافها من رعايتها لقوافل الحجاج ، وهو تسهيل أداء الركن الخامس للإسلام ، كما أوصلت برها ورعايتها للحرمين وأهلهما مما عمم ذكرهم ونشر خبر إحسانهم في العالم الإسلامي ، وجعلهم جديرين بزعامتهم للمسلمين .

لكن لم تستطع الدولة العثمانية تنفيذ كامل سياستها في الحد من نفوذ الأشراف في الحجاز ، فلم يبْدُ أشراف مكة منقادين لها ، ولم تهدأ تحركات القبائل إلى سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م ، وعلى الرغم من كمون الخطر وخمود نار الفتن طوال الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري بزيادة السيطرة العسكرية

على كل الأقاليم المحيطة بالحجاز ، وبكثرة المساعدات المقدمة للحجازيين وتضاعفها باستمرار ، فإن الاضطرابات ما لبثت أن عادت للظهور في القرن التالي الحادي عشر / السابع عشر الميلادي ، نتيجة لما اعترى كيان الدولة العثمانية من تدهور أضعف قبضتها على كثير من المناطق .

# الخاتمة

مثلت أحداث القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي مرحلة مهمة في تاريخ مكة السياسي والإداري والحضاري .

فمن الملاحظ في الناحية السياسية أن أوضاع مكة الداخلية تدهورت في مطلع هذا القرن ، وكان من مظاهر ذلك احتدام النزاع بين أفراد أسرة الأشراف الحاكمة ، حول الإمرة بعد وفاة الشريف محمد بن بركات سنة ٩٠٣هـ /١٤٩٧م ، وما رافق ذلك من كثرة ثورات وتعديات قسم من قبائل الأعراب ، كزُبيد وبني إبراهيم ، التي عمت الحجاز كله ، مما أدى إلى فقد الأمن وتردي الأحوال الاقتصادية ، وإلى توقف طرق الحج المصري والشامي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م جميعًا ، وقد بقي طريق الحج الشامي مغلقًا بعد ذلك إلى سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ، وظلت حالته غير آمنة حتى بعد إعادة فتحه . وزاد في سوء الأوضاع ظهور خطر خارجي جديد بدأ بوصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية باكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م ، ثم زاد بتصاعد تهديد الصفويين الشيعة بتولي الشاه إسماعيل السلطة سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م .

ولقد أدى استشراء ضعف الدولة المملوكية التي كانت تتبعها مكة سياسيًا إلى عجزها عن القضاء على الأخطار القائمة فعلى الرغم من أن آخر سلاطين المماليك وهو قانصوه الغوري ( ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ ) / ( ١٥٠٠ - ١٥١٦م ) حاول جادًا النهوض بالمنطقة فإن ما قام به كان دون المستوى المطلوب في الحجاز ، فيما يتعلق بتأمين طرق الحج وتحسين الأحوال الاقتصادية ، وقد ساء موقفه أكثر لاعتقاد العثمانيين - القوة الإسلامية الأولى في ذلك الوقت - بتورطه في التحالف مع الصفويين ضدها ، ثم باندفاعه إلى الزج بجيشه في النزاع القائم بين الطرفين العثماني والصفوي ، مما رجح عدم أهلية دولته

للاستمرار في زعامة العالم الإسلامي ، وآذن بأن الأوان قد آن لنهاية دور من أدوار التنافس السياسي المعهود بين الدول الإسلامية في تلك الآونة ، والذي كان قد بدأ منذ تعدد قيادات المسلمين السياسية ، حيث تقدمت الدولة العثمانية وحلت محل دولة المماليك في تحمل مسئوليات قيادة العالم الإسلامي ، والقيام بواجبات الدولة التي قررها الإسلام ، وأهمها حماية المقدسات وخدمتها ، وتحقيق الرخاء والاستقرار لأهلها ، وتيسير سبل الحج إليها ، ومنها أيضًا : نشر الإسلام ، وهو الواجب الذي أبلى فيه العثمانيون بلاءً حسنًا لأكثر من قرن من الزمان ؛ ولقد كان تولي المهام الباقية أهم تطلعات السياسة العليا التي كانت الدولة العثمانية تطمح إلى تحقيقها ، وبدأت في التلميح لها منذ عهد محمد الفاتح ، بإظهار عدم الرضا عن الخدمات التي كانت تُقدم للحجاج، وعرض تقديم المساعدة في تحسين مصادر المياه في مكة وإصلاح طرق الحج . ثم تطور التوتر بعد ذلك إلى مناوشات حدودية ، لكنها لم تتطور إلى حرب شاملة إلا بعد تكرر شكوى المسلمين من التقصير المملوكي ، فتقدم العثمانيون حينها شرقًا فحققوا أهم مكاسب لهم ، حيث استولوا على قلب العالم ، واتسعت أراضيهم لتمتد في ثلاث قارات ، وأشرفت على البحار الشرقية وباقي الممرات الموصلة فيها ، مما أوصل الدولة العثمانية إلى مركز ممتاز عالميًا وليس إسلاميًا فقط ، وهي نتائج يبدو من أهميتها أنها كانت مقدرة مسبقًا ولا شك . كما أن التوجه إلى الشرق لم يكن الأول ولا كان الأخير ، ولذلك فهو ليس تحولاً في الاستراتيجية الحربية العثمانية من مجابهة الغرب المسيحي ، ولا تعويضًا بالتوسع في الشرق الإسلامي نتيجة ضعفها وميلان ميزان القوة في أوروبا لصالح أعدائها ، ويثبت ذلك احتفاظ العثمانيين طوال الفترة الزمنية التي تؤرخ لها هذه الدراسة ، بقوة عسكرية فتية مكنتهم من الحرب على جبهات دولتهم الأربع ، وخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني الذي حققت قواته تقدمًا في أوروبا ، وسيطرت على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر،

وأوصلت النفوذ العثماني إلى الخليج العربي والمحيط الهندي ، وكان لها تواجد في المحيط الأطلسي أيضًا ، وذلك في إطار مسئوليتهم الجديدة في حماية المسلمين ومجابهة أعدائهم . ولقد كان للمدن المقدسة – وفي مقدمتها مكة – في هذا الجانب دور الباعث الروحي والمعنوي . كما احتلت مكة أيضًا مكان القلب من العلاقات السياسية العثمانية بالعالم الإسلامي ، فكانت نقطة اتصال بين العثمانيين والقوى الراغبة في التقرب إليهم والدوران في فلكهم ، كما هو الحال مع بعض إمارات الحبشة والهند والخليج العربي وإندونيسيا . وشهدت أيضًا في داخلها بعض تحركات محدودة من الجهات المناوئة للعثمانيين ، كشيعة الهند .

ومن الملاحظ أيضًا أن قادة القوات المتقدمة إلى الجبهة الجنوبية ، حيث ساحات المجابهة في الهند واليمن ، كانوا يحرصون على أداء مناسك العمرة أو الحج ، ويتزودون خلال مرورهم بالمدن المقدسة بما لزم لرحلاتهم في طريق ذهابهم في مهماتهم أو عودتهم إلى مصر حيث خرجوا ، فيتفقدون أوضاع وأحوال الطرق المؤدية إليها ، ويسهمون في تقديم الخدمات لها ، مما يشكل زيادة وتأكيدًا للنفوذ العثماني في المنطقة .

وقد استغرق العثمانيون في وضع أنظمة حكم وإدارة مناسبة لقدسية وجغرافية مكة طوال القرن العاشر الهجري ، وأدخلوا بعض التعديلات خاصة على النواحي العسكرية بعده أيضًا . إذ بدأت الدولة العثمانية – على عادتها حين مد نفوذها إلى مناطق جديدة – بالإبقاء على الأنظمة المعمول بها في هذه المناطق من العهد السابق ثم الأخذ في تطويرها بعد ذلك بما يتلاءم مع طبيعة المنطقة ، ويتوافق مع النظم العثمانية الأساسية في الوقت نفسه . فأبقوا على نظام توازن القوى الموجود ، ولكنهم زادوا تشعبه ، فكانوا يربطون تعيين عدد من الموظفين في المنطقة بالسلطة المركزية ، ومنهم السنجق ثم الوالي في جدة،

والموظفين الماليين في مكة وجدة وقائد الحامية العسكرية في جدة والقضاة والهيئة التابعة لهم في مكة من نواب وكتاب ومحتسبين ثم حولت مناصب الإفتاء إلى مناصب رسمية بتخصيص رواتب للمفتين وشيخ الحرم والعلماء المتولين لوظائف إقامة شعائر الدين في الحرم كالخطباء والمؤذنين وغيرهم ، والمدرسين في المدارس السلطانية ، وقد مثل هؤلاء الطرف الأول في التوازن ، وأما الطرف الثاني فهو والي مصر الذي كان له الإشراف على المنطقة إداريًا وماليًا فامتدت بذلك الأنظمة المصرية إليها في هذين الجانبين ، وكان أبرز التابعين لمصر الفرق العسكرية والجهاز المالي التنفيذي ، إلى جانب صلاحيات أمير الحج المصري التي كانت تجعله المنفذ الأقوى لسياسة الدولة .

وكان لكل من قادة حملات اليمن والموظفين المكلفين بتنفيذ المشروعات المختلفة في مكة وللقضاة العثمانيين وكبار الشخصيات العثمانية المعزولة من مراكزها والمقيمة في مكة ، دور إشراف مهم على أحوال هذه المدينة .

ومثلت إمارة الأشراف الطرف الأخير في توازن القوى المذكور ، لكن علاقتها بالعثمانيين شهدت توترًا خلال القرن العاشر الهجري ، أدى إلى عدة مصادمات بين الطرفين ، فلقد أبقى السلطان سليم على الإمارة ولكنه منع حصول الشريف على الثلث من المساعدات الواصلة لمكة كما كان مقررًا له قبل العهد العثماني ، وخصص له راتبًا سنويًا عوضًا عن حصته السابقة ، ثم أُلحق الحجاز بعد عام من وصول النفوذ العثماني إليه بمصر إداريًا وماليًا ، وزاد السلطان سليمان القانوني بعد ذلك من تقليص نفوذ الأشراف ببعث رتب عسكرية لهم تشعر بأنهم موظفون في الدولة ، وتذبذبت السياسة المالية في عهده بخصوص دخل الجمارك مما أثار سخط الأشراف ، وأدى إلى حدوث مناوشات وصلت إلى مجابهة في سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١م ، ومحاولة لتغيير الفرع الحاكم من أسرة الأشراف وكادت تحصل مجابهة أخرى في نهاية القرن

لكن حالت دونها وفاة السلطان مراد الثالث ، وعلى الرغم من توصل الطرفين إلى تعايش ظاهره الود ، فإن باطنه ظل غير مستقر ، مما كان سببًا في الاصطدام بين الطرفين من وقت إلى آخر . ولكن إمارة الأشراف قامت بدور رقابي في مكة أفاد العثمانيين في معرفة أحوالها ومراقبة عمالها هناك . أما الأشراف فقد أقروا بإلغاء ما قرروه لأنفسهم من حصة في المساعدات ، ولكنهم لم يقبلوا حرمانهم مما اعتادوا الحصول عليه من نسب ثابتة من عشور التجارة ولا الحدّ من استقلاليتهم ، مما كان مثار نزاع دائم بينهم وبين العثمانيين طوال فترة الحكم العثماني .

وتدل الأنظمة العثمانية المذكورة على أنها كانت شاملة لكل النواحي ، وأن النفوذ العثماني لم يكن سطحيًا مقتصرًا على نظام مدني محدود يمثله القاضي العثماني فقط ، وأن القول بأن الأمور في مكة خاصة والحجاز عامة كانت موكولة إلى الشريف وحده دون تدخل من العثمانيين ، يجانبه الصواب ، خاصة في القرن العاشر الهجري ، أما ما حدث بعد ذلك من ترخٍ في القبضة العثمانية على المنطقة فقد كان وقتيًا ، ويعود إلى شخصية المسئولين المعينين، وليس إلى القاعدة الأصلية ، وإلى الضعف العام الذي حل بكل أجهزة الدولة بعد القرن العاشر .

ولقد استعاض العثمانيون عن قلة الوجود العسكري في مكة في فترة هذا البحث التاريخية بتقوية تغلغلهم السلمي ، الذي تمثل في زيادة العناية بالجوانب الحضارية ، فإلى جانب هدفهم الديني من خدمة المقدسات والبر بأهلها وقاصديها ، فإن كثرة الخدمات وضخامتها تطلبت وجود طبقة من العاملين الذين كثفوا الحضور العثماني في مكة ، وطبعوا مكة بطابعه ، حيث زادوا المنشآت التعليمية وتركزت إضافتهم إلى هذا الجانب في زيادة الزوايا، بما عبر عن قوة التوجه الصوفي وتشجيع العثمانيين عليه ، كما شكلت رأيًا

عامّا مواليًا لهم ، بكثرة العلماء الذين وفدوا إلى مكة من تركيا وتولوا الوظائف في الحرم والمدارس السلطانية وغيرها .

وتوسع العثمانيون في المشاريع العمرانية بدءًا بالحرم الشريف ، ثم المنشآت الوقفية من تعليمية وغيرها من منشآت المياه والمصالح المرسلة ، مما أوجد حركة عمل واسعة ، وأضفى على مكة مظهرًا ألحقها بالمدن الكبرى في ذلك الزمن ، وأبرز فيها الملامح والطابع العثماني الذي تغلب على غيره .

ولقد مثلت النواحي الاقتصادية تحديًا كبيرًا للعثمانيين ، حيث عصفت بمكة أزمة اقتصادية دامت من بداية الحكم العثماني إلى أول الثلث الأخير من هذا القرن ، كانت ناتجة عن ظروف الحروب والاضطرابات في الأقاليم ذات الصلات الاقتصادية بمكة ، كما حلت فترات من الجفاف بالحجاز نقصت من دخل المصادر المحلية الأخرى من زراعة ورعي . فجابهت الدولة العثمانية هذا الموقف بشكل مباشر ، وهو تكثيف المساعدات التي قررتها لمكة ، وعملت على زيادتها باطّراد إلى أن بدأت بوادر حلّ الأزمة .

كما واجهت الدولة العثمانية الموقف الاقتصادي بأن سعت بشكل غير مباشر لإقرار الأحوال في المناطق المحيطة بالبحر الأحمر والشواطيء الأخرى لشبه الجزيرة العربية ، وحمايتها من هجمات البرتغاليين ، الأمر الذي حققت فيه نجاحًا واضحًا في البحر الأحمر . ولقد كان لجهودها الحربية في كافة الجبهات أثر كبير في بسط الأمن وإعادة فتح طرق المواصلات ، مما سهل وصول الحجاج وأعاد النشاط التجاري وجعل تحول طرق التجارة الأوروبية إلى رأس الرجاء الصالح جزئيًا بعد أن خفت حدة هجمات البرتغاليين على السفن الإسلامية ، حيث ظلت موانئ البحر الأحمر معبرًا للتجارة العالمية ، واستمرت المتاجر الواصلة برًا من اليمن إلى مكة والمعروفة بالعدني ، تشكل موسمًا يعطي أرباحًا وفيرة إلى جانب الموسم الهندي في جدة . وكذلك فإن الدولة

العثمانية نفسها كانت ترتبط بصلات وثيقة بكل العالم الإسلامي ، وتشكل سوقًا ضخمة لاستهلاك وتبادل منتجاته .

وعادت مصادر الدخل الأخرى في الحجاز إلى التحسن بانحسار موجة الجفاف والأوبئة ، والسيطرة على تحركات الأعراب ، فحقق الاقتصاد في مكة انتعاشًا ورخاءً كبيرًا ، وعادت سوقًا عالمية يشكل موسم الحج أكبر معارضها .

ولقد تأثرت التركيبة السكانية في مكة بالتغيرات السياسية ، فزادت أعداد السكان ، وظهر تحول في فئاتهم ، لكن الملاحظ أن الروابط الاجتماعية بين الجميع كانت نابعة من تعاليم الإسلام وسماحته إلا فيما ندر ، ولم يكن للطبقية التي وصفت بها الدولة العثمانية أثر سلبي ، خاصة في مكة .

وعني العثمانيون المتولون لزعامة العالم الإسلامي ، بقوافل الحجاج باعتبار ذلك جزءًا من واجبهم ، فعدلوا في بعض أنظمتها بما يضع رقابة على النواحي المالية ومستوى الخدمات المقدمة بزيادة المخصصات المالية للقوافل، لتحسين تجهيزاتها ، وبعمل إجراءات جديدة لراحة الحجاج ، منها الملاقاة السلطانية وسحابة الحجاج ، وزادوا العناية بحماية وصيانة المعروف من مصادر المياه وحفروا مصادر جديدة في حدود الإمكان ، وأقاموا منشآت للراحة والدفاع من قلاع وخانات ، وحسنوا تسليح ومظهر الجند المصاحب لقوافل الحج . وكانت قافلة الحج اليمني التي أعادوا تسييرها بإشراف حكومي لا تواصل طريقها إلى المدينة المنورة ، غير أن القائمين عليها خصصوا للمرافقين لها من الحجاج الراغبين في الزيارة تعويضات مالية وعينية تعينهم على مواصلة الرحلة .

وخلاصة القول : إن القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كان مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ مكة ، مرت فيها بمتاعب سياسية واقتصادية ، نتجت عن تدهور حكم المماليك وما أدى إليه ذلك من انهيار دولتهم على يد الدولة العثمانية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، ثم دامت الأزمة الاقتصادية بعد القضاء على الدولة المملوكية ، إلى أن تمكن العثمانيون من تثبيت نفوذهم وإقرار الأحوال السياسية في المناطق التي انضمت إليهم مؤخراً ، وتحسنت الأحوال البيئية في الحجاز، فانتعشت مصادر الدخل المحلي وأسهمت زيادة المساعدات العثمانية معها في انتعاش الاقتصاد وازدهاره مع بداية الثلث الأخير من هذا القرن .

ولقد وضعت أنظمة الحكم التي طورت خلال هذه الفترة الأسس التي سارت عليها الإدارة العثمانية فيما بعد ، وعلى الرغم من إيجابياتها الكثيرة وأهمها : أنها راعت قدسية الحجاز وظروفه البيئية فأوجدت حضوراً عثمانياً قوياً فيه كفل له قدراً من الأمن والاستقرار إلا أنها لم تتوصل إلى إيجاد قواعد تبني عليها علاقاتها مع إمارة الأشراف بما يرضي الطرفين ، مما كان سبباً في الاصطدامات بينهما طوال مدة الحكم العثماني ، وكانت نقاط الخلاف الجوهرية هي رغبة العثمانيين في فرض سيطرة مباشرة على المدن المقدسة ، مما تعارض مع ما كانت تحرص عليه إمارة الأشراف من استقلال ذاتي ، فكانت الخلافات تتخذ مظاهر مختلفة من حين لآخر ، فتارة تتصاعد حول العوائد المالية ، وأخرى بسبب احتكاكات مع أمراء الحج ، أو حول الشخصية التي ترشح للحكم من الأشراف .

أما الخدمات التي قدمها العثمانيون في كافة الجوانب الحضارية ، فقد كانت حيوية وشاملة وضخمة ، وضع من خلالها الطابع العام لمكة في العهد

العثماني عمرانيًا واجتماعيًا .

وعلى الصعيد العالمي احتل العثمانيون مكانة ممتازة كانت مكة وباقي الأماكن المقدسة خير باعث معنوي يدفع الدولة العثمانية إلى الحفاظ عليها وتقويتها ، كما وسع العثمانيون علاقاتهم بالعالم الإسلامي بما حققوه من انتصارات على جبهاتهم القتالية ، فأمنوا كثيرًا من الطرق التي كان يسلكها التجار والحجاج وطلاب العلم ، مما زاد التواصل بين مكة والمسلمين في كل مكان .

وبذلك فإن العثمانيين استطاعوا في عصرهم الذهبي القيام بمسئولياتهم التي فرضتها عليهم زعامتهم للعالم الإسلامي ، فكانت مكة القلب النابض والرباط الواصل بين أطرافه . ولقد ظلت المدن المقدسة جميعًا محل عناية العثمانيين حتى بعد أن ضعفت دولتهم ، ولكن على نحو يفتقد كثيرًا من القوة والزخم في أعمالهم خلال هذا القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .




أولاً ـ الوثائق .

ثانيًا ـ الصور .

ثالثًا ـ الخرائط .

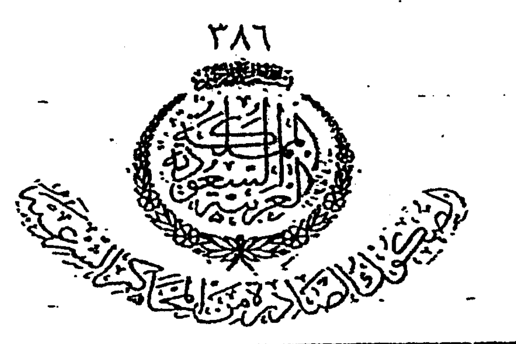
# أولاً - الوثائـــق

أولاً ـ وثيقة وقف الشريف أبو نمي .

ثانيًا ـ وثيقة وصف جزء من مدرسة السلطان سليمان من الداخل .

ثالثًا ـ وثائق عثمانية تبين متابعة حركة بناء المسجد الحرام. جانب من مشاريع المياه في مكـــة .

رابعًا - وثائق الشهر العقاري المصري .




وثيقة قسم من أوقاف الشريف أبو نمي بن بركات في مكة.

المصدر: المحكمة الشرعية في مكة المكرمة.

وثيقة وصف جزء من مدرسة السلطان سليمان القانوني من الداخل.

المصدر: إدارة الأوقاف في مكة المكرمة.

[illegible]

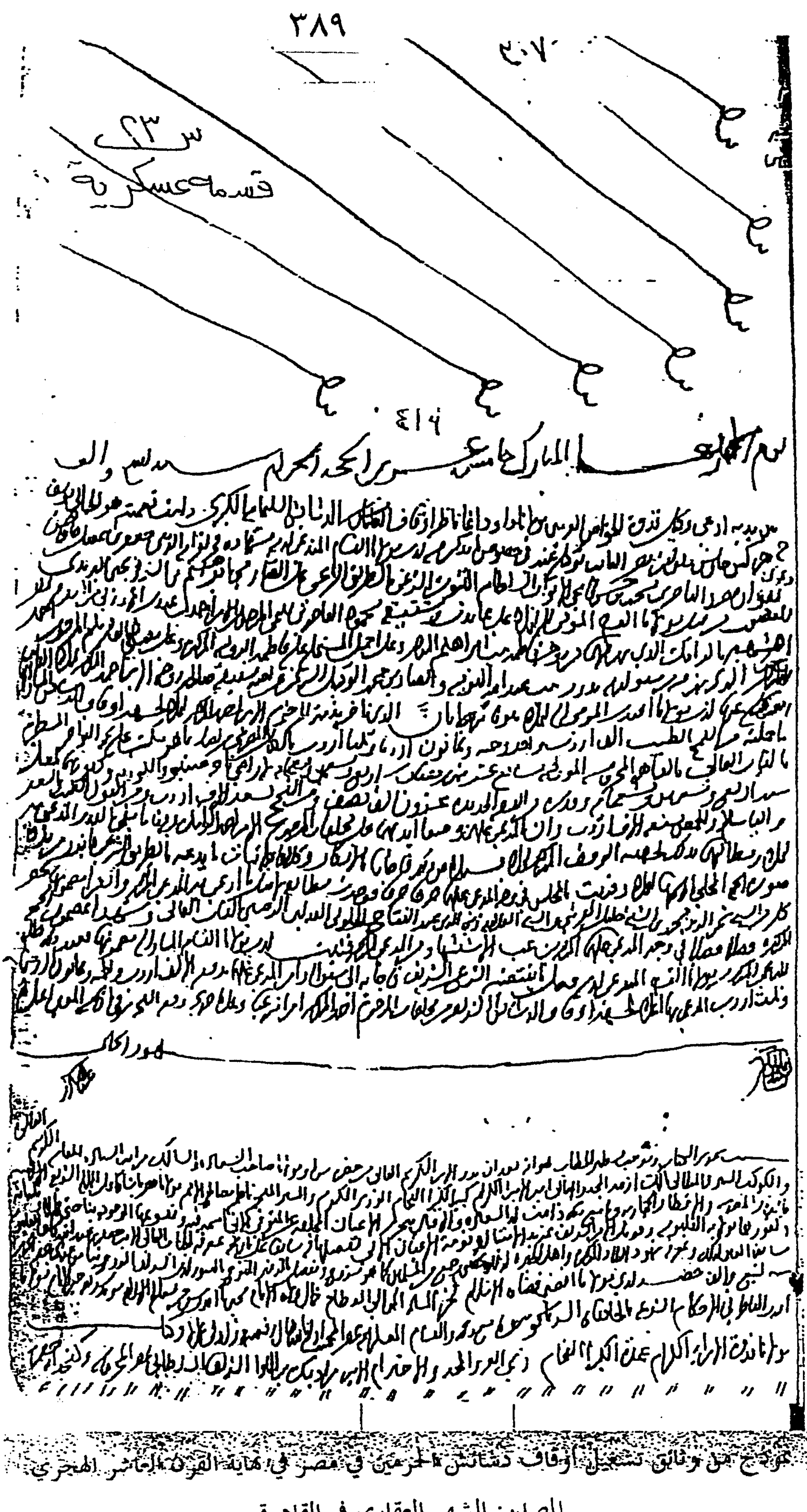
٢٥٧ [illegible]

٢٥٨ [illegible]

دفتر المهمة رقم ٥

نماذج من وثائق عثمانية تبين متابعة حركة البناء في المسجد الحرام وجانب من مشاريع المياه في مكة المكرمة.

المصدر: مركز أبحاث الحج التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة.



نموذج من وثائق تسجيل أوقاف دشائش الحرمين في مصر في نهاية القرن العاشر الهجري.

المصدر: الشهر العقاري في القاهرة.

نموذج من وثائق تشغيل أوقاف دشائش الحرمين في مصر في نهاية القرن العاشر الهجري.

المصدر: الشهر العقاري في القاهرة.

٣٩١

وثيقة تتضمن الأمر لوالي جدة بانشاء مدارس السلطان سليمان في مكة

المصدر: أرشيف رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول

إحدى وثائق تنظيم تحصيل الرسوم في موانئ البحر الأحمر لتشجيع قدوم التجار الى جـدة دون الاضرار بمصالحهم.

المصدر: أرشيف رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول

# ثانياً - الصـــور



المسجد الحرام في العهد العثماني , وتبدو فيه الكعبة المشرفة ومقام ابراهيم ومقامات الأئمة وأساطين المطاف وبئر زمزم ومبنى سقاية العباس وقبة الفراشين وقد أزيلتا سنة ١٣٠١ هـ وفي ركن الرواق الشمالي تظهر مدارس السلطان سليمان بقبابها تتوسطها المنارة التي أنشئت معها وفي الرواق الشرقي تظهر مدرسة السلطان قايتباي بمنارتها أيضاً .
المصدر : من أول مجموعة التقطت للمسجد الحرام سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٧٧ م بعدسة العقيد المصري محمد صادق وتوجد نسخة من الصورة في أرشيف الكتاب الوطني للصور التاريخية للمملكة العربية السعودية في مكتبة الملك فهد بالرياض.



المنبر الذي بناه السلطان سليمان سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م . ومقام إبراهيم وقد عمر سنة ١٠٠٠هـ وخلفه طلة وقبة بئر زمزم وكان تجديدها وبنائها في القرن العاشر ، ومنارة الصفا وقد بنيت سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م . وفي الخلفية إلى اليمين تظهر مدرسة السلطان مراد وهو المبنى الأبيض الذي يظهر خلف الكعبة المشرفة مباشرة .

المصدر : مجموعة السيد رياض قاضي وقد التقطت سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م .



منظر عام بين مكة المكرمة من جهة أبي قبيس وهي من المنطقة التي امتد إليها العمران في العهد العثماني ويظهر فيها طابع العمران العثماني بسماته المميزة من أعمال الآجر الملون والخشب من واجهات المباني. ويظهر في أعلى الصورة مسجد بلال على قمة جبل أبي قبيس وفي الأسفل تظهر منارة باب الصفا وإلى جانبها مدرسة السلطان مراد.

**المصدر: مجموعة العبيد رياض قاضي**



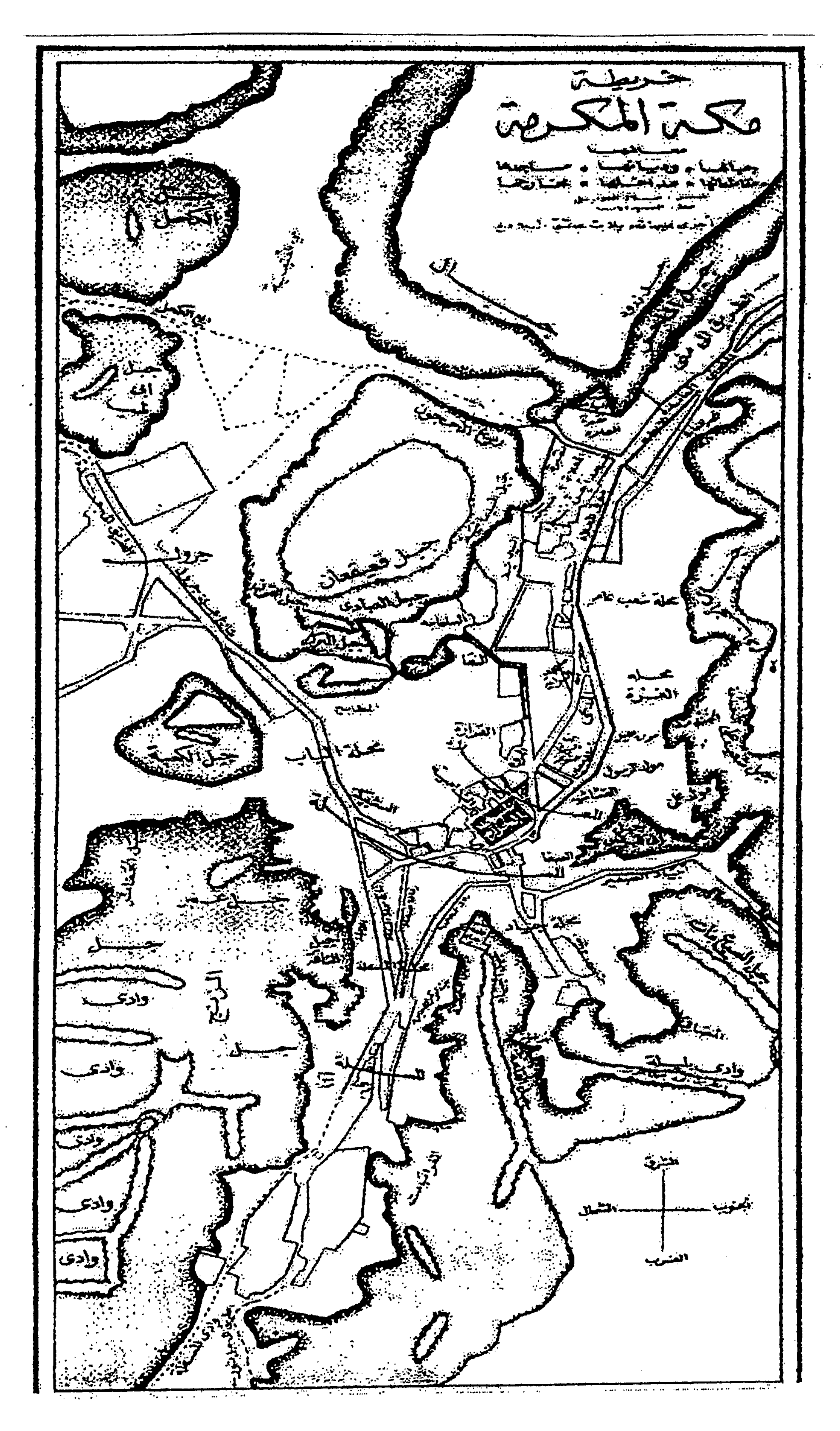
جزء من المسعى وكما يبدو فإنه كان يضم سوقاً نشطة في مكة ويبدو في خلفية المنظر عدد من أبواب المدارس والأربطة التي كانت مقامة حوله.
المصدر: مجموعة السيد رياض قاضي



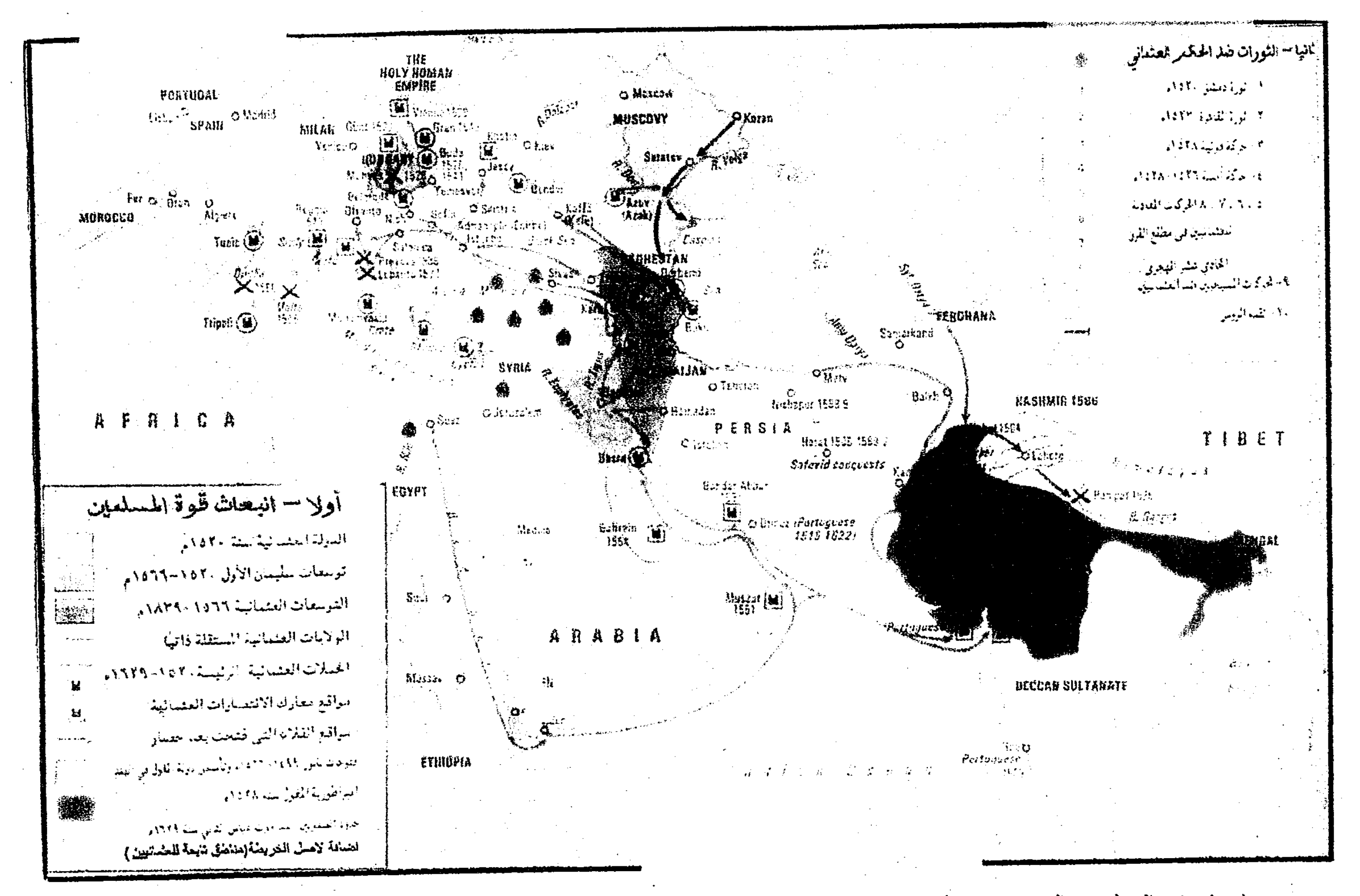
باب الصفا أحد أبواب المسجد الحرام وقد بلغت زخارفه الرخامية حداً من الاتقان دعى إلى إعادة تركيبه في العمارة الحديثة لهذا الباب . عباس : التوسعة الكبرى ، ص ٢٠١ .

المصدر : مجموعة السيد رياض قاضي .

# ثالثاً - الخرائـــط

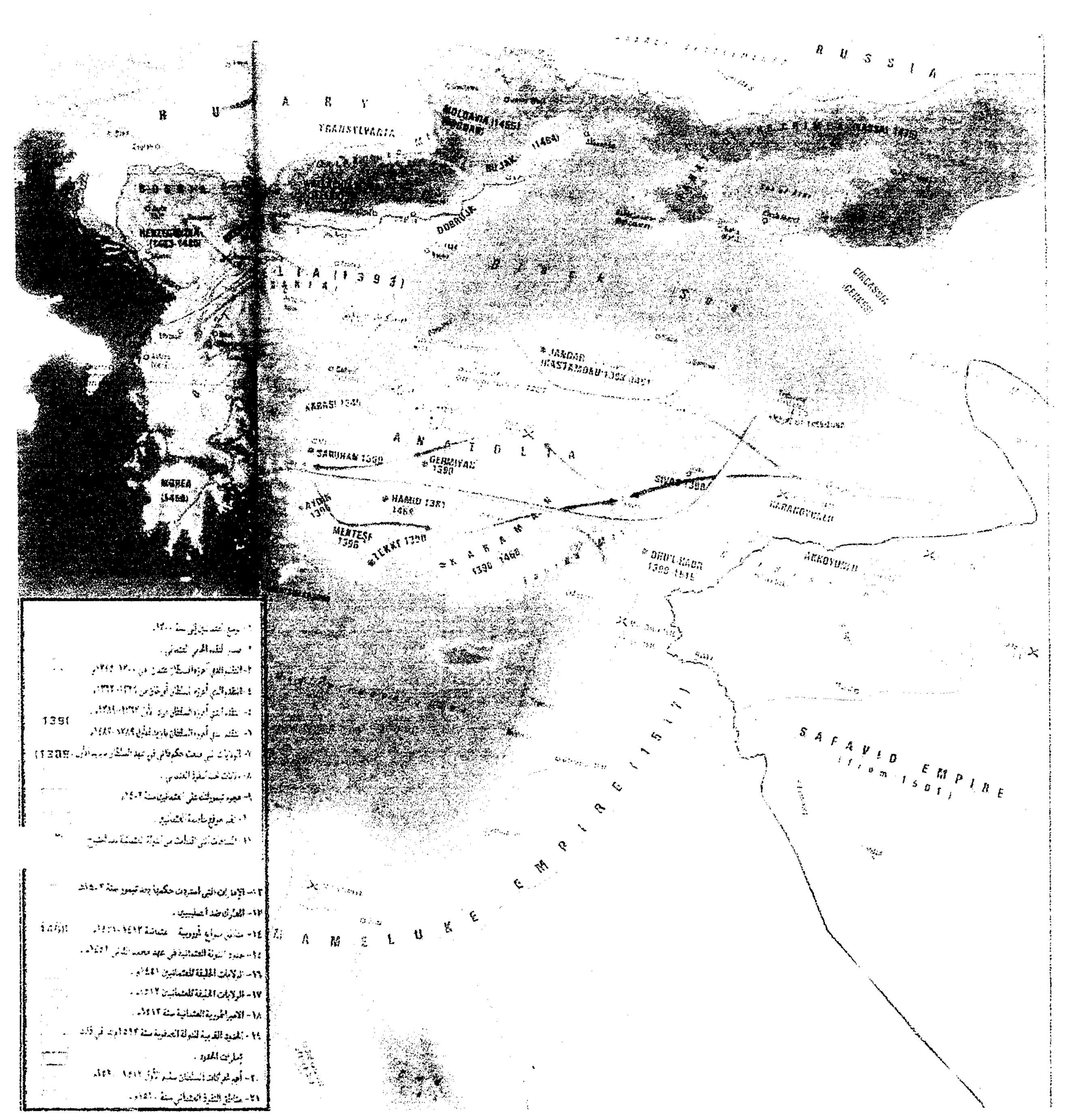



المصدر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٨




انبعاث قوة المسلمين والثورات ضد الحكم العثماني خلال القرن العاشر ومطلع الحادي عشر الهجري/السادس عشر ومطلع السابع عشر الميلادي

المصدر : The Times Concise Atlas Of World History, ed. Geoffrey, P . 48.




التحركات العثمانية من سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م إلى ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م ويلاحظ فيها أن تقدم العثمانيين كان إلى الشرق وإلى الغرب طوال فترة حكمهم .

المصدر : The Times Concise Atlas Of World History, ed. Geoffrey , p. 49.

# قائمة المصادر والمراجع

أولاً ـ الوثائق .

ثانيًا ـ المخطوطات .

ثالثًا ـ المصادر المطبوعة .

رابعًا ـ مصادر باللغة العثمانية .

خامسًا ـ الرسائل العلمية .

سادسًا ـ المراجع العربية والمعربة .

سابعًا ـ الدوريات .

ثامنًا ـ المراجع غير العربية .

# قائمة المصادر والمراجع

## أولاً - الوثائق :

### أ - وثائق من وزارة الأوقاف والمحكمة الشرعية في مكة المكرمة :


- دفتري مسقفات السلطان سليمان والسلطان قايتباي الوثائق والصفحات رقم ٤٢/٩٢ ، ٤٥/٩١ ، ٤٦/٨٤ ، ٢٠٢/٢٠٣ ، ١٣٦/٦ ، ١/٢ ، ٣٥/٦٢ ، ٧/٨٧ ، ٤٩/٢٥ ، ٦٣/١١٣ ، ١٣/٢٦.
- صكوك المحكمة الشرعية بمكة المكرمة عن أوقاف الشريف أبي نمي الأرقام والصفحات ٥٨٩ س ، ١٠٢/٧٣ ، ٢/٦٥ .


### ب - الوثائق المصرية :


١ - وثائق دار الوثائق القومية في القاهرة :

- وثيقة حجة وقف داود باشا رقم ٣٥٩ محفظة رقم ٥٤ .

٢ - وثيقة وقف الخاصكية ، مخطوط رقم ٣٢٨٠، تاريخ ، دار الكتب المصرية.

٣ - وثائق بأرشيف الشهر العقاري :

- سجل محكمة الصالحية النجمية رقم ٤٥٦ وثيقة رقم ٣٧٨ سنة ٩٧٩هـ ورقم ١١٤٥ ش ٩٧٩ وسجل ٤٥٧ وثيقة رقم ٤٦٠٧ سنة ٩٨٠هـ .
- سجل محكمة القسمة العسكرية رقم ٤ وثيقة ٩٤٧ سنة ٩٦٩ هـ .
- سجل محكمة الباب العالي رقم ٣٢ وثيقة ٤٦ سنة ٩٧٩ هـ وثيقة رقم ١٠١سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم١١١ سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم٣٠٠ سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم٤٩٤ سنة ٩٧٩هـ ، وسجل ٣٣ وثيقة رقم ٣١ سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم١١٠ سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم١٢٩ سنة ٩٧٩هـ ، وثيقة رقم٧٦٠ سنة ٩٧٩هـ ، وسجل ١٧ وثيقة رقم ١٩ سنة ٩٦٦هـ سجل ٣٥ سنة ٩٨١هـ، وثيقة رقم ٧٨ ، وثيقة رقم ١٤٤٤ سنة ٩٨٢هـ .

– سجل محكمة القسمة العربية رقم ٢ وثيقة رقم ٢ سنة ٩٧٣هـ ، وثيقة ٦٨٠ سنة ٩٧٤ هـ ، وثيقة ٧٠٩ سنة ٩٧٤هـ ، وسجل ٣ وثيقة رقم ٤٦٣ سنة ٩٧٧هـ .

**جـ- الوثائق التركيـة :**

١ – وثائق من الأرشيف العثماني باستنبول الوثائق من الدفاتر والأحكام والصفحات بأرقام ٥٤٠/١١٦٩/٦ ، ٣٥٤/٧ ، ٣٨/٧ ، ٩٦٥/٢٦٦٣/٧ ، ٧٣٠/٦٠/٢٧ ، ٣٣٧/٧١٠/٦ ، ١٠٠٣/٢٧٥٣/٧ .

٢ – وثائق تركية من مركز أبحاث الحج في مكة المكرمة من دفاتر المهمة والصفحات : ٣٤٨/٦٩ ، ٧١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٢٦٢ ، ١٤٦/٢ ، ٤٣٨/١٢ ، ٢٠٤/٢١ ، ١٤٩/٢٢ ، ١/٣٣ ، ١٣٦/٢٩ ، ٢١٤/١٩ ، ٢١٥/٢٠ ، ١١٨/٦ ، ١١٩/٦ ، ٣٥٤/٧ ، ٣٥٥/٦ ، ١٩٢/٧٠ ، ١٧٣/٣٣ ، ٨٠/٣٥ ، ٣١/٤٢ ، ٤١٢/١٤ ، ١٧٢/٥٣ ، ١٥٥/٣٥ ، ٢٤٦/٤٧ ، ٢٩٢/٣٥ ، ٥٤/٤٣ ، ٢٦٠/٥٨ ، ٣٥٨/٥ ، ١٤٣/١ ، ١٣٥/١٩ ، ١٣٩/٢٣ ، ١٤٠/٢٣ ، ٤/٢٥ ، ١٤٥/٤٠ ، ١٤١/٣٥ ، ١٤٨/٤٣ ، ١٤٧/٤٨ ، ١٤١/٢٠ .

## ثانيًا - المخطوطات :

١- ددة ، علي: الرسالة المقامية في فضل المقام والبيت الحرام رقم ٩٠٠/٢٢٠، مكتبة عارف حكمت ، المدينة المنورة ، تاريخ .

٢- دهلوي ، عبد الستار : نثر المأثور فيمن أدركت من الأكابر ، تراجم ، الرقم العام ٨١٠ ، مكتبة الحرم المكي مكة المكرمة .

٣- الجزيري ، عبد القادر : عمدة الصفوة في حل القهوة ، نسخة المكتبة الوطنية ، رقم ٤٥٩٠ ، باريس .

٤- ابن حجر ، أحمد : المناهل العذبة في إصلاح ما وهى من الكعبة ، مكتبة مكة المكرمة ، مكة المكرمة رقم ٦٥ فتاوى .

٥- ———— : أسنى المطالب في صلة الأرحام والأقارب ، دار الكتب القومية ، القاهرة رقم ٢٣٤٩ ، تصوف وأخلاق .

٦- الحضراوي ، أحمد : عقود الدرر لمن يروم النظر في العلوم المهمات المستظرفات ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣٨١ ج .

٧- ———— : تاج تواريخ البشر وفتحة جميع السير ، مكتبة مكة المكرمة ، مكة المكرمة ، رقم ١٢٢ تاريخ .

٨- ———— : نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٩٧٠ تاريخ تيمور .

٩- الشرنبلالي ، حسن : إسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله المحرم ، حلب، المكتبة الأحمدية ، رقم ٥٩٧ ، نسخة مصورة في مكتبة جامعة الملك عبد العزيز .

١٠- الشلي، محمد : السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، مكتبة سشتربتي ، إيرلندة ، رقم ٤٢٣٠ .

١١- ———— : عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر ، مكتبة عارف حكمت ، المدينة المنورة ، رقم ٤٥٣ .

١٢- الشماع ، عمر : عيون الأخبار فيما وضع لجامعه في الإقامة والأسفار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٦٣٩ .

١٣- الصباغ ، محمد : تحصيل المراد في أخبار البيت والحرم ، تاريخ ، رقم ١١ دهلوي ، مكة المكرمة ، مكتبة الحرم المكي الشريف .

١٤- الطاهر ، عبد الهادي بن محمد : الدر الفاخر في خبر الأوائل والأواخر ، مكتبة الحرم المكي ، مكة المكرمة رقم ٣١ تاريخ دهلوي .

١٥- الطبري ، عبد القادر : نشأة السلافة بمنشآت الخلافة ، المكتبة المركزية ، جامعة أم القرى ، رقم ١٨١٨ .

١٦- ــــــــــ : كناشة عبد القادر الطبري ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة رقم ١٨٩٢ .

١٧- ــــــــــ : انباء البرية بالأنباء الطبرية ، مكتبة الحرم المكي ، مكة المكرمة رقم ١٦ تراجم ، دهلوي .

١٨- عبد الباقي ، محمد : الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، معهد إحياء المخطوطات العربية ، القاهرة رقم ٣٠٢٤ .

١٩- العجيمي ، حسن : خبايا الزوايا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٤١٠ تاريخ .

٢٠- ابن علان ، محمد بن علي : إنباء الجليل المؤيد مراد ببناء بيت الوهاب الجواد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، رقم ١٨٤٢ تاريخ طلعت .

٢١- ابن العليف ، أحمد : الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم ، مكتبة فاتح استنبول ، رقم ٤٣٥٧ .

٢٢- غازي ، عبدالله : إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام ، تاريخ ، مكة المكرمة ، مكتبة الحرم المكي ، رقم ٢٩٣٣ .

٢٣- ــــــــــ : نظم الدرر في تراجم علماء مكة من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، تراجم ، جدة ، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز ، رقم ٩٥١٢ .

٢٤- ــــــــــ : نشر الغرر في التذييل على نظم الدرر ، جدة ، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز ، رقم ٢٩١٢ .

٢٥- ابن فهد ، عبد العزيز : بلوغ القرى في الذيل على اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، مكة المكرمة ، مكتبة الحرم المكي ، رقم ١ تاريخ دهلوي .

٢٦- ابن فهد ، عمر : الدر المكين في الذيل على العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، رقم ٣٠٣٢ ، القاهرة ، معهد إحياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية .

٢٧- ابن فهد ، محمد : الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان خان ، جامعة استنبول ، رقم ٣٦٠ .

٢٨- ________ : منهل الظرافة بذيل مورد اللطافة ومن ولي السلطنة والخلافة ، مكة المكرمة ، مكتبة مكة ، رقم ٤(٢) تاريخ .

٢٩- ________ : القول المؤتلف في نسبة الخمس البيوت إلى الشرف ، مكتبة الحرم المكي ، مكة المكرمة رقم ١٨٠ ، تراجم دهلوي .

٣٠- القاري ، علي : غاية التحقيق ونهاية التدقيق في مسائل ابتلى بها أهل الحرمين الشريفين ، مكتبة برنستن أمريكا ، رقم ٣٠١٨ (٥) مجاميع ، الأوراق ٣٨ - ٥٠ .

٣١- النهرواني ، محمد : ابتهاج الانسان والزمان ، في الإحسان الواصل للحرمين من اليمن ، تاريخ م ٧٩ دار الكتب المصرية .

٣٢- النهروالي : التذكرة تفضل من الشيخ حمد الجاسر رحمه الله .

## ثالثاً - المصادر المطبوعة :

١- الأزرقي ، أبو الوليد : أخبار مكة ، تحقيق رشدي ملحس ، بيروت ، دار الأندلس ، ١٣٨٥هـ .

٢- الإسحاقي ، محمد عبد المعطي : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ط ١ ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية المصرية ، ١٣١١هـ .

٣- ________ : أخبار الدول وآثار الأول ، القاهرة ، ١٣١٥هـ .

٤- الأسدي ، محمد : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧م .

٥- ابن إياس ، محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ١ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٠م .

٦- البكري ، محمد : روضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة ، تحقيق عبدالرزاق ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤١٧هـ.

٧- ———— : « كشف الكربة في زفع الطلبة ، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ، ١٩٦٧م .

٨- البكري ، محمد بن أبي السرور : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، ط١، تحقيق ليلى الصباغ ، دمشق ، دار البشائر ، ١٤١٥هـ .

٩- ————: نصرة أهل الإيمان بدولة بني عثمان ، تحقيق يوسف الثقفي ، ط ١ ، الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٥هـ.

١٠- ابن تغري بردى ، جمال الدين : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٨هـ .

١١- الجزيري ، عبد القادر : الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، إعداد حمد الجاسر ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٤٠٣هـ .

١٢- جلبي ، أوليا : الرحلة الحجازية ، ترجمة الصفصافي المرسي ، القاهرة ، دار الآفاق العربية ، ١٩٩٩م .

١٣- ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي : أبناء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ .

١٤- ابن حجر الهيتمي ، أحمد : الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، ط٣ ، بيروت ، ١٤١٤ هـ .

١٥- ـــــــــ : الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، ط٣، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .

١٦- ـــــــــ : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، تحقيق محمد عطا، ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية . ١٤٠٦هـ .

١٧- ـــــــــ : الفتاوى الكبرى الفقهية ، القاهرة ، عبد الحميد حنفي .

١٨- الحسني ، عبد الحي : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، ط ٢ ، حيدر أباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤١هـ .

١٩- ابن الحمصي ، أحمد بن محمد : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ، ط ١ ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٤١٩هـ .

٢٠- الحموي ، أحمد : فضائل سلاطين بني عثمان ، تحقيق محسن سليم ، ط القاهرة ، دار الكتاب ، ١٤١٣هـ .

٢١- الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٠م .

٢٢- الخزرجي ، علي : العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٣٢٩هـ .

٢٣- الخفاجي ، محمود : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، القاهرة ، مطبعة علي جودة، ١٢٧٣هـ .

٢٤- ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢هـ.

٢٥- خليفة ، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥١م .

٢٦- أبو الخير ، عبدالله مرداد : المختصر في كتاب نشر النور والزهر ، اختصار محمد سعيد العمودي وأحمد علي ، الطائف ، نادي الطائف الأدبي ، ١٣٨٦هـ .

٢٧- الدمرداش ، أحمد : الدرة المصانة في أخبار الكنانة ، تحقيق دانيال كربسيليوس وعبد الوهاب بكر ، القاهرة ، دار الزهراء للنشر، ١٤١٢هـ .

٢٨- ابن الديبع ، عبدالرحمن : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد علي الأكوع ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٩٧هـ .

٢٩- ________ : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد ، تحقيق محمد صالحية ، ط١ ، الكويت ، ١٤٠٣هـ .

٣٠- رحلة طافور : ترجمة وتقديم حسن حبشي ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

٣١- الرشيدي ، أحمد : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحج ، تحقيق ليلى عبد اللطيف ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٠م.

٣٢- الزبيدي ، : التجريد الصريح مختصر صحيح البخاري ، ط ١ ، الرياض، دار ابن حزمية ، ١٤١٣هـ .

٣٣- الزرندي ، علي : المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين ، تحقيق محمد الخطراوي ، المدينة المنورة ، دار التراث ، ١٤٠٧هـ .

٣٤- السخاوي ، عبدالرحمن : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٦٣هـ .

٣٥- السمهودي ، علي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد عبد المجيد ، ط٤ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ .

٣٦- ________ : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ، ١٣٩٢هـ .

٣٧- السنجاري ، علي : منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ، ج٣، تحقيق ماجدة زكريا ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ .

٣٨- السيوطي ، عبد الرحمن : تاريخ الخلفاء ، تحقيق أحمد زهوة وآخر ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٩هـ .

٣٩- طاشكبرى زادة : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

٤٠- ———— : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل بكري وآخر ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٨م.

٤١- الطبري ، عبد القادر : عيون المسائل في أعيان الرسائل ، ترتيب محمد الحسامي ، القاهرة ، مطبعة السلام ، ١٣١٦هـ .

٤٢- الطبري ، علي : الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء ، ط١ ، تحقيق أشرف جمال ، مكة المكرمة ، المكتبة التجارية ، ١٤١٦هـ .

٤٣- ابن طولون ، محمد : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٣٨١هـ .

٤٤- ———— : نقد الطالب لزغل المناصب ، ط١ ، تحقيق محمد دهمان وآخر ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٢هـ .

٤٥- ابن ظهيرة ، محمد : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، ط ٢ ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٧هـ .

٤٦- ابن عبد البر ، يوسف : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ( د . ت ) .

٤٧- عبد الغني ، أحمد : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشوات ، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن ، ط ٢ ، القاهرة، دار الكاب الجامعي ، ١٩٩٥م .

٤٨- العصامي ، عبد الملك : سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ( د . ت ) .

٤٩- ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق ، لبنان ، ( د . ت ) .

٥٠- العيدروسي ، عبد القادر : النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ط ١، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ .

٥١- العياشي ، أبي سالم : الرحلة العياشية ، ماء الموائد ، فهرسة محمد حجي، الرباط ، طبعة بالأوفسيت ، ١٣٩٧هـ .

٥٢- الغزي ، نجم الدين : الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل جبور ، لبنان ، محمد أمين زجم ، ( د . ت ) .

٥٣- الغزي ، محمد : لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، تحقيق محمود الشيخ ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨١م .

٥٤- الفاسي ، أحمد : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق عبد السلام التدمري ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ .

٥٥- ———— : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد الفقي وآخر ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ .

٥٦- الفاكهي ، إسحاق : أخبار مكة ، تحقيق عبدالملك بن دهيش ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤٠٧هـ .

٥٧- ابن فرج ، عبد القادر : السلام والعدة في تاريخ بندر جدة ، تحقيق محمد عيسى صالحية ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٣م .

٥٨- ابن فيروز ، أحمد : مطالع النيران ، تحقيق محمد صالحية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٤م .

٥٩- ابن فهد ، عمر : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق عبدالكريم الباز ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٨هـ .

٦٠- ابن فهد ، عبد العزيز : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهيم شلتوت، ط ١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ.

٦١- ابن فهد ، محمد : تحفة اللطائف في فضل بن عباس ووج والطائف ، تحقيق محمد سعيد كمال وآخر ، الطائف ، نادي الطائف الأدبي ، ( د . ت ) .

٦٢- ———— : نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، ط ١ ، مكة المكرمة ، مؤسسة الفرقان ، ١٤٢٠هـ .

٦٣- القطبي ، عبد الكريم : إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، تعليق أحمد جمال وعبد العزيز الرفاعي ، ط ١ ، الرياض ، دار الرفاعي ، ١٤٠٣هـ .

٦٤- القلقشندي ، أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩١٣م .

٦٥- ———— : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة، ١٩٦٣م .

٦٦- الكافيجي ، محمد بن سليمان : التيسير والإعتبار في قواعد علم التفسير ، تحقيق ناصر المطرودي ، الرياض ، دار القلم ، ١٤١٠هـ .

٦٧- ابن مالك ، محمد : ألفية ابن مالك في النحو والصرف ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة ، ١٤٠٨هـ .

٦٨- الماوردي ، أبو الحسن علي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ .

٦٩- المحبي ، محمد أمين : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط ١ ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي . ١٣٨٦هـ .

٧٠- ابن معصوم ، علي بن أحمد : سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، ط١ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٣٢٤هـ .

٧١- المقريزي ، أحمد : السلوك لمعرفة الدول والملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخر ، دار الكتب المصرية وآخر ، القاهرة من ١٩٥٦م إلى ١٩٧٢م .

٧٢- الملواني ، يوسف : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٩٨م .

٧٣- الموسوي ، محمد : رحلة الشتاء والصيف ، تحقيق محمد الطنطاوي ، ط٢، بيروت ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٨٥هـ .

٧٤- النهروالي ، محمد : الإعلام بأعلام بلد اللّه الحرام ، تحقيق هشام عطا ، ط١، مكة المكرمة ، المكتبة التجارية ، ١٤١٦هـ .

٧٥- ———— : البرق اليماني في الفتح العثماني، إشراف حمد الجاسر، الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٨٧هـ .

٧٦- النعيمي ، عبد القادر : الدارس في تاريخ المدارس ، تعليق جعفر الحسيني، دمشق ، المجمع العلمي ، ١٩٥١م .

٧٧- ابن هشام ، عبد الملك : السيرة النبوية ، تعليق طه سعد ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة . ( د . ت ).

٧٨- يحي ، بن حسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٨هـ .

٧٩- اليعقوبي ، أحمد : تاريخ اليعقوبي، ط ٦، بيروت ، دار الصادر ، ١٤١٥هـ.

**رابعًا - مصادر باللغة العثمانية :**

١- بجوي ، إبراهيم : بجوي تاريخي ، استنبول ، ١٢٨٣ هـ .

٢- صولاق زاده ، صولاق زاده تاريخي ، نشر وزارة المعارف ، استنبول ، ١٢٩٧هـ .

٣- فريدون بك : مجموعة منشآت سلاطين ( د . ن ) ، ١٢٧٤هـ .

٤- محمد الأمين المكي : خلفاء عظام عثمانية حظرتك ومين شريفيندكي آثار مبرورة ومشكورة ، د/ سعادت ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

**خامسًا - الرسائل العلمية :**

١- بابكور ، عمر سالم : حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ .

٢- البركاتي ، ناصر : تحقيق كتاب اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، تأليف محمد بن علي الطبري ، رسالة دكتوراه ، جامعة منشستر ، سنة ١٤٠٣هـ .

٣- البكري ، محمد طه : الحجاز ( ٨٥٩ - ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ - ١٥١٧م ) ، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة سنة١٤١٠هـ.

٤- التويم ، يوسف: تجارة مصر في البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة ٧٨٤- ٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤١٣هـ .

٥- جلال ، آمنة : طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ .

٦- الحربي ، محمد : نظم الحكم والإدارة في مكة المكرمة في العهد العثماني الأول ٩٢٣ - ١٢١٧هـ / ١٥١٧ - ١٨٠٢م، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤٠٧هـ .

٧- الحسن ، سعاد : النشاط التجاري في مكة في العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ .

٨- خفاجي ، أحمد : موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك والجراكسة من ٨٤٢ إلى ٩٢٣ هـ ، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، ١٩٦٨م .

٩- الزهراني ، عائض : التاريخ السياسي والحضاري لمكة المكرمة من خلال كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٩هـ .

١٠- ———— : الحجاز في عهد الشريف حسين بن عجلان ، دراسة في الأحوال السياسية والاقتصادية ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤١٢هـ .

١١- سليمان ، عبد الحميد : الموانيء المصرية في العهد العثماني ، رسالة دكاوراه ، جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ .

١٢- الشافعي ، حسين : الرباط في مكة المكرمة ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٦هـ .

١٣- شاهين ، عزة : خدمات الحج في الحجاز في العصر العثماني ، رسالة ماجستير ، جامعة المنصورة ، المنصورة ، ١٤١٦هـ .

١٤- الشريف ، تؤدة : أهل الصفة، رسالة ماجستير من جامعة الملك عبد العزيز، جدة ، ١٤٠٧هـ .

١٥- الشهري ، عجلان : العلاقات التجارية بين الحجاز ومصر ١١٨٣ - ١٢١٦هـ / ١٧٦٩ - ١٨١١م ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤٠٦هـ .

١٦- صالحية ، محمد عيسى : تحقيق كتاب روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، تأليف عيسى بن لطف الله ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

١٧- صيرفي ، نوال : الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا في القرن العاشر الهجري ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ .

١٨- عامر ، ريمة ، وثائق وقف اسكندر باشا ، دراسة فقهية دبلوماسية ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠م .

١٩- عبد المجيد ، ليلى : النظم الإدارية والمالية لبلاد الشام في عصر دولة المماليك ٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٧هـ .

٢٠- ———— : النظم الإدارية والمالية في مكة المكرمة في العصر المملوكي ٦٦٧ - ٩٢٣هـ / ١٢٦٨ - ١٥١٧م، رسالة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤١٩هـ .

٢١- عمر ، سميرة : إمارة الحج في مصر العثمانية ، ٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م ، رسالة ماجستير ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٣م .

٢٢- غباشي ، عادل : المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني ، دراسة حضارية ، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى ، ١٤١٠ هـ .

٢٣- القثامي ، أريج : الأوضاع في الحجاز خلال الفترة من ٩٠٠ إلى ٩٢٣هـ ، دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ١٤٢٢ هـ .

٢٤- كشميري ، ابتسام : أحمد الحضراوي ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز بجده ، سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

٢٥- مؤذن ، عبد العزيز : كسوة الكعبة وطرزها الفنية منذ العصر العثماني ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠هـ.

٢٦- موسى ، جمال : درب الحج المصري في العصر العثماني ، دراسة تاريخية أثرية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الاسكندرية ، ١٤١٠هـ .

٢٧- النمري ، فاطمة : أشكال وأساليب عمارة المآذن في مساجد المشرق الإسلامية ، رسالة ماجستير في الآثار ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٧م .

٢٨- يونس ، مأمون : قافلة الحج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني ، رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ الحديث ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٤١٨هـ .

## سادسًا - المراجع العربية والمعربة :

١- أباظة ، فاروق : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، ط٢، القاهرة ، دار المعارف ، ( د . ت ) .

٢- إبراهيم ، ناصر : الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر ، ط١ ، القاهرة ، دار الآفاق العربية ، ١٤١٨هـ .

٣- أحمد ، محمد عبد العال : بنو رسول وبنو ظاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ، ١٩٨٠م .

٤- أحمد ، محمد عبد القادر : المسلمون في أفغانستان ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٤٠٤هـ .

٥- ــــــــ : المسلمون في غينيا ، ط ١ ، القاهرة ، ( د. ت )، ١٤٠٦هـ .

٦- أرنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، ط٣، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٠م .

٧- الأعظمي ، محمد : دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، الرياض، مطابع جامعة الرياض ، ١٣٩٦هـ .

٨- أقطاش ، نجاتي وآخر : الأرشيف العثماني ، ترجمة صالح سعداوي ، عمان ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون ، ١٤٠٦هـ .

٩- ــــــــ : الفهرس الوصفي لوثائق الدولة العثمانية عن الحرمين الشريفين ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، ١٤١٧هـ .

١٠- الأنصاري ، عبد القدوس : تاريخ مدينة جدة ، ط١ ، جدة ، مطابع الروضة، ١٤٠١هـ .

١١- ــــــــ : تاريخ العين العزيزية بجدة، جدة، العين العزيزية،(د. ت).

١٢- الترّ ، عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود عامر ، ط١ ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٩هـ .

١٣- انطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، ط٤ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤م .

١٤- أنيس ، محمد : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤ ) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٩٣م .

١٥- أوزتونا ، يلماز : تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، استنبول ، مؤسسة فيصل ، ١٩٨٨م .

١٦- أونال ، سعد الدين وآخرين : دراسة عن الخدمات الصحية المقدمة للحجاج والأهالي بمكة المكرمة والمدينة المنورة وتطورها خلال المراحل التاريخية من القرن العاشر الهجري حتى بداية العهد

السعودي ، مصدرها : مركز أبحاث الحج التابعة لجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٣هـ .

١٧- باسلامة ، حسين : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ط٣ ، تهامة ، جدة ، ١٤٠٠هـ .

١٨- ———— : تاريخ الكعبة عمارتها وكسوتها وسدانتها ، تعليق يوسف الثقفي، الرياض ، أمانة الاحتفال بمائة عام للمملكة ١٤١٩هـ.

١٩- الباشا ، حسن : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٥٨م .

٢٠- ———— : أثر الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .

٢١- البتنوني ، محمد لبيب : الرحلة الحجازية ، ط ٢ ، الطائف ، مكتبة المعارف، ( د . ت ) .

٢٢- البدراني ، فائز : فصول من تاريخ قبيلة حرب ، ط ١ ، الرياض ، دار البدراني ، ١٤١٧هـ .

٢٣- البركاتي ، شرف : الرحلة اليمانية ، ط ٢ ، دمشق ، المكتب الإسلامي ، (د.ت).

٢٤- بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، ط٤ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥م .

٢٥- بكر ، سيد عبد المجيد : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ط ، جدة ، تهامة ، ١٤٠١هـ .

٢٦- البلادي ، عاتق : بين مكة واليمن رحلات ومشاهدات ، ط١، مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٤٠٤هـ .

٢٧- ———— : معجم قبائل الحجاز ، ط٢ ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٤٠٣هـ .

٢٨- ـــــــــ : معجم معالم الحجاز ، ط١ ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٣٩٨هـ .

٢٩- ـــــــــ : فضائل مكة وحرمة البيت الحرام ، ط١ ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٤١٠هـ .

٣٠- ـــــــــ : نسب حرب ، ط٣ ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٤٠٤هـ .

٣١- بناني ، أحمد : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٣هـ .

٣٢- بيومي ، زكريا : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، جدة ، عالم المعرفة ، ١٤١١هـ .

٣٣- البهكلي ، عبدالرحمن : نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود ، تحقيق محمد العقيلي ، الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢هـ .

٣٤- الثقفي ، يوسف : موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ط١ ، الطائف ، دار الحارثي ، ١٤١٧هـ .

٣٥- ـــــــــ : دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب ، ط١ ، مكتبة الملك فهد ، سنة ١٤٠٩هـ .

٣٦- جارشلي ، إسماعيل : أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ترجمة : خليل علي مراد ، البصرة ، مركز دراسات الخليج ، ١٤٠٦هـ.

٣٧- الجاسر ، حمد : رحلات الحج ، ملخص رحلتي عبد السلام الدرعي ، الرياض ، دار الرفاعي للنشر ، ١٤٠٢هـ .

٣٨- ـــــــــ : معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، ط١ ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٤٠٠هـ .

٣٩- الجعلي ، محمد : كتاب الطبقات ، ط١ ، القاهرة ، المطبعة المحمودية ، ١٣٤٨هـ .

٤٠- الحجبي ، محمد سالم : إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام ، تحقيق إسماعيل حافظ ، مكة المكرمة ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، ١٤٠٥هـ .

٤١- الحداد ، علوي : المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى ، تحقيق : محمد شهاب ، ط ١ ، جدة ، عالم المعرفة ، ١٤٠٥هـ .

٤٢- حراز ، السيد رجب : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ١٨٤٠ - ١٩٠٩م ، القاهرة ، مطبوعات معهد البحوث والدراسات ، ١٩٧٠م .

٤٣- حرب ، محمد : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط١ ، بيروت، دار القلم، ١٤٠٩هـ .

٤٤- خلمي، إبراهيم : المحمل ، القاهرة ، مكتبة التراث الإسلامي ، ١٩٩٣م .

٤٥- الحميد ، عبد اللطيف : موقف الدولة العثمانية تجاه المسلمين في الأندلس ٨٩١-١٠١٨هـ / ١٤٨٦-١٦٠٩م ، ط١ ، الرياض ، شركة العبيكان ، ١٤١٤هـ .

٤٦- الخربوطلي ، علي حسن : الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥م .

٤٧- ــــــــ : العرب والحضارة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥م .

٤٨- الدحلان ، أحمد : خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٥هـ .

٤٩- درارکة ، صالح : طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية ، ط١ ، عمان، ١٩٩٧م .

٥٠- الدقن ، السيد محمد : كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، ط١ ، القاهرة، مطبعة الجبلاوي ، ١٤٠٦هـ .

٥١- بن دهيش ، عبد اللطيف : الكتاتيب في الحرمين وما حولها ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة ، ١٤٠٦هـ .

٥٢- ـــــــــ : قيام الدولة العثمانية ، ط١ ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤٠٩هـ .

٥٣- دياب ، أحمد : لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث ، الرياض ، دار المريخ، ١٩٨١م .

٥٤- رجب ، عمر الفاروق : الحجاز المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية، دراسة ايكولوجية ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٩هـ.

٥٥- الردادي ، عائض : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ، ط٢ ، مطابع الشريف ، الرياض ، ١٤١٣هـ .

٥٦- الرشيدي ، سالم : محمد الفاتح ، ط٢ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م .

٥٧- رفعت ، إبراهيم : مرآة الحرمين ، ( د . ن ) ، ( د . ت ) .

٥٨- الرمال ، غسان : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، جدة ، دار العلم ، ١٤٠٦هـ .

٥٩- رمضان ، مصطفى : العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، مطبعة الجبلاوي ، ١٤٠٥هـ .

٦٠- ـــــــــ : وثائق مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني ، ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، ج٢ ، الرياض ، جامعة الرياض ، ١٣٩٧هـ .

٦١- ريمون ، أندريه : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفكر للدراسات ، ١٩٩١م.

٦٢- رضوان ، نبيل : القوة العثمانية بين البر والبحر ، مكة المكرمة ، دار الثقافة، ١٤١٤هـ .

٦٣- زكي ، عبدالرحمن : القاهرة تاريخها وآثارها ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م .

٦٤- ـــــــــــ : الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، القاهرة ، مطبعة يوسف ، ١٩٦٥م .

٦٥- زكي ، نعيم : طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٣هـ.

٦٦- زناتي ، محمود : الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٩م .

٦٧- الزواوي ، عبدالله : بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة زبيدة أم المؤمنين ، ط١ ، مكة المكرمة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٣٠هـ .

٦٨- زين العابدين ، أبو القاسم : الكعبة والحج في العصور المختلفة ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٦هـ .

٦٩- الساداتي ، أحمد : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية والباكستانية وحضارتهم ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٣٣٧هـ .

٧٠- سالم ، سيد : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، ط ٤ ، القاهرة، ( د . ن ) ، ١٩٩٢م .

٧١- ـــــــــــ : المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧١م .

٧٢- السباعي ، أحمد : تاريخ مكة ، ط٦ ، مكة المكرمة ، نادي مكة الأدبي ، ١٤٠٤هـ .

٧٣- سلنامة ولاية الحجاز ، ط ٢ ، مكة المكرمة ، المطبعة الأميرية ، ١٣٠٣هـ .

٧٤- سليم ، محمد: الأشرف قانصوه الغوري، القاهرة ، مكتبة مصر، (د.ت).

٧٥- السليمان ، علي : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ، دار حراء ، ١٣٩٣هـ .

٧٦- السيد ، محمد : مصر في العصر العثماني في القرن ١٦ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٤١٨هـ .

٧٧- شاكر ، محمود : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، ط ٣ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ .

٧٨- ششة ، نوال : جدة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٦هـ .

٧٩- الشافعي ، لمياء : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية، القاهرة ، مكتبة ومطبعة الغد ، ١٤١٨هـ .

٨٠- الشريف ، أحمد : دور الحجاز في السياسة العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ط ٢ ، القاهرة ، دار الفكر العربي ،١٩٧٧م.

٨١- شلبي ، أبو اليزيد : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ط ٥، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٨٦م .

٨٢- الشناوي ، عبد العزيز : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٨٠م .

٨٣- صابان ، سهيل : الجزيرة العربية في الكتب العثمانية والتركية ، الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٧هـ .

٨٤- صادق ، محمد : دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ، مصر ، المطبعة الأميرية ، ١٣١٣هـ .

٨٥- صالحية ، محمد : حملة سنان باشا إلى اليمن ، حوليات كلية الآداب ، الحولية الثامنة ، الرسالة الثانية والأربعون ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٤٠٧هـ .

٨٦- صبري ، أيوب : مرآة جزيرة العرب ، ترجمة أحمد فؤاد و الصفاصفي المرسي ، الرياض ، دار الرياض للنشر ، ١٤٠٣هـ .

٨٧- الصلابي ، علي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، الأردن، دار البيارق ، ١٤٢٠هـ .

٨٨- الصواف ، فائق وآخر : أهمية ثغر جدة ، بحث مقدم لسمنار البحر الأحمر والسياسة الدولية المعاصرة سنة ١٩٧٩م، القاهرة ، ١٣٩٨هـ.

٨٩- ــــــــــ : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٢ - ١٣٣٤هـ ، القاهرة ، مطابع سجل العرب ، ١٣٩٨هـ .

٩٠- الطحان ، محمود : تيسير مصطلح الحديث ، ط٨ ، الرياض ، مكتبة المعارف ، ١٤٠٧هـ .

٩١- الطرازي ، عبدالله : التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ، جدة ، عالم المعرفة ، ١٤٠٣هـ .

٩٢- طلاس ، مصطفى : الثورة العربية الكبرى ، ط ٣، بيروت ، دار الشورى، (د.ت).

٩٣- الطناحي ، محمد : الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات ولتعريفات العلوم ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٦هـ .

٩٤- الطوالع السنية في نظام التدريس بمكة المحمية ، مكة المكرمة ، المطبعة الماجدية ، ١٣٣٢هـ .

٩٥- ظهور إلهي ، فضل إلهي : الحسبة تعريفها وشرعيتها ، ط٧ ، جدة ، ١٤٢٠هـ .

٩٦- عباس ، حامد : قصة التوسعة الكبرى ، ط١ ، جدة ، مجموعة بن لادن ، ١٤١٦هـ .

٩٧- عبد التواب ، عبد الرحمن : قايتباي المحمودي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

٩٨- عبد الجبار ، عمر : سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري ، ط ٣ ، جدة ، الكتاب العربي السعودي ، ١٤٠٣هـ .

٩٩- عبد الرحيم ، عبد الرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ط٤ ، القاهرة، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٦م .

١٠٠- عبد الغني ، عارف : تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨ هـ - ١٣٤٤هـ ، ط١ ، دمشق ، دار البشائر ، ١٤١٣هـ .

١٠١- عبد اللطيف ، ليلى : الإرادة في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٨م.

١٠٢- ———— : دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٩م .

١٠٣- العبودي ، ناصر : شهر في غرب أفريقيا ، ط١ ، الرياض ، المطابع الأهلية، ١٤٠٣هـ .

١٠٤- عتر ، نور الدين : منهج النقد في علم الحديث ، ط٣ ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .

١٠٥- عراقي ، فيصل : الطوافة ، والمطوفون ، ط١ ، تصريح وزارة الإعلام ، ١٤١٢هـ .

١٠٦- عراقي ، فيصل : موسوعة مكة المكرمة ، تصريح نسخة خطية من المؤلف رحمه الله بتصريح من وزارة الإعلام ، سنة ١٤١٢هـ .

١٠٧- عز الدين ، محمد كمال : الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة ، ط ١ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٤١٠هـ .

١٠٨- العسيري ، أحمد : موجز التاريخ الإسلامي ، ط٢ ، الدمام ، مطابع الابتكار ، ١٤١٧هـ .

١٠٩- العقيلي ، محمد : تاريخ المخلاف السليماني ، ط٢ ، الرياض ، دار اليمامة، ١٤٠٢هـ .

١١٠- عوض ، الأمين : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، ط١ ، جدة ، دار البيان العربي ، ١٣٩٦هـ .

١١١- الغنيمي ، عبد الفتاح : حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٨٥م .

١١٢- دي غوري ، جيرالد : حكام مكة ، ترجمة محمد شهاب ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٤٢٠هـ .

١١٣- فريد ، محمد : الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي ، ط٢ ، بيروت، دار النفائس ، ١٤٠٣هـ .

١١٤- قاسم ، جمال زكريا : الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ندوة البحر الأحمر ، ١٩٨٠م .

١١٥- القاسمي ، محمد : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، بيروت، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ .

١١٦- القحطاني ، راشد : أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، الرياض ، مطبوعات مكتبة الملك فهد ، ١٤١٤هـ .

١١٧- قداح ، نعيم : أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، ط٢ ، الجزائر ، الشركة الوطنية ، ١٩٧٤م .

١١٨- الكتاني ، محمد بن عبد الحي : فهرس الفهارس والأثبات ، باعتناء إحسان عباس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٦هـ .

١١٩- كراتشكوفسكي ، أغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح هاشم ، ط٢، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ.

١٢٠- كردي ، عبيدالله : الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخا، جدة، دار الأصدقاء ، ١٤١٩هـ .

١٢١- الكردي ، محمد طاهر : التاريخ القويم بمكة وبيت الله الكريم ، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ .

١٢٢- ــــــــــ : مقام إبراهيم عليه السلام ، القاهرة ، مطبعة مصطفى عيسى البابي الحلبي ، ١٣٦٧هـ .

١٢٣- كوشك ، يحي : زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، ط١ ، جدة ، دار العلم للطباعة ، ١٤٠٣هـ .

١٢٤- لامب ، هارولد : سليمان القانوني ، ترجمة : شكري نديم ، نيويورك ، مؤسسة فرانكلين ، ١٩٦١م .

١٢٥- إشراف مانتران ، روبير : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : بشير السباعي، ط١، القاهرة ، دار الفكر للدراسات ، ١٩٩٢م .

١٢٦- الماوي ، فؤاد : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز ١٥١٧-١٧٩٨م ، الكويت ، ١٩٨٠م .

١٢٧- محمود ، حسن أحمد : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ط٣، القاهرة، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦م .

١٢٨- المحيميد ، ناصر : دراسة صكوك الأوقاف الخيرية بمكة المكرمة ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف ، ١٤١٧هـ .

١٢٩- معروف ، ناجي : أصالة الحضارة العربية ، ط٣ ، بيروت ، دار الثقافة، ١٣٩٥هـ .

١٣٠- ــــــــــ : عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الأعجمية في خراسان، ط١ ، بغداد ، دار الحرية ، ١٣٩٦هـ .

١٣١- ــــــــــ : مدارس مكة ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٣٨٦هـ .

١٣٢- ماهر ، سعاد : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط٢ ، جدة ، دار المجمع العلمي ، ١٣٩٩هـ .

١٣٣- محي الدين ، محمد صالح : مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية ٩١٠ - ١٢٣٦هـ / ١٥٠٥ - ١٨٢١م ، الخرطوم ، الدار السودانية ، ( د . ت ) .

١٣٤- المصري ، حسين : معجم الدولة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، (د.ت).

١٣٥- مغيث ، كمال : مصر في العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨م ، ط١ ، القاهرة ، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ، ١٩٩٧م .

١٣٦- مقادمي ، فيصل : التعليم الأهلي في مكة المكرمة ، مكة المكرمة ، نادي مكة الأدبي ، ١٤٠٤هـ .

١٣٧- منصور ، الشريف مساعد بن : جداول امراء مكة وحكامها ، ط١ ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٣٨٨هـ .

١٣٨- موافي ، عثمان : منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي ، ط٢، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٧٦م .

١٣٩- مورتيل ، ريتشارد : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، الرياض ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٥هـ .

١٤٠- مهنا ، محمد نصر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ط١ ، الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٩٠م .

١٤١- الندوي ، أبو الحسن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط١٤ ، الكويت ، دار القلم ، ١٤١٢هـ .

٢٤١- ———— : السيرة النبوية ، ط٥ ، جدة ، دار الشروق ، ١٩٨٣م .

١٤٣- الندوي ، مسعود : تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ، دار الغربية ، ١٣٦٦هـ .

١٤٤- نجيم ، رقية : البيئة الطبيعية لمكة المكرمة ، ط١ ، مكة المكرمة ، مؤسسة الفرقان ، ١٤٢٠هـ .

١٤٥- النقيرة ، محمد : انتشار الإسلام في شرق افريقية ومناهضة الغرب له ، الرياض ، دار المريخ ، ١٤٠٢هـ .

١٤٦- نوار ، عبد العزيز : تاريخ العرب المعاصر ، مصر والعراق ، بيروت ، دار النهضة ، ( د . ت ) .

١٤٧- ــــــــ : الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون ، الفرس ، مسلموا الهند، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣م .

١٤٨- نيكلسون ، رينولد : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة : أبو العلا عفيفي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٣٦٦هـ .

١٤٩- هريدي ، محمد : تاريخ شبه الجزيرة العربية من المصادر التركية العثمانية، القاهرة ، دار الزهراء للنشر ، سنة ١٤١١هـ .

١٥٠- ــــــــ : شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني ، القاهرة، دار الزهراء .

١٥١- الهيلة ، محمد الحبيب : التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر ، ط١ ، مكة المكرمة ، مؤسسة الفرقان، ١٩٩٤م .

١٥٢- ياغي ، إسماعيل : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط٢، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٤١٩هـ .

## سابعًا - الدوريـــــات :


١- بحوث ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية ، مكة المكرمة ، ١٨ - ١٩ شــوال ، سنة ١٤٢٠هـ ، وزارة الشئــون الإســلامـيــة والأوقاف : -

أ - الدريوش ، أحمد : الوقف ومشروعيته وأهميته الحضارية .

ب - السدلان ، صالح : أثر الوقف في العملية التعليمية .

جـ - المعيلي ، عبدالله : دور الوقف في العملية التعليمية .

د - المغربي ، أحمد : الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم .

٢- الجاسر ، حمد : « رحلة العياشي » مجلة العربي ، ج ٣ ، ٤ س ١٢ ، ١٩٧٧م ، ص ١٨٥ - ٢٨١ .

٣- جمعة ، إبراهيم : السنوات الهجرية وما يقابلها بالسنوات الميلادية ، مجلة الدارة ، ع ١ ، س ٢ ، ١٣٩٦هـ ، ص ٢٤٣ ، ٢٥٨ .

٤- جمعة ، محمد كمال : البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، مجلة الدارة ، هدية العدد الثاني ، السنة الخامسة، ١٤٠٠هـ .

٥- الحمداني ، طارق : تجارة البصرة الداخلية والعوامل المؤثرة فيها خلال القرن السادس عشر ، مجلة الدارة ، ع١، س ١٠ ، ص ١٥٩، ١٦٥ .

٦- الحميدان ، عبداللطيف : مكانة السلطان أجود بن زامل الجبري في جزيرة العرب ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ٧ ، ١٤٠٢هـ ، ص٥٥ ، ٧٧ .

٧- الدسوقي ، محمد كمال : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، مجلة كلية الشريعة ، جامعة الملك عبد العزيز ، ع ٢ ، س ٢ ، ١٣٩٦هـ .

٨- الرشيد ، ناصر : « بنو فهد مؤرخو مكة » ضمن بحوث ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، ج٢ ، الرياض ، جامعة الرياض ، ١٩٧٧م .

٩- الزيبق ، مسلم : « المراكب الشرعية في منطقة الخليج » مجلة المنهل ، عدد ٥٤٥ ، مجلد ٥٩ ، س ٦٣ ، شعبان ١٤١٨هـ ، ص ١٨-٢٧.

١٠- الزيلعي ، أحمد : « نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة » ، مجلة الدارة ، س ٤ ، ع ٤ ، ١٤٠٩هـ ، ص ٣٠ ، ٣٥ .

١١- زهران ، بدراوي : محمد ضياء الدين الريس يفضح زيف أعداء الخلافة الإسلامية ، مجلة المنهل ، ع ٥٤٥ ، مج ٥٩ ، س ٦٣ ، شعبان ١٤١٨هـ ، ص ٩٠ ، ٩٥ .

١٢- عبد الرحيم ، عبدالرحيم : النشاط التجاري في العصر العثماني ، مجلة الدارة ، ع ٢ ، س ٦ ، ص ١١٠ ، ١١٥ .

١٣- ابن فهد ، محمد : تحفة العباس بخبر رباط العباس ، تحقيق أبي عبيدة مشهور آل سلمان ، مجلة الحكمة ، ع ٦ ، س ١٤١٦هـ ، بريطانيا .

١٤- ———— : حسن القرى في أودية أم القرى ، مجلة العرب، ج ١، ٢، ص ١ ، ٥٣ ، ١٨٧ ، ٢١٣ ، ١٤٠٣هـ .

١٥- الكوباتز : الوثائق الخاصة بنشاط حركة البناء والترميم في مكة والمدينة، بحث أجرته جامعة نيويورك ، ترجمة محمد موسى أحمد من معهد أبحاث الحج في مكة المكرمة .

١٦- لال ، زكريا : « الإسلام والتعليم المستمر » ، مجلة الفيصل ، ع ١٦٥ ، س ١٦ ، ص ١١ ، ١٢ .

١٧- المجذوب ، محمد : رسالة المسجد في المجتمع الإسلامي » ، مجلة الحج، س ٢٤ ، ع ١١ ، ص ٦٩٠ ، ٦٩٢ .

١٨- هريدي ، صلاح : الحجازيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الاسكندرية في العصر العثماني ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م ، مجلة كلية الآداب ، مج ٣٤ ، سنة ١٩٨٦م ، جامعة الاسكندرية .

## ثامناً - المراجع غير العربية :

-Akgunduz, Ahmed Ozturk, Said : Bilinmeyen Osmanli, Kuralkan Holding, Istanbul, 1999

-Alvarez, F. : Narrative of the Portugese Embassy to Abyssinia during the years 1520-1527, Translated and Editted by Lord Stanly of Alderly London, Haklyo + Sociaty, 1881 .

-Asik Pasa-Zade Dervis Ahmed , Asik Pasa-Zade Tarihi, Istanbul, Matbaai Amire 11332 .

-Atalar, Munir : Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara, Diyan et Isleri Baskanligi, 1991 .

-Cooke, B. Kennedy : The Red Sea Coast in 1520, Voyages and Travels, Thomas Astley. MDCCXLV, p.151-158 .

-Coupland, R: East Africa and Its Unvaders, Oxford, Clarendon Press , 1938 .

-Oanismend, Ismail Hami, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, C. I-VI, Istanbul , 1975 .

-Faroqhi, Suraiya : Pilgrims and Sultans, The Hajj under the Ottomans, 1517 - 1683. London . New York, I.B. Tauris & Co. Ltd., 199o .

-Islam Ansiklopedisi, cilt 17, Turki yediyanet Wakfi Merke Istanbul, 1998 .

.-Hakluyt, R. :The Principal Navigation Voyges , Recovered of The .Hajj, Archive editions , The British Library, England, 1993, V3. .p. 481 , 495 .

-Kinross, Lord : The Ottoman Centuries, The Ris and Fall of the Turkish Empire , New York, Morrow Quill Paper Backs, 1977 .

-Lane Poole, S : A History Egyptian The Middle Ages, London, 1936 .

_ ---------- : Medieval India under Muhammedan Rule. D. 712, 1764, London, 1925 .

-Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi, Editor Ekmeleddin Ihsanoglu, Ircica, Istanbul , 1994 .

-Otmanboluk, Gunvar : Surre Istanbul dan Hicaz'a Hayir Kervani, Tarih ve Medeniyet, 38, Mayis, 1997, p. 20-23 .

-Pesco, Angelo : Jeddah, Portrait of an Arabian City, London, Falcon Press, 1977 .

-Peters, F.E. : The Hajj, The Moslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places, Princeton, Princeton University Press, 1993

_ --------- .: Mecca, A Literary History of The Muslim Land, Princeton, Princeton University Press, 1994 .

-Serjeant, R. B. : The Portuguese of The South Arabian Cost, Harmi Chronicles with Yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in the 17th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963 .

-Shaw S.J. : The Financial and Administrative Organization

and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton,

New Jersy, 1964

-Tansel, Selabattin : Yavuz Sultan Selim, Milli Egitim Basimevi,

Ankara, 1969 .

- ___________ : Osmanli Kaynk Larina Gore Fatih Sultan

Mehmed in Siyast ve Askeri Faaliyeti, Turk Tarih Kurumu,

Basimevi, Ankara, 1969 .

-The Times Concise Atlas of World History, ed. Geoffrey

Barraclough, New Jersey, Hammond, 1982 .

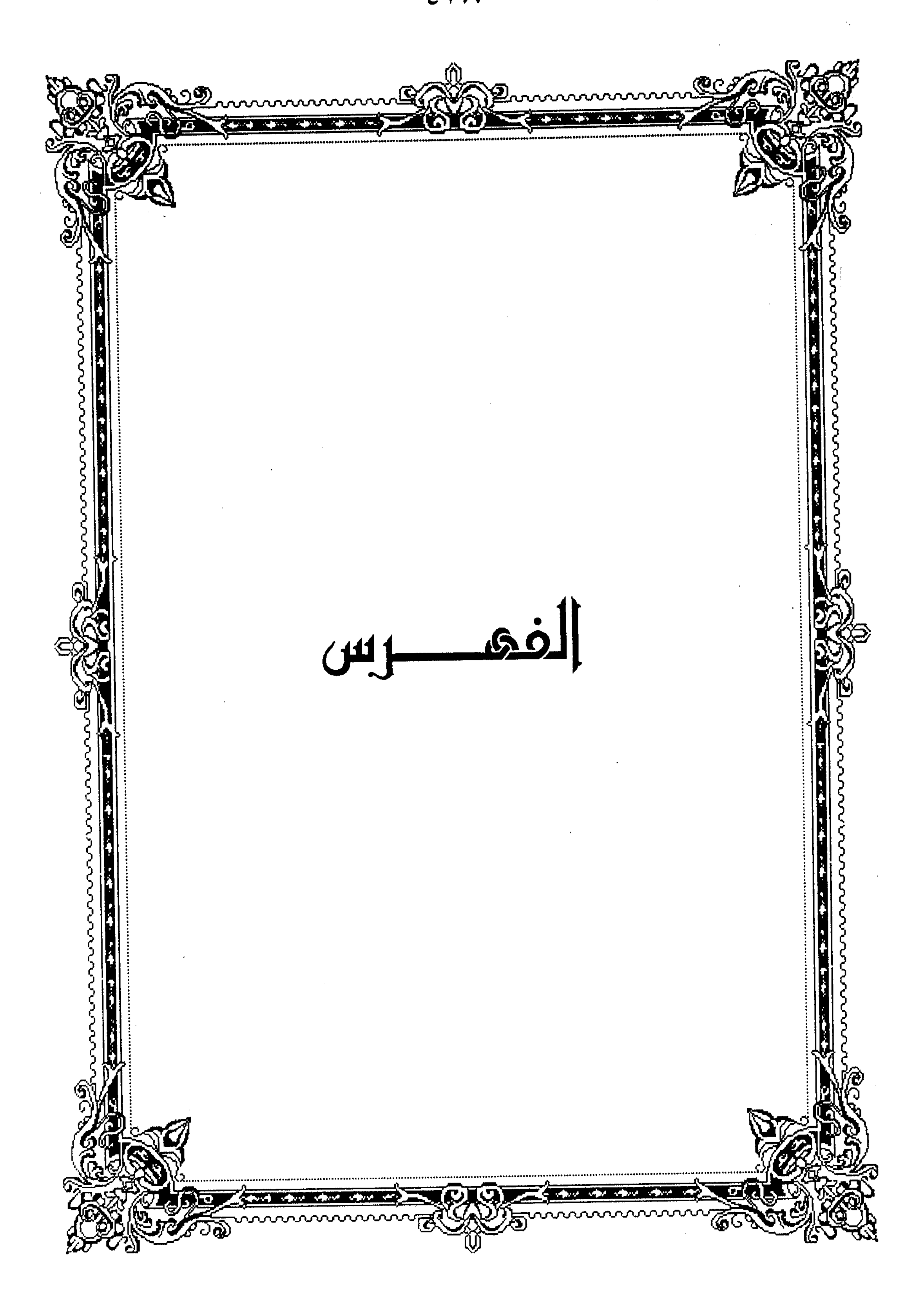
-Uzunucar Sili, Ismail Hakki : Osmanli Tarihi, Cilt Tarih Kurumu

Ankara, 1972 .

.-Vida, L : A Portuguese Pilgrim at Mecca in the sixteenth century ,

. Record of the Hajj, archive editions, The British Library,

.England, 1993, pp.465-479 .



# الفهرس